

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا
التي يحمل بكل من ينشد السعادة في
الدارين أن يجهد جهده في التحلي بها

[وهذا الكتاب مكسور على خمسة عشر بابا بينها]

[جميعا لحمة نسب وقرابة]

الباب الأول

في البر والتقوى

البر وألوانه

قال علماؤنا ما خلاصته : إِنَّ أَصْلَ مَعْنَى الْبِرِّ : السَّعَةُ ، ومنه البرُّ - بفتح
الباء - مقابل البحر ، ثم اشتُقَّ منه البرُّ بمعنى التوسع في فعل الخير ، وكُلُّ
فِعْلٍ مَرْضِيٍّ ... وهكذا أطاؤه على التوسع في الإحسان إلى الناس ، وهو
لُبَابُ الْبِرِّ ؛ وعلى صِلَةِ الرَّحِمِ ، وهي دُنُوَانُ الْبِرِّ ؛ وعلى التقوى ، وهي
جَمَاعُ الْبِرِّ ^(١) ، قال تعالى : وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى ، وقال كبيد :

• وَمَا الْبِرُّ إِلَّا مُضْمَرَاتٌ مِنْ التَّقَى •

وَوَرَدَ الْبِرُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَفِي شِعْرِ الْعَرَبِ
مُقَابِلًا لِلْإِنِّمِ - وَالْإِنِّمِ : الشَّرُّ وَكُلُّ فِعْلٍ غَيْرِ مَرْضِيٍّ بِمَا يُؤْتَمُّ - قال عز وجل :
وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدْوَانِ . واقتترانه
بالتقوى يدلُّ على أَنَّ الْبِرَّ بِسَبِيلِ دِينِ التَّقْوَى ، وَرُوي أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ
المصطفى صلواتُ الله عليه عن البرِّ والإِنِّمِ ، فقال : البرُّ مَا سَكَنْتَ إِلَيْهِ
نَفْسُكَ وَاطْمَأَنَّ بِهِ قَلْبُكَ ، وَالْإِنِّمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَتَرَدَّدَ فِي صَدْرِكَ ،
وإنَّ أَفْثَاكَ النَّاسِ ، أَوْ كَمَا قَالَ . « حَاكَ فِي نَفْسِكَ : أَى أَثَرَ فِيهَا وَرَسَخَ وَحَزَّ

(١) ولأن البر يطابق على كل أولئك ، قال الإمام البيضاوى : البر ثلاثة : برٌّ في
عبادة الله ، وبرٌّ في مراعاة الأقارب ، وبرٌّ في معاملة الأجانب

وَقَدَحَ ، وقوله : وإن أفنأك الناس : أى وإن جعلوا لك فيه رُخصةً وجوازاً ،
وقال زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ :

وَالِإِثْمُ مِنْ شَرِّ مَا يَصَالُ بِهِ وَالْبِرُّ كَالْفَيْثِ نَبَتْهُ أَمْرُ

« ما يصال به : ما يُفْتَخَرُ به ، وأمر : كثير مُبارك ، ومن أسماء الله البرّ -
بفتح الباء - ومعناه الواسع الخير ، وقوله تعالى : لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا
تَحِبُّونَ ، فَعَنَاهُ : لن تنالوا برّ الله ، أى لن تنالوا خَيْرِي الدنيا والآخرة حتى
تنفقوا مما تحبون ، أمّا خير الدنيا فهو ما يسرّه الله للعبد من الهدى والنعمة ،
وأمّا خير الآخرة فهو الفوز بالنعيم الدائم فى الجنة ، أو تقول : لن تنالوا
حقيقة البرّ - أى الخير - حتى تنفقوا مما تحبون ... والابرار : الاخيار ، جمع برّ ،
وقد قوبلت كلمة الابرار بالفُجّار فى قوله تعالى : إِنَّ الْآبِرَارَ لِنِى نَعِيمٍ . وَإِنَّ
الْفُجَّارَ لِنِى جَحِيمٍ - والفجار : الذين ينبعثون فى الشرور والآثام - وحج
مَبْرُور : مقبول يجازى بالبر ، أى الثواب ، أى خير الآخرة ؛ وبرّ فى يمينه
أى صدق ، أى كان خيراً فيه هذا الصدق .

« وبعد » فكل ما أوردوه من معانى البر فى الخير مرّده ...

ولهم فى البرّ مُطلقاً ، أى الخير غير مقيد بلون من ألوانه ، عبقریات وذخائر ،
فمن ذلك قول الحُطَيْيَةِ :

وَمَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
« جَوَازِيهِ : جمع جازية اسم مصدر للجزاء ، كالعافية ، أى لا يعدم جزاء عليه ،
قال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطية
هذا ، فقل له : فقول طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ :

سَتَبْدِى لَكَ الْآيَامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

فقال : مَنْ يَأْتِيكَ بِهَا يَمُنْ زَوَّدَتْ أَكْثَرَ ، وليس بيت مما قالته الشعراء
إلا وفيه مطعن ، إلا قول الخطيئة هذا . ويُروى أَنَّ كَعْبًا الْحِمْيَرِيَّ - المشهور
بكعب الأحبار - لما سمع هذا البيت قال : والذي نفسي بيده : إِنَّ هذا البيتَ
لمكتوبٌ في التوراة ، ... وقال عبيدُ بْنُ الأبرص :

والخيرُ يَبْقَى وإن طالَ الزمانُ به والشَّرُّ أَخْبَثُ ما أَوْعَيْتَ مِنْ زادٍ
« يقال : أوعيت الزاد والمتاع : إذا جعلته في الوعاء »
وقال أبو العتاهية :

لَيَعْلَمَنَّ النَّاسُ أَنَّ التَّقَى والبرَّ كانا خيرَ ما يُذْخِرُ

وقبله قال الأخطل - ورواه المبرّد في الكامل للخليل بن أحمد واضع
علم العروض - :

وإذا افْتَقَرْتَ إلى الذخائرَ لم تَجِدْ ذُخْرًا يَكُونُ كصالحِ الأعمالِ
رَوَى صاحب الأغاني : أَنَّ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الملكَ لما سمع الأخطل وهو
يقول هذا البيت قال : هنيأ لك أبا مالك هذا الإسلام ! فقال الأخطل :
يا أمير المؤمنين ، ما زِلْتُ مُسْلِمًا في ديني ؛ وقبلَ هذا البيت في ديوان الأخطل :
والناسُ همُّهُمُ الحَياءُ وما أَرى طُولَ الحَياءِ يَزِيدُ غيرَ خَبالٍ
« الخبال : الفساد ، أو هو لون من الجنون ، ... »

وقال أحمد شوقي في نهج البردة : - وهذه الآيات يصح أن تذكر في
باب التقوى وفي باب الدنيا وفي الزهد ، كما يصح أن تذكر في هذا الموضع - :
يَا نَفْسُ دُنْيَاكَ تُخْفِي كُلَّ بُكْيَةٍ وإنْ بَدَأَكَ مِنْهَا حُسْنٌ مُبْتَسِمٍ -
فُضِّي بِتَقْوَاكَ فَأَمَّا كُلُّهَا فَصَحَّتْ كما يُفَضُّ أَدَى الرَّقْشَاءِ بِالنَّزَمِ
لا تُخْنِلِي بِجَنَاحِها أَوْ جَنَاحَيْهَا الموتُ بِالزَّهْرِ بِثَلِّ الموتِ بِالْفَتَمِ -

صَلَحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ رُجْعُهُ فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِمِ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرَاتِعٍ وَخَمٍ
« المبتسم : يريد الابتسام ، أو موضع الابتسام ، وهو الشجر . والرقشاء
من الحيات : الْمُنْقَطَةُ بالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ . وأذى الرقشاء : سُتْهَا . والثرم :
كسر السن من أصلها . والجنى : مَا يُجْنَى مِنَ الشَّجَرَةِ وَيَقْطَفُ مِنْ ثَمَرِهَا ؛
يقول في هذا البيت : إن سعادة الدنيا وشقاءها بمنزلة سواء ، وكلاهما ألمٌ
غير أن أحد الالامين ينزل بساحة النفس سافراً غير مُتَسَكِّرٍ - وهو جنايتها
أى آلامها - والآخر - وهو جناها أى لذاتها - يتسرب إليها من أبواب
غفلتها فيتجمل ويخلب حتى ينال منها ، إذ أن من ورائه السَّمُّ ناعقاً ، فثلهما في
ذلك مثل الموت بالفحم والموت بالزهر ، كلاهما موت ، وإن كان هذا من
أثر الاختناق بأرج الزهر ، وذلك من دَخْنِ الفحم . والمرتع : مَنْ رَتَعَتْ
الماشية : أَكَلَتْ مَا شَاءَتْ ، والمرتع : مَكَانُ الرَّتْوَعِ ، والوخم : الرَّدَى الْوَبِيءُ ،
وقال المعمرى :

وَلَفَعَلِ النَّفْسُ الْجَلِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِلْأَجْلِ ثَوَابِهَا
« يقول المعمرى : إِن فِعْلَ كُلِّ مَا هُوَ جَمِيلٌ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ مِنْ فِعْلِ
مَا لَيْسَ بِجَمِيلٍ ، وَلَوْ لَمْ يَجْنِ الْمَرْءُ مِنْ وَرَاءِ الْجَلِيلِ وَفَعَلَهُ إِلَّا أَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
وَأَسْمَى وَأَرْفَعُ ؛ لَكَانَ فِي ذَلِكَ الْغَنَاءُ كُلُّهُ ، أَمَّا فِعْلُ الْجَلِيلِ وَنُصَبَ عَيْنِ فَاعِلِهِ
ذَلِكَ الثَّوَابُ الَّذِي سَيَجَازِي بِهِ ، فَإِنْ هَذَا إِسْفَافٌ بِالْإِنْسَانِيَةِ إِلَى الْحُضِيِّضِ
الْأَوْهَدِ ، وَيُعَدُّ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَرْفَعُهَا اللَّهُ إِلَى أَسْفَلِ ، وَجَمَلَةُ الْقَوْلِ : إِنَّهُ غَيْرُ
لَاقٍ بِالْكَأَلِ وَالْمَثَلِ الْأَعْلَى ، أَلَيْسَ مِنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُمْ إِنَّمَا يَتَاَجَرُونَ اللَّهَ الَّذِي
يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، وَالَّذِي هُوَ جَمِيلٌ يَحِبُّ الْجَمَالَ ! وَتَسْتَرَى فِي بَابِ التَّقْوَى

كثيرا من عقرياتهم في هذا المعنى - منى فمل الخير حبا في الخير، وولوعا بالحق والجمال والمثالية الكامنة فيه.



وبما روى لنا من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه: رأيت الجنة والنار فلم أر مثل الخير والشر... قال ابن الأثير في النهاية: أى لم أر مثلهما لا يميز بينهما فيبالغ في طلب الجنة والهروب من النار... أقول: ولعل الأظهر أن يكون المعنى: لم أر شيئا يكون وصالته إلى دخول الجنة مثل الخير، ولم أر شيئا يكون سببا في دخول النار مثل الشر^(١).. هذا، وإن أبى المحدثون وأشباه المحدثين إلا أن يؤولوا الجنة بأنها الهناءة وغبطة الروح التي يشعر بها الأخيار البررة ويرآحون لها في هذه الحياة، والنار بأنها الشقاوة التي يُعانها الأشرار الفجرة، ويتسعر لهبها في أحناء ضلوعهم، فهم وما يختارون ويحلّون لهم، إذ أن هذا - أى سعادة الخير في الدنيا وشقاوة الشرير فيها - حق وصحيح في ذاته، وإن لم يك مراداً لانياء الله ورسله بالجنة والنار، حين يريدون الجنة والنار بمعناها المعروف، على أن الإسلام على ذلك يعتد بالسعادة والشقاوة في الدنيا كما أنه يعتد بهما فيما بعد الموت... وفي الحديث أيضا: خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره... وقال صلوات الله عليه:

(١) ورد هذا الحديث عن أنس بن مالك هكذا: صلى لنا النبي صلى الله عليه وسلم ثم رقى المنبر، فأشار يده إلى قبة المسجد وقال: لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الجنة والنار مثلتين في قبة هذا الجدار فلم أر كاليوم في الخير والشر... الجامع الصغير،

خير الناس خيرهم لنفسه » وممناه : إذا جاملَ الناسَ جاملوه وإذا أحسن إليهم كافأوه بمثله » وأما الحديث : خيركم خيركم لأهله ؛ فهو حث على صلة الرحم ، وسيأتي ... وما يُؤثرُ من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه : شرُّ الناس من خافه الناس اتقاءً شره « ومثل هذا القول تبكيت للشرير ، وأنه وإن ظفر بما يظفر به من أغراض هذه الدنيا فهو خاسرٌ دائمٌ » وكان من دعاء سيدنا رسول الله : إن الخيرَ يديك والشرُّ ليس إليك « يريد : أن الشر لا يُتقرب به إليك ولا يُبتغى به وجهك ، أو أن الشر لا يصعد إليك وإنما يصعد إليك الطيب من القول والعمل ، كما قال سبحانه : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه . وفي هذا الدعاء إرشاد إلى استعمال الأدب في الثناء على الله والدعاء ، وأن تضاف إليه محاسن الأشياء دون مساوئها ... ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : إن للخير والشر أهلاً ، فمهما تركتموه منهما كفأكوه أهله » يقول رضى الله عنه : إنَّ عنَّ لك باب من أبواب الخير وتركته فسوف يكفيك بعض الناس ممن جعله الله أهلاً للخير ، وإنَّ عنَّ لك بابٌ من أبواب الشر فتركته فسوف يكفيك بعض الناس ممن جعلهم الله أهلاً للشر وأذى الناس ، فاختر لنفسك أيما أحب إليك : أن تحظى بالمحمدة والثواب وتفعل ما إن تركته فمله غيرك وحظى بحمده وثوابه ، أو أن تتركه ، وأيما أحب إليك : أن تشقى بالذم عاجلاً والعقاب آجلاً وتفعل ما إن تركته كفأك غيرك وبلغت غرضك منه على يد غيرك ، أو أن تفعله ؛ وإذا نـجـير بالعاقل أن يُؤثرَ فعل الخير وترك الشر ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ومن قولهم في أوصاف البررة الأخيار : فُلانٌ نَقى الساحة من المآثم ، يرىُ الذمَّة من الجرائم ؛ إذا رضى لم يقل غير الصدق ، وإذا سخط لم يتجاوز

جَانِبَ الْحَقِّ ؛ يرجع إلى نفسِ أَمَارَةٍ بِالْخَيْرِ ، بعيدةٍ من الشر ، مدلوله على سبيل البر ... ووصفَ أعرابيٍّ رجلاً بلون من ألوان البر وبالأمعية والذكاء والحصافة والآناة قال : كان - والله - الفهمُ مِنْهُ ذَا أُذُنَيْنِ ، والجوابُ ذَا لِسَانَيْنِ ، لم أرَ أحداً كان أَرْتَقَ لِخَلَلٍ رَأْيٍ مِنْهُ ، ولا أَبْعَدَ مَسَافَةً رَوِيَّةً وَمَرَادَ طَرْفٍ ، إنما يَرْمِي بِهِمَّةٍ حَيْثُ أَشَارَ إِلَيْهِ الْكُرمَ ، وما زال - والله - يَتَحَسَّى مَرَارَةَ أَخْلَاقِ الْإِخْوَانِ وَيَسْقِيهِمْ عُذُوبَةَ أَخْلَاقِهِ ... « كان الفهم منه ذَا أُذُنَيْنِ : يريد أنه كان يعي ويتفطن لما يرى ويسمع فطنة أوفت على الغاية ، إذ أنها فطنة مضاعفة ، فكأن له أذنين . أما قوله : والجوابُ ذَا لِسَانَيْنِ : فإنما يريد قوة العارضة واللِّسَنَ ، وهذا غير قولهم : فلان ذو وَجْهَيْنِ وذو لِسَانَيْنِ ، يريدون : النفاق والذبذبة . ورتق الفتق : أصلحه ، والمراد : المكان من راد يرود : إذا جاء وذهب ، ويتحسى : يقال حسا الماء : شربه ، وتحساه : إذا شرب في مُهَلَّةٍ ، وهو هنا مجاز »

ومن كلمة لابن المقفع يصف الرجل يتلاقى البرُّ في بُرْدِيهِ بِالْوَانِ شَتَّى مِنَ الْمُثَلِّ الْعَلِيَا وَأَخْلَاقِ السَّادَةِ ، في أسلوب بديع - وقد وردت هذه الكلمة في نهج البلاغة منسوبةً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه - : كان لي أَخٌ فِي اللَّهِ ، كان أعْظَمَ النَّاسِ فِي عَيْنِي ، وكان رَأْسَ مَا عَظَّمَهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِي ، كان خارجاً من سلطانِ بَطْنِهِ ؛ فلا يَتَشَهَّى مَا لَا يَجِدُ ، ولا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ . وكان خارجاً من سلطانِ فَرْجِهِ ؛ فلا يدعو إليه ، وَهُوَ ، ولا يَسْتَخِفُّ إِلَيْهِ رَأْيَا وَلَا بَدَنًا ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطانِ لِسَانِهِ ؛ فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى فيما علم . وكان خارجاً من سلطانِ الْجَهَالَةِ ؛ فلا يُقَدِّمُ أبداً إِلَّا عَلَى ثِقَةٍ بِنَفْسِهِ ، وكان

أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَابِتًا ، إِذَا قَالَ بَرَّ الْقَائِلِينَ ، وَكَانَ ضَعِيفًا مُسْتَضَعَفًا ، فَإِذَا جَدَّ الْجِدُّ فَهُوَ اللَّيْثُ عَادِيًا ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ فِي دَعْوَى ، وَلَا يَشَارِكُ فِي مِرَاءٍ ، وَلَا يُدْلِي بِبُحْجَةٍ ، حَتَّى يَرَى قَاضِيًا فَهِيمًا وَشُهُودًا عَدُولًا ، وَكَانَ لَا يَلُومُ أَحَدًا فِيمَا يَكُونُ الْعُذْرُ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَعْلَمَ مَا عَذْرُهُ ، وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعَهُ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ الْبُرَّ ، وَلَا يَسْتَشِيرُ صَاحِبًا إِلَّا أَنْ يَرْجُوَ مِنْهُ النَّصِيحَةَ . وَكَانَ لَا يَتَبَرَّمُ وَلَا يَتَدَخَّلُ ، وَلَا يَتَشَكَّى وَلَا يَتَشَهَّى ، وَلَا يَنْتَقِمُ مِنَ الْعَدُوِّ وَلَا يَغْتَفِلُ عَنِ الْوَلِيِّ ، وَلَا يُخْصُ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ دُونَ إِخْوَانِهِ ، مِنْ أَهْتَامِهِ وَحِيلَتِهِ وَقُوَّتِهِ ... فَمَلِكٌ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ إِنْ أَطَقَتْهَا ، وَلَنْ تَطِيقَ ، وَلَكِنْ أَخَذَ الْقَائِلُ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْجَمِيعِ ... قَوْلُهُ كَانَ لِي أَخٌ ، فَلَيْسَ يَعْنِي أَخَا بَعِيْنِهِ وَلَكِنْ هَذَا كَلَامٌ خَارِجٌ مَخْرَجُ الْمَثَلِ ، وَعَادَةُ الْعَرَبِ جَارِيَةٌ بِذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِمْ فِي الشَّعْرِ : قُتِلْتُ لَصَاحِبِي ، وَيَا صَاحِبِي . وَقَوْلُهُ : فَلَا يَتَشَهَّى مَا لَا يَجِدُ ، فَإِنْ ذَلِكَ لِعُمُرِي مِنْ سَقُوطِ الْمَرْوَةِ . قَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ : جَنَّبُوا مَجَالِسَنَا ذَكَرَ تَشَهَّى الْأَطْعَمَةِ وَحَدِيثَ الْكَاحِ ؛ وَمِنْ طُرْفِ الْجَا حِظِّ مَارَوَاهُ عَنْ نَفْسِهِ : جَلَسْنَا فِي دَارٍ فَمَلْنَا تَشَهَّى الْأَطْعَمَةِ ، فَقَالَ وَاحِدٌ : أَنَا أَشْتَهِي سِكَبَاجَةَ كَثِيرَةِ الزَّعْفَرَانِ ، وَقَالَ آخَرُ : وَأَنَا أَشْتَهِي هَرِيسَةَ الدَّارِ صِنْفِي ... وَإِلَى جَانِبِنَا امْرَأَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا بَيْتُ الدَّارِ ، فَضَرَبَتِ الْحَائِطَ وَقَالَتْ : أَنَا حَامِلٌ ، فَأَعْطُونِي مِلًّا . هَذِهِ الْغَضَارَةُ - الصَّحْفَةُ - مِنْ طَبِيخِكُمْ ، فَقَالَ ثُمَامَةُ بْنُ الْأَشْرَسِ : جَارَتُنَا هَذِهِ تَشْمُ رَائِحَةَ الْأَمَانِيِّ وَقَوْلُهُ : وَكَانَ ضَعِيفًا مُسْتَضَعَفًا : يَرِيدُ : كَيْفَ الْجَانِبِ ، وَطَأَ الْإِكْنَفَ ، ... وَقَرَعَ رَجُلٌ بَابَ بَعْضِ الْخَيْرِينَ مِنَ السَّلَفِ ، فِي لَيْلٍ ، فَقَالَ لَجَارِيَتِهِ : أَبْصِرِي مِنَ الْقَارِعِ ، فَأَتَتْ الْبَابَ فَقَالَتْ : مَنْ ذَا ؟ قَالَ أَنَا صَدِيقُ مَوْلَاكَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : قَوْلِي لَهُ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَصَدِيقٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ :

والله إني لصديق ، قهض الرجل ويده سيف وكيس يسوق جارية ، وفتح الباب وقال : ماشأذك ؟ قال : راعنى أمر ، قال : لأك ماساءك ، فإني قد قسمتُ أمرك بين صديق : فهذا المال ، وبين عدو : فهذا السيف ، أو مشوق : فهذه الجارية . فقال الرجل : لله بلادك ، مارأيت مثلك ... « أقول : هذه لعمرى هي أخلاق السادة النبلاء ذوى البر والمروءة والوفاء والحزم والظرف ، وكونٌ - وجود - أمثال هؤلاء من ذوى الإنسانية العالية هو الذى يُحسِّنُ ظننا بالحياة ويحملها في أعيننا ، ويجعلها مُحتملة مطاقَةً ، لا كما نرى اليوم ... » وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يصف رجلاً قليل الخير - أى لا خير فيه -^(١)

أَبَى لَكَ فِعْلَ الْخَيْرِ رَأَى مُقَصِّرٌ وَتَفَسَّ أَضَاقَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ بِأَعْيَا
إِذَا مَا أَرَادَتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ أَطَاعَهَا

ومن قولهم فى قليل الخير :

هُوَ فِي الْخَيْرِ قُطُوفٌ وَهُوَ فِي الشَّرِّ وَسَاعٌ

« القُطُوف من الإنسان والحيوان : البطيء المتقارب الخطو ، ووساع : واسع الخطو سريع السير ، ومن قولهم فى المتساويين فى الخير والشر . هُما كَقَرَسَى رَهان ، وهذا فى الخير ، وأما فى الشر فيقال : هُما كِحِمَارَى الْعِبَادَى . والعبادى : رجل من العباد ؛ وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فَأَنِفُوا أَنْ يَتَسَمَّوْا بِالْعَبِيدِ وَقَالُوا : نحن العباد ، وقد نزلوا بالحيرة ومنهم عَدَى بن زيد العبادى الشاعر المشهور . أما هذا العبادى فيروى أنه قيل له - أى حِمَارِيكَ شَرٌّ ؟ فقال : هذا ، ثُمَّ هذا !

(١) كان عبد الرحمن هذا قد سأل محمد بن عمرو عامل سليمان بن عبد الملك حاجة فلم يقضها ، فسألها عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقضاهَا ، فقال أبياتا منها هذان البتان

وقال الأشعرُ الرِّقْبَانُ - وهو شاعر جاهلي من بني أسد - يخاطب ابن عمِّه
له يسمى رضوان ، يصفه بالشر واللؤم والنذالة والفسولة :

بِحَسْبِكَ فِي الْقَوْمِ أَنْ يَعْلَمُوا بِأَنَّكَ فِيهِمْ غَنِيٌّ مُضِرُّ
وَقَدْ عَلِمَ الْمَعَشَرُ الطَّارِقُوكَ بِأَنَّكَ لِلضَّيْفِ جُوعٌ وَقُرُّ
إِذَا مَا اتَّهَدَى الْقَوْمُ لَمْ تَأْتِهِمْ كَأَنَّكَ قَدْ وَلَدْتَكَ الْحُمُرُ
مَسِيخٌ مَلِيخٌ كَلْحَمِ الْخَوَارِ فَلَا أَنْتَ حُلُوٌّ وَلَا أَنْتَ مُرُّ

« قوله : غَنِيٌّ مُضِرُّ ، فالْمُضِرُّ : الذي له ضَرَّةٌ من المال ، وهي القطعة من
المال والإبل والغنم ، أو المال الكثير ، كما هنا ، وانهدى القوم : اجتمعوا
في ناديمهم ، والمسيخ : الذي لا طعم له ، والمليخ مثله ، وخصَّ به بعض اللغويين
الحوار الذي ينجر حين يقع من بطن أمه فلا يوجد له طعم ، ونال ابن الأعرابي :
المليخ من الرجال : الذي لا تشتهي أن تراه حينك فلا تجالسُه ولا تسمعُ أذُنك
حديثه ، والحوار : ولد الناقة ساعةَ تَضَعُه » ... ومما يَحْسُنُ إيرادُه في هذا
الباب لِلْبُسْتَةِ واشتباهه قول عمر رضى الله عنه - وقد قيل له : فلان لا يعرف
الشر - فقال : ذاك أوقع له فيه ، إذ أن معناه : أن لا يكون الإنسان مغفلا وإنما
الواجب الفطنة والحذر وسوء الظن بالناس ، لما جُبِلَ عليه سوادهم من الشر
واللؤم والخداع ، وفي معناه يقول حكيم لابنه : اسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ
وكن من خيارهم على حذر ... وقد كان الفاروق رضى الله عنه لا يَقَعِّعُ
له بالشَّئَانِ ^(١) وكان سيئَ الظن بالناس ، يَدُلُّ على ذلك شِدَّتُهُ وصرامته

(١) لا يقعق له بالشئان : مثلٌ ، أى لا يخدع ولا يروع ، وأصله من تحريك الجلد
اليابس للبعير ليفزع ، ومعنى القعقة : التحريك ، والشئان : جمع شئ وهو القرية الخلق
أو الخلق - البالى - من كل وعاء صنع من جلد .

وحذرُهُ وسياسته الحازمة الرشيدة... «وبعد، فإنك ترى في باب طبائع الإنسان كثيرا من عبقرياتهم في الشر ووصف الأشرار وحكمة امتزاج الخير بالشر في العالم ، كما أنه سيمرُّ بك قريبا كثير من عبقرياتهم في التقوى وحسن الخلق...

ومن أروع وأجمع ما قيل في البر على سائر ألوانه قوله جلّ شأنه : ليسَ البرَّ أنْ تُؤَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرَاقِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ...

نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن أكثر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسول الله إلى الكعبة ، وزعم كل من الفريقين أن البرّ هو التوجّه إلى قِبَلَتِهِ ، فقنّد الله سبحانه هذا الزعم وبهرجه وقال : ليس البرّ العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرّ هو أمر القبلة ، ولكن البرّ الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمة إليه هو برّ مَنْ آمَنَ وقام بهذه الأعمال هذا ، وقوله . ليس البرّ أنْ تُؤَلُّوا ، قاليرّ بالنّصب خبر ليس مُقدّم . وأنْ تُؤَلُّوا ، وولّ بمصدر اسم ليس مؤخر ، وقوله : ولكن البرّ من آمن : إمّا مثل قول الخنساء ^(١) :

(١) الخنساء : هي تماضر بنت عمرو بن الشريد من سروات قبائل بني سليم من أهل نجد ، أشعر النساء في عصرها أدركت الإسلام وأسلمت توفيت سنة ٢٤ هـ وقولها فإنما هي إقبال وإدبار ، من آيات ترى أخاها صخرًا تقول فيها :

❦ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ ❦ أَوْ تَقُولُ ؛ وَلَكِنَّ الْبِرَّ : أَيْ ذَا الْبِرِّ
 أَوْ تَقُولُ ، إِنَّهُ عَلَى حَذْفٍ مِثْلُ مِثْلِ مَنْ آمَنَ . وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : وَالْكِتَابُ ،
 يَعْنِي جَنْسَ كِتَابِ اللَّهِ ، أَوْ الْقُرْآنَ . وَقَوْلُهُ : عَلَى حَبِّهِ ، أَيْ مَعَ حُبِّ الْمَالِ
 وَالشَّحِّ بِهِ ، وَقَدْ ذُكِرَ الْقُرْبَى لِأَنَّ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ أَفْضَلُ ، كَمَا وَرَدَ فِي
 الْآثَرِ : صَدَقْتُكَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةً وَعَلَى ذِي رَحِمِكَ اثْنَتَانِ ، صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ ،
 وَابْنُ السَّيْلِ : الْمَسَافِرُ الْمُنْقَطِعُ ، وَقِيلَ الضَّيْفُ ؛ لِأَنَّ السَّيْلَ يَرْعَفُ بِهِ - أَيْ
 يَتَقَدَّمُ بِهِ وَيَبْرِزُهُ لِلْمَقِيمِينَ كَمَا يَرْعَفُ الْأَنْفُ بِدَمِ الرَّعَافِ - وَقَوْلُهُ : وَفِي الرِّقَابِ : أَيْ
 وَفِي مُعَاوَنَةِ الْمَكَاتِبِينَ حَتَّى يَفْكَرُوا رِقَابَهُمْ وَقِيلَ : فِي شَرَاءِ الرِّقَابِ وَإِعْتَاقِهَا ،
 وَقِيلَ : فِي فَكِّ الْأَسَارَى . وَقَوْلُهُ : وَالْمُؤَفَّنُونَ بِعَهْدِهِمْ : عَطْفٌ عَلَى مَنْ آمَنَ
 وَقَوْلُهُ : وَالصَّابِرِينَ ، فَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَدْحِ ، وَلَمْ يُعْطَفْ ، لِفَضْلِ الصَّبْرِ عَلَى
 سَائِرِ الْأَعْمَالِ ، وَالْبَأْسَاءِ ، أَيْ فِي الْأَمْوَالِ كَالْفَقْرِ ، وَالضَّرَاءِ ، أَيْ فِي الْأَنْفُسِ
 كَالْمَرَضِ . وَحِينَ الْبَأْسِ : أَيْ وَقْتُ مَجَاهِدَةِ الْعَدُوِّ ... أَلَيْسَتْ هَذِهِ آيَةُ الْكَرِيمَةِ
 - كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الْبَيْضَاوِيُّ ، وَكَأَنَّا نَرَى - جَامِعَةً لِلْكَمَالَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ بِأَسْرَافِهَا ، دَالَّةٌ
 عَلَيْهَا صَرِيحًا أَوْ ضَمْنًا ، فَإِنَّهَا عَلَى تَشَعُّبِهَا مَنْحَصَرَةٌ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : صِحَّةُ الْإِعْتِقَادِ ،
 وَحُسْنُ الْمَعَاشَةِ ، وَتَهْذِيبُ النَّفْسِ . وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى الْأَوَّلِ بِقَوْلِهِ : مَنْ آمَنَ

فَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوِّ مُطِيفٍ بِهِ لَهَا حَيْنَانٌ إِعْلَانٌ وَإِسْرَارٌ
 تَرْتَعُ مَا غَفَلْتَ حَتَّى إِذَا أَدَّكَرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
 يَوْمًا بِأَوْجَدَ مِنِّي حِينَ فَارَقَنِي صَخْرٌ وَلِدَهْرٍ إِحْلَاءٌ وَإِمْرَارٌ
 العجول من الإبل : الواله التي فقدت ولدها ، لعجلتها في جئتها وذهابها جزعا
 والبو : جلد ولد الناقة يحشى تبنا ونحوه ويقرب منها فتعطف عليه وتدر ، وقولها : فَإِنَّمَا
 هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ : جعلها نفس الإقبال والإدبار مبالغة ، أي أنها تنلهي عن الرعي فتقبل
 وتندبر جزعا

بالله . إلى : والنبیین ، وإلى الثانى بقوله : وآتى المال ... إلى : والرقاب ، وإلى الثالث بقوله : وأقام الصلاة ... إلى آخرها . ولذلك وُصِفَ المستجمعُ لها بالصدق ، نظراً إلى إيمانه واعتقاده ، وبالتقوى : اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق سبحانه ، ولذلك قال عليه السلام : مَنْ عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان .

برُّ الوالدين وصلةُ الرحم

وعقوباتهم فى الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى °

وإليك شدوا من عَقبَرِيَّاتِهِمْ فى لَوْنٍ من ألوان البر لقد نراه بادية الرأى قليل الخطر ، وهو عند الله الحق ، ولدى إلقاء البال إليه ، وإنعام النظر فيه ، عظيمُ كُلِّ العِظَم ، خطير كل الخطر ، ذلك هو صلة الرحم بعامة ، وبر الوالدين بخاصة ، ولقد قرَنَ الله بِرَّ الوالدين بالتوحيد ، وأكثرَ فى كتابه المُنزَل من الحُصِّ على هذا البر بأسلوب يُخَيِّلُ إلى السامع إليه أن برَّ الوالدين ركن من أركان الدين ، وأساس من أُسُسِ الأخلاق لا يُؤْبَهُ لسائرُها بدونه ، وإنه كذلك ، وفى الحق إن هذه الإشادة البالغة من الإسلام ببر الوالدين وصلة الرحم كَمَا يُعَدُّ من فضائل هذا الدين الحنيف وخصائصه التى يمتاز بها . فليُلقِ أبناءُ اليوم بالهم إلى ذلك ، وليجعلوه دائماً نُصَبَ أعينهم ، إن كانوا يريدون الخير لأنفسهم ، وإلا فلا يُبْعِدُ اللهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ... هذا وستسمع بادئ ذى بدء خير

(هـ) البابة عند العرب : الوجه ، والبابات الوجوه وأنشدوا تميم بن مقبل :

بنى عامر مائاً مرون بشاعر تخير بابات الكتاب هجائياً

معناه : تخير هجائى من وجوه الكتاب ، ويقال فلان من أهون باباته الكذب وهى أنواع خبثه ، وإذا قال الناس : هذا شئ . من بابتي ، فعناه من الوجه الذى أريده ويصلح لى .

ما قالوا في هذا اللون من البر، ثم نعبه بخير ما قالوا في الآباء والأبناء والآقارب، مما يتأشب إلى هذا المعنى، وينشعب به القول، ولا يخلو بعضه من طرافة، حتى نستوعب المنتقى من كلامهم في كل باب، وحتى يكون فيما يستطرف منه استراحة للقارئ وانتقال ينفى ملل الجِدِّ عنه... فمن ذلك ما يقول الله عز وجل - وَتَجَزَّأَ بِهِذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْجَامِعَةُ عَنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الَّتِي يَزْتَحِرُّ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ فِي بَابِ الْبِرِّ بِالْوَالِدِينَ - : وَاقْضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِهِمَا فِي نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا، وآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ... الْآيَاتِ

وقوله سبحانه : وَاقْضَى رَبُّكَ : أى أمر أمرا مقطوعا به... وإنها لكلمة مُرَوِّعَةٌ تَرْجُحُ النَّفْسَ رَجًّا وَتُزَلِّزُ أَرْجَاءَ مَا زِلْزَالَ شَدِيدًا . ولا جَرَمَ أَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ . أما قوله سبحانه : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ : أى قَضَى رَبُّكَ أَنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ؛ لِأَنَّ غَايَةَ التَّعْظِيمِ لَا تَحْقُقُ إِلَّا لِمَنْ لَهُ غَايَةُ الْعِظَمَةِ وَنَهَايَةُ الْإِنْعَامِ . وقوله : وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، أى وَاقْضَى بِأَنْ تُحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وقوله : إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا ، فإِذَا : هِيَ إِنْ الشَّرْطِيَّةُ زِيدَتْ عَلَيْهِمَا تَأْكِيدًا لَهَا ، فَيَكُونُ قَالَ : إِنْ يَبْلُغَنَّ ، وَأَحَدُهُمَا فَاعِلٌ يَبْلُغَنَّ ، وَأَفٍ : صَوْتٌ يَدُلُّ عَلَى التَّضَجُّرِ ، وَعِنْدَكَ : قَالَ الرَّحْمَنُ شَرِي : مَعْنَاهُ : أَنْ يَكْبُرَا وَيُعْجِزَا وَيَصِيرَا كَلًّا عَلَى وَلَدِهِمَا لَا كَافِلَ لَهُمَا غَيْرُهُ ، فُهُمَا فِي بَيْتِهِ وَكَتَفِهِ ، وَذَلِكَ أَشَقُّ عَلَيْهِ وَأَشَدُّ احْتِمَالًا وَصَبْرًا ، وَرَبَّمَا تَوَلَّى مِنْهُمَا مَا كَانَ يَتَوَلَّى مِنْهُ فِي حَالِ الطُّفُولَةِ ، فَهُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَسْتَعْمَلَ مَعَهُمَا وَطْأَةَ الْخُلُقِ وَإِنَّ الْجَانِبِ

والاحتمال ، حتى لا يقول لهما - إذا أضجره ما يُستَقْدَر منهما أو يستثقل من ثؤنهما - : أَفٍ ، فضلا عما يزيد على أَفٍ ... قال : ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما كما ترى ، حيث افتتح الآية بأن شَفَعَ الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما - التوحيد والإحسان إلى الوالدين - في سلك القضاء - الأمر - بهما معا ، ثم ضَيَّقَ الأمرَ في مراعاتهما حتى لم يُرَخِّص في أدنى كلمة تنفلت من المتضرر ، مع موجبات الضرر ومقتضياته ، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة ... وقوله : ولا تهرهما : أى لا تنههما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك ، وقل لهما قولاً كريماً : أى جيلاً ، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة . وقوله سبحانه : واخفض لهما جناح الذل ، قال الإمام الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك كما قال : واخفض جناحك للدومنين ، فأضافه إلى الذلُّ أو الذلُّ^(١) كما أضيف حاتم إلى الجود ، على معنى واخفض لهما جناحك الدليل أو الذلول ، والثاني : أن تجعل لِدُلَّهُ أو لِدِلَّهُ لهما جناحاً خفياً كما جعل لبيد - الشاعر المخضرم - للشمال يدًا وللقرة زماماً^(٢) مُبَالِغَةً في التذلل والتواضع لهما ، وقوله سبحانه : من الرحمة : أى من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لِكِبَرِهِما وافتقارهما إلى مَنْ كان أفقر خاق الله إليهما بالأمس ،

(١) الذل الأول من ذل ذلافه وذليل بمعنى الخضوع ، والذل الثاني بكسر الذال ، وبضهما أيضاً - من ذل يذل فهو ذلول بمعنى اللين (٢) في قوله من معلقته :

وَعَدَاةٍ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَرَقَرَةً إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا
و القرة : البرد يقول لبيد : كم من غداة تهب فيها الشمال - وهى أبرد الرياح - وبرد قد ملكت الشمال زمامه ، قد كنفت عادية البرد عن الناس بنحر الجزر لهم ، وتحرير المعنى : كم من برد كففت غرب عادته بإطعام الناس .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رَضَا اللهُ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ ، وَسُخْطُهُ فِي سُخْطِهِمَا . وَرَوَى : يَفْعَلُ الْبَارُّ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ ، وَيَفْعَلُ الْعَاقُ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ : وَقَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ : إِنْ أَبَوَى بِلِغَامِ الْكَبِيرِ أَنْ أَلِيَّ مِنْهُمَا مَا وَلِيَا مِنِّي فِي الصَّغَرِ ، فَهَلْ قَضَيْتُهُمَا حَقَّهُمَا ؟ قَالَ : لَا ، فَإِنَّهُمَا كَانَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ وَهُمَا يُحِبَّانِ بَقَاءَكَ ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَرِيدُ مَوْتَهُمَا : وَعَنْ حُدَيْفَةَ : أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَتْلِ أَبِيهِ وَهُوَ فِي صَفِّ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ : دَعُهُ لِيَلِيَهُ غَيْرُكَ . وَسُئِلَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ عَنْ أَبِي الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْ لَا تَقُومَ إِلَى خِدْمَتَيْهِمَا عَنْ كَسَلٍ ، وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ . فَقَالَ : أَنْ لَا تَرْفَعَ صَوْتَكَ عَلَيْهِمَا ، وَلَا تَنْظُرَ شَرًّا إِلَيْهِمَا ، وَلَا يَرِيَا مِنْكَ مُخَالَفَةً فِي ظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ ، وَأَنْ تَتَرَحَّمَ عَلَيْهِمَا مَا عَاشَا ، وَتَدْعُوَ لَهُمَا إِذَا مَاتَا ، وَتَقُومَ بِخِدْمَةِ أَوْدَانِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ، فَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ . . . أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ . فَهَذَا تَوْصِيَةٌ بِغَيْرِ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْإِقَارِبِ بَعْدَ التَّوَصِيَةِ بِهِمَا ، يَقُولُ سَبْحَانَهُ : آتَوْهُمْ حَقَّهُمْ ، وَحَقَّهُمْ صَلَّتُهُمْ بِالْمُودَةِ وَالزِّيَارَةِ وَحَسَنَ الْمَعَاشِرَةِ وَالْمَوَائِفَةِ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْمَعَاضِدَةِ إِنْ كَانُوا مِيَّاسِيرَ ، وَتَعَهُدُهُمْ بِالْمَالِ إِنْ كَانُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْكَسْبِ . » انْظُرِ التَّفْصِيلَاتِ فِي كِتَابِ الْفَقْهِ ، وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : إِنْ أَرِيدَ الْغَزْوُ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : أَحْيِ أَبَوَاكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَمِنْهُمَا فَجَاهِدْ . وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ أَبِي الْوَالِدَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْ تَبْدُلَ لَهُمَا مَا مَلَكَتْ ، وَتَطِيعَهُمَا فِيمَا أَمَرَكَ ، مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً ، وَآيَةُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعُمُهُمَا، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ...

ومما يُؤثرُ من أخبار البررة : ما يقول المأمون بن الرشيد : لم أرَ أحداً أبرَّ من الفضل بن يحيى - البرمكى - بأبيه ، بَلَغَ من برِّه به أن يحيى كان لا يتوضأ إلا بماء مُسَخَّنٍ وهما في السجن ، فنههما السجانُ من إدخال الحطب في ليلة باردة ، فقام الفضل - حين أخذ يحيى مضجعه - إلى مُقْمَرٍ^(١) كان يُسَخَّنُ فيه الماء ، فلاه ثم أدناه من المصباح ، فلم يزل قائماً وهو في يده حتى أصبح ... وقيل لعل بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : إنَّكَ من أبرَّ الناس بأهلك ولَسْنَا نَرَاكَ تَأْكُلُ مع أُمِّكَ في صَحْفَةٍ ، قال : إني أخاف أن تَسْبِقَهَا يَدِي إلى شيءٍ سَبَقَتْ عَيْنُهَا إِلَيْهِ فأكون قد عَقَقْتُهَا . وقيل لِعُمَرَ بن ذَرٍّ^(٢) - وقد مات ابنه - : كيف كان برُّ آبِكَ بِكَ ؟ قال : ما مَشَيْتُهُ قط نهاراً إلا مَشَى خَلْفِي ، ولا ليلاً إلا مَشَى أُمَامِي ، ولا رَقِي سَطْحاً وأنا تحته .

ومما يروى في باب العقوق وأحوال العقيقة : « والعقوق ضد البر »

(١) إناء من نحاس يسخن فيه الماء (٢) هو عمر بن عبد الله بن ذر بن زرارة بن مسعود الحمداني كان واعظاً بليغاً وعابداً صالحاً وكان ابنه - واسمه ذر - مباركا طيعا له . دخل يوما على ابنه وهو يجود بنفسه فقال : يا بني ، إنه ما علينا من موتك غضاضة - ذل وانكسار وقور - ولابنا إلى أحد سوى الله حاجة . فلما مات وصلى عليه وواراه وقف على قبره وقال : يا ذر ، قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، لانا لا ندرى ما قلت وما قيل لك . اللهم إني وهبت له ما قصر فيه مما افترضت عليه من حق ، فهب له ما قصر فيه من حقه واجعل ثوابي عليه - يريد ثواب صبره - له ، وزدني من فضلك ، إني إليك من الراغبين قال ابن خلكان : وكان عمر المذكور يعد من المرجئة ، وتوفى سنة ١٥٥ هـ

وأصله من العَقَّ وهو الشق والقطع ، يقال عَقَّ الولدُ والدَه يُعَقِّه عَقًّا وعقوقا ومَعَقَّةً : إذا شَقَّ عصا طاعته ، وعَقَّ والدَيه : قطعتهما ولم يصل رحمهُ منهما وقد يُعَمُّ بلفظ العقوق جميعُ الرِّحم ، والولد عاق ، والجمع عَقَقَة ، مثل كَفَرَة « فمن قولهم في العقوق : العقوقُ نُكَلٌّ من لا يَشْكَلُ » الشكل الموت والهلاك ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ في فقدان الرجل والمرأة ولدهما ، يعنون أن مَنْ ابتلى بولدٍ عاقٍ فكأنه نُكِلَهُ » وقال بعضهم لابن له عاقٍ : أنت كالإصْبَحِ الزائدة ، إنْ تُرِكَتْ شانتُ وإنْ قُطِعَتْ آذَت ... وقيل لأعرابيٍّ كيف ابْنُكَ ؟ - وكان عاقًا - فقال : عَذَابٌ رَعِفَ به الدهرُ ، فَالْتَنَيْ قَدْ أَوْدَعْتُهُ الْقَبْرَ ، فإنه بَلَاءٌ لا يقاومه الصبر ، وفائدة لا يجب فيها الشكر « قوله رَعِفَ به الدهرُ : يريد تقدم به الدهر وعَجِلَ »

وأورد أبو العباس المبرد في الكامل هذه الأبيات لامرأة يقال لها أُمُّ ثواب الهزانية ، في ابنها - وكان لها عاقا - وقد اختارها أبو تمام في حماسه :

رَبَّيْتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الْفَرْخِ أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فِي رِيشِهِ زَغَبًا
حَتَّى إِذَا آصَ كَالْفُحَّالِ شَذَبُهُ أَبَارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِهِ الْكَرْبَا
أَنْشَا يُحَرِّقُ أَثْوَابِي وَيَضْرِبُنِي أَبْعَدَ سِتْنَيْنِ عِنْدِي يَبْتَغِي الْإِدْبَا
إِنِّي لَا أَبْصِرُ فِي تَرْجِيلِ لِمَتِهِ وَخَطَّ لِحْيَتِهِ فِي وَجْهِهِ عَجَبَا
قَالَتْ لَهُ عِرْسُهُ يَوْمًا لِتُسَمِّعَنِي رِقْقًا يَا ابْنَةَ لَنَا فِي أُمْنَا أَرْبَا
وَلَوْ رَأَيْتَنِي فِي نَارٍ مُسْعِرَةٍ مِنَ الْجَحِيمِ لَزَادَتْ فَوْقَهَا حَطْبَا

« هذه أبيات من شعر الفطرة ، تصف في دِقَّةِ حالِ الابنِ العاقِ يكون ضَلَمَهُ وَهَوَاهُ مع زَوْجِه على أُمِّه ، وكذلك تصف ذلك العداء القديم بين الكَنَنَةِ

وَحَمَاتِهَا^(١)، وقولها: أَعْظَمُهُ أَثْمُ الطَّعَامِ، وصف للفرخ، ومعناه: أكبر أعضاءهِ أَثْمُ الطَّعَامِ: أى معدته، وكذلك قولها: ترى فى ريشه زغبا: وصف آخر للفرخ، والزَّغْب: أول ما يبدو من ريش الفرخ، تصف ضعف نشأة ابنها، وآض: صَارَ، والفُحَّال: خال النخل، أى الذَّكْرُ منه، وأَبَارُهُ: الذى يصاحبه يقال: أَبَرَّتْ النخل: إذا لَقَّحَتْهُ، وشَدَّ بَه: قطع ما عليه من الكرايف وهى أصول السَّعَف الغلاظ التى إذا يَبَسَتْ صارت أمثال الأكثاف، ومثته: فمن كل شيء ما ظهر منه، والكرب: ما يبق من أصول السَّعَف فى النخل تريد: حتى إذا بلغ أشده واستوى طوله، وأنشأ: أصله أنشأ، تريد: أبتدأ وأقبل، وقولها: أبعدين عندي يتغنى الأدبا، تريد: أنضربه إياها يريد تأديبها بعد أن بلغت الستين حق منه وعبت، إذ من العناء رياضة الهرم، وقولها: إني لأبصر... البيت، فاللمة: الشعر الذى يلم بالمنكب، والهرجيل: تسريح الشعر تصفه بالحسن والجمال، وعرسه: زوجه، وأمنا.. أضافها إلى نفسها خديعة، وأربا: حاجة، تريد: لا ينبغي لك أن تهينها... .

وقيل لرجل أبطأ فى الزوج: لِمَ أَبْطَأْتَ؟ فقال: أريد أن أسبق أولادى فى اليُسْم قبل أن يسبقونى فى العقوق...

وأورد المبرد أيضا عن رجل يسمى أبا المَخَش حديثا طريفا قال: قال أبو المَخَش: كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فتبرز كفا كَأَنها طَلْعَةٌ، فى ذراع كَأَنها جَمَارَةٌ، فلا تقع عَيْنُهَا على أَكْلَةٍ نفيسة إلا خَصَّتْني بها

(١) الكنة: امرأة الابن - وامرأة الاخ أيضا - والحماة: أم زوجها؛ قال الشاعر:

إن الحماة أولعت بالكِنَّة وأت الكِنَّة إلا ضِنَّة

فَزَوَّجْتُهَا .. وصار يجلس معي على المائدة ابن ثلى ، فَيُسَبِّرُ كَمَا كَانَتْهَا
كَرْنَاقَةً ، فِي ذِرَاعِ كَانَتْهَا كَرَبَّةً ، فَوَاللَّهِ إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي إِلَى لُقْمَةٍ طَيِّبَةٍ إِلَّا
سَبَقَتْ يَدُهُ إِلَيْهَا ... الطَّلْعَةُ فِي كَلَامِ أَبِي الْمَخْشِ هَذَا جَمْعُهَا طَلْعٌ ، وَهُوَ نُورُ
النَّخْلَةِ مَا دَامَ فِي الْكَافُورِ ، وَهُوَ عَاوُهُ الَّذِي يَنْشَقُّ عَنْهُ ، وَالْجَمَارَةُ : شِجْمَةُ النَّخْلَةِ
الَّتِي إِذَا قَطَعْتَ قِصَّةَ رَأْسِهَا ظَهَرَتْ كَانَتْهَا قِطْعَةُ سَنَامٍ ، وَالْكَرْنَاقَةُ : طَرْفُ
الْكَرْبَةِ الْعَرِيضِ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالنَّخْلَةِ كَأَنَّهُ كَتَفٌ ، وَقَوْلُهُ : إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي
فَإِنْ نَافِيَةٌ بِمَعْنَى مَا ،

وَأُورِدَ أَبُو تَمَامٍ فِي بَابِ الْمَجَاءِ مِنْ حِمَاسَتِهِ لِأَحَدِ الشُّعْرَاءِ أَيْتَاتُهَا قِصَّةٌ
فِيهَا اعْتِبَارٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْتَبِرَ مِنْ عَقَقَةِ الْأَبْنَاءِ ، وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْقِصَّةُ وَالْأَيَاتُ :
كَانَ فِي زَمَنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ رَجُلٌ يُسَمَّى مُنَازِلَ بْنَ فُرْعَانَ ، وَكَانَ
لِمُنَازِلٍ هَذَا ابْنٌ يُقَالُ لَهُ خَلِيجٌ - وَهُوَ مِنْ رَهْطِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - فَعَقَّ
خَلِيجٌ أَبَاهُ مُنَازِلًا ، فَقَدَّمَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَرَبِيٍّ ، وَالْيَمَامَةِ ، مُسْتَعْدِيًا
عَلَيْهِ - وَقَالَ :

تَظَلَّمَنِي حَقِّي خَلِيجٌ وَعَقَّى عَلَى حِينٍ كَانَتْ كَالْحَنِيِّ عِظَامِي ^(١)
لَعَمْرِي لَقَدْ رَيَّيْتُهُ فَرِحًا بِهِ فَلَا يَفْرَحُنْ بَعْدِي أَمْرٌ وَبُغْلَامٍ
وَكَيْفَ أَرْجِي النِّفْعَ مِنْهُ وَأُمُّهُ حَرَامِيَّةٌ ؟ مَا غَرَّنِي بِحَرَامٍ ^(٢)
وَرَجَّيْتُ مِنْهُ الْخَيْرَ حِينَ اسْتَزَدْتُهُ وَمَا بَعْضُ مَا يَزْدَادُ غَيْرَ غَرَامٍ ^(٣)

(١) كَانَتْ كَالْحَنِيِّ عِظَامِي : أَيِ كَانَتْ عِظَامِي كَالْحَنِيِّ ، وَهُوَ جَمْعُ حَنِيةٍ ، وَهِيَ الْقَوْسُ ،
لِأَنَّهَا حَنِيةٌ ، أَيِ مَعْطُوفَةٌ

(٢) حَرَامِيَّةٌ : نِسْبَةٌ إِلَى حَرَامٍ وَهِيَ قَبِيلَةٌ

(٣) الْغَرَامُ هُنَا : الْعَذَابُ وَالشَّرُّ الدَّائِمُ وَالْبَلَاءُ الَّذِي لَا يَسْتَطَاعُ أَنْ يَتَفَضَّى مِنْهُ قَالَ
تَعَالَى : إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا : أَيِ هَلَاكَهَا دَائِمًا مَلَحًا

فأراد إبراهيم بن عَرَبِي ضَرْبُهُ ، فقال : أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ ، لَا تَعَجَلْ عَلَى
أَتَعْرِفَ هَذَا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : هَذَا مُنَازِلُ ابْنِ فُرْعَانَ ، الَّذِي عَقَّ أَبَاهُ ، وَفِيهِ
يَقُولُ أَبُوهُ :

جَزَتْ رَحِمٌ بَيْنِي وَبَيْنَ مُنَازِلٍ	جَزَاءً كَمَا يَسْتَنْزِلُ الدِّينَ طَالِبُهُ ^(١)
لَرَبِّيَّتُهُ حَتَّى إِذَا آضَ شَيْظُمًا	يَكَادُ يُسَاوِي غَارِبَ الْفَحْلِ غَارِبُهُ ^(٢)
فَلَمَّا رَأَى أَبْصَرَ الشَّخْصَ أَشْخَصًا	قَرِيبًا وَذَا الشَّخْصَ الْبَعِيدَ أَقَارِبُهُ ^(٣)
تَغَمَّدَ حَتَّى ظَالِمًا وَلَوْ يَدِي	لَوْ يَدُهُ اللهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ ^(٤)
وَكَانَ لَهُ عِنْدِي إِذَا جَاعَ أَوْ بَكَى	مِنْ الزَّادِ أَحْلَى زَادِنَا وَأَطَابِيهِ
وَرَبِّيَّتُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَرَكَتُهُ	أَخَا الْقَوْمِ وَاسْتَخْنَى عَنِ الْمَسْحِ شَارِبُهُ ^(٥)
وَجَمَعْتُهَا دُفْمًا جِلَادًا كَأَنَّهَا	أَشَاءُ نَحْيِي لَمْ تُنْقَطِعْ جَوَانِبُهُ ^(٦)

(١) يدغو على ابنه منازل ، وجعل فعل الجزاء للرحم والجازي هو الله سبحانه
يقول : جزی الله منازل على الرحم أى القرابة التى بينى وبينه - فقد قطعها - جزاء
يستوفى له وعليه ، كما يستنزل صاحب الدين حقه من المدين

(٢) الشیظم : الطویل ، ولربيته : جواب قسم انطوى عليه الكلام ، وربيته وربيته
وتربته وربته تربيا بمعنى واحد ، وآض : صار ، وأصل الغارب فى الإبل - وهو
ما يكون قد دامه السنام - ثم استعير حتى قيل لآعلى كل شيء : غوارب ، يقول : إنه رباه
حتى بلغ مبلغ الرجال

(٣) قريبا : حال ، والمعنى : أبصر الشخص مقاربا ، أى أبصره وأما قريب منه - أشخصا ،
وأقاربه : أظنه قريبا ، يقول : لما رأى شيئا كبيرا ضعفت نظره واختلفت مواقع
بصارتة حتى يرى الشخص القريب منه شخصا ويرى الشخص البعيد منه قريبا
(٤) تغمد حتى : ستره وأخفاه ، وقوله : ولوى يدي : أى فلتها وأزالها عن
حالتها وهيئتها

(٥) أخا القوم : قال الإمام التبريزي : نصب أخا القوم على الحال من الهاء فى
تركته ، وجاز كونه حالا وإن كان معرفة فى اللفظ لأنه لا يعنى قوما بأعيانهم وإنما
يريد تركته قويا لاحقا بالرجال (٦) وجمعها : الضمير إلى الخيل وإن لم

فَأَخْرَجَنِي مِنْهَا سَلِيْبًا كَأَنِّي حُسَامُ يَمَانٍ فَارَقْتُهُ مَضَارِبُهُ ^(١)
 أَلَا أُرْعِشْتُ كَفًّا أَيْكَ وَأَصْبَحْتُ يَدَاكَ يَدَيَّ لَيْتَ فَإِنَّكَ ضَارِبُهُ ^(٢)
 فقال الوالى : يا هذا ، عَقَقْتُ فَعَقَقْتَ ، فَمَا لَكَ مَثَلًا إِلَّا قَوْلُ خَالِدٍ
 لِأَبِي ذُؤَيْبٍ :

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرَّتَهَا فَأُولُ رَاضِي سِيرَةٍ مَنْ يَسِيرُهَا
 قال الإمام التبريزى : وذلك أن أبا ذُؤَيْبٍ ^(٣) هذا كان غلاما ، وكان
 لِرَجُلٍ صَدِيقَةً ، فكان الرجل يبعث أبا ذُؤَيْبٍ إلى صديقته بالرسائل ، فلما
 ترعرع أبو ذُؤَيْبٍ كسرها على الصديق - يريد أفسدها وأمالها عنه إليه - ،
 ولما ترَجَّل أبو ذُؤَيْبٍ - يريد صار رجلا - مُنِعَ منها وَحُجِبَتْ عنه
 وحجب عنها ، فكان يبعث خالدا إليها بالرسائل ، وخالد يومئذ
 غلام ، فلما ترعرع خالد كسرها على أبي ذُؤَيْبٍ ، فقال أبو ذُؤَيْبٍ يعنف
 المرأة :

تُرِيدِينَ كَيْ تَجْمَعِيْنِي وَخَالِدَا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيُنْحَكُ فِي غَيْدٍ
 وجعل يؤنب خالدا ، فقال خالد :

يذكرها وهذا أسلوب معروف لهم ، ودعما : جمع أدهم ، وهو الأسود ، وجلادا : صلابا ،
 والأشياء بالفتح والمد : صغار النخل وقيل النخل عامة واحدة أشاة (١) السليب : الذى سلب
 ماله ، استعاره من الشجر يسلب ورقه ويعزى منه ، والمضارب : جمع مضرب : حد السيف ،
 يقول : لما جمعت من الخيل الدم الجلاد ما جمعت وأعددتها لى وله ، عدا على بعد
 أن ربيته وبلغ مبلغ الرجال وجردنى من الخيل وتركنى سليبا ، فأشبه حالى حال السيف
 اليمان القاطع تفلل حده (٢) أرعشت كفا أيك : يريد : أبعد أن كبر أبوك وبلغ
 من الكبر عتيا وأصبحت أنت شابا قويا ، تجترئ عليه وتمينه وتضربه

(٣) أبو ذُؤَيْبٍ هذا هو الشاعر أبو ذُؤَيْبٍ الهذلى ، وخالد هو ابن أخته ، والمرأة
 هى امرأة رجل يقال له عبد عمرو بن عامر من بنى عامر بن صعصعة ، انظر أمثال
 المبدانى فى شرحه هذا المثل ، ولا تجزعن من سيرة أنت سرتها ، ،

فلا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا البيت
 ولأُمَيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ الشَّاعِرِ الجَاهِلِيَّ (١) أَيْيَاتُ حَسَانٍ يَشْكُو فِيهَا هُوَ
 الْآخِرُ ابْنَهُ الَّذِي عَقَّه وَأَسَاءَ إِلَيْهِ : وَقَدْ اخْتَارَهَا أَبُو تَمَامٍ فِي حِمَاسِهِ قَالَ :
 غَذَوْتُكَ مَوْلُودًا وَعُائِكَ يَا بَعَا تُعَلُّ بِمَا أُذْنِي إِلَيْكَ وَتُنْهَلُ (٢)
 إِذَا أَيْلَةُ نَابَتِكَ بِالشَّكْوِ لَمْ أَبْتَ إِشْكُوكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلُّ (٣)
 كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طُرِقْتَ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تَهْمَلُ (٤)
 فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُ
 جَعَلْتُ جِزَائِي مِنْكَ جَبْهًا وَغُلْظَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْذِمُ الْمُتَفَضَّلُ (٥)

(١) اسمه عبد الله بن ربيعة بن عوف من بني بكر بن هوازن . وكان ممن حرّم الخمر في الجاهلية ورفض عبادة الأوثان والتمس الدين وطمع في النبوة فلما بعث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه
 (٢) وعلتك : من عال عياله يعولهم : كفاهم معاشهم ، ويروى : ومثلك ، من مان أهله يموئهم مونا : أنفق عليهم ، ويافعا : شابا ، من أيقع الغلام مثل أبقل الموضع فهو ياقل وأورق الثبت فهو وارق وأورس فهو وارس وأقرب فهو قارب : إذا قربت إليه من الماء ليلا ، وكلهن نواذر ، وتعل من عله يعله : سقاه ثانية ، وتهل من أنهله : سقاه أول سقية ، يريد ، إطعامه وسقيه مرة بعد أخرى
 (٣) الشكو : المرض نفسه قاله الليث وأنشد :

أَخِي إِنْ تَشَكَّى مِنْ أَدَى كُنْتُ رَطِبُهُ وَإِنْ كَانَ ذَاكَ الشَّكْوُ بِي فَأَخِي طِبِّي
 وأتملل : يريد يتقلب على فراشه من غمه عليه . قال اللغويون : إذا بنا بالرجل مضجعه من هم أو وصب قيل قد تملل ، وأصله أتملل ، من الملة وهي الرماد الحار يدفن فيه الخبز لينضج كأن المتقلب على فراشه من الهم يتقلب على تلك الملة
 (٤) المطروق من طرقة الهم يطرقة - بالضم - طرقا : أنهاء ونزل به ، مجاز من طرق القوم : جاءهم ليلا ، وتهمل : تسيل وتفيض وقد هملت عينه تهمل - بالضم والكسر - هملا وهملانا : سالت وفاضت (٥) جبها مصدر جبها بالمكروه : استقبله به ، وذلك مجاز من جبها : صك جبته . ويروى : جعلت جزائي غلظة وفضاظة

فَلَمَّا تَرَكَ إِذْ لَمْ تَرَ حَقَّ أَبَوَيْ قَعَلَتْ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ^(١)
وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِهِ الْمَفْنَدِ رَأَيْهُ وَفِي رَأْيِكَ التَّفْنِيدُ لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ^(٢)
تَرَاهُ مُعَدًّا لِلْخِلَافِ كَأَنَّهُ بَرَدٍ عَلَى أَهْلِ الصَّوَابِ مُوَكَّلٌ^(٣)

* * *

ومن المستطرف من أقوالهم في الأولاد المتخلفين : ما يُروى أن رجلاً
بعث ابنه لِيَشْتَرِيَ حَبَلًا ، فقال له : أَجْعَلُهُ عَشْرِينَ ذِرَاعًا ، فقال الولدُ :
فِي عَرَضٍ كَمْ ؟ قال : فِي عَرَضٍ مُصَيِّتِي فِيكَ .. وَكَانَ لِأَبِي الْعَبَّاسِ الْمَبْرَدِ
صَاحِبِ الْكَامِلِ ابْنٌ مُتَخَلِّفٌ ، فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا : غَطَّ سَوْءَ تَكْ ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى
رَأْسِ ابْنِهِ .. وَقِيلَ لَصَبِي : لِمَ لَا تَتَعَلَّمُ الْآدَبَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكْذِبَ
وَالدِّي ، لِأَنَّهُ قَالَ لِي : إِنَّكَ لَا تَقْلُحُ أَبَدًا ...

* * *

هذا وكما أن لوالدك عليك حقًا كذلك لولدك عليك حق : وما ورد
في ذلك ما جاء في الحديث : مَنْ حَقَّ الْوَلَدُ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحْسِنَ آدَبَهُ ، وَأَنْ
يُعِفَّهُ إِذَا بَلَغَ . « أَنْ يُحْسِنَ آدَبَهُ : أَنْ يُعْنِيَ تَرْبِيَتَهُ وَتَهْذِيبَهُ وَتَعْلِيمَهُ ،
وَأَنْ يُعِفَّهُ : أَيْ يَعْمَلْ عَلَى أَنْ يَكُونَ عَفَاً عَنِ الْحَرَامِ فَيُزَوِّجَهُ » ... وَقَالَ حَكِيمٌ
مَنْ آدَبَ وَلَدَهُ صَغِيرًا ، سُرَّ بِهِ كَبِيرًا ، وَقَالُوا : مَنْ آدَبَ وَلَدَهُ ، أَرْغَمَ حَاسِدَهُ .
وَمَنْ آدَبَ الْإِسْلَامَ : إِذَا بَلَغَ أَوْلَادُكُمْ سَبْعَ سِنِينَ فَزَوِّجُوهُمْ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ
وَإِذَا بَلَغُوا عَشْرًا فَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا ، وَإِذَا بَلَغُوا ثَلَاثَةَ عَشَرَ فَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي
الْمُضَاجَعِ ؛ وَمَنْ كَلَامُهُمْ : لَا عِبَّ ابْنُكَ سَبْعًا وَعَلَيْهِ سَبْعًا وَجَالَسَ بِهِ إِخْوَانُكَ

(١) كما الجار المجاور يفعل : أي كما يراعى الجار حق الجوار من الوفاء به

(٢) المَفْنَد رَأَيْهُ : اسم مفعول من فند رَأَيْهُ : خطأ (٣) معدا : اسم فاعل ،

أعد الأمر عدته : هياه له

سبعاً يَتَّبِينَ لَكَ أَخَافُ هُوَ بَعْدَكَ أُمُّ خَلْفُ « الْخَلْفُ - بفتح اللام : الولد الصالح ، والخلف - بسكونها : الطالح ، تقول : أعطاك الله خَلْفًا مما ذهب لك ولا تقل خَلْفًا ، وتقول أنت خَلْفُ سَوْءٍ من أبيك ، هذا هو الأعرف عند أهل اللغة ^(١) » وقال رجل لأبيه . يا أبت ، إن عَظِيمَ حَقِّكَ عَلَيَّ لَا يُذْهِبُ صَغِيرَ حَقِّي عَلَيْكَ ، وإن الذي تَمُتُّ بِهِ إِلَى أُمِّتٍ بِمِثْلِهِ إِلَيْكَ ، ولستُ أَرْعَمُ أَنَا عَلَى سِوَاءٍ ، ولكن لا يَحِلُّ الاعتداء ...

وقالوا : إِنَّ الْوَلَدَ الْبَارَّ أَبَرُّ مِنَ الْوَالِدِ ، لِأَنَّ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ طَبِيعَةٌ ، وَبِرُّ الْوَلَدِ وَاجِبٌ ، وَالْوَاجِبُ أَبَدًا ثَقِيلٌ ، وَلَعَلَّ الْمُنْبِيَّ يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمُنَى إِذَا يَقُولُ :

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَا طَعُ أَحَنَى مِنْ وَاصِلِ الْوِلَادِ

وبما يستطرف في هذا الباب ما يروى من احتجاج بعض العققة لعقوقهم : فقد قيل لبعض الفلاسفة : لِمَ تَعُقُّ وَالِدَيْكَ ؟ قال : لِأَنَّهُمَا أَخْرَجَانِي إِلَى السَّكُونِ وَالْفَسَادِ ... وَضَرَبَ رَجُلٌ أَبَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَمَا عَرَفْتَ حَقَّهُ ؟ قال : لَا ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ حَقِّي ، قِيلَ : فَمَا حَقُّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ ؟ قال : أَنْ يَتَخَيَّرَ أُمَّهُ ، وَيُحَسِّنَ اسْمَهُ ، وَيُخْتِنَهُ ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ عَوْرَتِهِ فَإِذَا هُوَ أَقْلَفٌ - لَمْ يُخْتَنَ - وقال : آسَمِي بُرْعُوث ... وَلَا أَعْلَمُ حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ اسْتَوْلَدَنِي مِنْ زَنْجِيَّةٍ ... فَقِيلَ لِلْوَالِدِ : احْتَمَلْهُ ، فَإِنَّكَ تَسْتَأْهِلُ ...

(١) قال الله عز وجل : غُلْفٌ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ، وَقَالَ لَبِيدُ :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

وعبر رجل ابنه بأمه، فقال الابن: هي والله خير لي منك، لأنها أحسنت الاختيار فولدتني من حُرٍّ، وأنت أسأت الاختيار فولدتني من أمة... وقال رجل لابنه: ما أطيب الشكل يا بني! فقال الابن: اليتم أطيب منه يا أبت! وقيل لبعضهم: أي ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتى يكبر، ومربضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يقدم...

وأقول: وإنما قال صغيرهم حتى يكبر، لأن كبير الأولاد في العادة قلما يظفر من حب أبيه بمثل ما يظفر به الصغير، وقد قالوا في ذلك ما بين عن السبب، وهو ما روى أن رجلاً من العرب رأى بنه يثبون على الخيل وقد تنادوا بالغارة، فذهب يروم ذلك مرة وثانية فلم يقدر، فقال: من سره بنوه ساءته نفسه... وفي ضد هذا المعنى يقول أكرم بن صيفي حكيم العرب:

إِنَّ بَنِي صَيْفِيٍّ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُونَ

يقال أضاف الرجل يصيف إضافة: إذا لم يولد له حتى يُسنَّ ويكبر وأولاده صيفيون، والواحد صيفي، والرَّبْعِيُّونَ: الذين ولدوا في حدائمه وأول شبابه، ولما حضرت سليمان بن عبد الملك الوفاة تمثل بهذا البيت لأنه لم يكن في أبنائه من يُقلده العهد بعده، ومعنى ذلك عندهم: أن الأولاد الكبار أفضل من الصغار لدى الوالد، ولا سيما إذا كبر. وهذا على نقيض قول القائل: من سره بنوه ساءته نفسه، وإن كان لكل وجهة هو موليها،



وناول عمر بن الخطاب رجلاً شيئاً فقال له: خذ ملك بنوك، فقال عمر: بل أغنانا الله عنهم.

وكان يقال : ابْنُكَ رَيْحَانُكَ سَبْعًا ، وَخَادِمُكَ سَبْعًا ثَمَّ عَدُوٌّ أَوْ صَدِيقٌ ...
وفي الأثر : رَيْحُ الْوَلَدِ مِنْ رَيْحِ الْجَنَّةِ ...

وكان رسول الله يُقْبَلُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ حَفِيدُ الْمُصْطَفَى -
يَوْمًا ، فَقَالَ الْاَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ : إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنَ الْاَوْلَادِ مَا قَبِلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ ،
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : فَمَا أَصْنَعُ إِنْ كَانَ اللَّهُ تَزَعِ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ !

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ انْقَطَعَ
عَمَلُهُ ، إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ .
وقالوا : خَيْرُ مَا أُعْطِيَ الرَّجُلُ بَعْدَ الصَّحَةِ وَالْأَمْنِ وَالْعَقْلِ وَلَدٌ مُوَافِقٌ .
من زوجةٍ موافقةٍ * وَمُتَعَةٍ الْعَيْشِ بَيْنَ الْاَهْلِ وَالْوَلَدِ *

وكانت الْعَرَبُ تُسَمِّي مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ صُنْبُورًا ، وَالصُّنْبُورُ فِي اللُّغَةِ : الْاَبْتَرُ
لَا عَقِبَ لَهُ وَلَا أَخٌ ، فَإِذَا مَاتَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ وَكَانَ كَفَّارُ قُرَيْشٍ يُطْلَقُونَ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ : صُنْبُورًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْاَبْتَرُ « شَانِكَ :
مِبْغُضُكَ ، وَالْاَبْتَرُ الَّذِي لَا عَقِبَ لَهُ » ...

وقال حكيم في مَيِّتٍ : إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَهُوَ حَيٌّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ
فَهُوَ مَيِّتٌ

ومن أمثال العرب : ابْنُكَ ابْنُ بُوْحِكَ « أَيْ ابْنُ نَفْسِكَ لَا مِنْ تَبْنِيَّتِهِ ،
ومثله : وَلَدُكَ مِنْ دَمِي عَقْبِيكَ » يعنون : الَّذِي نَفْسُكَ بِهِ فَأَدْمَى النَّفْسُ
عَقْبِيكَ ، أَيْ : ابْنُكَ مِنْ وَلَدِيَّتِهِ لَا مِنْ تَبْنِيَّتِهِ ، وَقِيلَ لِلْحَكِيمِ : مَا السَّعَادَةُ ؟ قَالَ :
أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ ابْنٌ وَاحِدٌ ، قَلِيلٌ لَهُ : الْوَاحِدُ يُخْشَى عَلَيْهِ الْمَوْتُ ! قَالَ :
لَمْ تَسْأَلُونِي عَنِ الشَّقَاوَةِ ...

وهناك فريق من الناس يذهبون إلى ذمِّ الولد وقلة جدّواه : وما يروى في هذا الباب أنه قيلَ لبعض الزهّاد : هلّا تزوّجت ؟ فربما يكون لك خلف ؟ فقال : كفى بالزهيد فيه قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ؛ وقوله سبحانه وتعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... وقالوا : قِلَّةُ العيالِ أحدُ اليسارين ، وقال المتنبي :

وما الدهرُ أَهْلٌ أن يُومَلَ عنده حياةٌ وأن يُشتاقَ فيه إلى الدّسلِ
هَلِ الْوَلَدُ الْمَحْبُوبُ إِلَّا تَعِلَّةٌ

وهلْ خَلْوَةُ الْحَسَنَاءِ إِلَّا أَذَى الْبُعْلِ (١)

وقد ذُفِتْ خُلُوءُ الْبَنِينَ عَلَى الصَّبَا فلا تحسبني قلتُ ما قلت عن جهلٍ
وقال المَعْرِي - وهو إمام السّاخطين ، « أو المتشائمين كما يقولون اليوم » - :

أَرَى وَلَدَ الْفَتَى عَيْشًا عَلَيْهِ لَقَدْ سَعِدَ الَّذِي أَضْحَى عَقِيمًا
فَإِمَّا أَنْ يُرَبِّيَهُ عَدُوًّا وَإِمَّا أَنْ يُخَلِّفَهُ يَتِيمًا
وَإِمَّا أَنْ يُصَادِفَهُ حِمَامٌ فَيَبْقَى حُزْنُهُ أَبَدًا مُقِيمًا

وَبُشِّرَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بِابْنٍ فَقَالَ : لا مرحبا بمن إن كنت غنيا أذهلني ،
وإن كنت فقيرا أتعبي ، لا أرضى كدّي له كدّا ، ولا سعيي له في الحياة
سعيًا ، أهتم بفقره بعد وفاتي ، حين لا ينالني به سرور ، ولا يهيمه لي حزن ،
وأصحّر الحسن يوما - أي ذهب إلى الصحراء - فرأى صيادا فقال : ما أكثرُ

(١) تعلة : يقال : فلان يعمل نفسه بتعلة : أي لهاها به كما يعمل الصبي بشيء من الطعام يتجرأ به عن اللب . يقول : إن السرور بالولد المحبوب لا يدوم وإنما هو تعليل إلى وقت ، ثم قال : وخلوتك بامرأتك أذى لك في الحقيقة لأنها تجلب لك ولدا تغم من أجله وتتأذى بتربيته وربما كانت العاقبة إلى الشكر

ما يَقَعُ في شبكتِكَ؟ قال: كلُّ طيرٍ زاقٍ «أى يَزُقُّ أفراخه أى يُطعمها
 بفيه»، فقال الحسن: هلك المُعِيلون «أى الذين لهم عيال كثير»،
 وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم لأحد ابْنَيْ بَيْتِهِ: إِنَّكُمْ لَتُجَبَّنُونَ
 وَإِنَّكُمْ لَتُجْلُونَ وَإِنَّكُمْ لَمِنْ رِيحَانِ اللَّهِ، وفي الحديث أيضا: الولدُ مُجَبَّنَةٌ
 مُجْهَلَةٌ مُبْخَلَةٌ.. «يقول عليه السلام: إِنَّ الْوَلَدَ يَحْمِلُ أَبَاهُ عَلَى الْجُبْنِ، فَلَا
 يُجَاهِدُ وَلَا يَشْجَعُ، لِأَنَّهُ يُحِبُّ الْبَقَاءَ لِأَجْلِهِ، وَعَلَى الْجَهْلِ، بِمُلَاعَبَتِهِ إِيَّاهُ
 وَتَرْوِيلِهِ إِلَى مُسْتَوَاهُ، وَتَرْكِهِ الْعَقْلَ وَمُقْتَضَاهُ، أَوْ بَاشْتِغَالِهِ بِهِ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ،
 وَعَلَى الْبُخْلِ، لِأَنَّهُ يُبْقِي عَلَى الْمَالِ لِأَجْلِهِ وَيَخْلُ بِهِ وَيَشْجُ»..



ومن أحسن ما قيل في الإشفاق على الأولاد: قول حِطَّانِ بْنِ الْمُعَلَّى - وهو
 شاعرٌ إسلامي، وأبياته هذه في الحماسة -:

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ مِنْ شَاخٍ عَالٍ إِلَى خَفِضٍ
 وَغَالَنِي الدَّهْرُ بِوَفْرِ الْغِنَى فَلَيْسَ لِي مَالٌ سِوَى عِرْضِي
 أَبْكَانِي الدَّهْرُ وَيَا رَبِّمَا أَتَحَكَّنِي الدَّهْرُ بِمَا يُرْضِي
 لَوْلَا بُيُوتُ كَرْزَبِ الْقَطَا رُدِدَنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ
 لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ
 وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا يَبْتِنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
 لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَأَمْتَمَتْ عَيْنِي مِنَ الْقُمْضِ
 «أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ: أَنْزَلَهُ مِنَ الْعِزَّةِ إِلَى الذَّلَّةِ بِحُكْمٍ فِيهِ بِمَا شَاءَ،
 وَمِنْ شَاخٍ: مِنْ جَبَلٍ شَاهِقٍ طَوِيلٍ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَى خَفِضٍ: إِلَى مَطْمَئِنٍّ مِنَ
 الْأَرْضِ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ. وَغَالَنِي الدَّهْرُ: أَخَذَهُ غِيْلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرَ، وَبَوَفَرِ

الغنى : يريد : فى كثرة ماله ، وقوله : فليس لى مال سوى عرضى يريد : لم يبق له الدهر شيئا إلا أتى عليه سوى عرضه فلم يلتقصه . والعرض : قال ابن الأثير : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل : هو جانبه الذى يصونه من نفسه وحسبه ويحامى عنه أن يُلتقص ويُتَلَب ، وقال أبو العباس ثعلب : إذا ذكر عرض فلان فعناه أموره التى يرتفع أو يسقط من جهتها بحمد أو بدم ، فيجوز أن تكون أمورا يوصف هو بها دون أسلافه ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيهم وقول الشاعر :

❖ وَأَدْرِكُ مَيْسُورَ الْغِنَى وَمَعْنَى عِرْضِي ❖ أى أفعالى الجميلة

وقوله : بما يرضى : أى أضحكنى أحيانا بما يرضينى . وقوله : كزغب القطا : واحدها زغباء والذكر أزغب والمصدر الزغب ، وهو أول ما يبدو من ريش الفرخ ، وكذا من شعر الصبي ، وقوله : رُدِّدْن من بعض إلى بعض : تصوير لهيئة تداخل الأفراخ واضمام بعضهن إلى بعض أول نشأتهن ، يصف بناته بأنهن ضعاف لا يستطعن القيام بشؤونهن . ومضطرب : أى اضطراب ، أى تحرك . وأكبادنا : تمثيل لمعنى الشفقة عليهن ، وقد بينها بقوله : لو هبت الريح ... البيت ... والغمض بضم الغين : النوم

❖ ❖ ❖

ويقول إسحاق بن خلف ^(١) - من شعراء الدولة العباسية - فى بنت أخت له

(١) ترجم له صاحب الإغاني وإسحق هذا هو الذى يقول فى صفة السيف :

أَلْقَى بِجَانِبِ خَضْرَه أَمْضَى مِنَ الْأَجْلِ الْمُنْشَاحِ
وَكَاثَمْنَا ذُرَّ الْهَبَا عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ =

تسمى أئمة كان حديبا عليها كلفا بها ، وهي من أبيات الحماسة :

لولا أئمة لم أجزع من العدم ولم أفايس الدجى فى حديد الظلم
وزادنى رغبة فى العيش مغيرتى ذل اليتمة يجفوها ذوو الرجم
أحاذر الفقر يوما أن يُسلم بها فيهلك الستر عن لحم على وضم
تهوى حياتى وأهوى موتها شققا

والموت أكرم نزال على الحرم

أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ

وكنت أبقى عليها من أذى الكلم

«العدم: الفقر، وقوله: فيهلك الستر، فالهتك: جذبك الستر تقطعه من موضعه
أو تشق منه جزءا فيبدو ماوراءه، وإسناده إلى الفقر مجاز، وقوله عن لحم
على وضم، فالوضم: ما وضع عليه اللحم من خشب ونحوه، وكانت العرب فى
باديتها إذا نُحر بغير للحى بقسمونه، تقلع شجرا وتضع عليه اللحم مُقطعا
ياخذ منه كل شريك قسمة ولم يعرض له أحد، وكانت تضرب المشل فى

= وهو الذى يقول فى مدح العريية من أبيات :

النحو يبسط من لسان الالكن والمرء تكرمهُ إذا لم يلحن
قال المبرد: وأحسبه أخذ قوله: والمرء تكرمهُ إذا لم يلحن من حديث حدثنا
به عن الأصمعى قال: كان يقال: ثلاثة يحكم لهم بالنبل لا يدري من هم: رجل رأته
راكبا فى شارة حسنة، أو سمعته يعرب، أو شممت منه طيبا. وثلاثة يحكم عليهم
بالاستصغار حتى يدري من هم: رجل شممت منه رائحة نبيذ فى محفل، أو سمعته فى
مصر عربى يتكلم بالفارسية - أو الفرنسية أو الانكليزية أو غيرهما من اللغات - ورجل
رأته على ظهر طريق ينازع فى القدر .. ما طيب هذا الكلام وأسماء وألقبه
بأخلاق السادة ..

ضعف النساء وقلة امتناعهن على طُلابهن إِلَّا أَنْ يَدَّعْنَهُنَّ ، بذلك اللحم مادام مع الوضوء .
 وقوله : شفقًا ، أى خيفة ، وقد شفق يشفق - بالفتح - وأشفق عليه يشفق :
 خاف ، وقوله : والموت أكرم نزال على الحَرَم ؛ فالحرم ، جمع حُرمة ، وهى
 عيال الرجل ونساؤه ، يريد : أن الموت أكرمُ ضيف ينزل عليهن ، وفى هذا
 المعنى قولهم .. دَفَنُ البنات ، من المسكُرمات ، وسيمر عليك كلامهم فى هذا المعنى
 فى باب النساء ، وقوله : وكنت أبقي عليها : من أبقيت عليه : إذا أرعيت عليه
 ورحمته « ... وقال عمرانُ بنُ حِطَّان - وقد كان رأسَ القَعْدِ من الصُّفْرىة
 » طائفة من الخوارج ، وكان خطيبهم وشاعرهم ، وهو من التابعين :-

اقدْ زاد الحِياةَ إِلَى حُبًّا بَنَاتِي أَنَّهُنَّ مِنَ الضَّعَافِ
 مَحَاقَّةَ أَنْ يَرَيْنَ الْبُؤْسَ بَعْدِي وَأَنْ يَشْرِبْنَ رَنَقًا بَعْدَ صَافِ
 وَأَنْ يَعْرِينَ إِنْ كَسَى الْجَوَارِي فَتَذْبُو الْعَيْنُ عَنْ كَرَمِ عِجَافِ
 وَلَوْلَا ذَاكَ قَدْ سَوَّمْتُ مُهْرِي وَفِي الرَّحْمَنِ لِلضَّعْفَاءِ كَافِ
 أَبَا مَنْ لَنَا إِنْ غَبَتْ عَنَّا وَصَارَ الْحَيُّ بَعْدَكَ فِي اخْتِلَافِ

« الرنق : الماء البكر ، وكرم : قال ابن سيده وغيره : رَجُلٌ كَرَمٌ :
 أى كريم ، وكذلك الإِثْنان والجمع والمؤنث تقول : امرأة كرم ونسوة كرم
 لأنه وصف بالمصدر ، وعجاف : جمع عجفاء على غير قياس ، والدجف : الهزال
 وسومت مهري : فالخيل المسومة : الرسالة وعليها ركبائها ، وفى التنزيل العزيز :
 والخيل المسومة ، من قولك سومت فلانا إذا خليته وسومه ، أى : وما يريد ، وقيل
 الخيل المسومة : هى التى عليها السمة والسومة وهى العلامة »

وقال شاعر جاهلى يمدح ابنه لِإِبره به ، وهى من أبيات الحماسة :

رَأَيْتُ رِبَاطًا حِينَ تَمَّ شَبَابُهُ وَوَلَّى شَبَابِي لَيْسَ فِي بَرِّهِ عَتَبُ
 إِذَا كَانَ أَوْلَادُ الرِّجَالِ حَزَازَةً فَأَنْتَ الْحَلَالُ الْحُلُوُّ وَالْبَارِدُ الْقَذْبُ

لنا جانب منه دميثٌ وجانبٌ إذا رآتهُ الأعداءُ مُمتنعٌ صعبٌ
 وتأخذهُ عند المكارمِ هزةٌ كما اهتزت تحت البارحِ الغصنُ الرطبُ
 «قوله ليس في برِّه عتبٌ : يريد ليس في بره لومٌ ولا سخط ، وقوله :
 إذا كان أولاد الرجال حزازةً ، فالحزازة : وجع في القلب من غيظٍ ونحوه
 والجمع حزازات ، وتروى : إذا كان أولاد الرجال مرارةً ، وهي الأنسبُ
 بقوله فأنت الحلال الحلو ، يكنى به عن الرجل الذي لاربية فيه ، على المثل بالحلو
 الحلال مما يُذاق ، يصف طيب أخلاقه ، وقوله : دميث : أى سهل لين ،
 والبارح : الريح تهب من الشمال في الصيف خاصة ،

وقال عمرو بن شأس - وهو شاعر فارس شهد مع سيدتنا رسول الله الحديبية
 وكانت امرأته تُؤذى ابنه عراراً - وكان من أمة سوداء - تُعيره بالسواد
 وتشتمه ، فلما أعت أباه عمرأ أنشأ كلمة عدتها عشرون بيتا اختار منها
 أبو تمام هذه الأبيات :

أرادت عراراً بالهوانِ ومن يُردُّ	عراراً لعمري بالهوانِ فقد ظلم
فإن كنت منى أو تريدنِ صحبتي	فكوني له كالسمنِ ربَّ له الأدم
وإن كنت تهوينِ الفراقَ ظيعتي	فكوني له كالذئبِ ضاعت له الغنم
وإلا فسيرى مثلَ ماسارِ راكبٍ	تجشمَ خسا ليس في سيره يتم
وإن عراراً إن يكن ذا شكيمة	تفاسينها منه فما أملك الشيم
وإن عراراً إن يكن غيرَ واضحٍ	فإن أحبَّ الجونَ ذا المنكبِ العمم

«قوله : فإن كنت منى : نقل الكلام من الإخبار إلى الخطب ومعنى فإن كنت منى : فإن
 كنت توافقينى ، من قولهم فلان مناً . أى : يوافقنا . وقال المرصفي : معناه : فإن كنت
 مثل نفسى سيدة ، وقوله : أو تريدنِ صحبتي : أى أو تكونين مثل غيرك في المعيشة لا حظ

لها في السيادة، وقوله: فكوني له كالسمن: أى كوني له كالسمن الذى لا يتغير،
والرب: خلاصة التمر بعد طبخه وعصره، والأدم: اسم جمع للأديم وهو الجلد
المدبوغ، يريد الأسقية التى يجعل فيها الرب. وكانت العرب تدهن وعاء السمن
بالرب لتمنع فسادَه ويزيد في طيب ريحه، فقوله: رُبّ له الأدم: أى جعل فيه
الرب لئلا يفسد، وقوله وإن كنت تهوين الخ يقول: وإن كنت تؤثرين
مفارقتي مصممة على ذلك فكوني له ذنباً أهملت له الغنم يعيش فيها، ويقال لزواج
الرجل: طعينة، وهى دقيمة، والأصل في الطعينة المرأة فى هودجها وهى سائرة،
وقوله: وإلا فسرى الخ، فالخمس: فلاةٌ بعد ماؤها حتى إر الإبل لتَرِدُهُ فى اليوم
الرابع سوى اليوم الذى شربت فيه وصدرت، واليتم: الفتور والتقصير
والإبطاء، يقول: وإلا فارقتى وسيرى سير راكب تكلف ورود الماء
للخمس، وقوله: وإن عرارا... البيت، فالشكيمة: شدة النفس وإبائها، والشيمة:
الخليقة، وكان عرار هذا حديد القلب ذرب اللسان، يقول: لا أفدر على
تغيير خلقه، فإما أن تلاميذه على ما تقاسينه من حديثه، وإما أن تفارقين فإنه أحب
إلى منك، وقوله غير واضح: أى غير أبيض: مستعار من وضع الصبح
وهو يابضه، والجون هنا: الأسود المشرب حمرة، والمنكب: مجتمع عظم
العضد والكتف، يصفه بالقوة والشدة، والعم: التام، قالوا: كان عرار
هذا أحد فصحاء العقلاء، توجه عن المهلب بن أبى صفرة إلى الحجاج رسولا
في بعض فتوحه، فلما مثل بين يدي الحجاج لم يرفه، وازدراه، فلما استنطقه
أبان وأعرب ماشاء وبلغ الغاية والمراد في كل ما سأل، فأنشد الحجاج
تمثلاً:

أرادت عراراً بالهوان ومن يرذ عراراً لعمرى بالهوان فقد ظلم

فقال عرار : أنا - أيد الله الأمير - عرار ، فأُعْجِبَ به وبذلك الاتفاق .

صلة الرحم : « وبعد » فلنورد بعض ماقلوا في صلة الرحم ، والرحم في الاصل : موضع تكوين الولد ، ثم سميت القرابة رحماً ، فالرحم : خلاف الأجنبي ، وقال ابن الأثير : ذؤو الرحم : هم الأقارب ، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب - قرابة - ويطلق في الفرائض - علم المواريث - على الأقارب من جهة النساء . ويقال : رَحِمَ ورَحِمَ ورَحِمَ ، وهى مؤنثة ، قال زهير بن أبى سُلَيْمٍ :

خُذُوا حَظَّكُمْ يَا آلَ عِكْرِمَ واذكروا

أواصرنا والرحم بالغيب تُذَكِّرُ (١)

ومما ورد في صلة الرحم : قوله جل شأنه : واتقوا الله الذى تَسَاءَلُونَ به والأرحام . أى واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وفى قراءة : والأرحام بالخفض ، وإذن يكون المعنى : تَسَاءَلُونَ به وبالأرحام ، وهو قولهم : نشدتك بالله وبالرحم . . . ، وقال صلى الله عليه وسلم : الرحم شُجْنَةٌ من الله - وفى رواية : من الرحمن - معلقة بالعرش تقول اللهم صلِّ مَنْ وَصَّائى واقطعْ مَنْ قَطَعْنى ... قال الجوهري : الشجنة بالضم والفتح والكسر : عروق الشجر المشتبكة ، و : بينى وبينه شجنة رحم : أى قرابة مشتبكة ، ومن ذا قولهم : الحديث ذو شجون : أى ذو شُعَبٍ وامتسك بعضه ببعض ، وعبارة أبى عبيدة فى تفسير هذا الحديث : شجنة من الله : أى قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق ، شبه بذلك مجازاً واتساعاً ، وأصل الشجنة . شعبة من غصن

(١) من أبيات جميلة تراها فى خزانة البغدادى ج ٢ ص ٢٨٧ وطبعة السلفية ،

من غصون الشجر ثم استعمل اتساعاً في الرحم المشتبكة « وقال عبد الله بن أبي أوفى: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا يجالسنا قاطعُ رحمٍ ، فقام شاب ، فأنى خالته له ، - وكان بينه وبينها شيء - فأخبرها بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستغفرت له واستغفر لها ، ثم رجع والنبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه فأخبره ، فقال النبي : إن الرحمة لا تنزل على قاطع رحم . وفي الحديث : من أحبَّ أن يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ ، ويُنْسَأَ له في أَجَلِهِ ، فليَصِلْ رَحِمَهُ . يُنْسَأُ : يؤخر ومنه الحديث . صلة الرحم مَثْرَاةٌ في المال مَنَسَاةٌ في الأثر . منَسَاةٌ : مفعلة من النَّسَأِ أى عَظَنَهُ له وموضع ، والأثر : الأجل ، وفي الحديث : لا تستنسؤا الشيطان أى إذا أردتم عملاً صالحاً فلا تؤخروه إلى غد ولا تستمهلوا الشيطان ، يريد : أن ذلك مُهْلَةٌ مُسَوَّلَةٌ من الشيطان . ولعل المراد من تبسيط الرزق ومد العمر : البركة والخير والسعادة ورفاعة العيش ، وللعلماء في ذلك كلام كثير راجعه في المطولات ...



وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم : مَنْ كان منهم يؤثر أقرباه بالولايات والعِمَالات وإسناد أمور الدولة إليهم ، فإنما كان ذلك - بعد كفاية الأقرباء واستحقاقهم - للبر صرفاً ، أى امتثالاً لأمر الله في وجوب صلة الرحم ، ومن كان منهم يؤثر الأجانب ويَقْصِي الأَقَارِبَ ويَحْرِمُهُم أعمال الدولة . فإنما كان ذلك للبر أيضاً ، إذ كان ذلك إمعاناً في التورع والتأثم وترَكاً لما يَرِيب إلى مالا يَرِيب ... وفي ذلك يقول الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه : كان عمر يَمْنَعُ أقرباه ابتغاء وجه الله ، وأنا أُعْطِي قراباتي لوجه الله ، ولن يُرى مثلُ عُمر ... فنأمل قوله : ولن يُرى مثل عُمر ... أى لن يبلغ إنسان مبلغه في

الحزم والسياسة الرشيدة وَضَبِطَ النفس أَنْ تَسْتَرْسل مع ما يُشبه الهوى ...
يعنى أَنَّ عُمَرَ أَفْضَلَ مِنِّي، رَضِيَ اللهُ عن الجميع ..

ومما يروى فى معنى حث الأقارب على التعاون: أَنَّ أُنْكَمَ بْنَ صَيْفِيٍّ
حَكِيمَ العرب دعا أولاده عند موته، فاستدعى بِضْمَانَةَ من السهام «أى حُرْمَةَ
منها، لغة فى الإضمائة»، وتقدم إلى كل واحد أَنْ يَكْسِرَهَا، فلم يقدر واحد
على كسرها، ثم بددها وتقدم إليهم أَنْ يكسروها، فاستسهلوا كسرها، فقال:
كونوا مجتمعين، لِيُعْجِزَ من نأواكم «أى عاداكم» عن كسركم، لعجزكم ...
وقال الشاعر فى هذا المعنى:

إِنَّ الْقِدَاحَ إِذَا اجْتَمَعَ قَزَائِهَا بِالْكَسْرِ ذُو حَرْدٍ وَبَطْشٍ أَيْدٍ^(١)
عَزَّتْ فَلَمْ تُكْسَرْ، وَإِنْ هِيَ بُدِّدَتْ فَالْوَهْنُ وَالتَّكْسِيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ
وقال آخر فى هذا المعنى:

إذا ما أراد الله ذُلَّ قَبِيلَةٍ رَمَاهَا بِتَشْقِيَتِ الهوى والنخاذل
«وهذا كما يقال فى الأقارب يقال فى كل جماعة بينهم حُرْمَةٌ تجمعهم، من
وطن وغير وطن، ومما يروى: أَنَّ رجلا من العرب قتل ابن أخيه، فدفع
إلى أخيه لِيَقْتَادَ منه فلما أهوى بالسيف أُرْعِدَتْ يداهُ، فَأَلْقَى السيف من
من يده وعَفَا عنه، وقال: - والبيتان فى الحماسة -:

(١) الحرد بتسكين الراء وبفتحها لغتان: الغضب والغیظ، قال الأشهب
ابن رُمَيْلَةَ:

أَسْوَدُ شَرِّى لَاقَتْ أَسْوَدَ خَفِيَّةٍ تَسَاوَوْا عَلَى حَرْدٍ دُمَاءِ الْأَسَاوِدِ
والأيد: القوى

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعْزِيزَةً إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْهُ وَلَمْ تُرِدْ (١)
 كِلَاهُمَا خَلَفَ مِنْ فَقْدِ صَاحِبِهِ هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ رِذَا وَلَدِي (٢)
 وفي مثل هذا المعنى يقول الحارث بن وَعْلة الذُهلي - وهي من
 أبيات الحماسة - :

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا، أُنْسِمَ، أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
 فَلَيْتَ عَفْوْتُ لَأَعْفُونَ جَلَالاً وَلَيْتَ سَطَوْتُ لَأَوْهَنْتُ عَظْمِي
 لَا تَأْنِسُنْ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ وَبَدَأْتَهُمْ بِالشِّمِّ وَالرَّغْمِ
 أَنْ يَأْبُرُوا نَحْلًا لِعَيْرِهِمْ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي
 وَزَعَمْتُمْ أَنْ لَأَحْلُومَ لَنَا إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِنَدَى الْحِلْمِ
 وَوَطِئْنَا وَطْأً عَلَى حَنْقٍ وَطْأَ الْمُقَيِّدِ نَابِتَ الْهَرَمِ
 وَرَزَكْنَا لَحْمًا عَلَى وَضْمٍ لَوْ كُنْتَ تَسْتَبْقِي مِنَ اللَّحْمِ

• يقول في البيت الأول : قَوْمِي - يَا أُمَيَّة - هم الذين قَتَعُونِي بِأَخِي
 وَوَرَّوْنِي فِيهِ ، فإذا حاولت الانتصارَ منهم عاد ذلك بالنكابة في نفسي ،
 لأنَّ عِزَّ الرجل بعشيرته . وهذا الكلام تحزن وتفجع وليس بإخبار . وقوله :
 فَلَيْتَ عَفْوْتُ ... البيت . يقول : إن تركتُ طلب الانتقام منهم صفحتُ
 عن أمرٍ عظيم . وإن انتقمْتُ منهم أَوْهَنْتُ عَظْمِي : أي أضعفْتُه ، ويقال :

(١) تأساء: تفعال من الأسوة ، يقول : أعزى النفس عنه متأسياً بغيري ممن
 قتل ولده، وقوله إحدى يدي: مبتدأ، وأصابتي خبر، ولم ترد: في موضع الحال، والجملة
 في موضع نصب على أنه مفعول لقوله أقول
 (٢) يقول: كل واحد من الأخ الواتر والابن المفقود يصلح لأن يرضى به عوضاً
 من فقدان الآخر

عفوت من الذنب : إذا صفحت عنه ، والسطو : الأخذ بعنف ، والجلال :
 من الأضداد : يكون الصغير ويكون العظيم ، وهو المراد ههنا . وقوله :
 لا تأمنن قوما ... ألبيتين ، حوّل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب مُتَوَعِّدًا ،
 والرغم : مصدر رغمت فلانا : إذا فعلت به ما يُرْغِمُ أنْفَه ويُذِلُّه ، وقوله :
 أن يأبروا : في موضع نصب على البدل من قوما في البيت الذي قبله ، كأنه
 قال : لا تأمنن أبرّ قويم ظلمتهم نخلا لغيرهم ، يقال : أبرّت النخل وأبرّته :
 إذا لَقَّحْتَه . يقول : إذا ظلمت قوما فلا تأمنهم أن ينتقموا منك فتشتفي
 أعداؤك منك ، فتكون كمن أصلح أمر غيره ، وقال بعضهم : المعنى : إن
 ظلمتونا تحوّلنا عنكم ، فلا يكون لكم بعدنا مُقَامٌ - إقامة - فتتحولون أو
 يملككم العدو ، فيكون ما أبرّنا نحن وأنتم ، لهم دوننا ودونكم ، وقال
 أبو الدلاء المدري : قد اختلف في معنى هذا البيت ، قيل : أراد أنه يُفَارِقُهُمْ
 ويَهْبِطُ هو وتوّه أرضا ذات نخل كان لغيرهم فيدفعونهم عنه ويأبرونه ،
 كأنه يتهدّدُهم بترّخله عنهم ، لأن ذلك يؤديهم إلى الذلّ ، واستدلوا على هذا
 الوجه بقوله في القصيدة :

قَوْضِ خِيَانَكَ وَالتَّمَسْ بِلَدَا يَنَائِي عَنِ الْعَاشِيكِ بِالظُّلَمِ

وقيل : بل يريد أنه يحاربهم فيصلحهم لغيره فيجعلهم كالنخل التي قد
 أبرت ، إذ كان عدوّهم ينال غرضه منهم إذا أعانه عليهم ، وقيل : بل عني
 أنه يسبي نساءهم فتوطأ فيكون ذلك كالإبارة الذي هو تلقيح النخل . قال
 التبريزي : وهذا الوجه أشبه بمذهب العرب بما تقدم ، لأنهم يكونون عن
 النخلة بالمرأة . وقوله : ورعتم أن لاحلوم لنا : فأكثر ما يستعمل الزعم فيما
 كان باطلا أو فيه آرياب ، والحلوم : العقول ، وقرع العصا : كناية عن التنبيه ،

واختلف في أول من قرعت له العصا ، فنبيل عمرو بن الظرب العدواني وقيل عمرو بن جُحمة الدوسي ، وخبرهما : أن كل واحد منهما كان حَكَمًا للرب يتحاكمون إليه في كل مُعضلة ، قالوا : إن العرب أتوا عمرو بن جُحمة يتحاكمون إليه ، فغَلِطَ في حكومته - وكان قد أَسَنَ - فقالت له ابنته : إنك قد صِرْتَ تَهْمُ في حكومتك - أي تغلط - فقال : إذا رأيت ذلك مني فأقرعي العصا ، فكان إذا قرعت له العصا فِطَن . يقول : زعمتم أنه لا عقول لنا وأنا سفهاء ، فإن كان الأمر على ما زعمتم فبهونا أتم ، وهذا تهكم من الشاعر بهم ، وقوله : ووَطِئْنَا ... ألبيت ، فالحنق : الغيظ ، والهرم : شجر ، أو البقلة الحفقاء - هي التي تُسَعَى الرَّجُلَة - ، أو ضَرْبٌ من الحِمَض فيه مُلوحة وهو أذله وأشدّه انبساطا على الأرض واستبطاحا ... وفي المثل : أذل من الهرمة ، يقول : وأثرتُ فينا تأثير الحنق الغضبان كما يؤثر البعير المُقَيَّد إذا وَطِئَ هذا النبات الضعيف ، وَخَصَّ المقيد لأن وطأته أثقل ، لأنه لا يتمكن من وضع قوائمه على حسب إرادته . كما خص الحنق لأن إبقائه أقل . ومن قول العرب : أعوذ بالله من وطأة الدليل ، أي من أن يطأني ، لأن وطأته أشد لسوء مَلَكَتِهِ ، كما قال امرؤ القيس :

فإنك لم يَفْخَرْ عليك كفاخيرٍ ضعيفٍ ولم يَغْلِبْكَ مثلُ مُغَلَّبٍ
وخص الثابت وأراد : الحديث النبات ، وهو أغصن له وأرق ، وروى :
يابِسَ الهرم ، وقوله وتركنا لهما على وضم : فالوضم : الخشبة التي يَضَعُ
الجزارُ اللحمَ عليها يُوقِي بها اللحمَ من الأرض ، أو تقول : خِوانُ الجزار ، وقد تقدم
يقول . تركنا لادفاع بنا كاللحم على الوضم يتناوله من شاء ، ثم قال : لو كنت
تستبقي من اللحم ، أي لو كنت تترك بقية ، قال النربزي : جعل ذلك مثلا

لاستفساده لهم وسماحته بهم،

والعرب تقول في العطف على القريب والحمية له وإن لم يكن وادًا:
«أَنْفَكَ مِنْكَ وَإِنْ ذَنْ»^(١) «وَعِيْصُكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَشَبَّ»^(٢) وقال
قائلهم - وهو حريث بن جابر - :

إِذَا ظَلِمَ الْمَوْلَى قَزَعْتُ إِظْلَمَهُ فَخَرَّكَ أَحْشَائِي وَهَرَّتْ كِلَابِيَا^(٣)

وقيل لأعرابي: مات قول في ابن العم؟ فقال عدوك وعدو عدوك، ولما
مات عبادة بن الصامت بكى عليه أخوه أوس بن الصامت، فقيل له: أتبكي
عليه وقد كان يريد قتلك؟ فقال: حركني للبكاء عليه ارتكاضنا في بطن،
وارتضاعنا من نذري... ودخل رجل من أشراف العرب على بعض الملوك،
فسأله عن أخيه فأوقع به يعيبه ويشتمه، وفي المجلس رجل يشؤد -
يبغضه - فشرع معه في القول، فقال له: مهلاً! إني لا كل لحى ولا أدعه
لأكل... وقال الشاعر - قيل هو زرارة بن سبيع، وقيل فضلة بن خالد، وقيل
دودان بن سعد، وكلهم من بني أسد، شعراء جاهليون، والآيات من الحماسة:

لَعَمْرِي لَرَهْطُ الْمَرْءِ خَيْرُ بَقِيَّةٍ عَلَيْهِ وَإِنْ عَالُوا بِهِ كُلَّ مَرَكَبٍ
مِنَ الْجَانِبِ الْأَقْصَى وَإِنْ كَانَ ذَاغِيَّ جَزِيلٍ وَلَمْ يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجَرَّبٍ

(١) ذَنْ أَنْفَهُ يَذَنْ: إذا سال، والذنان والذنين: الخياط الرقيق الذي يسيل من
الأنف (٢) العيص: منبت الشجر، والأشب: الملتف، ومعنى المثل: أصلك منك
وإن كان ذا شوك مشتبك غير سهل: أي أصلك منك وإن كان أقاربك على خلاف
ما تريد، فاصبر عليهم فإنه لا بد منهم..

(٣) هو الكلب يهر هريراً: إذا نبح وكشر عن أنيابه، ومن طبع الكلب أن
يهز دون أهله ويذب عنهم

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ عَدَى لَسْتَ مِنْهُمْ فِكْلٌ مَا عَلِفْتَ مِنْ خَيْثٍ وَطَيْبٍ
 « عالوا به يريد : علوا به ، كل مركب : صعب أو ذلول ، يريد : وإن
 حملوه مالا يستطيع ، ومن الجانب الأقصى ، يريد : من الحى الأبعد ، وقوله :
 ولم تك منهم ، يروى : * إذا كنت في قوم عدى لست منهم *
 وعدى بالكسر : غرباء ، فأما قوم عدى فقد ورد فيها الضم والكسر
 وقوله : فكل ما علفت : فهذا مثل ، يريد به : المسألة والمدارة ، ويروى للشاعر
 بعد هذا البيت :

فَإِنْ حَدَّثَكَ النَّفْسَ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ فَكَذَّبْ

وقديما أكثروا من شكوى الأقارب : من جهة أنهم يحكم تجاورهم
 وقرابتهم أدنى إلى الحسد والعداوة ، فقالوا : الأقارب عقارب وأنشهم بك
 رحما أشدهم بك لدغا ، وقال بعض حكماء العجم : ثلاث لا يستصاح فسادهم
 بشيء من الحيل : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ، والركاكة في
 الملوك ... ولذلك شكوا من أن عداوة الأقارب أشد على النفس من عداوة
 الأباعد فقالوا : - والقائل طرفة بن العبد - :

وَوَظَلُّ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهَنْدِ
 ونال الشريف الرضى :

وَلِلَّذِلِّ بَيْنَ الْأَقْرَبِينَ مَضَاضَةٌ وَالَّذِلُّ مَا بَيْنَ الْأَبَاعِدِ أَرْوَحُ
 وَإِذَا أَتَاكَ مِنَ الرِّجَالِ قَوَارِصُ فِسْهَامِ ذِي الْقُرْبَى الْقَرِيبَةِ أَجْرَحُ^(١)
 فمنهم من يحمل ويبقى على مقتضيات القرابة ، ويتجافى عن ذنوب

(١) القوارص : جمع قارصة وهي الكلمة المؤذية قال الفرزدق :

قَوَارِصُ تَأْتِينِي وَتَحْتَرُونَهَا وَقَدْ يَمْلَأُ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

أقربائه على الرغم من عدائهم ، فيقولون - والقائل محمد بن عبد الله الأزدي -
صحابي جليل - وهذه الأبيات في الحماسة - :

لَا أَذْفَعُ ابْنَ الْعَمِّ يَمْشِي عَلَى شَفَا وَإِنْ بَلَغْتَنِي مِنْ أَذَاهُ الْجِنَادُ
وَلَكِنْ أُوَاسِيهِ وَأَنْسَى ذُنُوبَهُ لِيَرْجِعَهُ يَوْمًا إِلَى الرَّوَاجِعِ
وَحَسْبُكَ مِنْ ذُلٍّ وَسُوءِ صَنِيعَةٍ مَنَاوَاةُ ذِي الْقُرْبَى وَإِنْ قِيلَ قَاطِعُ

« الشفا : حرف الشيء وحده ، مثل الشفير ، وقد أشفى على الهلاك : أشرف .
والجنادع في الأصل - كما قال أبو خنيفة الدينوري - : الجنادب الصغيرة ، وجنادب
الضب : دواب أصغر من القردان تكون عند جحره فإذا بدت هي
عُلمَ أن الضب خارج فيقال حينئذ : بدت جنادعه ، ثم قيل لأوائل الشر :
بدت جنادعه ، يقول الشاعر : لا أذفعه يمشي على حد الهلاك وإن بالغ في
الإساءة ، والمناوأة : المداواة ، وأصله الهمز يقال : ناواه مُنَاوَاةً : أى عاده ،
وقوله : وإن قيل قاطع : يريد : وإن قيل في ذى القربى إنه قاطع لرحمه فلا
يحملك ذلك على مناوآته ، وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا وَآلِينَا لَا تَنْبِشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا
لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُونَا وَتُكْرِمَكُمُ وَأَنْ نَكْفِيَ الْإِذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا
مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مِنْ نَحْتِ أَثْلَتِنَا سِيرُوا رُويْدًا كَمَا كُتِّمُ تَسِيرُونَا
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا لَا نُحِبُّكُمْ وَلَا نَلُومُكُمْ إِنْ لَمْ تَحْبُونَا
كُلُّهُ نَيْسَةٌ فِي بُغْضِ صَاحِبِهِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ نَقْلِيكُمْ وَتَقْلُونَا

« مهلا : يريد : رفقاً وسكوناً لا تعجلوا ، ويريد بنى عمه : بنى أمية ، وقد
كان في صدورهم أحقاد ، وقوله لا تنبشوا : يريد لا تستخرجوا ما كان بيننا

من العداوة مدفونا في الصدور، وقوله: من نحت أثنتنا، فالأثلة: واحد الأثل وهو من الغضاه شجر طوال مستقيم الخشب ومنه تصنع الأقواح والجفان ونحتها: قشرها أو نشرها، يريد: هلا بني عمنا في إظهار المثالب والمعائب التي تلصقونها بنا، وقوله: كل له نية الخ يريد: إنا وإياكم لعلى طرفى نقيض نحن نبغضكم لاغتصابكم الملك واستيلائكم على أموال المسلمين وأنتم تبغضوننا على قربابتنا من النبي صلوات الله عليه، وقلاه يقلبه قلبه: أبغضه، وقد حذف نون الرفع من تقولنا ضرورة.

وقال ذو الأصبع العدواني: ^(١)

لولا أواصر قربي لست تحفظها ورهبة الله في مؤلى يعاديني
إذن برئيتك برياً لا انجبار له إني رأيته لا تنفك تبريني

ومهم من اضطر إلى الانتقام من أقاربه: أو من تربط بهم آصرة مائمه
مائمه، فقال قيس بن زهير في ذلك:

شقيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شقاني
قتلت ياخوتي سادات قومي وقد كانوا لنا حلى الزمان
فإن أك قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بناني

وقال النبري:

فإنك حين تبلغهم أذاه وإن ظلموا لمحترق الضمير

(١) واسمه مُحَرَّثان بن الحارث بن محرز، شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية، وبيتاه هذان من قصيدة له في ابن عم له اسمه عمرو وهي قصيدة بارعة جداً أولها:

يامن لقلب شديد الهم محزون أمتى تذكّر ليلى أم هارون
وقد ترجم له صاحب الأغاني، انظر الجزء الثالث طبعة دار الكتب،

وقال المتنبي في ذلك :

وكيف يَتَمُّ بأُسْكَ في أناسٍ تُصِيبُهُمْ فَيُؤْلِمُكَ المُصَابُ
وقال البحترى من قصيدة له يمدح بها المتوكل على الله العباسى ويذكر
صلح بني تغلب - :

وفرسانٍ هَيَجَاءِ تَجِيئُشْ صُدُورُهَا بِأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضِيقَ دُرُوعُهَا
تُقْتَلُ مِنْ وَرَى أَعْزَى نُفُوسِهَا عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَاتَكَادُ تُطِيعُهَا
إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فِقَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرَتْ الْقُرْبَى فَمَاضَتْ دِمُوعُهَا
وقال سيدنا على كرم الله وجهه - حين تصفح القتلى يوم الجمل : شَفَيْتُ
نَفْسِي ، وَجَدَعْتُ أَنْفِي - وسيمر بك هذا الكلام بتمامه في موضع آخر من هذا
الكتاب ... ومنهم من يركب رأسه وَيُحِبُّ فِي عِدَاءِ أَقَارِبِهِ خَبًا وَلَا يَبَالِي -
وقد قال قائلهم - أوس بن حبةاء التيمي - :

إِذَا الْمَرْءُ أَوْلَاكَ الْهُوَانَ فَأُولُهُ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوَاصِرُهُ

ويبلغ الحق بهذا الصنف من الناس أن يظهر الأجني على القريب

وقد شبه العرب هذا الصنف بذيئ السوء قال الفرزدق - :

وَكُنْتُ كَذِئْبِ السُّوءِ لَمَّا رَأَيْ دَمًا بِصَاحِبِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدَّمِ
« وهو معلوم أن الذئب إذا رأى بصاحبه دمًا أقبل عليه ليأكله ، وإنه
لبديهي أن هذا التماؤ للآجنبي على القريب لا يُشعر إلا الضرر الموبق ، وقد
قال قائلهم في ذلك - وهو أبو يعقوب الخُرَيْمِيُّ - :

كَانُوا بَنِي أُمٍّ فَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ عَدَمُ الْعُقُولِ وَخِيفَةُ الْأَحْلَامِ

وقد ورد في علاج العداء الذي يحدث بين الأقارب : وهو علاج مُسَكِّن ... ولكنه لا علاج غيره - قولُ أَكْثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ حَكِيمِ الْعَرَبِ : تَبَاعَدُوا فِي الدِّيارِ تَقَارَبُوا فِي الْمَوَدَّةِ ... وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري : مُرْ ذَوِي الْقَرَابَاتِ أَنْ يَتَزَاوَرُوا وَلَا يَتَجَاوَرُوا ... وقال في هذا المعنى وزاد شاعرٌ جاهلي من بني أسد - وكان له ابن عم يترصد له موافع السوء - :

دَاوِ ابْنَ عَمِّ السُّوءِ بِالنَّائِي وَالْغَنَى كَفَى بِالْغَنَى وَالنَّائِي عَنْهُ مُدَاوِيَا
يَسْلُ الْغَنَى وَالنَّائِي أَدْوَاءَ صَدْرِهِ وَيُبِيدِي التَّدَانِي غِلْظَةً وَتَقَالِيَا
أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكُهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوَوَكَّتُهُ بَنِي كَافِيَا

« النَّائِي : البعد ، والغنى : مصدر غني عن الشيء يَغْنَى : استغنى عنه ، وأَطْرَحَهُ فلم يلتفت إليه ، وَيَسْلُ : ينتزع برفق ، وأدواء صدره : أضعفانه وأحقادها ، والتَّدَانِي : يريد إظهار التقارب منه ، وتَقَالِيَا : تباغضا ، وحك بركه : فالحك : إممرار جرم على جرم ، والبرك في الأصل : كل كل البعير ، وهو صدره الذي يدكُّ به مآخذه ، استعاره لاهر ، وقوله . كفى الدهر الخ : يريد : كفى حدَثان الدهر وَحدَه في الاساءة فلا تكون إعاثته وحادث الدهر ماعليه »



ومن كلامهم في الإخوة : ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حَقُّ كَبِيرِ الْإِخْوَةِ عَلَى صَغِيرِهِمْ حَقُّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ ... وَيُرْوَى أَنَّ إِخْوَةَ حَضَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَتَكَلَّمَ أَصْغَرُهُمْ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اَلْكَبَرُ الْكُبْرُ ... « الكبر : جمع الأكبر ، كأخمر وأخمر : أى ليبدأ الأكبر بالكلام ، أرقدوا الأكبر ، إرشادا إلى الأدب في تقديم الأسن ، وقيل لحكيم معه أخ أكبر منه : أهذا أخوك ؟ فقال بل أنا أخوه ... وكان بين الحسن والحسين رضي الله عنهما كلام ، فقيل للحسين : ادْخُلْ

على أخيك فهو أكبرُ منك ، فقال : إني سمِمتُ جدِّي صلى الله عليه وسلم
يقول : أيما اثنين جَرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر ، كان سابقه
إلى الجنة ، وأنا أكره أن أسبقَ أخى الأكبر ، فبلغ قوله أخاه ، فأتاه
عاجلا وأرضاه ...

ومما يتصل بالإخوة وينشعب به القول في هذا الباب : ما يروى في الأخوين
يختلفان في النجابة والتخلف والحسن والدمامة ، فهذا كَيْسٌ رَفِيعٌ ، وهذا أَحَقُّ
وضيح ؛ وهذا جميل ، وهذا دميم ، قال الأصمعي : لم يقل أحد في تفضيل أخ على
أخ وهما لأب وأم مثل قول ابن المعتز لأخيه صخر :

أبوك أبى وأنت أخى ولكن تفاضلتِ المناكبُ والرؤسُ
وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

تفرّد بالعلياء عن أهل بيته وكلُّ يَهْدِيهِ إلى المجدِّ والدِّ
وتختلف الأئمارُ في شجراتها إذا شَرِقَتْ بالماء والماء واحدُ

وقال رجل لأخيه : لَا تُهْجَوْنِكَ ، فقال : كيف تهجونى وأنا أخوك لأبيك
وأملك ؟ فقال :

غُلَامُ أَمَاتَهُ الْأَوْثَمُ مِنْ شَطْرِ نَفْسِهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ شَطْرِ أُمِّ وَلَا أَبِ
وقال رجل لآخر ، وكان هذا الآخر قبيحاً ومعه أخٌ صبيحٌ ، : مَا أَمْلَكَ
إِلَّا شَجَرَةَ الْبَلُوطِ ، تحمل سنةً بَلُوطًا وسنةً عَفْصًا ^(١) وفي هذا المعنى
يقول آخر :

(١) البلوط : أبو فروة ، والعفص : نذرة يكون على شجرة البلوط أو ضرب منه

أَمَّا رَأَيْتَ بَنِي بَذْرٍ وَقَدْ خُلِقُوا كَأَنَّهُمْ خُبْزٌ بَقَالٍ وَكِتَابٌ^(١)

قطيعة الإخوة

ومما جاء في قطيعة الإخوة وتبريرها — والقطيعة الهجران ، ضد الصلة — : ما روى أنه قيل لأعرابي : لِمَ تَقْطَعُ أَخَاكَ شَقِيقَكَ ؟ فقال : أنا أَقْطَعُ الْفَاسِدَ مِنْ جَسَدِي الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْهُ ، فَكَيْفَ لَا أَقْطَعُهُ إِذَا فَسَدَ ! وكتب الفضل بن سهل الوزير إلى المأمون — الخليفة العباسي — : أما بعد ، فإنَّ المخلوع — يريد الأمين أخا المأمون — وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النَّسَبِ وَاللَّحْمَةِ ، فَقَدْ فَرَّقَ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَهُمَا فِيمَا اقْتَضَى عَلَيْنَا مِنْ تَبَا نُوْحٍ ، فَقَالَ : يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا صِلَةَ لِأَخِي فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَلَا قَطِيعَةَ مَا كَانَتِ الْقَطِيعَةُ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَالسَّلَامُ . . . وَقِيلَ لِبُزْرِجِمَرٍ : أَخَوُكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ صَدِيقُكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَحِبُّ أَخِي إِذَا كَانَ صَدِيقًا . وَيُقَالُ : الْقَرَابَةُ مُحْتَاجَةٌ إِلَى الْمَوَدَّةِ ، وَالْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ ، وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تُقَرَّبُ قَاطِمًا وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَنْسَابِ

الناس تجاه البنات

وقد كان الأوائل تُجَاهَ البنات — وكذلك الناس إلى يومنا هذا — قريقين — : فَأَمَّا فَرِيقٌ فَقَدْ كَانُوا يُفَضِّلُونَهُنَّ وَيَحْنُونَ عَلَيْهِنَّ ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ مَا يُرْوَى أَنَّ مَعْنَانَ بْنَ أُوَيْسَ الْمَزَنِيَّ — شاعر إسلاميٍّ من الفحول —

(١) البقال : بائع البقول ، والكتاب : المدرسة يحفظ فيها كتاب الله وما إليه

كَانَ مِثْنَانًا - وَكَانَ لَهُ ثَمَانُ بَنَاتٍ ، وَكَانَ يُحْسِنُ مُحَبَّتَهُنَّ وَرَزَقَهُنَّ ، قَوْلَ لِبَعْضِ عَشِيرَتِهِ بَلَتْ ، فَكَرِهَهَا وَأَظْهَرَ جَزَعًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ مَعْنُ :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَسْكُرُهُنَّ بَنَاتِهِمْ

وَفِيهِنَّ - لَا تُكْذِبُ - نِسَاءُ صَوَالِحٍ

وَفِيهِنَّ - وَالْأَيَّامُ يَعْتُرْنَ بِالْفَتَى - عَ - وَائِدُ لَا يَمْلِكُنَّهُ وَنَوَاحٍ

وَدَخَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ ابْنَتُهُ عَائِشَةُ ، فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : هَذِهِ مُفَاحَةُ الْقَابِ ؛ فَقَالَ : أَنْيْذِمَا عَنْكَ ، قُلْ : وَلَمْ ؟ قَالَ : لَا سَهْنٌ يَلِدُنَ الْأَعْدَاءَ ، وَيُقَرِّبُنَ الْبُعْدَاءَ ، وَيُورِثُنَ الضَّغَائِنَ ^(١) ، فَقَالَ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا عَمْرُو ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا مَرَضَ التَّرَضَى وَلَا تَدَبَّ الْمَوْتَى وَلَا أَعَانَ عَلَى الْأَحْزَانِ مِثْلَهُنَّ ، وَإِنَّكَ لَوَاجِدٌ خَالًا قَدْ نَفَعَهُ بَنُو أُخْتِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : مَا أَعْلَمُكَ إِلَّا حَبَبَتَهُنَّ إِلَى ..

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْبَنَاتُ حَسَنَاتٌ . وَالْبَنُونَ نَعَمٌ ، وَالْحَسَنَاتُ مُثَابٌ عَلَيْهَا ، وَالنَّعَمُ مُسْتَوَلٌ عَلَيْهَا ...

وَأَمَّا الْفَرِيقُ الْآخَرُ فَيَكْرَهُ الْبَنَاتَ : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ - كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَقَدِيمًا قَالُوا : نِعَمَ الْحَتْنُ الْقَبْرِ ^(٢) ... وَدَفَنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرَمَاتِ ...

✽ وَمَا خَتَنُ فِينَا أَعْفُ مِنَ الْقَبْرِ ✽

وَنَظَرَ أَمْرَأَتِي إِلَى بَلْتِ تَدْفِنُ ، فَقَالَ : نِعَمَ الصَّهْرُ صَاهِرْتُمْ ... وَقَالَ

(١) يُوْرَثُ : مِنْ أَرَثَ النَّارَ : أَوْقَدَهَا (٢) الْحَتْنُ : زَوْجُ الْبَنَتِ

الحسين بن علي رضي الله عنه : والد البنت مُتَّعِبٌ ، والدُ بنتَيْنِ مُثْقَلٌ ،
 ووالد ثلاث فعلى الناس أن يُعِينُوهُ ... وقال الزُّهْرِيُّ : كانوا لَا يَرَوْنَ عَلَى
 صاحب ثلاثِ بَنَاتٍ صَدَقَةً وَلَا جِهَادًا ... وكانت العَرَبُ لَا تَأْكُلُ طَعَامَ
 صاحب البناتِ وقد قال قائلهم :

إِذَا مَا الْمَرْءُ شَبَّ لَهُ بَنَاتٌ عَصَبَنَ بِرَأْسِهِ عَتْنَا وَعَارَا

وأد البنات : وناهيك في هذا الباب سُنْعَةٌ وَسُوءٌ صَنِيعَةٌ بما كان العربُ يفعلون
 في الجاهلية من وأد البنات ^(١) ... وما فَتُّوا إِلَى أَنْ أُرْسِلَ سَيِّدُ الْبَشَرِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
 عَلَيْهِ ، فَتَهَى عَنْ ذَلِكَ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَتَعَالَى : وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ
 ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ وكثيراً من الآيات في هذا المعنى المُفْطَع ... ودخل قيس بن
 عاصم المِنَقَرِيُّ - وهو سَيِّدُ أَهْلِ الْوَبَرِ - عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ :
 إِنِّي وَأَدْتُ آفَلْتَنِي عَشْرَةَ بَنَاتٍ ، فَمَا أَصْنَعُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَعْتَقْ عَنْ
 كُلِّ نَوُودَةٍ نَسَمَةً ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فَمَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ
 وَأَنْتَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ مَا لَا ؟ فَقَالَ : خِيفَةٌ أَنْ يَذْكِبَ كَهُنٌّ مِثْلَكَ ^(٢) ، فَتَبْسَمُ رَسُولُ
 اللَّهِ وَقَالَ : هَذَا سَيِّدُ أَهْلِ الْوَبَرِ ... قَالَ قَيْسٌ : مَا وَلَدْتُ لِي ابْنَةً إِلَّا وَأَدْتُهَا
 سِوَى بُنْيَةٍ وَلَدْتُهَا أُمُّهَا وَأَنَا فِي سَفَرٍ ، فَلَمَّا عُدْتُ ذَكَرْتُ أَنَّهَا وَلَدَتْ ابْنَةً
 مَيِّسَةً ... فَأَوْدَعْتُهَا أَخْوَالَهَا حَتَّى كَبُرَتْ ، فَأَدْخَلْتُهَا مَنْزِلِي مُتَرَيِّنَةً ،

(١) وأد بنته يتدما وأدا : دفنها في القبر وهي حية

(٢) هذه عجرفة وعزجبية من هذا الأعرابي الجلف في حق الصديق رضي الله عنه
 وإن كان قيس بن عاصم سَيِّدَ أَهْلِ الْوَبَرِ ، وَمَا أَحْلَمَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلَ
 لِيَتِمَّ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ ، وَالَّذِي أُمِرَ أَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
 الْحَسَنَةِ .

فاستَحَسَنَتُهَا ، فقلتُ : مَنْ هذه ؟ فقالت : هذه ابنتُكَ ، وهى التى أَخْبَرْتُكَ
أنى ولدْتُها ميتةً ، فأخَذْتُها ودفنْتُها حَيَّةً وهى تصيح وتقول : انتُرُكنى
هكذا ؟ فلم أَعْرِجْ عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : من لا يَرْحَمَ لا يَرْحَمُ ...

الخال والخولة

بقى بعد ذلك أن نورد شيئاً مما قالوا فى الخولة والخال : والقول فى ذلك
ينشعب أيضاً ، فقد قالوا فى مَذْحِ الخال وَدَمِّهِ ، وقالوا فى معنى نِزَاعِ
الولد إلى خاله ^(١) ، فَلَمَنَّتْنِي شيئاً مما قالوا فى هذه المعانى ، فأما قولهم فى
اعتبار الخولة وكونها كالأبوة ، فمن ذلك ما يروى أن الأسود بن وهب
خال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليه ، فبسط صلى الله عليه وسلم له
رِدَاءَهُ ، فقال الأسود : حَسْبِي أَنْ أَجْلِسَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ ، فقال صلى الله عليه
وسلم : أَجْلِسْ فَإِنَّ الْخَالَ وَالِدَ ... وَمِنْ طَرِيفِ هَذَا الْبَابِ مَا يَرُوى أَنَّ الْحِجَّاجَ
قَالَ لابْنَ مِعْمَرٍ : إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ابْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُكَ ، فَقَالَ ابْنُ مِعْمَرٍ : أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ :
وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَارِدَ وَسَلِيمَانَ ، إِلَى قَوْلِهِ : وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ، وَإِنَّمَا عِيسَى
ابْنُ مَرْيَمَ : ابْنُ بَنَتٍ ، فَقَالَ نَجَّوْتَ ... وَأَمَّا مِنْ عَدِّ الْخَوْلَةِ لَيْسَتْ مِنَ الذَّنْبِ
وَالْفِرَاقَةِ ، فَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ - وَالْقَائِلُ صَمْرَةَ بْنُ ضَمْرَةَ بْنِ جَابِرِ بْنِ قَطَنَ
- شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ - وَقِيلَ غَيْرُهُ - :

إِذَا كُنْتَ فِي سَعْدٍ وَأَمْلَكَ مِنْهُمْ غَرِيباً فَلَا يَغُرُّكَ خَالُكَ مِنْ سَعْدٍ

(١) نزع فلان إلى أبيه أو خاله ينزع نزوعاً ونزاعاً : ذهب إليه وأشبهه ، ومثله نزع
الإنسان إلى أهله والبعير إلى وطنه نزاعاً ونزوعاً : حنً واشتاقاً

فَإِنَّ ابْنَ أُخْتِ الْقَوْمِ، مَصْغَى إِيَّاهُ إِذَا لَمْ يُزَاجِمْ خَالَه بِأَبٍ جَلَدٍ^(١)
 وتقدم شابٌّ إلى عبد الله بن الحسين رضى الله عنه فقال : إِنَّ جَدِّي أَوْصَى
 بِثُلْثِ مَالِهِ لَوْلَدٍ وَلَدِهِ ، وَأَنَا مِنْ وَلَدِ بِنْتِهِ ، وَالْوَصَى لَيْسَ يُعْطِينِي مِنْهُ ، فَقَالَ :
 لَاحِقٌ لَكَ فِيهِ ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنُوهُمْ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْإِبَاعِدِ
 « يقول : إن بنى أبنائنا مثل بنينا ، أما بنو بناتنا فليسوا منا وإنما هم أبناء
 الأجانب ، فبنونا خبر مقدم وبنو أبنائنا مبتدأ مؤخر ، وهذا البيت لا يعرف
 قائله على مُهَرَّرَتِهِ . قال الإمام العيني : هذا البيت استشهد به النحاة على جَوَازِ
 تقديم الخبر ، والفرَضِيُّونَ - علماء المواريث - على دخول أبناء الأبناء
 في الميراث وأن الانتساب إلى الآباء ، والفقهَاءُ كذلك في الوصية ،
 وأهلُ المعاني والبيان في التشبيه ، ولم أر أحدا منهم عَزَّاهُ إلى قائله »
 وقالوا في نزاع الولد إلى خاله :

عَلَيْكَ الْحَالُ إِنَّ الْحَالَ يَسْرِي إِلَى ابْنِ الْأُخْتِ بِالشَّبَةِ الْمُبِينِ
 وقالوا :

لِكُلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ يَقَرُّ بِعَيْنِهِ
 وَفُرَّةُ عَيْنِ الْفَسْلِ أَنْ يَصْحَبَ الْفَسْلَا
 وَتَعْرِفُ فِي تَجْدِ امْرِئٍ تَجْدَ خَالِهِ
 وَيَسْذُلُ أَنْ تَلْقَى أَخَا أُمِّهِ نَذْلًا

(١) مَصْغَى إِيَّاهُ : نقص حظه ، يقال أصغى فلان إِيَّاهُ فلان : إذا أماله ونقصه
 من حظه يقول هذا الشاعر : لا تغتر بخولتك فإنك منقوص الحظ مالم تزاجم أخوالك
 بآباء شراف وأعمام أعزة .

« الفصل : النذل الذى لامرؤة له ولا جلد » وقال رافع بن هريم :-
 شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم ، يخاطب بنى أخوته :-

قَهْلًا عَيْرَ عَمَّكُمْ ظَلَمْتُمْ إِذَا مَا كُنْتُمْ مُتَظَلِّينَا
 عَفَارِيثًا عَلَى وَأَكْلٍ مَالِي وَجُبْنَا عَنْ رِجَالٍ آخِرِينَا
 وَلَوْ كُنْتُمْ لِمُكَيْسَةٍ أَكَاكُتْ وَكَيْسُ الْأَثَمِ كَيْسُ اللَّبِينَا
 وَلَكِنْ أَمَّكُمْ حَقَّتْ فَجْتُمْ غِثَانًا مَا نَرَى فِيكُمْ سَمِينَا

وموضع هذه الايات باب إنجاب الادهيات فى كتاب النساء وترى نظائرله هناك
 « قوله متظللينا ، تقول : تظللنى مالى : أى ظلمنى مالى ، و « ما » فى : إذا ما كنتم :
 زائدة ، والمكيسة : المرأة التى تلد أولادا أكياسا ، وأكاست المرأة : ولدت
 ولدا كيسا ، والكيس : خلاف الحق ، ورجل كيس : أريب ظريف ، وقوله :
 ولكن أمكم حقت : أى صارت حقا ، والغثا : جمع غيث بمعنى مهزول ،

مدعو القرابة البعيدة

ومما يستطرف من محاسنهم فى مدعى القرابة البعيدة : قول رجل لآخر :
 لست ترعى حقى وبيننا قرابة ا فقال : من أين ؟ قال : إن أباك كان قد خطب
 أمى ، فلو تم الامر لكنت أنا أنت ... فقال : هذه والله رِجْمٌ مائة ...
 وتعرض رجلٌ لهشام بن عبد الملك وأدعى أنه أخوه ، فسأله : من أين ذلك ؟
 قال : من آدم ! فأمر بأن يُعطى درهما ، فقال : لا يُعطى مثلك درهما ،
 فقال هشام : لو قَسَمْتُ ما فى بيت المال على القرابة التى ادَّعَيْتَهَا لم يَتَلَكَّ
 إلا دُونَ ذلك ... وفى هذا المعنى - معنى ادعاء القرابة وانتفاؤها -
 يقول حسان بن ثابت :

لَعْمُرِكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كِبَالُ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النِّعَامِ ^(١)

محاسنهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى

ولنعطف على سائر محاسنهم في الآباء والأبناء والقربات من بابات شتى :
تخبر ذلك تفاخرهم بالحسب وكرم المحدث ، قال عدى بن أرطاة لإياس : دُلَّنِي
على قوم من القُرَاءِ أَوْلِيَهُمْ ، فقال : القُرَاءُ ضربان : ضربٌ يعملون للدنيا ،
فما ظنُّكَ بهم : وضربٌ يعملون للآخرة فلا يعملون لك ، ولكن عليك
بأهل البيوتات الذين يستحيون لأحسابهم ... وقال زهير بن أبي سلمى :
وما يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وقال :

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطُّ إِلَّا وَشِيجَهُ وَتُعْرُسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النُّخْلُ
« الخطى : الرمح ، قال أبو حنيفة الدينوري العالم النباني الأشهر : الخطى :
الرمح ، وهو نسبة قد جرى مجرى الاسم العلم ونسبته إلى الخط ، خط البحرين ،
وإليها ترقأ أنسفن إذا جاءت من أرض الهند ، وليس الخطى - الذي هو الرمح -
من نبات أرض العرب . وزاد الجوهرى : وإنما نسبت إلى الخط لأنها تحمل
من بلاد الهند فتقوم به . وشيجه : فالوشيج شجر الرماح ، ...
ودخل بعض أولاد عبد الله بن الزبير على سليمان بن محمد . فجلس على مُمرقة

(١) الإل : القرابة ، والسقب : ولد الناقة ، والرأل : ولد النعام ، بهجو حسان
أبا مفيان الحارث بن عبد المطلب ، وزعم بعضهم أن هذا الشعر يقوله حسان لعقبة بن
أبي معيط ، وذكروا أنه كان لونية ولذلك قال له عمر حين أمر رسول الله بضرب
عقبة ، فقال : أقتل من بين قريش صبوا ، فقال عمر : « حَقَّ قَدْجَ لَيْسَ مِنْهَا ،

«الوسادة يتكأ عليها ، فاخاظ من ذلك وقال : مَنْ أَجْلَسَكَ دَهْنًا ؟ قال : صَفِيَّةٌ
بَلَتْ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ : فَسَكَنَ فَضْضَهُ . وقال أبو تمام :

تَسَبَّ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نُورًا وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودًا

وقالوا فيمن يشبه أباه في علاء ابنتاه : شَيْشَنَةُ أَعْرِفُهَا مِنْ أَحْزَمٍ ^(١) وَ :
وإنَّ امْرَأَةً فِي الْفَضْلِ أَشْبَهَتْ جَدُّهُ وَوَالِدَهُ الْأَذْنَى لَغَيْرِ ظُلُومِ
وقال أبو تمام فيمن مكارمُهُ تَدُلُّ عَلَى كَرَمِ أُسْلَافِهِ :

'فُرُوحٌ لَا تَرِفُّ عَلَيْكَ إِلَّا شَهِدَتْ بِهَا عَلَى طِيبِ الْأَرْوَمِ ^(٢)
وَفِي الشَّرَفِ الْحَدِيثُ دَالِلٌ صَدِيقٍ لِمُخْتَبِرٍ عَلَى الشَّرَفِ الْقَدِيمِ
وقال عامر بن الطفيل ^(٣) في المستغنى بنفسه عن حسيبه :

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنُ فَارِسٍ عَامِرٍ وَفِي السَّرِّ مِنْهَا وَالصِّمِّ الْمُهَذَّبِ ^(٤)
فَمَا سَوْدَتُنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاقَةٍ أَبَى اللَّهُ أَنْ أَشْتُمُ بِأَتَمٍّ وَلَا أَبِ
وَلَكِنِّي أَنَحِي جَاهَا وَأَتَقِي أَذَاهَا وَأَرْمِي مِنْ رَمَاهَا بِمَقْنَبِ ^(٥)

(١) الشيشنة : العادة والطبيعة وهذا مثل ، وأصله لاني أخزم الطائي وهو جند
جند مرتين - حاتم الطائي ، وكان له ابن يقال له أخزم كان عاقاً مات وترك بنين فوثبوا يوماً
على جند أبي أخزم فأدسموه فقال :

إِنْ بَنَى ضَرْجُونِي بِالْأَدَمِ شَيْشَنَةُ أَعْرِفُهَا مِنْ أَحْزَمِ
يعني أن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق

(٢) الأروم : جمع أرومة ، وهي الأصل

(٣) شاعر مخضرم وفارس مذكور بعيد الصوت في العرب

(٤) وفي السر منها : من سر الوادي ، وهو أكرم . وضع فيه يريد أنه في
كرم موضع من نسبها (٥) مقنب كنبر : جماعة الخيل والرجال والجمع مقانب
ويروى : من رماها بمنكب ، والمنكب في الأصل : مجتمع عظم العضد والكتف ، ضربه
مثلاً للشدة والقوة

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :
 لَسْنَا وَإِنْ كُرِمَتْ أَوَائِلُنَا يَوْمًا عَلَى الْأَنْحَسَابِ تَسْكِلُ
 نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
 وقال المتنبي :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ
 وقال :

لَا يَقْوَى شَرَفُ بِلْ شَرَفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
 وَمَا فَضَّلَ الْوَلَدُ عَلَى الْوَالِدِ بِأَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ الْمَلِكِ :
 وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْغَلَاءُ عُنْصَرَهَا فَإِنَّ فِي الْخَرْمَعْنَى لَيْسَ بِالْعَنْبِ
 وقوله أيضا :
 * فَإِنَّكَ مَاءُ الْوَرْدِ إِنْ ذَهَبَ الْوَرْدُ *
 وقال ابن الرومي فيمن ازداد شرف آبائه به :

وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنٍ دُرًّا شَرِيفٌ كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ
 يَسْمُوهُ الرِّجَالُ بِآبَاءِ وَأَوْنَةٍ تَسْمُو الرِّجَالُ بِأَبْنَاءِ وَتَزْدَانُ



وقالوا في أنه لا اعتداد بمن شرف أصله إذا لم يشرف بنفسه :
 - والقائل المعلم الأول أرسطوطاليس - : إذا كان الإنسان خسيس الآبوين
 شريف النفس ، كانت خسته أبويه زائدة في شرفه ، وإذا كان شريف الآبوين
 خسيس النفس ، كان شرف أبويه زائدا في خسته . وقال ابن الرومي :
 وَمَا الْحَسَبُ الْمُرُوثُ لِأَدْرَ دَرَّةٍ بِخَسْبٍ إِلَّا بِأَخَرٍ مُكْتَسَبٍ
 إِذَا الْعُودُ لَمْ يُثْمِرْ وَإِنْ كَانَ سُعْبَةً

مَنْ الشُّعْبَرَاتِ اعْتَدَهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبِ

« لا دَرْدَرَةٌ : لازكا عمله ، دعاء عليه أن لا يجعله الله نافعا ،

وقال سقراط - في الاعتذار عن شرفت نفسه ولم يشرف أصله - وقد
عَيَّرَهُ رجل بحسبه - : حَسْبِي مَنِيَّ ابْتَدَأَ ، وَحَسْبُكَ إِلَيْكَ انتهى ... وقال قائل
في هذا المعنى : لَأَنَّ يكون الرجل شريف النفس دَنَىَّ الأصل ، أَفْضَلُ من
أن يكون دَنَىَّ النفس شريف الأصل ، ألا ترى أَنَّ رأس الكلب خيرٌ من
ذَنَبِ الأسد !

ومما يستظرف من اعتذار المتخلفين الأندال ، عن تخلفهم عن آبائهم الأشراف
ماروى : أنه قيل لأعرابي : ما أَشْبَهْتَ أَبَاكَ ! فقال : لو أَشْبَهَ كُلُّ رجل أباه
كُنَّا كَأَدَمَ ... وخطب رجل قَصَرَ عن أبيه إلى رجل رفيع القدر ، ابنته ، فقال
له العظيم : لو كنتَ مِثْلَ أَيْبِكَ ! فقال : لو كنتُ مِثْلَ أَبِي لم أَخْطُبْ إِلَيْكَ ...

ومن محاسنهم في ذم من قصر عن آبائه : قول بعضهم :
لَمِنَ فَخَرْتُ بِأَبَائِهِ لَمْ شَرَّفَ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِنِسْمَا وَلَدُوا
وقول أبي تمام :

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ آبَاءَ وَمُفْتَخَرًا وَالْأَمَّ النَّاسِ مَبْلُوءًا وَخُتَبَرًا

ونظر رجل إلى أَبْنٍ نَذَلَ من أب كريم فقال : سبحان الله من قائل :
يُخْرِجُ الْحَيْثَ من الطيب . وقال شاعر في لثيم النفس كريم الأبوين :
فَلَا يَعْجَبَنَّ النَّاسُ مِنْكَ وَمِنْهُمَا فَمَا حَبَّتْ مِنْ فَضَّةٍ بِعَجِيبِ
« الحبث من الحديد والفضة ونحوهما : مانفاه الكبير ولا خير فيه ،

وقالوا فيمن يَخْزَى من ذكر آبائه : فمن ذلك أن رجلاً سُئِلَ عن نسبه ، فقال : أنا ابن أخت فلان ، فقال أعرابي : الناس ينتسبون طولاً وأنت تنتسب عرضاً

ومن محاسنهم فيمن لا يُعْتَدُّ بأبيه : قول الأخطل :
وَإِذَا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ رَجَحُوا وَشَالَ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ
« شال الميزان : ارتفعت إحدى كفتيه » ، ويقال : شال أبوك في الميزان ، وهو مثل في المفاخرة يقال : فآخَرْتَهُ فشال ميزانه : أى فَخَرْتَهُ بِآبَائِهِ وَغَلَبْتَهُ ، وقال بعض شعراء أَصْفَهَانَ :

تَبَجَّحَ بِالْكِتَابَةِ كُلُّ وَغْدٍ فُقُبِّحَا لِلْكِتَابَةِ وَالْعَمَالَةِ
أَرَى الْآبَاءَ نَسَبَتَهُمْ جَمِيعًا إِلَى الْإِبْنَاءِ مِنْ فَرَطِ النَّدَالَةِ

وقالوا في الابن يجارى أباه : العصا من العُصِيَّةِ وَ : هل تَلِدُ الحية إلا حَيَّةً
وقال شاعر :

وإنَّ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ لَا تَلُومَهُ عَلَى الشَّرِّ مَنْ لَمْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ وَالِدُهُ
إِذَا الْمَرْءُ أَلْقَى وَالِدَيْهِ كِلَيْهِمَا عَلَى اللَّؤْمِ فَأَعْدِرُهُ إِذَا خَابَ رَأْيُهُ ^(١)
وقالت الخنساء - وقيل لها : مَا دَحَتْ أَخَاكَ حَتَّى هَجَوْتَ أَبَاكَ ؟ فقالت :
جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ مُلَاءَةً الْحُضِرِ
حَتَّى إِذَا نَزَّتِ الْقُلُوبُ وَقَدْ لُرَّتْ هُنَاكَ الْعُدْرُ بِالْعُدْرِ
وَعَلَا هُتَافُ النَّاسِ أَثْمَا قَالَ الْمُجِيبُ هُنَاكَ : لَا أَدْرَى

(١) أصل الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم السكلا ومساقط الغيث

بَرَزَتْ صَحِيفَةُ وَجْهِهِ وَالِدِهِ وَهَضَى عَلَى غُلُوَائِهِ يَجْرِي
أَوَّلَى فَأَوَّلَى أَنْ يَسَاوِيَهُ لَوْلَا جَلَالُ السَّنِّ وَالْكِبَرِ
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَّأَ إِلَى وَكَّرِ

وقولها: مُلَاءَةُ الْحَضَرِ: فالْحَضَرُ: الْعَدُوُّ وَالْجَرِيُّ، وَإِنَّمَا تَرِيدُ بِمُلَاءَةِ الْحَضَرِ: الْغُبَارَ
وَكَانَ عَدِيَّ بَنَ الرَّقَاعِ نَظَرَ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ يَصِفُ حِمَارًا وَأَتَانًا:
يَتَعَاوَرَانِ فِي الْغُبَارِ مُلَاءَةً بِيضَاءَ مُحَدَّثَةٍ هُمَا تَسْجَاهَا

ونزت القلوب: يريد طمحت واشترأت لتعرف من السابق، ولُزَّتْ: قرنت
والعذر: جمع عذار وهو ماسال من اللجام على خد الفرس، ويروى الْقَدَرُ
بِالْقَدْرِ، وَالْقَدَرُ: الْمَنْزِلَةُ، وَالْكِبَرُ: أَظْهَرُهَا بَظْمُ الْكَافِ بِمَعْنَى الْإِكْبَرِ أَيْ وَلَوْلَا
جَلَالُ الْإِكْبَرِ، وَلَكَ أَنْ تَقْرَأَهَا الْكِبَرُ بِكَسْرِ الْكَافِ أَيْ الْكِبَرِ وَلَكِنَّهُ
أَسْكَنَ الْبَاءَ ضَرُورَةً،

أما الإسلام فقد عدَّ الشرف والحسب إنما هو بالتَّقِي فَقَالَ سُبْحَانَهُ: إِنْ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ، قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا بَقِيَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ لِأَحَدٍ شَرَفٌ
أَبُوَّةٌ... وَرَأَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَجُلًا يَقُولُ أَنَا ابْنُ بَطْحَاءٍ مَكِّي، فَوَقَفَ
عَلَيْهِ وَقَالَ: إِنْ كَانَ لَكَ دِينَ فَلَكَ شَرَفٌ، وَإِنْ كَانَ لَكَ عَقْلٌ فَلَكَ مُرُوءَةٌ.
وَإِنْ كَانَ لَكَ عِلْمٌ فَلَكَ شَرَفٌ، وَإِلَّا فَأَنْتَ وَالْحِمَارُ سَوَاءٌ، وَقَالُوا: كَانَ
الشرف في الجاهلية بالبيان والشجاعة والسماحة، وفي الإسلام بالدين والتقى...



وقالوا في الدُّعْوَةِ: أَيْ ادَّعَاءِ الْوَلَدِ الدَّعِيَّ غَيْرَ أَبِيهِ، أَيْ انْتِسَابِهِ إِلَى
غَيْرِ أَبِيهِ، وَقَدْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَتَنَهَى الْإِسْلَامُ عَنْهُ، وَكَانَ سَيِّدُنَا
رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَبَنَّى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ عَتِيقَ الرَّسُولِ، فَكَانُوا يَقُولُونَ لَهُ: ابْنُ

محمد ، فأمر الله عزّ وجل أن ينسب الناس إلى آبائهم وأن لا ينسبوا إلى من تبناهم فقال : وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم « أى لا حقيقة لله فى الواقع ، والله يقول الحق » أى ماله حقيقة عينية « وهو يهدى السبيل ، أدعواهم لا بانهم هو أقسط عند الله » هو : أى دعوتهم لا بانهم ، وأقسط : عدل ، ومعناه البالغ فى الصدق ، فإن لم تعلموا آبائهم فأخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما ...

والأحاديث فى ذلك متوافرة ، فمنها قوله صلوات الله عليه : الولد للفراس وللعاهر الحجر ... « يعنى أن الولد لصاحب الفراس ، من السيد أو الزوج ، وللزاني الحية والحرمان ، وهذا كما تقول : مالك عندى شئ غير التراب ، وما بيدك غير الحجر ، وذهب قوم إلى أنه كنى بالحجر عن الرجم ، قال ابن الأثير : وليس كذلك لأنه ليس كل زان يُرجم .. وقالوا فى التعريض بالنسب - والقاتل أبو نواس :

إذا ذكرتَ عديًّا فى بنى ثعلٍ فقدّم الدال قبل العين فى النسب
ودخل ابن مُكرَّم على أبي العيناء - صاحب الزوادر والمجون وكان ضريرا -
ليُهَنِّيهُ بآبنِ وُلْدٍ له ، فوضع عنده حجرا ، فلما خرج أخبر أبو العيناء ،
فقال : لعن الله هذا ، أما تعلمون ماذا عني ؟ إنما أراد قول رسول الله :
'ولد للفراس وللعاهر الحجر ...

ولقي رجل رجلا فقال له : بمن أنت ؟ قال : قرشى والحمد لله ، فقال :
لحمد لله فى هذا الموضع ريبة ... وقال زياد بن أبيه - وهو ابن أبي سفيان لربيبة -
لم جل : يادعي ، فقال : الدعوة قد تشرف بها المدعى على ، فكيف عير بها !

وفي قولهم فيمن لا يشبه والدَيْه وذوَيْه خَلْقَةً :

أَلَوَانُهُمْ إِلَيْكَ عَنْ أَنْسَابِهِمْ مُعْتَذِرَةٌ

وكان بأَصْبَهَانَ رجل مجنون يعرف بابن المستهَام ، فقبل لأحمد بن عبد العزيز : إنه مليح ذو نوادر ، فاستحضره ، فلما تأمله قال - أي المجنون - :

في اختلاف الوجوه من آلِ عَجَلٍ لَدَلِيلٌ على فسادِ النساءِ
فأراد أحمد أن يبيّطَ به ، ثم كفَّ عنه مخافةً أن يتحدث الناس بذلك ...
ومن طريف ما قالوا أيضا في التعريض بالرجل أن ابنه من زِنْيَةٍ ، ما يروى
أنه قيل لرجل : إن امرأة فلان ولدت بعد الزفافِ بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ فقال : إنه
بَنَى جَدَارَهُ على أَسْرِ غَيْرِهِ ...

وخاصمَ ذو الرمة رجلا من وَلَدِ زياد بن أبيه فقال له الزیادی : يادعی ،
فأنشد ذو الرمة :

بُيُتْنَةُ قَالَتْ يَا جَمِيلَ أَرَبْتَنَا فَقُلْتَ كَلَانَا يَا بَيْتَنُ مَرِيبٌ ^(١)



ومما يصح أن يذكر في هذا الباب : كما يصح أن يذكر في كتاب النساء قولهم في أن الولد الذي يَنْسِلُ من الأقارب يخرج ضاويا ضعيفا ، فمن ذلك قوله صلوات الله عليه : « اغْتَرِبُوا لَا تُضْرُوا » أي تزوجوا الغرائب دون القرائب فإن ولد الغريبة أنجب وأقوى من ولد القرية ، وقد أضوت المرأة إذا ولدت ولدا ضعيفا ، فعنى لا تضروا : لا تأتوا بأولاد ضاوين ، أي ضعفاء نحفاء ، الواحد : ضارٍ ، وكذلك قال صلوات الله عليه : لَا تَنْسِكُوا الْقَرَابَةَ الْقَرِيبَةَ

(١) أَرَبْتَنَا : رأينا منك ما يرينا ونذكره منك

فإن الولد يُخلَق ضاويًا ... ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم من قريش صغار الأجسام فقال : ما لكم صغُرتم ؟ قالوا : قُرْبُ أمهاتنا من آبائنا ، قال : صدقم ، اغتربوا لاتضُوروا ... وقال العتيبي : زَوْجُ أهل بيت ، بعضهم فى بعض ، فلما بلغوا البطن الرابع بلغ بهم الضعف إلى أن كانوا يَحْبُون حَبْوًا لا يستطيعون القيام ضعفا ...

الرضاعة

وكذلك نورد هنا قولهم فى الرِّضَاعَةِ : قال رسول الله : يَحْرُمُ من الرِّضَاعَةِ ما يَحْرُمُ من النسب . انظر كنب الفقه ، ونهى رسول الله عن رضاع الحَمَاءِ وقال : لا تسترضعوا الحَمَاءِ فإن الولد يَنْزِعُ إلى اللبن ... وقال رجل فى وصف آخر نسبهِ إلى الرعونة : كيف لا يكون أرعن وقد أرضعته فلانة ! ووالله إنها كانت تَرْقُ الفَرْخَ - أى بغيرها - فأرى الرعونة فى طيرانه .. ورووا أن الحسن البصرى رحمه الله عليه كانت أمهُ تَغْشَى أُمَّ سَلَكَةَ زوج سيدنا رسول الله ، فدرت عليه من لبنها ، فورث منه علمه وفصاحته وورعه :

الإحسان

وعقرباتهم فى الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف

وذم البخل والسؤال

وهذا لَوْنُ ثانٍ من ألوان البرِّ هو فى الواقع يَنْظُمُ لَوْنَيْنِ ، فَأَمَّا أَوَّلُهُما فهو هذا الذى نحنُ بصددِهِ الآن ، وهو الجودُ واصطناعُ المعروف ، وسائر ما يُمْتَدُّ إلى ذلك بسببِ واصل من قرى الأضياف وذم البخل ، وأما الآخرُ فهو حُسنُ الخلق ، وسنفرد له وَصْلًا تراه عقيب هذا .

تحفى الإسلام بالإحسان: وكما أنَّ صَلَـةَ الرَّحْمِ بِعَامَّةٍ، وَبِرِّ الوالدين بِخَاصَّةٍ،
 بما تَحَفَّى به الإسلامُ كُلَّ التحفَى، حتَّى قَرَنَهُ بالتوحيد وبالتقوى، ترى هذا الدينَ
 الخفيفَ، لقد تَحَفَّى كذلك كُلَّ التحفَى بالإحسانِ إلى مُسْتَحَقِّهِ، وذَمَّ الشُّحَّ ونَعَا،
 على أهلِهِ، وامتدَحَ الجودَ وآوَه به كُلَّ التَّوْبَةِ، حتَّى قَرَنَ ذَكَرَهُ بالإيمانِ،
 ووصَفَ أهلَهُ بالفلاحِ، والفلاحُ اسمٌ جامعٌ لسعادة الدارينِ، فقال سبحانه
 وتقدس: أَلَمْ، ذلك الكتاب لا رَيْبَ فيه هُدًى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب
 ويقيمون الصلاة وما رَزَقْنَاهُمْ يُنفقون، والذين يؤمنون بما أُنزِلَ إليك وما أُنزِلَ
 مِن قَبْلِكَ وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون..
 وقال في وصف الأنصار: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ،
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ... «الخصاصة: الفقر، ويرقى:
 يَصان» وقال عزَّ وجلَّ: مَثَلُ الَّذِينَ ينفقون أموالهم في سبيل الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ
 أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ
 واسعٌ عليمٌ، إلى أن قال سبحانه: ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاة
 الله وتثبيتاً من أنفسهم كَمَثَلِ حَبَّةٍ بَرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلهَا ضِعْفَيْنِ...
 الآيات... «قوله سبحانه: كَمَثَلِ حَبَّةٍ... الآية، فإن ذلك تمثيل لا يقتضى
 وقوعه، والجنة: البستان، والربوة: الموضع المرتفع، وشجره في العادة يكون
 أحسن منظرًا وأزكى ثمرًا، والوابل: المطر العظيم، وقال: لَنْ تَنَالُوا البرَّ حتَّى
 تَنفِقُوا مما تحبون، وما تَنفِقُوا من شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ وَاللهُ خيرُ الرازقين..
 «والبر ههنا: فهو يَرُّ الله، أى خيرُ الدنيا والآخرة، أى السعادة والفلاح
 والفوز، أو تقول: لَنْ تَنَالُوا البرَّ: أى لَنْ تَنَالُوا حَقِيقَةَ البرِّ حتَّى تُنْفِقُوا
 مما تحبون»

قال الراغب في الذريعة : وَحَقُّ لِلْجُودِ أَنْ يُقَرَّنَ بِالْإِيمَانِ ، فَلَا شَيْءَ أَخْصُّ بِهِ ، وَأَشَدُّ مُجَانَسَةً ، مِنْهُ ، إِذْ مِنْ صِفَةِ الْمُؤْمَنِ انْشِرَاحُ الصَّدْرِ : فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُشْرِحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُضِلَّهُ يُغْلِقْ صَدْرَهُ حَقِيقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ . . . وهذا من صفات الجواد والبخیل ، لأن الجواد يوصفُ بِسَعَةِ الصَّدْرِ لِلْإِنْفَاقِ ، والبخیلُ يوصفُ بِضِيقِ الصَّدْرِ لِلْإِمْسَاكِ . . .

الناس مجبولون على البخل

« وأما بعد » فَإِنَّ أَكْثَرَ هَذَا النَّاسِ لَقَدْ جُئِلُوا عَلَى الْبُخْلِ ، فَالْبُخْلُ هُوَ الْأَصْلُ ، وَإِنَّمَا الْجُودُ فِي سَائِرِ أَلْوَانِهِ ، تَكَلُّفٌ وَتَعَمُّلٌ وَحَمْلٌ لِلنَّفْسِ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَعَلَى غَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ قِيلَ لِحَاتِمِ الطَّائِي الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ : كَيْفَ تَجِدُ الْجُودَ فِي قَلْبِكَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي لَا جِدُهُ كَمَا يَجِدُهُ النَّاسُ ، وَلَكِنِّي أَخْمِلُ نَفْسِي عَلَى خُطْطِ الْكَرَامِ ^(١) ، وَقَالَ بَعْضُ الْأَجْوَادِ : إِنَّا لَنَجِدُهُ كَمَا يَجِدُ الْبَخْلَاءُ وَلَكِنَّا نَصِيرُ وَلَا يَصِيرُونَ . . . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الْبَحْتَرِيُّ : وَأَشَقُّ الْأَفْعَالِ أَنْ تَهَبَ الْإِنْسَانُ مَا أُغْنِيَتْ عَلَيْهِ إِلَّا كُفٌّ وَبِقَوْلِ أَبِي يَعْقُوبَ الْخُرَيْمِيِّ :

وَدُونَ النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ ثَلَاثَةٌ بِهَا مَصْعَدُ حَزْنٍ وَمُنْحَدُ سَهْلٍ ^(٢)
ويقول أبو العتاهية :

إِطْرَحْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شَدَّ ~~بِهِمَتْ~~ فَلَنْ تَرَى إِلَّا بِخِيلًا
ويقول ابن نباتة السعدي :

(١) الخطط: جمع الخططة ، وهي الحال والامر والخطب

(٢) الثنية : المكان المرتفع الصعب المطمع ، أى أن الكرم شاق على النفس

كيف السبيلُ إلى الغنى والبخلُ في الناسِ فظنه
وأكثرُ من يتسَخَّى ويَجُودُ فإِثْمًا يَجُودُ رَغْبًا أَوْ رَهْبًا - رَغْبًا فِي عَاجِلِ
الْجَزَاءِ * كَمُلْفَى الْحَبِّ لِلطَّيْرِ لِيَصِيدَ بِهِ لَا لِيَنْفَعَهُ *
وَمَنْ يَظُنُّ نَشْرَ الْحَبِّ جُودًا وَيَنْصُبُ تَحْتَ مَا نَشَرَ الشَّبَاكَ ^(١)
وَرَهْبًا مِنْ عَابٍ يَلْتَصِقُ بِهِ أَوْ مَكْرُوهٍ يُصِيبُهُ :

مِثْلُ الْحِمَارِ الْمَوْقِعِ الظَّهْرَ لَا يُعْطِيكَ شَيْئًا إِلَّا إِذَا رَهَبَا ^(٢)
وَهَنَّاكَ صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا يُبْخَلُّ وَلَا كَرَمًا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ
ذَلِكَ تَهَوُّرًا وَانْدِفَاعًا مِنْهُ مَعَ نَزْوَةٍ مِنْ نَزَوَاتِ الْفُوسِ ، كَمَا قَالَ الْأَدِيبُ
أَبُو بَكْرِ الْخَوَارِزْمِيُّ فِي الْوَزِيرِ الصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ :

لَا تَحْمَدَنَّ ابْنَ عَبَّادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ يَدَاهُ بِالْجُودِ حَتَّى أَنْجَلَ الدَّيْمَا
فَإِنَّهَا خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا يُبْخَلُّ وَلَا كَرَمًا
وَقَلَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُودُ اسْتِجَابَةً لِفَطْرَتِهِ ، وَلِدَاعِي الضَّمِيرِ ، كَمَا يَقُولُونَ ،
فَلْيُلَاحِظْ هَذَا ، وَلْيُلَاحِظْ كَذَلِكَ أَنَّ الْبُخْلَ رَذِيلَةٌ تَسْتَبْعُ رَذَائِلَ ، وَنَاهِيكَ
بِالْجِبْنِ رَذِيلَةٌ ، هِيَ الْأَزْمُ الرَذَائِلُ لِلْبُخْلِ : كَمَا أَنَّ الْجُودَ فَضِيلَةٌ تَسْتَبْعُ فَضَائِلَ ،
وَحَسْبُكَ بِالشَّجَاعَةِ فَضِيلَةٌ هِيَ أَخْصُ الْفَضَائِلِ بِالْجُودِ :

(١) للسنبي ، وقوله ومن يظن : عطف على كل نفس في البيت قبله وهو :

وَأَمَّا فِدَاؤُكَ كُلِّ نَفْسٍ وَإِنْ كَانَتْ لِمَمْلُوكَةٍ مَلَكَ

يقول : الملوكة يجودون لطلب العوض كما نثر الصائد حبا تحت الشبكة ، ولا يعتد
ذلك جوداً لأنه إنما نثر لاختد الصيد الذي هو خير من الحب

(٢) للحكم بن عبد الأسد ، والموقع الظهر : الذي يظهره آثار الدبر أكثره ما حمل
عليه وركب ، فهو ذلول .

ذَرِبْنِي فَإِنَّ الشُّسْحَ يَا أُمَّ هَيْتَمَ إِصْلَاحِ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ سَرُوقُ^(١)

وإذا اختبرت علفت غير مُدَافِعٍ أَنْ السَّامِحَ سَجِيَّةُ الْإِبْطَالِ
وقال أبو تمام في ذلك - من أبيات يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني :
وإذا رأيت أبا يزيد في نَدَى وَوَعْنَى وَمُبْدَى غَارَةٍ وَمُعِيدَا
يَقْرِى مُرَجِيهِ مُشَاشَةً مَالِهِ وَشَبَا الْأَسِنَّةِ نُغْرَةً وَوَرِيدَا
أَيَقْنَتَ أَنْ مِنَ السَّامِحِ شَجَاعَةٌ تُدْمِي وَأَنْ مِنَ الشَّجَاعَةِ جُودَا^(٢)
وقال المتنبي :

هو الشجاع يَعْدُو الْبُخْلَ مِنْ جُبْنٍ وَهُوَ الْجَوَادُ يَعْدُو الْجُبْنَ مِنْ بُخْلٍ
وقد عدوا الشجاعة لوناً من الجود فقال مسلم بن الوليد :
يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْبَخِيلُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

(١) من أبيات جميلة نبيلة لعمر بن اللاحم، وبعد البيت :

ذَرِبْنِي وَحُطِّي فِي هَوَايَ فَإِنِّي عَلَى الْحَسَبِ الْعَالِي الرَّفِيعِ شَفِيقُ
وَمُسْتَمْنَحٍ بَعْدَ الْهُدُوءِ دَعْوَتِهِ وَقَدْ كَانَ مِنْ سَارِي الشَّتَاءِ طُرُوقُ
فَقُلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَيْتٌ صَالِحٌ وَصَدِيقُ
أَصْفَتْ فَلَمْ أَفِجْشْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَقُلْ لِأَحْرَمِهِ إِنَّ الْفِئَاءَ مَضِيقُ
لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادُ بَاهِلَهَا وَلَكِنْ أَخْلَاقُ الرِّجَالِ تَضِيقُ

(٢) الوغى : الحرب ، وقرى الضيف يقريه قرى : أضافه وأحسن اليه ، والمشاشة واحدة المشاس وهو رأس العظم الذى يمكن مضغه ، يقول : انه يطعم المجتدى ماله حتى انه ليشش العظم وهذه مبالغة في أنه يمكن المجتدى من ماله . والشبا : جمع شباة ، وشباة كل شيء : حذته ، والثغرة : نقرة البحر

ولاجل هذين الملاحظين ، تظاهرت الآيات والاحاديثُ وما أثر عن
الأوائل من العلماء والحكماء والشعراء والربّانيّين ، على ذمّ البخل وامتداح الجود
والإحسان ، وأكثروا وأفثتوا وأبدعوا ، الأمرُ الذي يدلُّ على أنهم قدروا
أثر الجود والبخل في الخلق حقَّ قدره ، وأنهم لذلك شنّوا هذه الغارة الشّعواء
على الإنسان الانانيّ الكزّ الشحيح الكاين في نفس كلِّ إنسان ...

عقرياتهم في مدح الجود وذم البخل

ولنأخذ الآن في عقرياتهم في ذم البخل ومدح الجود والإحسان واصطناع
المعروف ، والكلام في هذه المعاني يدخلُ بعضه في بعض ... كتب رجلٌ من البخلاء
إلى رجلٍ من الأسخياء يُخَوِّفُهُ الفقرَ ، فأجابه : الشيطانُ يَعِدُكُمْ الفقرَ ويأمُرُكم
بالفحشاء واللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً منه وفضلاً ... وإنى أكرهُ أن أتركُ أمراً قد
وقع لِأمرٍ لَعَلَّهُ لَا يَقَعُ . « يقول سبحانه : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ النَّاسَ الْفَقْرَ
فِي الْإِنْفَاقِ ، أَيْ يَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ عَاقِبَةَ إِنْفَاقِكُمْ أَنْ تَفْتَقِرُوا - والوعدُ كما
يُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ يَسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ - ويأمرُكم بالفحشاء ، أَيْ يَغْرِيكُمْ بِالْبُخْلِ
ومنع الصدقات إغراءً لأمْرِ للأمور ، فالفحشاءُ هنا : البخلُ ، والفاحشُ
عند العرب : البخل ، قال طرفةُ بنُ العبد في مُعَلَّقَتِهِ :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي

عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ ^(١)

ثم قال سبحانه : والله يَعِدُكُمْ فِي الْإِنْفَاقِ مَغْفِرَةً لذنوبكم وكفارةً لها ، وأن

(١) يعتام : يختر ، والعقائل : كرائم الأموال والنساء ، الواحدة عقيلة ، والفاحش
البخل ، يقول طرفة : إن المرات لا يبقى على الأجواد والبخلاء فيصطفي الكرام وكرائم
أموال البخلاء فلا يجدي البخل على صاحبه ، فالجود أحرى لأنه أحمد .

يُخَافُ عَلَيْكُمْ أَفْضَلَ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ» وَقِيلَ لِإِبْلِيسَ : مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟
فَقَالَ : عَابِدُ بُخَيْلٍ ... قِيلَ : فَمَنْ أَبْغَضُ النَّاسَ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : فَاسِقُ سَخِيٍّ ،
فَإِنْ سَخَاةَهُ يُنْجِيهِ ... أَفَرَأَيْتَ ! أَلَيْسَ هَذَا الْكَلَامُ تَمْثِيلًا جَمِيلًا لِحَالِ الْبُخِيلِ
وَالْجَوَادِ ! حَتَّى إِنَّهُمْ فَضَّلُوا الْفَاسِقَ السَّخِيَّ عَلَى الْعَابِدِ الْبُخِيلِ ، وَأَحْسَنُ مِنْهُمَا
جَمِيعًا لِعَمَرَى : الْعَابِدُ الْكَرِيمُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْعَابِدُ الْبُخِيلُ مَفْضُولًا ، لِأَنَّ
الْعِبَادَةَ الْحَقَّ لَا تَجْتَمِعُ وَالْبُخْلَ ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ لآخر : إِنَّكَ مُتَلَاَفٌ ، فَقَالَ :
مَنْعُ الْجُودِ سُوءُ ظَنٍّ بِالْمَعْبُودِ ، قَالَ تَعَالَى : وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . وَمِنْ هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ : عَلَيْكُمْ بِأَهْلِ السَّخَاةِ وَالشَّجَاعَةِ
فَإِنَّهُمْ أَهْلُ حُسْنِ ظَنٍّ بِاللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبُخْلِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ مِنْ ضَرٍّ
يُخْلِفُهُمْ ، وَمَذَمَّةِ النَّاسِ لَهُمْ ، وَإِطْبَاقِ الْقُلُوبِ عَلَى بُغْضِهِمْ ، إِلَّا سُوءُ ظَنِّهِمْ
بِرَبِّهِمْ فِي الْخَلْفِ - أَى الْعَوْضِ - لَكَانَ عَظِيمًا ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ مَحْمُودُ
الْوَرَّاقُ :

مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ خَيْرًا جَادَ مُبْتَدِنًا وَالْبُخْلُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ الْمَرْءِ بِاللَّهِ
وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : خَصَلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ : الْبُخْلُ وَالْكِبَرُ
وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

أُنَاسٌ تَأْتَهُونَ لَهُمْ رُؤَاؤُ تَغْنِيمُ سَمَاوَهُمْ مِنْ غَيْرِ وَبَلٍ (١)
وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ فِي ذَلِكَ : رَبُّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ... « الرَّاعِدَةُ : السَّحَابَةُ
ذَاتُ الرَّعْدِ ، وَالصَّلَفُ قَلَّةُ الْخَيْرِ ، وَهَذَا الْمَثَلُ يَضْرِبُ لِلْبُخْلِ مَعَ الْوُجْدِ
وَالسَّعَةِ ، وَلِأَنَّهُ لَللُّغَةِ كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي هَذَا الْمَثَلِ رَاجِعُهُ فِي مَادَّةِ « صُلْفٍ » بِلِسَانِ

(١) تَأْتَهُونَ : مِنْ آتَيْهِ وَهُوَ الزَّهْوُ وَالْكِبَرُ ، وَالرُّؤَا : حَسَنُ الْمَنْظَرِ ، وَالْوَبَلُ :
الْمَطَرُ الْعَظِيمُ

العرب ... ومن قولهم في البَحِيل لا يُرْجَى خَيْرُهُ ولا يَبِضُّ حَبْرُهُ :
يُعالج نفساً بينَ جَنِينِهِ كَرْزَةً إِذَا هُمْ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلًا
ومن المستطرف من كُنَايَاتِهِمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا رَوَى : أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ
لِزَوْجِهَا : وَاللَّهِ مَا يُقِيمُ الْفَارُ فِي دَارِكَ إِلَّا لِحُبِّ الْوَطَنِ ... وَقَالَ رَجُلٌ : إِنِّي
أَقْصِدُ فَلَانًا رَاجِيًا تَدَاه ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ :
وَتَرْجُو النَّدَى مِنْ إِنْاءٍ قَلْنَا ارْتَشَحَا

كَالْمُسْتَذِيبِ لِشَحْمِ الْكَلْبِ مِنْ ذَنْبِهِ
وقال ابن الرومي - وهو من مُقَدِّعَاتِهِ الْمُضْحِكَةِ - :

يُقْتَرُّ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِيَاقٍ وَلَا خَالِدٍ
وَلَوْ يَنْسَطِيعُ لِنَقْتِيرِهِ تَنْفَسُ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدٍ
« الْمَنْخَرُ : ثَقْبُ الْأَنْفِ ، وَقَالَ آخَرُ :

يُحِبُّ الْمَدِيحَ أَبُو خَالِدٍ وَيَفْرَعُ مِنْ صَلَةِ الْمَادِحِ
كَيْسَرٌ تَوَدَّ لَذِيذَ النِّكَاحِ وَتَهْلَعُ مِنْ صَوْلَةِ النَّاكِحِ
وقال الْبُحْتُرى - وهو معنى بديع - :

جِدَّةٌ يَذُودُ الْبُخْلُ عَنْ أَطْرَافِهَا كَالْبَحْرِ يَدْفَعُ مَا حُهُ عَنْ مَائِهِ ^(١)
وقال بشار :

إِذَا جِئْتُهُ فِي حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَمِينُ
إِذَا سَلَّمَ الْمِسْكِينُ طَارَ فَوَادُهُ مَخَافَةَ سُؤْلِ وَاعْتِرَافِهِ جُنُونُ

(١) الجدة : الغنى ، ويذود : يدفع

وقال ابن الرومي . وهو كذلك من هجائه المضحك :

تَجَنَّبَ سُلَيْمَانُ قُفْلَ النَّدَى فَقَدْ يَدُسُّ النَّاسُ مِنْ فَتْحِهِ
ولو كان يملك أمر أسبته لما طمِع الحش في سلحه

« الحش : المستراح - موضع قضاء الحاجة - والسلح : النجس - الغائط - »

وقال ابن الرومي أيضا - وهو معنى بديع - وإن كان من بابة غير هذه البابة :

وَإِذَا امْرُؤٌ مَدَحَ امْرَأَةً لِنَوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوَرُودِ لِمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

« الرشاء : جبل الدلو » وقالوا : من لم يأت الخير صغيرا لم يأت كبيراً ، وفي ذلك يقول المعلق السعدي - وهو شاعر إسلامي - :

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَنَتِ الْمَرْوَةَ نَاشِئًا فَطَلَبُهَا كَهَلًا عَلَيْهِ شَدِيدُ^(١)

. وقالوا في البخيل كلما ازداد ثراء ازداد بخلاً وكرازة ، والنقائل ابن الرومي -
والبيتان من أوابده وتوليداته البديعة :

إِذَا غَمَرَ الْمَالُ الْبَخِيلَ وَجَدَّتْهُ يَزِيدُ بِهِ يُبْسًا وَإِنْ ظَنَّ يَرْطُبُ
وَلَيْسَ عَجِيْبًا ذَاكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ إِذَا غَمَرَ الْمَاءُ الْحِجَارَةَ تَصْلُبُ
وقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ يُهْلِكُ أَهْلَهُ إِذَا جَمَّ آتِيهِ وَسَدَّ طَرِيقَهُ

(١) من أبيات جميلة يقول فيها :

مَتَى مَا يَرَّ النَّاسُ الْغَنَى وَجَارُهُ فَفَقِيرٌ يَقُولُوا عَاجِزٌ وَجَلِيدُ
وَلَيْسَ الْغَنَى وَالْفَقْرُ مِنْ حِيلَةِ الْفَقَى وَلَكِنْ أَحَاطَ قَسَمَتْ وَجُدُودُ
فَكَمْ قَدَرْنَا مِنْ غَنَى مُذَمَّمٍ وَصُغْلُوكِ قَوْمٍ مَاتَ وَهُوَ حَمِيدُ
إِذَا الْمَرْءُ البيت

وَمَنْ جَاوَرَ الْمَاءَ الْغَزِيرَ جَحَّمُهُ وَسَدَّ سَبِيلُ الْمَاءِ فَهُوَ غَرِيقُهُ

وقال :

الْمَالُ يُكْسِبُ رَبَّهُ - مَا لَمْ يَفِضْ فِي الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ - سُوءُ ثَنَاءٍ

كَلِمَاءٍ تَأْسُنُ بَشْرَهُ إِلَّا إِذَا خَبَطَ السَّقَاةُ جِجَامَهُ بِدَلَاءٍ

« تأسن : تنغير ، وخبطه : ضربه ، والجمام : بثلاث الجيم : معظم الشيء »

عقرياتهم في الجود واصطناع المعروف

ولندع البُخلَ والبخلَاءَ لحظةً وننتقل إلى عقرياتهم في الجود والإحسان واصطناع المعروف : جاء في كلية ودمته : إن أحسنَ الناسَ عَيْشاً من حَسَنَ عَيْشِ الناسِ في عَيْشِهِ ، وإن من أَلَذِّ اللَّذَّةِ الْإِفْضَالَ عَلَى الْإِخْوَانِ ، وفي الحديث : أيس لك من مالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَنْفَيْتَ ، أَوْ لَيْسَتْ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ أُعْطِيتَ فَأَمْضَيْتَ ، وما سوى ذلك فهو مِلْكُ الْوَارِثِ وقال شاعرهم :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

وقال سعيد بن العاص من خطبة له : مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً فَلْيُنْفِقْ مِنْهُ سِرّاً وَجَهراً حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُتْرَكُ لِأَحَدٍ رَجُلَيْنِ : إِمَّا مُصْلِحٍ ، فَلَا يَقْلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِمَّا مُفْسِدٍ فَلَا يَبْقَى لَهُ شَيْءٌ ... فقال معاوية : جَمَعَ أَبُو عَثْمَانَ طَرَفَيْ الْكَلَامِ ...

وقال الأحنف بن قيس : مَا شَأْنُكُمْ رَجُلًا مُذْ كُنْتُ رَجُلًا ، وَلَا زَحَمْتُ رُكْبَتَيْ رُكْبَتَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ أَصِلْ مُجْتَدِيَّ حَتَّى يَنْتَسِحَ جَبِينُهُ عَرَفًا كَمَا يَنْتَسِحُ الْحِمِيْتُ ، فَوَاللَّهِ مَا وَصَلْتُهُ ... « قوله : مجتدى : يريد . الذى يأتيه يطلب ماله يقال : اجتداه يجتديه وأعتفاه يعتفيه واعتراه يعتريه وأعتثره يعتثره وعراه

يعرّوه ، : إذا قصده يتعرّض لناثله . وَيَنْتَحِ كَيْضَرِبُ : يَرْشَحُ ، وَالْحَمِيْتُ : وعاء السمن . يقول الأحنف : إنه لا يُحَوِّجُ سائله إلى أن يَتَرَشَّحَ جبينه عرقا ، لمبادرتة بإعطائه « وقال معاوية بن أبي سفيان لورّدان مولى عمرو بن العاص : ما بقي من الدنيا تلذّه ؟ قال : العريض الطويل ، قال : وما هو ؟ قال : أَنَّ أَتَى أَخَا قَدْ نَكَبَهُ الدَّهْرُ فَأَجْبُرَهُ ، قال : نحنُ أحقُّ بهذا منك ... قال : إِنَّ أَحَقَّ بهذا منك مَنْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ ... وقال ابن عباس : ثلاثة لا أكافئهم : رجلٌ بدّأني بالسلام ، ورجلٌ وَسَّعَ لِي فِي الْمَجْلِسِ ، ورجلٌ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي الْمَشْيِ إِلَى إِرَادَةِ التَّسْلِيمِ عَلَيَّ ؟ فأما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله عز وجل ، قيل : ومن هو ؟ قال : رَجُلٌ نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ فَبَاتَ لَيْلَتَهُ يَفْسِكُرُ بَيْنَ يُنْزِلُهُ ، ثُمَّ رَأَى أَهْلًا لِحَاجَتِهِ فَأَنْزَلَهَا بِي . وقال ابن عباس أيضا : لَا يُزْهَدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ كَفْرٌ مِنْ كَفَرِهِ ، فَإِنَّهُ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ : « كَفَرٌ مِنْ كَفَرِهِ : يريد : كفر النعمة ، أى عدم شكرها ، وقوله : مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ يريد الله عز وجل ،

وَأُنْشِدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، أَحَدُ الْأَجْوَادِ فِي الْإِسْلَامِ
قَوْلَ الشَّاعِرِ :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمُصْنَعِ^(١)

فقال : هذا رجل يريد أن يُبْخَلَ النَّاسُ ، آمَطَرُ الْمَعْرُوفِ مَطَرًا فَإِنْ صَادَفَ مَوْضِعًا فَهُوَ الَّذِي قَصَدْتَ لَهُ ، وَإِلَّا كُنْتَ أَحَقَّ بِهِ

« وبعد » فهناك في هذا المعنى كما ترى مذهبان ، فذهب يرى إعطاء

(١) الصنعة : ما أسديت من المعروف ، وبعد هذا البيت :

فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَانْعَمْ بِهَا لِلَّهِ أَوْ لِدَوَى الْقَرَائِبِ أَوْ دَعِ

المستحق وغير المستحق ، الكريم - والثلثم ، الشاكر ، والكافر : وبقول هذا المذهب - والقائل الشاعر محمود الوراق :

فإمّا كريمٌ صُنْتُ بالجودِ عِرْضَهُ وإمّا لثيمٌ صُنْتُ عَنْ أَوْمِهِ عِرْضِي
وقال بعضهم : لَأَنْ أُخْطِئَ بِأَذْلا ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصِيبَ مَانَعًا بِأَذْلا
ومانعا : حالان من فاعل أخطئ وأصيب «

ومذهب آخر يرى حرمان اللثام وَمَنْ يُسْتَضَرُّ بِإِعْطَائِهِ ، قال قائلهم :
اتَّقُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ وَاللَّيْمِ إِذَا شَبِعَ . وقالوا : اللثيمُ يَزْدَادُ بِالْعُرْفِ
خَبَالًا ، كما يزداد المريض من كثرة الطعام وبالا ، « خبالا : فسادا ،
وقال شاعر :

* ليس في مَنَعٍ غَيْرِ ذِي الْحَقِّ بُخْلُ *

وقال الآخر :

وَمَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ

يُلاقِي كَمَا لَاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ ^(١)

(١) أم عامر : الضبع ، وكان من حديث هذا المثل أن قوما خرجوا إلى الصيد في يوم حار ، فبينما هم كذلك إذ عرضت لهم أم عامر ، وهي الضبع ، فطردوها - أي حاولوا صيدها - فأتعبتهم حتى ألجأوها إلى خباء أعرابي فافتحمت ، فخرج إليهم الأعرابي فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : صيدنا وطريدتنا . قال : كلا ، والذي نفسي بيده لاتصلون إليها مائت سيفي بيدي . فرجعوا وتركوه ، فقام إلى لفحة - « اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، خلّبها وقرب إليها ماء ، فأقبلت مرة تلغ من هذا ومرة تلغ من هذا حتى عاشت واستراحت ، فبينما الأعرابي نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وشربت دمه وأكلت حشوته - أمعاه - وتركته فجاء ابن عم له فوجده على تلك الصورة فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها فقال : صاحبتى والله ، وأخذ سيفه في كنانته واتبعها فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشد البيت

وأخيرا قالوا - والقائل أبو العتاهية :-

إذا المال لم يُوجِبْ عليك عطاءه صنيعة تقوى أو خليلٌ مُخالَقُه
منعتَ وبعض المنع حزمٌ وقوة ولم يبتذلِكَ المالَ إلا حقائقُه^(١)
وقال الحسنُ والحُسَيْنُ رضوان الله عليهما لعبد الله بن جعفر : إنك قد
أسرَفْتَ في بذلِ المالِ ! قال : بأبي أنتما ، إن الله عَوَّدَنِي أَنْ يُفْضَلَ عَلَيَّ ،
وعودته أن أفضَلَ على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة ، فيقطع عني ...
ومرَّ يزيدُ بنُ المهَلَّبِ بأعرابية ، في خروجه من بين عمر بن عبد العزيز^(٢) ،
يريد البصرة ، فقرأته عَنَزًا فقَبِلَها ، وقال لابنه معاوية : مامعك من النفقة ؟
فقال : ثمانمائة دينار ، قال : فادفعها إليها ، فقال له ابنه : إنك تريد الرجال ،
ولا يكون الرجال إلا بالمال ، وهذه يُرضيها اليسير ، وهي بعدُ لا تعرِفُكَ ،
فقال له : إن كانت تَرْضَى باليسير فأنا لأَرْضى إلا بالكثير ، وإن كانت
لا تعرِفِي ، فأنا أعْرِفُ نفسي ، اذْفَعِها إليها ...
وأورد المبرِّدُ في الكامل ما يأتى : وأشرف عمرُ بنُ هُبيرة الفَزَارِيُّ - وإلى
العراقين يزيد بن عبد الملك - من قصره بالكوفة يوما ، فإذا هو بأعرابيٍّ

(١) حقائقه : جمع حقيقة : ما يحق عليك أن تحميه

(٢) وذلك سنة ١٠١ للهجرة ، وكان عمر بن عبد العزيز أخذه بعدة وعدها
سليمان بن عبد الملك ، وذلك أن يزيد كان عامله على حراسان ، فافتتح جرجان
وطبرستان ، ثم بشره بفتحهما في كتاب أرسله إليه يقول فيه : وقد صار عندى من
خمس ما أقام الله على المسلمين بعد أن صار لكل ذى حق حقه في النى والغنيمة ستة
آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله ... ثم مات سليمان
وولى الخلافة عمر ، فسأل يزيد ، فتلكأ فأمر بسجنه ، ثم هرب لما بلغه شدة مرض
عمر الذى مات به مخافة من يزيد بن عبد الملك الخليفة بعده لما كان بينهما من التباغض

يُرَقِّصُ جَمَلَهُ الْآلُ^(١) فقال : لحاجبه : إن أرادني هذا فأوصله إليّ ، فلما دنا الأعرابي سألّه ، فقال : قصدت الأمير ، فأدخله إليه ، فلما مثل بين يديه قال له عمر : ما خطبك ؟ فقال الأعرابي :

أَصْلَحَكَ اللَّهُ قُلَّ مَا بِيَدِي فَمَا أَطِيقُ الْغِيَالَ إِذْ كَثُرُوا
أَلَحَّ دَهْرٌ أَنَحَى بِكُلِّكِلِهِ^(٢) فَأَرْسُلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا
رَجُوكَ لِلدَّهْرِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ غَيْثَ سَحَابٍ إِنْ خَانَهُمْ مَطَرُ
فَأَخَذْتُ عَمَرَ الْأَرْيَحِيَّةَ ، فجعل يَهْتَرُ في مجلسه ، ثم قال : أرسلوك إليّ وانتظروا الإذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم غانماً . وأمر له بألف دينار ، وَرَدَّه على بعيره ... قال المبرد : وَحُدِّثُ أَنْ الْخَبَرَ لِمَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ . أقول : وقد أورده ابن خلكان منسوباً لمعن .



وهذا معن بن زائدة هو الآخر له في المكارم عُزْرٌ وأوضاع ، وهو أشهر في باب الأريحية والجود والإقدام والحلم من أن يُتَوَهَّ به ، ودو معن بن زائدة الشيباني ، كان في أيام بني أمية مُتَنَقِّلاً في الولايات ، ومنقطعا إلى يزيد ابن عمر بن هُبَيْرَةَ وإلى العراقيين ، فلما أَدَالَ من بني أمية بنو العباس ، وجرى بين أبي جعفر المنصور وبين يزيد بن عمر المذكور ماجرى ، أبلى يومئذ معنٌ مع يزيدَ بلاءً حسناً ، فلما قُتِلَ يزيد خاف معن من أبي جعفر المنصور ، فاستتر عنه مدة وجرى له مُدَّةٌ استتارِهِ غرائب ، وهنا يحدثنا شاعره الفحلُ مَرْوَانُ بْنُ حَفْصَةَ بحديث طريف من هذه الغرائب . قال :

(١) الْآلُ : ما تراه في الضحى كالماء بين السماء والأرض ، ويرقصه : يحمله على الرقص ، وهو نوع من السير كالخبب

(٢) أَنَحَى : اعتمد ومال ، والكلكل : الصدر ، استعاره لوطاة الدهر وثقله

أخبرني معن وهو يومئذ مُتَوَلَّى بِلَادِ الْيَمَنِ : أَنَّ الْمَنْصُورَ جَدَّ فِي طَلْبِي ، وَجَعَلَ
لِمَنْ يَحْمِيْنِي إِلَيْهِ مَالًا ، قَالَ معن : فَاضْطَرَرْتُ لِإِلْحَاحِهِ فِي الطَّالِبِ إِلَى أَنْ
تَعَرَّضْتُ لِلشَّمْسِ حَتَّى لَوَّحَتْ وَجْهِي ، وَلَبِسْتُ جُبَّةً صُوفِيَةً ، وَرَكِبْتُ بُجَلا
وَخَرَجْتُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْبَادِيَةِ لِأَقِيمَ بِهَا ، فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنْ بَابِ حَرْبٍ -
أَحَدِ أَبْوَابِ بَغْدَادَ - تَبِعَنِي أَسْوَدٌ مُتَقَلِّدٌ سَيْفًا حَتَّى إِذَا غَبَّتْ عَنِ الْحَرَسِ ،
قَبِضَ عَلَى خِطَامِ الْجَمَلِ ، فَأَنَاحَهُ ، وَقَبِضَ عَلَى يَدِي ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا بَكَ ؟ قَالَ :
أَنْتَ طَلِبَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قُلْتَ : وَمَنْ أَنَا حَتَّى أَطْلُبَ ؟ قَالَ : أَنْتَ معن بنُ
زَيْنَدةَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا هَذَا ، اتَّقِ اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ ، وَأَيْنَ أَنَا مِنْ معنٍ ؟ فَقَالَ :
دَعْ هَذَا ، فَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَا أَعْرِفُ بِكَ مِنْكَ ، فَلَمَّا رَأَيْتَ مِنْهُ الْجِدَّ قُلْتَ لَهُ : هَذَا
عِقدُ جَوْهَرٍ قَدْ حَمَلْتُهُ مَعِيَ بِأَضْعَافِ مَا جَمَلَهُ الْمَنْصُورُ لِمَنْ يَحْيِيهِ بِي ، فَخُذْهُ
وَلَا تَكُنْ سَبِيًا لِسَفْكِ دَمِي ، قَالَ : هَاتِهِ ، فَأَخْرَجْتَهُ إِلَيْهِ ، فَنَظَرَ فِيهِ سَاعَةً ،
وَقَالَ صَدَقْتَ فِي قِيَمَتِهِ ، وَلَسْتُ قَابِلَهُ حَتَّى أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ ، فَإِنْ صَدَقْتَنِي
أَطْلَقْتُكَ ، قُلْتَ : قُلْ ، قَالَ : إِنْ النَّاسُ قَدِ وَصَفُوكَ بِالْجُودِ ، فَأَخْبِرْنِي :
هَلْ وَهَبْتَ مَالَكَ كُلَّهُ قَطْ ؟ قُلْتَ : لَا ، قَالَ فَنِصْفَهُ ، قُلْتَ : لَا ، قَالَ : فَنُكْلَهُ
قُلْتَ : لَا ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ ، فَاسْتَحْيَيْتَ وَقُلْتَ : أَظُنُّ أَنِّي قَدْ فُكِلْتُ
هَذَا ، قَالَ : مَا ذَاكَ بِعَظِيمٍ ، أَنَا وَاللَّهُ رَاجِلٌ - يَرِيدُ مِنَ الْمَشَاةِ - وَرِزْقِي مِنْ
أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ كُلِّ شَهْرٍ عِشْرُونَ دِرْهَمًا ، وَهَذَا الْجَوْهَرُ قِيَمَتُهُ أَلُوفُ
دِينَائِرٍ ، وَقَدْ وَهَبْتَهُ لَكَ وَوَهَبْتُكَ لِنَفْسِكَ وَلِجُودِكَ الْمَأْثُورِ بَيْنَ النَّاسِ
وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَجْرُدُ مِنْكَ ، فَلَا تُعْجِبُكَ نَفْسُكَ ، وَلَتَحْقِرَنَّ
بَعْدَ هَذَا كُلِّ جُودٍ فِعْلَتَهُ وَلَا تَتَوَقَّفَنَّ عَنْ مَكْرُمَةٍ ، ثُمَّ رَمَى الْعِقْدَ فِي حِجْرِي ،
وَتَرَكَ خِطَامَ الْجَمَلِ ، وَوَلَّى مَنْصَرَفًا ، فَقُلْتُ : يَا هَذَا ، وَاللَّهُ لَقَدْ فَضَحْتَنِي ،

وَأَسْفَكَ دُمِي عَلَى أَهْوَنُ مَا فَعَلْتُ ، نَحْدَ مَا دَفَعْتُهُ لَكَ ذَائِقِي غَيْثٍ عَنْهُ ، فَضَحَكَ
 وَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تُكَذِّبَنِي فِي مَقَالِي هَذَا ! وَاللَّهِ لَا أَخَذْتُهُ وَلَا أَخَذَ لِمَعْرُوفٍ
 ثَمَنًا أَبَدًا ، وَهَضَى لِسَابِلِهِ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ طَلَبْتَهُ بَعْدَ أَنْ أَوْنْتُ ، وَبَذَلْتُ لِمَنْ يَجِيءُ
 بِهِ مَا شَاءَ فَمَا عَرَفْتُ لَهُ خَبْرًا ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ ابْتَلَعَتْهُ . . . أَلَا تَرَى مَعِيَ أَنَّ
 مَا فَعَلَهُ هَذَا الْجَنْدِيُّ الْفَقِيرُ إِنْ لَمْ يَفْقُ بِهِ مَعْنَى بَنٍ زَائِدَةٍ وَأَشْبَاهَ مَعْنَى بَنٍ
 زَائِدَةٍ ، فِي بَابِ الْمَرْوَةِ وَالْفَتْوَةِ وَالنَّجْدَةِ وَالْكَرَمِ وَعَبَقْرِيَةِ الرُّوحِ فَإِنَّهُ لَا يَقِلُّ
 عَنْهُمْ !

جُهِدُ الْمُقِلِّ إِذَا أَعْطَاكَ نَائِلَهُ وَمُكْتَرٌّ مِنْ غَيْثِ سَيَّانٍ فِي الْجُودِ
 فهو كما قال الشاعر :

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرُ الْفَتَيَانِ مَالًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْخَبَهُمْ ذِرَاعًا



وَمِنْ هُنَا حَثُّوا عَلَى الْجُودِ وَالْمَرْوَةِ وَالتَّسَخُّيِّ حَتَّى فِي حَالَةِ الْعُسْرِ وَالضَّقِيقِ
 فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَرَأْنَاهُ مَسْجُوبًا لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ خَالِدِ الْبَرَمَكِيِّ أَوْ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدِ الْبَرَمَكِيِّ أَوْ لِمَرْأَةٍ
 مِنَ الْعَرَبِ تَوْصِي بِهَ ابْنِهَا ، وَهُوَ : إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَيْكَ الدُّنْيَا فَأَنْفِقْ ، فَإِنَّهَا لَا تَنْفَقُ ،
 وَإِذَا أَذْبَرْتَ عَنْكَ فَأَنْفِقْ فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى . أَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ :

وَأَنْفَقْ إِذَا أَنْفَقْتَ إِنْ كُنْتَ مُوسِرًا

وَأَنْفِقْ عَلَى مَا خَيْلَكَ حِينَ تُعْسِرُ

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ

وَلَا الْبَخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرٌ

وقال الآخر في معناه :

لَا تَبْخَانِ بِدُنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّجْدِيرُ وَالسَّرْفُ

فَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَىٰ أَنْ يَنْجُوهُ بِهَا وَالشُّكْرُ مِنْهَا إِذَا مَا أَذْبَرْتَ خَلْفُ



ولا تنسَ أن مرادهم بالإتفاق والجود هنا : الإتفاقُ في سبيل الله والبرِّ
لا في سبيل الشيطان والإثم ، والجودُ على ذوى الحقوق ومن هم في حاجة إليك
حتى مع إدبار الدنيا عنك ، وبالحرى مرادهم بالسرف : السرفُ في الشرف ، وما
يُكسب المرءُ مَحْمَدَةً وَمِقَّةً ^(١) . ويؤثر عن معاوية أو المأمون - وقد قيل
لا أحدهما : لاخير في السرف - فقال : لا سرف في الشرف ...

وقال سلم بن قتيبة : أحدكم يَحْقِرُ الشَّيْءَ فَيَأْتِي مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ ، يعني المنع ،
يريد الحثَّ على إعطاء القليل إن لم يُستطع إعطاء الكثير ، وقال حماد بن عمار
في ذلك من أبيات :

بُتَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعَكَ قِلَّتُهُ فكلُّ مأسَدٍ فقراً فهو محمود

يقول فيها :

إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِيَ عَنْكَ عُسْرَتَهُ حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ مَجْهُودُ
إِذَا تَكْرَّمْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَائِلَ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
وَالْبَخِيلُ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ زُرُقُ الْعُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودُ
أَوْزُقُ بَخِيرٍ تُرَجَّى لِلزَّوَالِ فَسَا تُرَجَّى الشَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ

والعرب تقول : من حَقَرَ حَرَمَ ... « حقر الشيء : عداه حقيراً ، أى
من حقر يسيراً بقدر عليه ولم يقدر على الكثير ضاعت لديه الحقوق ، وفي
الحديث : لا تردوا السائل ولو بظلفٍ مُحْرِقٍ « الظلف من كل ما يجترُّ من

الحيوانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر من الفرس، ويقال : أحرق الشيء بالنار وحرّقه شدّد لكثرة ، وقال المعري :

إذا طرقَ المسكينُ بابَكَ فَأَحْبُهُ قليلاً ولو مقدّارَ حبةٍ خرّ دلِ
ولا تحتقر شيئاً تُساعفه به فكم من حصاةٍ أيدتْ ظهراً مجدلِ

المجلد : النصر المشرف ، وكان ابن عباس يقول : صاحب المعروف لا يقع ، فإن وقع وجد مُتسكاً . وهذا من قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : المعروف يقي مصارع السوء ... وكان ابن عباس يقول أيضا : ما رأيت رجلاً أوليته معروفاً إلا أضاء ما بيني وبينه ، ولا رأيت رجلاً أوليته سوءاً إلا أظلم ما بيني وبينه ، ومما يروى في هذا المعنى أن رجلاً كان في مجلس خالد بن عبد الله القسريّ ، فقام من المجلس ، فقال خالد : إني لأُبغض هذا الرجلَ وماله إلى ذنب ، فقال رجل من القوم : أوله أيها الأمير معروفاً ففعل ، فما كنت أن تخف على قلبه وصار أحداً جلسائه . وفي هذا المعنى يقول سيّد مُوسى قميّ الإسلام أبو إسحاق الموصلي :

أرى الناس سُخْلانَ الجوادِ ولا أرى بخيلاً له في العالمين خيلُ
ومن خير حالات الفقي لو علمته إذا نال شيئاً أن يكرن يُذيلُ
فإني رأيت البخل يُزرى بأهله فأكرمت نفسي أن يُقالَ بخيلُ

ويقول المتنبّي :

وأحسنُ وجه في الورى وجهُ مُحسِنٍ وأيمنُ كفّ في الورى كفُّ مُنعمٍ
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ انصَلَتْ نِعَمُ اللهِ عَلَيْهِ ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فمن لم يحتمل تلك المئون عُرِضَ لزوال تلك النعم ، وقال خالد بن عبد الله القسريّ أيضا : حوائج الناس إليكم نعمٌ من الله عليكم ،

قَلَامَلُوا النَّعْمَ فَتَتَحَوَّلَ نِقَمًا، قال الشاعر :

بَدَا - حِينَ أَثْرَى - بِإِخْوَانِهِ قَدَمَلَّ عَنْهُمْ شَبَابَةُ الْعَدَمِ ^(١)
وَذَكَرَهُ الْحَزْمُ غَبَّ الْأُمُورِ فَبَادَرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النَّعْمِ
وعن سيدنا رسول الله : تَنْزِيلُ الْمَعْوَةِ عَلَى قَدَرِ الْمَثْوَةِ « ومعناه : أنه كلما
تمكّث على المرء من يحق عليه أن يعولهم ويقوم بمؤنتهم ، ففعل ، أو كلما أنفق
المرء في سبيل البر ، أعطاه الله بمقدار ذلك ، وجاء في الحديث المرفوع :
مَنْ وَسَّعَ وَسَّعَ عَلَيْهِ ، وَكَلَبَا كَثُرَ الْعِيَالُ كَثُرَ الرِّزْقُ ...

وقالوا في معنى النجدة وإقالة العثرات وواجبات ذوى الجاه :
بَذَلُ الْجَاهِ زَكَاةَ الشَّرَفِ . وفي الحديث : إِنْ اللَّهُ يَسْأَلُ الْعَبْدَ عَنْ جَاهِهِ كَمَا
يَسْأَلُهُ عَنْ مَالِهِ وَنَعْمِهِ ، فيقول : جعلتُ لك جَاهًا فَهَلْ تَصْرَتْ بِهِ مَظْلُومًا
أَوْ قَوَّمتَ بِهِ ظَالِمًا أَوْ أَغْنَتْ بِهِ مَكْرُوبًا ! وفي الحديث أيضا : أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ
تُعِينَ مَنْ لَاجِأَ لَهُ ... وقال أبو تمام :

وَإِذَا أَمْرُؤُ أُسْدَى إِلَى صَدِيقَةٍ مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّمَا مِنْ مَالِهِ
وكان زياد بن أبيه يقول لأصحابه : آشَفَعُوا لِمَنْ وَرَاءَكُمْ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ
أَرَادَ السُّلْطَانُ - يَرِيدُ : كُلُّ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ - وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَصَلَ
اسْتَطَاعَ أَنْ يُكَلِّمَهُ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا قَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ : مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً
يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِنًا . « قال المفسرون : الشفاعةُ الحسنةُ : هِيَ التَّوْبَةُ وَرُوعِيهَا
حَقُّ مُسْلِمٍ وَدَفْعُهَا عَنْهُ شَرٌّ أَوْ جُلْبُ إِلَى خَيْرٍ وَابْتِغْيَا وَجْهَ اللَّهِ وَلَمْ

(١) بدا ، هـى : بدأ ، بالهزم ، فسهل للشعر ، والشبابة : طرف السيف وحدث كل شيء
وفلل : كسر

تَوَخَّذْ عَلَيْهَا رِشْوَةً، وَالسَّيِّئَةُ مَا كَانَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ. وقوله سبحانه: يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا: فذلك النصيب: هو ثَوَابُ الشَّفَاعَةِ وَجَزَاؤُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وقوله: يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا: أى نَصِيبٌ مِنْ وَزْرِهَا مُسَاوٍ لَهَا فِي الْقَدْرِ، وقوله عز وجل: وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا، فالمقيت: الْمُقْتَدِرُ مِنْ أَقَاتِ عَلَى الشَّيْءِ: إِذَا قَدَرَ، قال الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ وَقِيلَ لِأَبِي قَيْسٍ بِنِ رِفَاعَةَ -:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ

وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيتًا ^(١)

وَفُسِّرَ الْمُقِيتُ بِالْحَافِظِ وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الْقُوَّةِ، فَإِنَّهُ يَقْوَى الْبَدَنَ وَيَحْفَظُهُ.

ومن أجل ما قيل في الجود قول حاتم طي:

أَمَاوِيٌّ مَا يُغْنِي السَّرَّاءُ عَنِ الْفَقَى

إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

(١) روى الصاغاني هذا البيت مع أبيات أخرى هكذا:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ أُقِيتُ

يَبِيتُ اللَّيْلَ مُرْتَفِقًا ثَقِيلًا عَلَى فَرْشِ الْفَتَاةِ وَمَا أَيْتُ

نَعْنُ إِلَى مِنْهُ أُؤْذِيَاتُ كَمَا تُؤْذِي الْجَذَائِرَ الْبُرُوتُ

و المرتق: المتكئ على مرقبيه، ونعن: تسرع وتظهر، والجذمار: ما بقى من أصل السعفة، والبروت: الفأس، لغة يمانية ينطقونها البرت والبرت، والبروت فاعل تؤذى،

(٢) ماوى: منادى مرخم ماوية وهى زوجه حاتم، وحشرجت: أى النفس وإن لم يتقدم لها ذكر، لدلالة الكلام

أَمَاوِيَّ إِن يُصْبِحَ صَدَايَ بِقَفْرَةٍ
 مِنْ الْأَرْضِ لَأَمَاءُ لَدَيَّ وَلَا خُمْرٌ ^(١)
 تَرَى أَنَّ مَا أَبْقَيْتُ لَمْ أَكُ رَبَّهُ
 وَأَبَّ يَدِي مِمَّا بَخِلْتُ بِهِ صَفْرُ ^(٢)
 أَمَاوِيَّ إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ
 وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
 غِنَيْنَا زَمَانًا بِالتَّصَعُّلِكَ وَالْغِنَى
 وَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ ^(٣)
 فَمَا زَادَنَا بَأْوًا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ
 غِنَانَا وَلَا أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ ^(٤)

ألست معي في أن على هذه الآيات مسحة من الجمال وأثرا بيننا من الصدق وأن لها لوطاة من نيم بالقباب أليس حاتم يقول : الحق أقول : إنه لا يلبيغي لك ياماوية أن تلوميني على إنفاق مالي في سبيل البر والإلطاف ، والتخرق في التوال وقرى الأضياف ، أما تعلمين أن مال المرء لا يغني عنه شيئا إذا ما الموت رماه بسهامه وغادر هذه الحياة ، أما تعلمين أن المرء متى نُيذ جسده بالعراء وأودع حفرة موحشة مقفرة ليس معه شيء مما كان يحتازه في هذه الدنيا من مال ، بدا لك أن المال الذي تركته وبخلت به على مُسَحِّقِهِ أصبح

(١) الصدى هنا : جسد الانسان بعد موته

(٢) ربه : صاحبه ، وصفه : خلو (٣) غنينا : عشنا ، غنى كفرح : عاش ، وغنى بالمكان : أقام ، والمراد بالتصعلك الفقر ، وبكأسيهما : يعني الفقر والغنى (٤) البأو : الكبر والفخر ، يقال : بأوت على القوم أبأى بأوا ...

مِلْكَ لغيري وأصبحت أنا خَالِي الْوِفَاض^(١) بَادِي الْإِنْفَاض^(٢) لا أملك من هذا المال شَرْوَى نَقِير^(٣) ! أليس الأَخْلَقُ بي لذلك أنْ تُنْفِقَهُ وَأَتَسَخَّى به على أهليه ، فَأَنْتَفِعَ بعد موتي - إذا أنا فعلتُ - بالذِّكْر في الناس والحديث الحسن ! وأَيُّهُ قِيَمَةُ اللَّيَالِ يَا مَآوِيَةَ ، ذلك الذي يَحْيَى وبِذْهَب ، وَيَغْدُو وَيروح ! أليس الأَخْلَقُ بِالْعَاقِلِ الثَّاقِبِ النَّظَرِ أنْ يُفِيدَ مِنْهُ مَا هُوَ أَبْقَى عَلَى الزَّمَنِ الْبَاقِي مِنَ الزَّمَنِ - أنْ يُفِيدَ مِنْهُ الذِّكْرُ مِنْ طَرِيقِ إِنْفَاقِهِ ، وَالْجُودَ بِهِ فِي وَجْهِهِ اسْتِحْقَاقَهُ ! لَقَدْ عَشْنَا بِأَزْوَاجِنَا حِينَ مِنَ الدَّهْرِ أَغْنِيَاءُ كَمَا عَشْنَا حِينَ قَمَرَاءُ ، وَكُلًّا سَقَانَاهُ الدَّهْرَ بِكَأْسِيهِمَا ، فَمَا أَزْرَى الدَّهْرَ بِأَحْسَابِنَا ، وَلَا أَصْغَى إِنَاءَ أَغْرَاضِنَا ، وَلَا أَسْفَى بِأَخْلَاقِنَا ، كَمَا هُوَ شَأْنُهُ مَعَ ضَعْفَاءِ النُّفُوسِ ، وَكَذَلِكَ إِذْ كُنَّا أَغْنِيَاءُ ، مَا أَبْطَرْنَا الْغِنَى ، وَمَا أَطْعَمْنَا ، عَلَى ذَوَى قُرْبَانَا ، لِأَنَّا نَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّ الْمَالَ عَرَضٌ زَائِلٌ ، أَمَّا الْجَوْهَرُ ، أَمَّا الذِّكْرُ ، أَمَّا الشَّرَفُ ، أَمَّا الْخُلُقُ ، فَكُلُّ أُولَئِكَ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْمَعْوَلُ ، وَإِنَّهُ لَذَخِيرَةٌ لَا تَنْفَدُ ، وَهِيَ حَسْبُ الْعَاقِلِ الَّذِي رَاضٍ نَفْسَهُ عَلَى السَّكُونِ إِلَى الْحَقَائِقِ ، وَلَمْ يُخْلِدْ إِلَى أُمِّ دَفَرٍ^(٤) بَاطِلِ الْبَاطِيلِ ...

«أما بعد، فلقد أذكرتنا هذه العقريات الكريمة من القول، عبقرية رجل من رجالات السلف لقد بلغ المبالغ في الإحسان واصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنه لحق علينا أن نعرض شيئاً لهذه العبقرية من الفعال^(٥)، إذ أن كتابنا هذا ليس بمقصود على العبقرى من القول وإنما نعرض كذلك للعبقرى من الناسى في أى معنى من المعانى^(٦) على شريطة أن يكون ذلك لِمَآماً، فلا

(١) فارغ الجراب (٢) ظاهر الفقر (٣) النقيير : نكتة في النواة يكون منها نبات النخلة وشروى نقير : مثل هذه النكتة (٤) أم دفر: الدنيا وأصل الدفر: التن (٥) الفعال بفتح الفاء : الفعل الحسن (٦) فى أى معنى : متعلق بالعبقرى

تَغْفِلُ الإِغْفَالَ كُلَّهُ مَا يَعْنِينَا مِنْ سِيرِ الْعَبْقَرِيِّينَ ، وَنَمُتُ مِنْهَا بِسَبَبٍ وَاصِلٍ إِلَى أَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَا تَتَبَسَّطُ التَّبَسُّطُ الَّذِي يُبَلِّغُنَا بِأَصْحَابِ السَّيْرِ وَالْمُتَرَجِّمِينَ ؛ وَشَخْصِينَا الَّتِي حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْنَا أَنْ نُسَلِّمَ بِعَبَقَرِيَّتِهَا فِي بَابِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ هُوَ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ أَسْلَافِنَا كَمَا قُلْنَا - هُوَ قَاضِي الْقَضَاةِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ ...

أحمد بن أبي دواد *

كَانَ هَذَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ تَخْصِيصَةً ضَخْمَةً ذَاتَ أَثَرٍ فَعَالٍ خَالِدٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ، إِذْ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَشْيَاعِ الْمُعْتَرِلَةِ ، وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْقَائِلِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، الْعَامِلِينَ عَلَى تَرْوِيجِ هَذِهِ الْبَدْعَةِ ، مُسْتَظْهِراً عَلَى ذَلِكَ بِجَاهِهِ وَنُفُوذِهِ لَدَى الْمَأْمُونِ وَالْمُعْتَصِمِ وَالْوَاتِقِ . وَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْمَزٍ - فِي نَظَرِ رِجَالِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - إِلَّا هَذِهِ ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الصُّوْلِيُّ : لَوْلَا مَا وَضَعَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ حَبَّةٍ الْمِحْنَةِ - مِحْنَةِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَيْهِ - لَاجْتَمَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُضَفْ إِلَى كَرَمِهِ كَرُمٌ أَحَدٍ ... وَمَنْ أَحَبَّ الْوُقُوفَ عَلَى مَوْقِفِ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى مَقَاتِلِهَا ... وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي مَكَاتِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَمَنْزِلَتِهِ مِنَ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَرُسُوحِ قَدَمِهِ فِي الْفَضْلِ وَالتَّوْبَلِ وَمَكَارِمِ

(٥) قَالَ ابْنُ خُلِكَانٍ - بَعْدَ أَنْ سَرَدَ نَسَبَهُ وَنَمَاهُ إِلَى إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعْدَنَ بْنِ عَدْنَانَ أَيْ أَنَّهُ عَرَبِيٌّ إِيَادِيٌّ - إِنَّ أَسْلَمَهُ مِنْ قَرْيَةٍ بِقَنْسَرِينَ ، وَاتَّجَرَ أَبُوهُ إِلَى الشَّامِ وَأَخَذَهُ مَعَهُ وَهُوَ وَاحِدٌ ، فَتَشَأَ أَحْمَدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَخَاصَّةِ الْفَقْهِ وَالْكَلَامِ حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ ، وَصَحِبَ هِيَاجُ بْنُ عَلَاءِ السُّلَمِيِّ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ - فَصَارَ إِلَى الْإِعْتَزَالِ ، وَكَانَتْ وَلَادَتُهُ سَنَةَ ١٦٠ هـ بِالْبَصْرَةِ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٤٠ هـ بَعْدَ أَنْ أَصِيبَ بِالْفَالَجِ فِي زَمَنِ الْمُتَوَكِّلِ

الأخلاق ، وأفاعيله المخلّدة في هذه المعاني - والكلام يدخل بعضه في بعض - : قال أبو العيّن^(١) : ما رأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق من ابن أبي دؤاد ، وقال : كان ابن أبي دؤاد شاعراً مجيداً ، فصيحاً بليغاً : وقد ذكره دُعَيْلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخُزَاعِيُّ - الشاعر العبقرى - في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وروى له أبياتاً حسناً : وقال أبو بكر الجرجاني : سمعت أبا العيّن الضربري يقول : ما رأيت في الدنيا أقوم على أدب من ابن أبي دؤاد - يريد أبو العيّن بالآدب هنا : أدب النفس - ما خرجت من عنده يوماً قط فقال : يا غلام خذ بيده ، بل قال : يا غلام أخرج معه ، فكنت أتتقّد هذه الكلمة عليه ، فلا يُخِلُّ بها ولا أسمعها من غيره ... قالوا : ودو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدؤوه . وقال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة ، فاختلفوا في ذلك ، ودخل ابن أبي دؤاد ، فمدّهم واحداً واحداً بأسمائهم وكُناههم وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا استجلس الناس فاضلاً فمِثْلَ أَحْمَد ، فقال أحمد : بل إذا جالس العالمُ خليفة فمِثْلَ أمير المؤمنين ، الذي يفهم عنه ، ويكون أعلم بما يقوله منه . وقال أحمد بن عبد الرحمن الكلبي : ابن أبي دؤاد رُوِّحَ كُلُّهُ من قرينه إلى قدّمه . وقال لازون بن اسماعيل : ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد ، من المعتصم لابن أبي دؤاد ، كان - المعتصم - يُسَلُّ الشئ اليسير فيمتنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلمه في أهله

(١) أبو العيّن هو أبو عبد الله محمد بن القاسم الضرير ، ولد سنة ١٩١ وتوفي سنة ٢٨٢ كان من ظرفاء العالم وفيه من اللسن وسرعة الجواب ما لم يكن لأحد من نظرائه ، وترى نوادره مبعثرة في هذا الكتاب

وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب ، فيجيبه إلى كل ما يريد ، ولقد كلبه يوماً في مقدار ألف ألف درهم ليُحْفَرَ بها نهْرٌ في أقاصي خراسان ، فقال له : وما علىّ من هذا النهر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيّتك ، كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ، ولم يزل يرفُقُ به حتى أطلقها . قالوا : وكان ابتداء اتصال ابن أبي دُواد بالمأمون ما حدث به ابنُ أبي دُواد نفسه ، قال : كنت أحضرُ مجلسَ القاضي يَحْيَى بنِ أَكْثَم ، مع الفقهاء ، فإني عنده يوماً إذ جاء رسولُ المأمون ، فقال له : يقول لك أميرُ المؤمنين : انتقل إلينا أنتَ وجميعُ من معك من أصحابك ، فلم يُحِبَّ أنْ أحضرَ معه ، ولم يستطع أنْ يُؤَخِّرَنِي ، فحضرت مع القوم ، وتكلّمنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينظرُ إلىّ إذا شرّعتُ في الكلام ، ويتفهّم ما أقول ، ويستحسنه ، ثم قال لي : مَنْ تكون ؟ فانتدبتُ له ، فقال : ما أخركَ عنا ؟ فكبرِمتُ أنْ أُحِيلَ على يَحْيَى ، فقلت : حُبْسَةُ القَدَر ، وبلوغُ الكتابِ أجله ، فقال : لا أعلمن ما كان لنا من مجلسٍ إلّا حَضَرْتَهُ ، فقلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، ثم اتصل الأمر ، وقيل : قدِمَ يَحْيَى بنُ أَكْثَم قاضياً على البصرة من خراسان ، من قِبَلِ المأمون ، في آخر سنة ٢٠٢ وهو حَدَثٌ ، سنّه نَيْفٌ وعشرون سنة ، فاستصحب جماعةً من أهل العلم والمروآت ، منهم ابنُ أبي دُرَاد ، فلما قدِمَ المأمون ببغداد في سنة ٢٠٤ قال ليحجي : اختر لي من أصحابك جماعةً يُجالسونني ويُكثِرُونَ الدخولَ إلىّ ، فاختر منهم عشرين ، فيهم ابنُ أبي دُواد ، فكثروا على المأمون ، فقال : اختر منهم ، فاختر عشرة فيهم ابنُ أبي دُواد ، ثم قال : اختر منهم ، فاختر خمسة ، فيهم ابنُ أبي دُواد ، واتصل أمرُهُ ... وكان من وصية المأمون إلى أخيه المُتَصِم عند الموت :

وأبو عبدالله أحمد بن أبي دواد لا يُفارُكُ الشَّرْكَهَ في المَشُورَةِ في كُلِّ أمرٍ ،
 فإنه موضع ذلك ، ولا تَتَخَذَنَ وزيراً ، فلما ولي المعتمد ، جعل ابن أبي دواد
 قاضي القضاة مكان يحيى بن أكرم ، وكان لا يفعل فعلاً باطلاً ولا ظاهراً إلا
 برأيه ... ولما مات المعتمد وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن
 أبي دواد ، وما زال إلى أن ولي أخوه المتوكل ، فأصيب ابن أبي دواد بالفالج
 فكانت مدة عظمة ابن أبي دواد ونفوذه وجاهه نحواً من ثمان وعشرين سنة ...
 قال ابن خلكان - الذي نعتمد عليه في هذا الباب - : وكان ابن أبي دواد كثيراً
 ما يُنشد - ولم يذكر أنهما له أو غيره - :

ما أنت بالسبِّ الضَّعِيفِ وإنما تُجِئُ الأمورِ بِقُوَّةِ الأسبابِ
 فاليومَ حاجتنا إليك وإنما يُدْعَى الطَّيِّبُ لِشِدَّةِ الأوصابِ
 ومن كلامه : ثلاثة ينبغي أن يُجَلَّوا وتُعرف أقدارُهم : العلماء ، وولاء العدل ،
 والإخوان ، فمن استخفَّ بالعلماء أَهْلَكَ دينه ، ومن استخفَّ بالولاء أَهْلَكَ دُنياه ،
 ومن استخفَّ بالإخوان أَهْلَكَ رُوءته ، ومن كلامه أيضاً : ليس بكامل من لم
 يَحْمِلْ وِليَّه على مِنْبَرٍ ولو أنه حارس ، وعدوّه على جِذْعٍ ولو أنه وزيرٌ ^(١)

(١) هذا على حد قول عبدالله بن معاوية :

إذا أنت لم تنفعَ فضرَّ فإنما يُرَجَّى الفتي كما يضرُّ وينفعُ
 وقول الآخر :

ولكن فتى الفتيان من راح واعتدى لِضرِّ عدوِّ أو لنفعِ صديقٍ
 وقول المتنبي :

لمن تَطْلُب الدنيا إذا لم تُرِدْ بها مُرورَ حُبِّ أو إساءةَ بُحْرِمٍ

وقول ابن الرومي :

وكان بين ابن أبي دواد وبين الوزير الجبار محمد بن عبد الملك الزيات ، الذي-
تؤثر عنه هذه الكلمة : الرحمةُ خَوْرٌ في الطبيعة - منافساتٌ وشحناء ، حتى إن
شخصا كان يصحب ابن أبي دواد ويختص بقضاء حوائجه ، منعه الوزير المذكور
من التردد إليه ، فبلغ ذلك ابن أبي دواد ، فجاء إلى الوزير وقال : والله ،
مَا أَجِيبُكَ مُتَكَبِّرًا بكَ مِنْ قِلَّةٍ ، وَلَا مُتَعَزِّيًا بِكَ مِنْ ذِلَّةٍ ، ولكن أمير المؤمنين
رَبَّكَ مَرْتَبَةً أَوْجَبَتْ لِقَاءَكَ ، فَإِنْ لَقِينَاكَ فَلَهُ ، وَإِنْ تَأَخَّرْنَا عَنْكَ ذَلِكَ ... ثم
نهض من عنده ... قال ابن خلكان : وكان فيه - في ابن أبي دواد - من
المكارم والمحامد مَا يَسْتَعْرِقُ الوصف ... وكان يقال : أَكْرَمُ مَنْ كَانَ فِي دَوْلَةِ
بَنِي الْعَبَّاسِ الْبِرَامِكَةُ ثُمَّ ابْنُ دَوَادٍ ... حَدَّثَ الْجَاهِظُ قَالَ : غَضِبَ الْمُعْتَصِمُ عَلَى
رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ الْفُرَاتِيَّةِ ، وَأَحْضَرَهُ إِلَيْهِ وَالنَّطْعُ ^(١) فَقَالَ لَهُ الْمُعْتَصِمُ :
فَقُلْتَ وَصَنَعْتَ ، وَأَمْرٌ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي دَوَادٍ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
سَبَقَ السِّيفُ الْعَدْلَ ^(٢) ، فَتَأَنَّى فِي أَمْرِهِ فَإِنَّهُ مَظْلُومٌ ، قَالَ : فَسَكَنَ الْمُعْتَصِمُ

= وَلَيْسَ يَصَاحُ لَأَسْتَفْلِحَ بِمَمْلُوكَةٍ غَيْرُ أَمْرٍ نَافِعٍ بِالْحَقِّ ضَرَّارٍ
ووليّه : يريد صديقه وكل من يمت إليه بسبب واصل ، ويريد بحمله على المنبر
فصرته والارتفاع به ، ويريد بحمل عدوه على جذع : صلبه والقضاء عليه ، وقوله : ولو
أنه حارس ، أى خفير ، يريد ولو أنه حقير ، ولعله قال هذه الكلمة وهو يعرض بابن
الزيات الوزير .

(١) النطع : بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس وفيه لغات :

نَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ وَنَطْعٌ

(٢) هذا مثل ، والعذل : اللوم وأصله أن الحارث بن ظالم ضرب رجلا فقتله فأخبر

بعذره فقال : سبق السيف العذل ، يضرب لما قد فات

قليلا ، قال ابن أبي دؤاد : وَغَمَرَنِي الْبَوْلُ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى حَبْسِهِ ، وَعَلِمْتُ أَنِّي
 إِن كُنتُ قُتِلْتُ الرَّجُلَ ، لَجُمِعْتُ ثِيَابِي تَحْتِي وَبُلْتُ فِيهَا ، حَتَّى خَلَّصْتُ الرَّجُلَ
 قَالَ : فَلَمَّا قُتِلَ نَظَرَ الْمُعْتَصِمُ إِلَى ثِيَابِي رَطْبَةً فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، أَكَانَ تَحْتِكَ
 مَاءٌ ؟ فَقُلْتُ : لَا ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ! فَضَحِكَ
 الْمُعْتَصِمُ ، وَدَعَا لِي وَقَالَ ، أَحْسَنْتَ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَمَرَ لَهُ
 بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ... وَقَالَ أَبُو الْعِيَاءِ : كَانَ الْأَفْشِينُ - الْتُرْكِيُّ وَكَانَ مِنْ أَجَلِّ
 قَوَادِ الْمُعْتَصِمِ ، وَأَبْلَى فِي أَمْرِ بَابِكَ الْخُرَمِيِّ بِلَاءَ حَمْدِهِ لَهُ - يَحْسُدُ أَبَا دُلْفٍ
 الْقَاسِمَ بْنَ عَيْسَى الْعِجْلِيَّ ^(١) - وَهُوَ كَذَلِكَ أَحَدُ قَوَادِ الْمَأْمُونِ ثُمَّ الْمُعْتَصِمِ
 مِنْ بَعْدِهِ . وَكَانَ تَحْتَ لِمَرَّةِ الْأَفْشِينِ فِي حَرْبِ بَابِكَ - لِلْعَرَبِيَّةِ وَالشَّجَاعَةِ

(١) وهذا أبو دلف كان كذلك كريما سوريا جوادا ممدحا شجاعا مقدما فاضلا ،
 مدحه أبو تمام وعلي بن جبلة المعروف بالعكوك وبكر بن النطاح ، وفيه يقول العكوك
 قصيدته التي يقول فيها :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ بَيْنَ مَغْزَاهُ وَمَحْضَرِهِ
 فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
 كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ
 مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةٌ يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مَفْتَحِهَا

ويقول بكر بن النطاح :

يَا طَالِبَا الْكِيَمِيَاءِ وَعَلَيْهِ مَدْحُ ابْنِ عَيْسَى الْكِيَمِيَاءِ الْأَعْظَمِ
 لَوْلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا دِرْهَمٌ وَمَدَحَتَهُ لِأَنَّكَ ذَاكَ الدِّرْهَمِ
 وَقَدْ أَعْطَاهُ أَبُو دُلْفٍ عَلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ... هَذَا وَدُلْفُ اسْمُ
 عِلْمٍ مَنُوعٍ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعِلْمِيَّةِ وَالْعَدْلِ لِأَنَّهُ مَعْدُولٌ عَنْ دَالْفٍ ، قَالَ ابْنُ بَرِي

فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل ، فأخذه ببعض أسبابه ، فجلس له وأحضره ، وأحضر السّيف ليقتله ، وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر ، فركب من وقته مع من حضر من عدوّله ، فدخل على الأفسنين ، وقد جرى بأبي ذُلف ليقتل ، فوقف ، ثم قال : إني رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرت أن لا تُحدث في القاسم بن عيسى حديثاً حتى تُسلّمه إليّ ، ثم انفت إلى العدول وقال : أشهدوا أنّي أدّيت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حتى معافى ، فقالوا : قد شهدنا ، وخرج ، فلم يقدر الأفسنين عليه ، وسار ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد أدّيتُ عنك رسالة لم تقلها لي ، ما اعتدُ بعملٍ خيرٍ خيراً منها ، وإني لأرجو لك الجنة بها ، ثم أخبره الخبر ، فصوّب رأيه ، ووجّه من أحضر القاسم ، فأطلقه وذهب له : وعنف الأفسنين فيما عزم عليه ... ومن مرواته : أن المعتصم كان قد اشتدّ غيظه على محمد بن الجهم البرمكيّ ، فأمر بضرب عنقه ، فلما رأى ابن أبي دؤاد ذلك وأن لا حيلة له فيه وقد شدّ برأسه وأقيم في النّطع وهزّ السيف قال ابن أبي دؤاد للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتله ؟ قال المعتصم : ومن يحول بيني وبينه ؟ قال : يا أبي الله تعالى ذلك ، ويأباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأباه عدل أمير المؤمنين ، فإن المال للوارث إذا قتله حتى تُقيم البيّنة على ما فعله ، وأمره باستخراج ما اختأته أقرب عليك وهو حيّ ، فقال : أحبسوه حتى يُناظر ، فتأخّر أمره على مالٍ حملة أي كفّله ، وخلّص محمد ... وقال أبو العيناء : غضب المعتصم على خالد بن يزيد بن مزيد الشّيبانيّ ، وأشخصه من ولايته ، لتعجز لحقه في مالٍ طلب منه ، وأسباب غير ذلك : فجلس المعتصم لعقوبته ، وكان قد طرّح نفسه على ابن أبي دؤاد ، فنكلم فيه فلم يُجبه المعتصم ،

فلما جلس لعقوبته حضر ابن أبي دواد، جلس دون مجلسه، فقال له المعتصم: يا أبا عبد الله، جلست في غير مجلسك ١ فقال له: ما ينبغي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا... فقال له: وكيف؟ قال: لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فلا يشفع، قال: فارجع إلى مجلسك، قال: مُشَفَّعاً أو غير مُشَفَّع^(١)؟ فقال: بل مُشَفَّعاً، فارتفع إلى مجلسه، ثم قال: إن الناس لا يعلمون رضا أمير المؤمنين عنه إن لم يخْلَعْ عليه^(٢) - فأمر بالخلع عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد استحق هذا وأصحابه رِزْق ستة أشهر لا بد أن يقبضوها، وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصَّلَة، قال: قد أمرتُ لهم بها، فخرج خالد وعليه الخلع، والمال بين يديه، وإن الناس ينتظرون في الطرق الإيقاع به، وصاح رجلٌ: الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب، فقال خالد: أسكت، سيد العرب والله أحمد بن أبي دواد... وقال الواثق يوما لابن أبي دواد - تَضَجُّراً بكثرة حوائجه: قد اُخْتَلَّتْ بيوت المالِ بطلبائك للأندين بك والمتوسلين إليك! فقال: يا أمير المؤمنين، هي نتائجُ شُكْرُها مُتَّصِلٌ بك، وذخائرُ أجرها مكتوب لك. ومالي من ذلك إلا أن أخْلَدَ المدح فيك، فقال: أحسنت.

«وبعد، فلننتجراً بهذا المقدار من مساعي ابن أبي دواد سيد العرب وعقريتها في النجدة والمروءة والكرم والأريحية والشجاعة الأدبية

- (١) يقال: شفع له وتشفع له إلى الملك مثلاً، فشفعه فيه تشفيعا، فالطالب شفيح وشافع، والمشفع: الذي تقبل شفاعته، أما المشفع فهو الذي يقبل الشفاعة
- (٢) قال في أساس البلاغة: خلع عليه: إذا نزع ثوبه وطرحه عليه، وكساه الخلعة والخلع

وما آلفَ لِفَ هذه المعاني السَّكريةَ مما انبعثت له قرائحُ خولِ شعراء الإسلام، أمثالِ
أبي تمام، فأنطقهم بالمأثور من الشعر الفخم، وامتدحوا به هذا الرجل العظيم،
فقال أبو تمام :

لقد أنستَ مساوِيَ كلِّ دهرٍ محاسنُ أحمدَ بنِ أبي دُوادٍ
وما سافرتُ في الآفاقِ إلَّا ومن جدِّ والكَرَّاحِ حتَّى وزادِ

قال علي الرازي: رأيت أبا تمام عند ابن أبي دواد ومعه رجل يُنشدُ عنه
قصيدة منها هذان البيتان ، فلما أنشدتهما قال ابن أبي دواد لأبي تمام :
هذا المعنى تفرَّدتَ به أم أخذته ؟ فقال : هولى ، وقد أَلَمْتُ فيه بقول
أبي نواس :

وإن جَرَّتِ الألفاظُ مِنَّا بِمدْحَةٍ لغيرِكَ إنساناً فأنتَ الذى نَعْنِ
ومدحه أبو تمام أيضا بقصيدته التى أولها :

أرأيتَ أىَّ سوافٍ وخُدُودٍ عَنَّتْ لنا بين اللوى وزُرُودٍ

وفى الآيات الثلاثة البديعة فى الحسد :

وإذا أرادَ اللهُ نَشَرَ فُضِيلَةٍ طَوَّيْتَ أُنَاحَ لها لسانَ حَسودٍ
لولا اشتعالُ النارِ فيها جاورَتْ ما كانَ يُعَرِّفُ طِيبُ عَرِفِ العُودِ
لولا التَّخَوُّفُ لِلْعَوافِبِ لم تزلْ لِلْحاسِدِ التَّمَعُّى على المحسودِ

ودخل أبو تمام عليه يوما ، وقد طالَت أيامه فى الوقوف ببابه ولا يصل
إليه ، ولما وصل قال له ابن أبي دواد : أَحَسْبُكَ عاتبا يا أبا تمام ، فقال
أبو تمام : إنما يُعْتَبُ على واحدٍ وأنتَ الناسُ جميعا ، فكيف يُعْتَبُ عليه !
فقال له : مِن أينَ لك هذا يا أبا تمام ؟ فقال من قول الحاذق - يعنى
أبا نواس - فى الفضل بن الربيع :

وليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^(١)
وَمَا وَلَّى ابْنُ أَبِي دُوَادٍ الْمَظَالِمَ قَالَ أَبُو تَمَامٍ قَصِيدَةً يَتَذَلُّ بِهَا إِلَيْهِ، مِنْ جَمَلِهَا
قَوْلُهُ :

إِذَا أَنْتَ صَيَّعْتَ الْقَرِيضَ وَأَهْلَهُ فَلَا عَجَبٌ إِنْ صَيَّعْتَهُ الْأَعَاجِمُ
فَقَدْ هَرَّ عِظْفَيْهِ الْقَرِيضُ تَوَقُّعًا لِعَدْلِكَ مُذْ صَارَتْ إِلَيْكَ الْمَظَالِمُ
وَلَوْ لَا خِلَالُ سَنِّهَا الشَّعْرُ مَا دَرَى بُغَاةَ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تَوَنَّى الْمَكَارِمُ

وَمَدَانِخُ أَبِي تَمَامٍ وَغَيْرِ أَبِي تَمَامٍ فِيهِ كَثِيرَةٌ مُتَوَافِرَةٌ ... وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ
دَرِيدٍ : كَانَ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ مُؤَالِفًا لِأَهْلِ الْأَدَبِ مِنْ أَيْ بَلَدٍ كَانُوا ، وَكَانَ
قَدْ ضَمَّ مِنْهُمْ جَمَاعَةً يَعُولُهُمْ وَيَمُونُهُمْ ، فَلَمَّا مَاتَ حَضَرَ بِيَاهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ
وَقَالُوا يُدْفَنُ مِنْ كَانَ سَائَةَ الْكَرَمِ^(٢) وَتَارِيخَ الْأَدَبِ وَلَا تَسْكَمُ فِيهِ إِلَّا مَنْ
هَذَا وَهْنٌ^(٣) وَتَقْصِيرٌ ، فَلَمَّا طَلَعَ سَرِيرُهُ قَامَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ :
الْيَوْمَ مَاتَ نِظَامُ الْمَلِكِ وَاللَّسَنِ وَمَاتَ مَنْ كَانَ يُسْتَعْدَى عَلَى الزَّمَنِ^(٤)

(١) وَأَخَذَهُ أَبُو نُوَاسٍ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

(٢) السَّاقَةُ : جَمْعُ سَاقٍ وَهُمْ الَّذِينَ يَسُوقُونَ جَيْشَ الْغَزَاةِ وَيَكُونُونَ مِنْ وَرَائِهِ
يَحْفَظُونَهُ ، فَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ الْأَدْبَاءَ يَرِيدُونَ بِقَوْلِهِمْ مَنْ كَانَ سَائَةَ الْكَرَمِ : أَنَّهُ كَانَ يَحُوطُ
الْكَرَمَ وَيَحْفَظُهُ فَكَانَ الْجَيْشَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ جِيُوشَ الْكَرَمِ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ أَمِيرُ الْكَرَمِ
إِذْ أَنَّهُ يَحُوطُهُ وَيَحْفَظُهُ

(٣) وَهْنٌ : ضَعْفٌ

(٤) يَقَالُ : اسْتَعْدَيْتُ الْآمِرَ عَلَى فُلَانٍ فَأَعْدَانِي : أَيْ اسْتَعْنَيْتُ بِهِ عَلَيْهِ فَأَعَانَنِي
وَالْإِسْمُ مِنْهُ الْعَدُوُّ وَهِيَ الْمَعُونَةُ

وَأَظْلَمْتُ سُبُلَ الْآدَابِ إِذْ حُجِبَتْ شَمْسُ الْمَكَارِمِ فِي غَيْمٍ مِنَ الْكَفَنِ
وتقدم الثاني فقال :

تَرَكَ الْمَنَابِرَ وَالسَّرِيرَ تَوَاضَعًا وَلَهُ مَنَابِرُ لَوْ يَشَاءُ وَسَّرِيرٌ
ولغيره يُجَبِّي الخُرَاجَ وَإِنَّمَا تُجَبِّي إِلَيْهِ تَحَامِدٌ وَأُجُورٌ^(١)
وتقدم الثالث فقال :

وَلَيْسَ فِتْقُ الْمَسْكِ رِيحٌ خُبُوطِهِ وَلَكِنَّهُ ذَاكَ الشَّاءُ الْمُخْلَفُ^(٢)
وَلَيْسَ صَرِيرُ النَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ وَلَكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصَفُ^(٣)

رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود

«وبعد، فلننظف على كلامهم في الجود وذم البخل : أورد الجاحظ في كتابه « البخلاء » رسالة جميلة جداً نسبها إلى أبي العاصي بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفي - أرسلها إلى رجل من عشيرته، وقد سمع بأنه يجلس إلى قوم من البخلاء، أمثال سهل بن هارون والأصمعي، وقد تأثر بمذهبهم في البخل وامتداحهم إياه، فكتب إليه هذه الرسالة ينعى فيها على البخلاء مذهبهم، ويذم البخل وينوّه بالجود - ونحن فإننا نقطف من هذه الرسالة نثفاً ونترك سائرهما لمن يحب أن يراجعها في كتاب البخلاء - قال :

(١) أجور : جمع أجر وهو الثواب

(٢) فتق المسك : استخراج رائحته بشيء نخلطه به، ومسك فتق : مستخرج الرائحة بخله في غيره - كما يفعلون اليوم به وبالعنبر .

(٣) الاصلاب : جمع صلب وهو العظم من لدن الكاهل إلى العقب، وتقصف : يحذف إحدى التامين أى تقصف والتقصف : التكرس

وهل تزيد حال من أنفق جميع ماله ، ورأى المكروة في عياله ، وظهر فقره ، وشمت به عدوه ، على أكثر من انصراف المؤمنين عنه ، وعلى بغض عياله ^(١) ، وعلى خشونة اللبس ، وجشوبة المأكل ^(٢) ؟ وهذا كله ، مجتمِعٌ في مسك ^(٣) البخيل ، ومضروبٌ على هامة ^(٤) الشحيح ، ومُعَجَّلٌ للثيم ^(٥) ومُلازمٌ للنسوع ؛ ألا إن المُنْفَقَ قد رَجَحَ المحمَّدة ، وتمتَّعَ بالنعمة ، ولم يُعطَلِ المقدرة ^(٦) ، ووفَّى كُلَّ خَصْلَةٍ مِنْ هذه حقها ، ووفَّرَ عليها نصيبها ، والممسكُ معذبٌ ، بتَحْضِرِ نفسه ، وبالكَدِّ لِغَيْرِهِ ؛ مع لزوم الحجة ^(٧) ، وسقوط الهمة ^(٨) ، والتعرُّض للذم والإهانة ، ومع تحكيم العِرة السوداء في نفسه ^(٩) وتسليطها على عِرْضه ، وتمكينها من عيشه ، وسرور قلبه ^(١٠)

إنَّ الله جوادٌ لا يَبْخُلُ ، وصدوقٌ لا يَكْذِبُ ، وَوَفَّى لا يَغْدِرُ ، وحكيمٌ لا يَعْجَلُ ، وعدلٌ لا يَظْلِمُ . وقد أَمَرْنَا بالجود ، ونهانا عن البخل ؛ وأمرنا بالصدق ، ونهانا عن الكذب ؛ وأمرنا بالحِلْمَ ، ونهانا عن العَجَلَةِ ؛ وأمرنا بالعدل ، ونهانا عن الظلم ؛ وأمرنا بالوفاء ، ونهانا عن الغدر .

-
- (١) أى بغضهم له (٢) جشوبة المأكل : غلظه وخشونته أو قلة إدامه
 (٣) المسك : الجلد والمراد : النفس والشخص (٤) الهامة : الرأس
 والجمع : هام (٥) اللثيم : الشحيح النفس (٦) أى لم يعطل المقدرة على فعل الخير وكسب الثناء (٧) مع لزوم الحجة : أى مع قيام الحجة عليه في بخله وعجزه عن الزيادة عن نفسه (٨) سقوط الهمة : العجز عن جلائل الأعمال
 (٩) المرة : خلط من أخلاط البدن ، والمزاج الأسود : هو المزاج المضطرب الكثير المخاوف والوساوس
 (١٠) وتسليطها : يعنى أنه بمخاوفه ووساوسه يستهدف للذم ، وتتمكن هذه المرة من نفسه فتتغصص عليه عيشه وتعصف بسروره

فَلَمْ يَأْمُرْنَا إِلَّا بِمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَزُجِّرْنَا إِلَّا عَمَّا لَمْ يَرْضَهُ لِنَفْسِهِ : وَقَدْ
 قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : إِنَّ اللَّهَ أَجودُ الْأَجودِينَ ، وَأَجْدُ الْأَجْدِينَ ؛ كَمَا قَالُوا : أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . وَقَالُوا فِي التَّأْدِيبِ لِسَائِلِهِمْ ، وَالتَّعْلِيمِ لِأَجْوَادِهِمْ :
 لَا تَجَاوِدُوا اللَّهَ ^(١) فَإِنَّ اللَّهَ - جَلَّ ذِكْرُهُ - أَجودُ وَأَجْدُ . وَذَكَرَ نَفْسَهُ جَلَّ
 جَلَالُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - فَقَالَ : « ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » ، وَ « ذُو الطُّولِ » ^(٢)
 لِإِلَهِهِ إِلَّا هُوَ ، وَقَالَ : « ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ،



وَذَكَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : لَمْ يَضَعْ دِرْهَمًا عَلَى دَرَمٍ ،
 وَلَا لَيْتَةً عَلَى لَيْتَةٍ . وَمَلَكَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ ، فَقَبَضَ الصَّدَقَاتِ ، وَجُبَيْتُ لَهُ
 الْأَمْوَالُ ، مَا بَيْنَ عُذْرَانَ الْعِرَاقِ إِلَى شَجَرِ عُثْمَانَ ^(٣) إِلَى أَقْصَى خَالِفِ ^(٤) الْبَيْنِ
 ثُمَّ تُوفِّيَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ، وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ . وَلَمْ يُسْأَلْ حَاجَةً قَطُّ فَقَالَ : لَا .
 وَكَانَ إِذَا سُئِلَ أَعْطَى ، وَإِذَا وَعِدَ أَوْ أَطْمَع ، كَانَ وَعْدُهُ كَالْعَيَانِ ^(٥) ، وَإِطَاعُهُ
 كَالْإِنْجَازِ . وَمَدَحَتُهُ الشُّعْرَاءُ بِالْجُودِ . وَذَكَرَتْهُ الْخُطَبَاءُ بِالسَّمَاحِ . وَلَقَدْ كَانَ
 يَهْبُ لِلرَّجُلِ الْوَاحِدِ الضَّاجِعَةُ مِنَ الشَّاءِ ^(٦) وَالْعَرَجُ مِنَ الْإِبِلِ ^(٧) - وَكَانَ
 أَكْثَرُ مَا يَهْبُ الْمَلِكُ مِنَ الْعَرَبِ مِائَةً بَعِيرٍ ، فَيَقَالُ : وَهَبْ هُنَيْدَةً ^(٨) . وَإِنَّمَا

(١) أى لتحاولوا أن تصلوا في الجود إلى مثل جود الله (٢) الطول :
 الإنفال والإنعام (٣) ساحل البحرين عمان وعدن (٤) الخلاف : الكورة
 ودو عند أهل اليمن وحاد الخاليف وهى كورها أى المدن والأصقاع
 (٥) العيان : مصدر عاين الشيء : أبصره والمعنى : أن وعده فى الوثوق بتحقيقه
 كالشيء المشاهد (٦) الضاجعة : الغنم الكثيرة (٧) العرج من الإبل : ما بين
 السبعين إلى الثمانين وقيل : ما بين الثمانين إلى التسعين ، وقيل : مائة وخمسون وفوق
 ذلك ، وقيل : من خمسمائة إلى الألف (٨) هند وهنيدة : اسم للمائة من الإبل خاصة

يقال ذلك ، إذا أريد بالقول غاية المدح ، ولقد وَهَبَ لرجل ألف بعير .
فلما رآها تزدهم في الهوادي ^(١) قال : أشهد أنك نبى . وما هذا مما تجودُ
به الأنفس .

وأجمعت الأمم كلها بخيلها وسخيلها ومزوجها ، ^(٢) على ذم البخل ، وحمد
الجود ، كما أجمعوا على ذم الكذب وحمد الصدق .

فمن أراد أن يخالف ما وصف الله - جل ذكره - به نفسه ، وما منح من
ذلك نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وما فطر على تفضيله العرب قاطبة ،
والأمم كافة ، لم يكن عندنا فيه إلا إكفاره واستسقاطه ^(٣)

ولم نزالمة أبغضت جواداً قط ولا حقّرتُهُ ، بل أحبّته وأعظمتُهُ ، بل
أحبّت عقيقه وأعظمت من أجله رهطه . ولا وجدناهم أبغضوا جواداً ،
لمجاوزته حمد الجود إلى السرف ، ولا حقّرتُهُ ، بل وجدناهم يتعلبون
مناقبه ، ويتدارسون محاسنه ، وحتى أضافوا إليه من نوادر الجليل ^(٤) ما لم يفعله
وتخلّوه ^(٥) من غرائب الكرم ما لم يكن ليبلغه ، ولذلك زعموا أن الشاء في الدنيا
يُضاعف ^(٦) كما تُضاعف الحسنات في الآخرة . نعم ، وحتى أضافوا إليه

(١) الهادية والهادى : العنق ، والهادية من كل شيء : أوله وما تقدم منه فيكون
معنى تزدهم في الهوادي : تزدهم بأعناقها وهذا ما يشاهد في الإبل . أو يكون المعنى :
تزدهم في أوائلها وهذا ما شاهد أيضاً في كل قطع

(٢) ممزوجها : من امتزج فيه السخاء والبخل فكان وسطاً بين الكريم والبخل

(٣) في اللسان : وأكفرت الرجل : دعوته كافراً ، واستسقاطه : إسقاطه من

بين العقلاء

(٤) الفعل الجليل (٥) نخلوه : نسبوا إليه (٦) يضاعفه الناس أضعاظاً

كثيرة بما يضيفون إليه ويزيدون عليه

كلّ مدح شارد ^(١)، وكلّ معروف مجهولٍ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم للبخل على ضدّ هذه الصفة ، وعلى خلاف هذا المذهب : وجدناهم يُغضونه مرّة ، ويُحقّرونه مرّة ، ويُغضون بفضل بغضه ولده ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رهطه ، ويُضيفون إليه من نوادر اللّوم ما لم يبلغه ، ومن غرائب البخل ما لم يفعله ، وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء بقدر ماضعفوا للجواد من حسن الثناء .

وعلى أنّنا لانجد الجوائع ^(٢) إلى أموال الأسخياء ، أسرع منها إلى أموال البخلاء ، ولا رأينا عدد من افتقر من البخلاء أقلّ .

والبخل عند الناس ليس هو الذي يبخل على نفسه فقط ؛ فقد يستحقّ عندهم اسم البخل ويستوجب الذم ، من لا يدع لنفسه هوى إلا ركيه ، ولا حاجة إلا قضاها ، ولا شهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايته . وإنما يقع عليه اسم البخل ، إذا كان زاهداً في كل ما أوجب الشكر ، ونوّه بالذكر ، وأدخر الأجر

وقد يُعاقّب البخل ^(٣) على نفسه من المؤن ، ويلزمها من الكلف ، ويتخذ من الجوارى والخدم ، ومن الدوابّ والحشم ^(٤) ، ومن الآنية العجيبة ، ومن البزة الفاخرة ^(٥) . والشارّة الحسنة ^(٦) ، ما برّبي على نفقة السيّئ المثرى ^(٧) ويضعف على جود الجواد الكريم ^(٨) فيذهب ماله وهو مذموم ، ويتغيّر

(١) شارد : نافر ، يريد المدح الغريب الذي لا يخطر عادة بالبال

(٢) الجوائع : جمع جائحة وهي الآفة .

(٣) يعلق : يوجب ويكلف (٤) الحشم : الخدم وهي كلمة في معنى الجمع ولا واحد لها من لفظها (٥) البزة : الهيئة : يقال : هو حسن البزة

(٦) الشارة هنا : الزينة واللباس

(٧) يربي : يقال : أربي الشيء على كذا : زاد عليه

(٨) ضعف يضعف : من باب كرم ، زاد

حاله وهو ملوم . وربما غَابَ عليه حُبُّ الْقِيَانِ ^(١) واستُهْتِرَ بِالْخُصِيَانِ ^(٢) .
 وربما أَفْرَطَ فِي حُبِّ الصِّيدِ ، واستولى عليه حُبُّ المراكبِ ^(٣) ، وربما كانَ
 إِتْلَافَهُ فِي العُرْسِ وَالْخُرْسِ ^(٤) والوليمة ، وإِسْرَافُهُ فِي الإِعْذَارِ ^(٥) وفي العَقِيقَةِ ^(٦)
 والوكيرة ^(٧) ، وربما ذهبت أحواله فِي الوضائعِ ^(٨) والودائعِ . وربما كانَ
 شَدِيدُ البُخْلِ ، شَدِيدَ الحُبِّ لِلذَّكْرِ ^(٩) ويكونُ بُخْلُهُ أَرْشَجَ ^(١٠) ولوْهه أَقْبَحَ ،
 فَيُنْفِقُ أَوَّالَهُ وَيُتْلِفُ خَزَائِنَهُ ، وَلَمْ يَخْرُجْ كِفَافًا ^(١١) وَلَمْ يَنْجُ سَلِيمًا
 كَأَنَّكَ لَمْ تَرَبِّ بِخِيلًا مَخْدُوعًا ^(١٢) ، وَبِخِيلًا مَضْعُوفًا ، وَبِخِيلًا مِضْيَاعًا ، وَبِخِيلًا

-
- (١) القيان : جمع قينة ، بفتح فسكون ، الأمة البيضاء مغنية أو غير مغنية
 (٢) استهتر بالشئ : بالبناء للجھول . : أولع به : والولوع بالخصيان نوع من السرف
 والترف كان شائعا في أيامهم
 (٣) المراكب : جمع مركب والمراد ما يركب من الخيل ونحوها
 (٤) الخرس بالضم والخراس بالكسر : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة
 (٥) الإعذار : وليمة الختان وطعام البناء ، الدخلة ،
 (٦) العقيقة : الشاة تذبح في اليوم السابع من ولادة المولود
 (٧) الوكيرة : الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان يبنيه
 (٨) الوضائع : جمع وضيفة وهي ما يرفعه الدائن عن المدين من الدين
 (٩) شديد الحب لأن يذكر بما ينفقه من مال في هذه السبيل
 (١٠) أى أعلق بنفسه

- (١١) الأصل فى معنى الكفاف : ما يكف عن سؤال الناس ويغنى ، ومعنى لم يخرج كفافا هنا : لم يخرج خاليا من الذم وهو فى معنى : ولم ينج سليما
 (١٢) يتخيل كاتب الرسالة أن المخاطب ينكر ما ذهب إليه فهو يتجه اليه
 قائلا : كأنك الخ ، والمضعوف : ضعيف الرأى

تَقَاجَا ^(١) وَبَخِيلًا ذَهَبَ مَالُهُ فِي الْبِنَاءِ، وَبَخِيلًا ذَهَبَ مَالُهُ فِي الْكِيمِيَاءِ ^(٢) ،
 وَبَخِيلًا أَنْفَقَ مَالَهُ فِي طَمَعٍ كَاذِبٍ ، وَعَلَى أَمَلٍ خَائِبٍ ، وَفِي طَلَبِ الْوَلَايَاتِ ،
 وَالْدُخُولِ فِي الْقَبَالَاتِ ^(٣) ، وَكَانَتْ فِتْنَتُهُ بِمَا يُؤْمَلُ مِنَ الْإِمْرَةِ ^(٤) ، فَوْقَ
 فِتْنَتِهِ بِمَا قَدْ حَوَاهُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَقَدْ رَأَيْنَاهُ ^(٥) يُنْفِقُ عَلَى مَائِدَتِهِ وَفَاكِهَتِهِ
 أَلْفَ دِرْهَمٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَعِنْدَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عُرْسٌ ^(٦) ، وَلَآنَ يَطْعَنَ طَاعِنٌ
 فِي الْإِسْلَامِ ، أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَطْعَنَ طَاعِنٌ فِي الرِّغِيفِ الثَّانِي ، وَأَشَقُّ
 عَصَا الدِّينِ ، أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ شَقِّ رَغِيفٍ ، لَا يَعُدُّ الثَّأَمَةَ فِي عِرْضِهِ ثَلَاثَةً ،
 وَيَعْدُهَا فِي ثَرِيدَتِهِ مِنْ أَعْظَمِ الثَّلَمِ ^(٧)

وَإِنَّمَا صَارَتِ الْآفَاتُ إِلَى أَمْوَالِ الْبَخْلَاءِ أَسْرَعَ وَالْجَوَانِحُ عَلَيْهِمْ أَكْلَبَ ^(٨) ؛

(١) النفاق : المدعى المتباهى بما ليس له

(٢) الكيمياء في زعمهم : تحويل المعادن الخسيسة - بالصناعة - إلى معادن نفيسة ،
 أقول : وقد رأيت بعيني رأسي رجلاً ثرياً من ذوى قرابتنا كان يضرب به المثل في البخل
 ولكنه في أواخر أيامه أضاع ثروته التي كانت تبلغ ثلثمائة فدان من أجود أطيان
 مديرية الغربية في سبيل هذا الكيمياء بعد أن تعرف على رجل مغربي قد اشتهر بهذه
 الصناعة التي كم خربت من بيوت أمثال هؤلاء البخلاء المخبولين

(٣) القبالة - بالفتح - الكفالة ، واسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوها ،

والقبيل : الكفيل والضامن

(٤) الإمرة : اسم مصدر ، من أمر علينا : إذا ولي

(٥) يريد بخيلاً من البخلاء

(٦) العرس من معانيه : الوليمة

(٧) الثلثة : الفرجة في الشيء المهْدوم أو المكسور

(٨) أكلب : أضرى وأولع وأشد

لأنهم أقلُّ توكُّلاً ، وأسوأ بالله ظنًّا . والجوادُ إما أن يكون متوكلاً ، وإما أن يكون أحسنَ بالله ظنًّا ، وهو على كل حال المتوكل أشبهه ، وإلى ما أشبهه أنزع^(١) ، وكيف أدار أمره ، فليس من يتَّكَلُّ على خِزمه ، ويلجأ إلى كَيْفِيسه^(٢) ويرجع إلى جَوْدَةٍ احتياطة وشدة احتراسه .

واعْتِلَالُ الْبَخِيلِ بِالْحَدَثَانِ ، وسوء الظن بتقلب الزمان ، إنما هو كناية عن سوء الظن بخالق الحدثان^(٣) ، وبالذي يُحْدِثُ الْأَزْمَانَ وأهل الزمان . ولا تجري الأحداث إلا على تقدير المحدث لها ؟ وهل تختلف الأزمنة إلا على تصرف من دبرها ؟ أولسنا وإن جهلنا أسبابها فقد أيقنَّا بأنها تجري إلى غاياتها ؟^(٤) والدليل على أنه ليس بهم خوف الفقر ، وأن الجمع والمنع إما أن يكون عادةً منهم ، أو طبيعةً فيهم ، أنك قد تجد المَلِكَ بخيلاً ، وملكته أوسع ، وخُرْجُه أدر ، وعدوه أسكن^(٥) وقد علمنا أن الزنج أقصرُ الناس مرةً^(٦) ورويةً وأذلَّهُم عن معرفة العاقبة^(٧) : فلو كان سخاؤهم إنما هو لِكَلالِ حَدمِهم^(٨) ،

(١) الضمير في أشبهه يعود الى المتوكل وأنزع : أميل

(٢) كيفه : عقله وفطنته

(٣) حدثان الدهر : نوابه . واعتلال البخيل بالحدثان : أى تلبسه العلل والأعذار

بالخوف من نواب الدهر الخ

(٤) الفاء من فقد : زائدة ، لأن جملة فقد أيقنَّا : خبر ليس

(٥) الخرج والخراج : ما يحصل من غلة الارض ، وأدر : أكثر ، وعدوه أسكن :

أى غير متحفز لقتاله وإذن فالسال موفور لديه

(٦) المزة : العقل والإحكام

(٧) أى وهم مع ذلك أسخياء

(٨) كلال الحد : أصله فى السيف والسكين ونحوهما والمراد هنا النباء وقلة

الذكاء والفطنة

وَنَقِصَ عَتَمُولَهُمْ ، وَقَلَّةَ مَعْرِقَتِهِمْ ، لَكَانَ يَنْبَغِي لِفَارَسٍ أَنْ تَكُونَ أَبْخَلَ
 مِنَ الرُّومِ وَتَكُونَ الرُّومُ أَبْخَلَ مِنَ الصَّقَالِبَةِ ^(١) ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي فِي الرِّجَالِ ، فِي
 الْجَمَلَةِ ، أَنْ يَكُونُوا أَبْخَلَ مِنَ النِّسَاءِ ، فِي الْجَمَلَةِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي لِلصِّيَّانِ أَنْ يَكُونُوا
 أَسْخَى مِنَ النِّسَاءِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَقْلُ الْبَخْلَاءِ عَقْلًا ، أَعْقَلُ مِنْ أَشَدِّ
 الْأَجْوَادِ عَقْلًا ؛ وَكَانَ يَنْبَغِي لِلْكَلْبِ - وَهُوَ الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي اللَّؤْمِ - أَنْ
 يَكُونَ أَعْرَفَ بِالْأُمُورِ مِنَ الدِّبْيِ ، الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ ^(٢)

وَنَحْنُ لَا نَجِدُ الْجَوَادَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ السَّرَفِ إِلَى الْجُودِ ، كَمَا نَجِدُ الْبَخِيلَ
 يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْبُخْلِ إِلَى الْاِقْتِصَادِ ^(٣) . وَنَجِدُ الشَّجَاعَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْمُنْهَزَمِ ،
 وَالْمُسْتَحْيَ يَفِرُّ مِنْ اسْمِ الْحِجْلِ . وَلَوْ قِيلَ لِحَطِيبِ ثَابِتِ الْجَنَانِ : وَقَاحٌ ^(٤) لَجَزِعَ
 - فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضِيلَةِ الْجُودِ إِلَّا أَنْ جَمِيعَ الْمُتَجَاوِزِينَ لِحُدُودِ أَصْنَافِ
 الْخَيْرِ يَكْرَهُونَ اسْمَ تِلْكَ الْفَضِيلَةِ ^(٥) - إِلَّا الْجَوَادُ ^(٦) ، لَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ مَا يُبَيِّنُ
 قَدْرَهُ ، وَيُظْهِرُ فَضْلَهُ .

وَلَوْ كَانُوا لِأَوَّلَادِهِمْ يَجْمَعُونَ ، وَلَهُمْ يَكْدُونَ ، وَمَنْ أَجْلِهِمْ يَحْرِصُونَ ،
 لَجَعَلُوا لَهُمْ كَثِيرًا مِمَّا يَطْلُبُونَ ، وَلَتَرَكُوا مُحَاسِبَتَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يَشْتَهَوْنَ .

(١) الصقالبة : جيل تتأخم بلادهم بلاد الخزر - في روسيا - وبحر الخزر هو
 بحر قزوين

(٢) وصف الديك بالجود لأن من عادته أن يدعو الدجاج ويثير لها الحب

(٣) ونحن الخ ، وذلك لأن الجواد لا يخاف من اسم السرف خوف البخيل من
 اسم البخل لأن السرف في رأى الجواد يكاد يلحق بالجود

(٤) الوقاح : القليل الحيا.

(٥) الفضلة هنا : تجاوز الحد في الفضيلة

(٦) إلا الجواد ، أى فإنه لا يكره أن يلقب بالمسرف

وهذا بعض ما بَعَضُ بعضُ المورثين إلى الوارثين ، وزهدَ الأخلاف ^(١) في طولِ عُمرِ الأسلاف ...

ولو كانوا لأولادهم يُمَهِّدُونَ ، ولهم يجمعُونَ ، لَمَا جمعَ الخِصِيَانُ
الأوالَ ، وَلَمَا كَنَزَ الرُّهْبَانُ الكَنُوزَ ، وَلَاسْتَرَاخَ العَاقرُ مِنْ ذُلِّ الرَّغْبَةِ ^(٢)
وَلَسَلِمَ العَقِيمُ مِنْ كَدِّ الحِرْصِ . وكيف ؟ ونحن نَجِدُهُ بعدَ أن يَمُوتَ ابنُهُ
الذي كان يعتل به ^(٣) ، والذي مِنْ أَجلِهِ كان يَجْمَعُ ، على حاله ^(٤) في الطلب
والحرص ، وعلى مِثْلِ ما كان عليه من الجمع والمنع

والعامةُ لم تُقَصِّرْ في الطلب والحُسْكَرة ^(٥) ، والبُخْلَاءُ لم يَحْذُوا شَيْئاً مِنْ جُهِدِهِمْ ^(٦)
وَلَا أَعْفَوْا بعدُ قَدْرَتِهِمْ ^(٧) ، وَلَا قَصَرُوا في شَيْءٍ مِنَ الحِرْصِ والتَّحْصُرِ ^(٨) ،
لأنهم في دَارِ قُلْعَةٍ ، بَعَرَضَ نُقْلَةٍ ^(٩) . حتى لو كانوا بالخُلُودِ مُوقِنِينَ ،
لَا غَفَلُوا تِلْكَ الفُضُولَ ^(١٠)

-
- (١) الأخلاف : جمع خلف وهم أبناء الانسان الذين يخلفونه بعد موته
(٢) ذل الطمع والحرص (٣) يعتل به : يتخذُه علةً وسبباً للجمع والمنع
(٤) على حاله : متعلق الجار والمجرور مفعول ثانٍ لتجد (٥) والعامة الخ كأنه
الحق العامة بالبخلاء ، لصفات البخل فيهم ، والحسكرة هنا : الجمع والإمساك
(٦) أى لم يجبسوا جهودهم في سبيل جمع الاموال (٧) اعنى : أنفق العفو من
ماله وهو ما يفضل عن النفقة وبعد قدرتهم : أى بعد اقتدارهم وإيسارهم
(٨) الحصر : البخل

(٩) يقال : الدنيا دار قلعة : أى انقلاع وارتحال ، وقوله : وبعرض نقلة : أى أن
الدنيا دار يعرض فيها انتقال فلا تدوم على حال (١٠) حتى لو كانوا الخ هذا من
الترقي في الدليل يقول : لو كتب لهم الخلود ، لوجب أن يغفلوا طلب ما يزيد على عيشهم
وحالتهم ولجادوا به لو حصل في أيديهم ولكنهم لا يعقلون بسبب ماركب فيهم من
الحرص والجشع

قَالَ بَخِيلٌ مُجْتَهِدٌ ، وَالْعَامِيُّ غَيْرُ مُقْصِرٍ . ^(١) فَمَنْ لَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى مَا وَصَفْنَا
بِطَبِيعَةِ قُوَّةٍ ، وَبِشَهْوَةٍ شَدِيدَةٍ ، وَبِنَظَرٍ شَافٍ ، كَانَ إِمَامًا عَامِيًّا ، وَإِمَامًا بَخِيلًا
شَقِيًّا ^(٢) - فَيَقِيمُ اعْتِلَالَهُمْ بِأَوْلَادِهِمْ ، وَاحْتِجَاجَهُمْ بِخَوْفِ التَّلَوُّنِ مِنْ أَرْزَمَتِهِمْ ^(٣) ؟
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ أَفْدَيْ كَذَبَ عِنْدَهُ كَذْبَةً ، وَكَانَ
جَوَادًا : لَوْلَا خَصْلَةٌ وَمَقْلَكٌ اللَّهُ عَلَيْهَا ، لَشَرَدْتُ بِكَ مِنْ وَافِدِ قَوْمٍ ^(٤) ... وَقَبْلَ
لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ لَكَ فِي بَيْضِ الْمَسَاءِ وَأُدْمِ الْإِبِلِ ^(٥) ، ؟ قَالَ :
وَمَنْ هُمْ ؟ قَالَ : بَنُو مُدْلَجٍ ^(٦) . قَالَ : يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ قَرَاهِمُ الضَّيْفِ ،
وَصِلَتُهُمُ الرَّحِمَ . وَقَالَ لَهُمْ أَيْضًا : إِذَا نَحَرُوا ثُجَّوًا ^(٧) ، وَإِذَا لَبَّوْا عَجْوًا ^(٨)
وَقَالَ الْأَنْصَارُ : مَنْ سَيَدُكُمْ ؟ قَالُوا : الْحُرُّ بْنُ قَيْسٍ ، عَلَى أَنَّهُ يُزَنُّ ^(٩)
فِيْنَا يَبْخُلُ ، فَقَالَ : وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبَخْلِ ؟ جَعَلَهُ مِنْ أَدْوَاءِ الدَّاءِ .

(١) معنى اجتهد البخل هنا أنه يفعل ما يفعل عن احتجاج واقتناع بصواب ما يفعل . أما العامي فليس له من العقل ما به يقيم الحجة على حكرته وإنما هو مسوق إلى ذلك بطبيعته فهو ملحق بالبخل.

(٢) فمن لم يستعن الخ ، على ما وصفنا : على ما بينا من تمكن البخل والجشع من النفوس . والطبيعة القوية : السليمة من العلل النفسية ، أما الشهوة الشديدة : فهو يريد بها الميل الشديد للتخلص من هذا الضعف ، وقوله وبنظر شاف : يقصد به التفكير الصحيح المؤسس على البرهان القويم لا السفسطة

(٣) تلون الأزمنة : تغلبها وتسكرها (٤) ومقه يمقه ، كوثق يثق : أحبه .
وشردت بك : أبعدتك وطردتك ، وقوله من وافد قوم : هو بيان للكاف في « بك » ،
(٥) الأدم : جمع آدم وأدماء ، والأدمية في الإبل : لون مشرب سوادا أو بياضا أو
هو البياض الواضح والتقدير : هل لك في قوم الخ أى هل لك في غزو قوم الخ كما
يفهم من المقام (٦) بنو مدلج قبيلة من كنانة (٧) وقال لهم : أى قال في حقهم ،
ومجوا : أسالوا دماء الذبائح في الحج (٨) التلية في الحج قول : ليك اللهم ليك الخ
وعج يعج : بالكسر والفتح ، صاح ورفع صوته (٩) يزَنُّ : يتهم

وقال الأنصار : أنا والله ، ما علمتكم إلا لتكثروا عند الفزع وتقولون عند الطمع ^(١) ، وقال : كفى بالمرء حرصا ركو به البحر ^(٢) . - وقال : لو أن لابن آدم واديين من مال لا بتغنى ثالثا ، ولا يشبع ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب ^(٣) . وقال : السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان وقال : إن الله جواد يحب الجود . وقال : أنفق يا بلال ، ولا تخش من ذي العرش إقلالا ^(٤)

هذا ما رأينا اختياره من هذه الرسالة الجاحظية البارعة الجامعة . ونعود إلى سائر عقوباتهم في الجود والإحسان

كلمة علوية لسيدنا رسول الله

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال : إني أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ... قال : فقال رجل : أو يأتي الخير بالشر يارسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وداينا أنه ينزل عليه ^(٥) ، فأفاق يمشح عنه الرخصاء ^(٦) وقال : أين هذا السائل - وكأنه حمده - فقال : إنه لا يأتي

-
- (١) لتكثروا الخ : أي لتجتمعوا بجموعكم للنجدة والذود ، وقتلهم عند الطمع : لساقتهم وكرمهم وقلة حرصهم ، والمراد : الطمع في مغنم حرب أو نحوه
- (٢) كفى بالمرء الخ يذم صلى الله عليه وسلم الجشع والحرص على جمع المال ولا سيما عند توقع الخطر كركوب البحر في تلك الأيام وليس المراد ذم السعي على الرزق الحلال من أي وجه كان ، كما هو ظاهر
- (٣) واديين : نهريْن (٤) أنفق الخ ، بلال : هو بلال بن حمزة الحبشي مؤذن سيدنا رسول الله

(٥) ينزل عليه : يوحى إليه (٦) الرخصاء : العرق الكثير وكثيرا ما يستعمل

الخير بالشر، وإنَّ مما يُذنبُ الربيعُ ما يَقْتُلُ حَبْطاً أو يُيْلِمُ^(١)، إلا آكلةَ الخَضِرِ^(٢)، فإنها أكلتُ حتى إذ امتلأت خاصرتها استقبلت عينَ الشمس فتأطت^(٣) وبالت ثم رعت. وإن هذا المال خَضِرَةٌ حلوة، ونِعَمَ صاحبُ المسلم دو، إن أعطى المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيل. أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال الإمام اللغوى أبو منصور الأزهري^(٤): فى هذا الحديث، ثلثان، ضرب أحدهما للمفرط فى جمع الدنيا مع منْع ما جمع من حقه، والآخر ضربه للمقتصد فى جمع المال وبذله فى حقه، فأما قوله صلى الله عليه وسلم: وإن مما يذنب الربيع ما يقتل حبطاً، فهو مَثَلُ الحريص المفرط فى الجمع والمنع، وذلك أن الربيع يذنب أحرار العشب^(٥) التى تحلّولها الماشية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك، كذلك الذى يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشع على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها، يهلك فى الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب - أقول: ويهلك فى الدنيا كذلك، وهل لا يعد هلاكاً لمن هذه حاله ما يلاقيه من إزاء الناس به وازورارهم عنه وانطوائهم له على البغض والحقد والحسد وصنوف الأذى وعدم إياه خنزيراً من خنازير البشر أو مجنوناً من صرعى الآفة والأناثية وحب الذات، وبالحرى لا خير فيه لأحد ولا لنفسه وإنما هو لا يعدو

فى عرق الحمى والمرض (١) الحبط - كما سيمر بك - أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها فتهلك، ويلى: يقرب ويدنو من الهلاك (٢) الخضر بفتح فكسر جمع خضرة: ضرب من الجنة أى عروق العشب الغامضة فى الأرض كما سأتى (٣) تأطت: تغوطت وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة (٤) هو محمد بن أحمد بن الأزهري، الإمام المشهور فى اللغة، صاحب التهذيب. ولد سنة ٢٨٢ وتوفى سنة ٣٧٠ بمدينة هراة إحدى مدن خراسان، فالأزهري نسبة جده أزهري (٥) أحرار العشب: الرقيق الرطب منه

أن يكون صيرفاً أو حارس مال ليس غير :

يَجْنِي الْغَنَى لِلثَّامِ لَوْ عَقَلُوا مَا لَيْسَ يَجْنِي عَلَيْهِمُ الْعَدَمُ
هُمْ لَا مَوَالِيَهُمْ وَلَكِنَّ لَهُمْ وَالْعَارُ يَبْقَى وَالْجُرْحُ يَلْتَسِمُ

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

هذا إذا أضاف الشَّحَّ على نفسه إلى الشَّحِّ على ذوى الحقوق

أما إذا آثر نفسه بالتمتع بلذات الدنيا فأى هلاك بعد الذى يصيبه من
الاسقام والالوجاع وسائر أدواء الترف والسرف واجتواء المحرومين إياه
وحنفهم عليه وما عساه يتولد من ذلك كله من الغوائل الاجتماعية التى نرى
أفاعيلها اليوم - قال الأزهرى : وأما مثل المقتصد المحمود فقولہ صلى الله
عليه وسلم : **إِلَّا آكَلَهُ الْخَضِرُ فَإِنَّهَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصَرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ**
عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَعَتْ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْخَضِرَ لَيْسَ مِنْ أَحْرَارِ
الْبَقُولِ الَّتِي تَسْتَكْثِرُ مِنْهَا الْمَاشِيَةُ فَتَهْلِكُهَا أَكْلًا وَلَكِنَّهُ مِنَ الْجَنْبَةِ (١) الَّتِي
تَرَعَاهَا بَعْدَ هَبِجِ الشَّجَرِ وَيُبْنِسُهُ ، وَالْمَاشِيَةُ تَرَعُ مِنْهَا شَيْئًا شَيْئًا وَلَا تَسْتَكْثِرُ
مِنْهَا فَلَا تَحْبُطُ بِطَوْنِهَا عَنْهُ . فَضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكَلَةَ
الْخَضِرِ مَثَلًا لِمَنْ يَقْتَصِدُ فِي اخْتِادِ الدُّنْيَا وَجَمْعِهَا وَلَا يَسْرِفُ فِي الْحِرْصِ عَلَيْهَا
وَأَنَّهُ يَنْجُو مِنْ وَبَالِهَا كَمَا نَجَتْ آكَلَةُ الْخَضِرِ ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ : فَإِنَّهَا إِذَا أَصَابَتْ
مِنَ الْخَضِرِ اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ، وَإِذَا تَلَطَّتْ فَقَدْ ذَهَبَ

(١) أسلفنا أن الجنبه هى الكلال الذى له عروق فى الارض، قال أبو حنيفة الدينورى:
الجنبه ما كان فى نبتته بين البقل والشجر فيكون فوق البقل ودون الشجر مثل الحائط
عما يبقى أصله فى الشتاء ويبيد فرعه ، وسمى جنبه لأنها كما قال الأزهرى صغرت عن
الشجر الكبار وارتفعت عن التى لأرومة لها فى الارض

حبطها، وإنما تحبط الماشية إذا لم تثلط ولم تبل، ثم حث صلوات الله عليه على إعطاء المسكين واليتيم من هذا المال، مع حلاوته ورغبة الناس فيه، ليقبّه الله تبارك وتعالى وبال نعمتها في دنياه وآخرته.



هيات أن أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى

ومن كلمة لسيدنا على رضى الله عنه في كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة: ولو شئت لأهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمع، ونسأج هذا القز، ولكن هيات أن يغلبتى هواى، ويقودنى جشعى إلى تخير الأطعمة، ولعلّ بالحجاز وباليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع أو أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى،^(١) وأكبأد حرى، أو أكون كما قال القائل:

وَحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَبَيْتُ بِيْطَنَةً وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحِنْ إِلَى الْفِدِّ^(٢)
أَفْتَحُ مِنْ نَفْسِي بَأَنْ يَقَالَ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ
الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أَسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ^(٣) ! فَاخْلُقْتَ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ،
كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلْفُهَا ، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقَمُّمُهَا ، تَكْتَرِشُ مِنْ
أَعْلَافِهَا ، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا ...

(١) المبطان : الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل، وغرثى : جائعة

(٢) البطنة : الكظة ، وذلك أن يمتلئ الإنسان من الطعام امتلاء شديداً ، والفد : سيور قد - قطع - من جلد غير مدبوغ . وهذا البيت من أبيات لحاتم الطائي المشهور بالجود (٣) جشوبة العيش : خشونته وغلظه

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم - وكان من قبلهم مؤدبهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - يرون - ونعماً رأوا - أن السياسة الرشيدة ، وأن الطريق إلى الإحسان - ولا طريق غيرها - إنما تتحقق بالرغبة عن شهوات الحياة الدنيا ، وتنكّب السرف والترف ، وكانوا يريدون عمّالهم على هذه السياسة التي لا سياسة غيرها .

كان الخلفاء الراشدون مثلاً علياً في الرغبة عن شهوات الحياة الدنيا

قال الربيع بن زياد الحارثي : كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله ، وأن يستخلفوا جميعاً . قال : فلما قدمنا أتيت يرفاً « مولى عمر » فقلت : يا يرفاً مُسْتَرْتِدٌّ وابن سبيل ... أي الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله ، فأولماً إلى بالخدونة . فاتخذت خُفَيْنِ مُطَارِقَيْنِ ^(١) وابستُ جُبَّةً صوف ولثتُ عمامتي على رأسي ^(٢) . فدخلنا على عمر ، فصقنا بين يديه ، فصعد فينا وصوب ^(٣) فلم تأخذ عينه أحداً غيري ، فدعاني فقل : مَنْ أنت ؟ قلت : الربيع ابن زياد الحارثي ، قال : وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين ، قال : كم ترزق ؟ ^(٤) قلت : ألفاً ، قال : كثيرٌ ... فما تصنع به ؟ قلت : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لي ، فما فضل عنهم فعلى قتراء المسلمين ، قال : فلا بأس ، ارجع إلى موضعك ، فرجعت إلى موضعي من الصف ، فصعد فينا وصوب فلم تقع

- (١) طراق التعل : ما أطبقت عليه فخرزت به ، فمعنى مطارقين : خصفت إحداهما فوق الأخرى (٢) أي أدرت بعضها على بعض على غير استواء
(٣) صعد فينا : رفع رأسه فنظر الأعلى ، وصوب : خفض رأسه فنظر الأسفل
(٤) أي كم مرتبك

عينه إلا على فدعاني فقال : كم سنك ؟ قلت : خمس وأربعون سنة ، قال :
الآن حين استحكمت .^(١) ثم دعا بالطعام وأصحابي حديث عهدهم بلسن العيش ،
وقد تجوَّعت له ، فَأَتَيْتُ بِخُبْزٍ وَأَكْسَارٍ بَعِيرٍ^(٢) فجعل أصحابي يَعاْفون ذلك
وجعلت أكل فأجيد ، فجعلت أنظر إليه يا حظي من بينهم ، ثم سبقت في كلمة
تمنيت أني سُخِّتُ في الأرض^(٣) فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يحتاجون
إلى صلاحك ، فلو عَمَدْتَ إلى طعام ألين من هذا ! فزجرني ، ثم قال :
كيف قلت ! فقلت : أقول - يا أمير المؤمنين - : أن تنظر إلى قوتك من
الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه يوم ويُطَبَّخَ لك اللحم كذلك ، فتؤتى
بالخبز لينا واللحم غريضا^(٤) ... فسكَّن من غريبه^(٥) وقال : أههنا غرت؟^(٦)
قلت : نعم ، فقال : ياربيع ، إننا لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلاتق
وسبائك وصناب^(٧) ، ولكني رأيت الله عز وجل نعى على قومه شهواتهم

(١) استحكمت : تناهيت عما يضرك في دينك ودنياك

(٢) أكسار : جمع كسر ، والكسر : عظم ليس عليه كثير لحم

(٣) ساخ في الأرض : غاص فيها ودخل

(٤) غريضا : طريا (٥) يريد حديثه (٦) غرت : أى ذهبت يقال : غار

الرجل : إذا أتى الغور وناحيته مما انخفاض من الأرض ، وأنجد : إذا أتى بجدا أو ناحيته

مما ارتفع من الأرض (٧) صلاتق جمع صليقة وهي القطعة المشوية من اللحم

والسبائك : ما يسبك أى ينخل من الدقيق فيؤخذ خالصه وهو ما يسمى الحواري أى

ما ينقى من لباب البر . والصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب

(٨) نعى على قوم شهواتهم : عابها ووبخهم عليها . أما الآية التي ذكرها الفاروق

بعد فهي : وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْتَمَسْتُمْ طَبِيبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ

الدنيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون

فقال : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا... ثُمَّ أُمِرَ أَبُو مُوسَى بِإِقْرَارِي وَأَنْ يَسْتَبْدِلَ بِأَصْحَابِي... وهذا من الفاروق ذو - فضلا عن أنه الأليق بكل من وُلِّيَ أمر الناس - غاية في السداد والسياسة لرشيدة الحازمة كما قلنا

عظمة الفاروق

في زهده وتقواه

هذا والله المَلِكُ الهنيء

وما يصح إirاده هنا ما يأتي : لما أتى بالهَرْمُزَان صاحبُ تُسْتَر، إلى عمر ابن الخطاب - وكان هذا الهَرْمُزَان من أعظم قوادِ الفُرس ، وكان على مِئْمَنَةِ جيشِ رُسْتَمَ وزير ملك فارس يَزْدَجَرْدَ بن شهریار بن ابرويز في حرب القادسية سنة ١٤ من الهجرة ، فلما قتل رستم وانتصر المسلمون فرَّ الهَرْمُزَان بمن بقي من جُنْدِهِ ، وما زال المسلمون يتابعونه الغارة بعد الغارة حتى لجأ إلى مدينة تُسْتَر^(١) ، وتحصَّن بها ، فاصروه أشدَّ حصار ، ثم أنزلوه على حُكْمِ الفاروق ، فأسله قائد جيش المسلمين أبو سَبْرَةَ بن أبي رُفْهم إلى وفد فيهم أنس بن مالك والاحنف بن قيس ، فأتوا به إلى الفاروق - وكان الفاروق يلتف في كِسائه وينام في ناحية المسجد ، فجعلوا يسألون عنه فيقال : مَرَّ هُنَا آنفاً يَتَصَغَّرُ في قلب الهَرْمُزَان ، إذ رآه كَبَعَضِ السُّوقِ^(٢)... حتى انتهوا به إلى عمر وهو نائم في ناحية المسجد... فقال الهَرْمُزَان : هذا والله المَلِكُ الهنيء...^(٣) فلما جلس عمر امتلأ قلبُ العِلْجِ^(٤) منه هيبة ، لما رأى عنده

(١) تُسْتَر : مدينة عظيمة جمعها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقرىها منها
(٢) السوق : جمع سوقة كغرفة وغرف ، وهم الرعية (٣) إذ لا يحتاج إلى أحراس ولا عدد (٤) العِلْج في الأصل : الخمار الوحشي : وقد أطلقه المسلمون على الرجل من كفار العجم ومن يشبه العجم

من الجِدِّ والاجتهاد، وألَيْسَ من هَيْبَةِ التقوى ... ثم نظر عمر إليه وقال :
أَهْرُمُزَانُ ! قال : نعم ، فقال عمر : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهه ،
وأمر بنزع ما عليه من الديباج المذهب ، والناج المكلل بالياقوت ، وأمر له
يثوب صفيق^(١) ، وهَمَّ بقتله ، فطلب الهْرُمُزَانُ ماءً ، وقال : أخاف أن أُقْتَلَ
وأنا أَشْرَبُ ! فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشرب ، فأراقه ، فقال عمر :
والله لا أَخْذَعُ حَتَّى تُنْصَلِمَ ، فَأَسْلَمَ ، وَفَرَضَ لَهُ فِي الْعِطَاءِ أَلْفَيْنِ ، وَأَقَامَ
بالمدينة .



نعود إلى عبقرياتهم فى الجود من بابات شتى ... ولقد أسلفنا أن الأوائل
لم يَتَرَكُوا مَعْنَى الْإِطْرَاقِهِ : * وهل غادرَ الثُّمراءُ من مُتَرَدِّمٍ *^(٢)
وهو معلوم أن الخمر تُخَدِّثُ فى شاربها إذا انتشى هِزَّةً وطرباً وأريجاً
وقد تُحِيلُ البَخِيلَ كَرِيماً ، فماذا قالوا فى ذلك ؟ قالوا : - والقائلُ البُخَيْرِيُّ - :
تَكْرَمْتَ مِنْ قَبْلِ الْكُؤُسِ عَلَيْهِمْ - فما أَسْطَعْنَ أَنْ يُخَدِّثَنَّ فِيكَ تَكْرُماً
وقال أبو نواس :
قَتَى لَا تُذِيبُ الْخمرُ شَحْمَةَ مَالِهِ وَلَكِنْ أَيْادِ عَوْدٍ وَبَوَادِىِ^(٣)
وقال المتنبي :

(١) صفيق : جيد النسيج (٢) صدر ييت لعنرة وتماه :

* أم هل عَرَفْتَ الدار بعد توهم *

وهذا البيت مطلع معلقته ، يقول عنبرة : إن الشعراء قد سبقونا إلى القول ، فلم يدعوا
مجالاً لقائل ، والمتردم فى الأصل : الموضع الذى يرفع ويستصلح

(٣) شحمة ماله : أطيئه ، وقوله : ولكن أيا دعود وبوادى ، يقول : ولكنه يعطى
عطاياه قبل الخمر وبعد الخمر ودائماً ، فعطاياه تبتدأ وتعماد

لا تَجِدُ الخمرَ في مَكَارِمِهِ إِذَا انتَشَى - خَلَّةٌ تَلَا فَاها (١)

والأصل في هذا قول عنبرة في معلقته :

وَإِذَا صَحَّوتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَا عَظِمَتْ شِمَائِلِي وَتَكَرَّرِي
وَقَالَ زُهَيْر :

أَخَوِثَّة لَا تُهْلِكُ الخمرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالُ نَائِلُهُ
وقد غَضُوا من قول عمرو بن كلثوم :

✽ إِذَا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا (٢) ✽

ومعنى ذلك كله أنهم لا يَعُدُّونَ جُودَ السَّكْرَانِ جُوداً ، وإنما الجُودُ
عندهم ما كان من كَرَمٍ فطَرِي لا تَبَعُهُ خَرٌّ وما يُشَبِّه الخمرَ . وإذا هم وَصَفُوا
الخمرَ بأنها تَوَرِثُ شَارِبَهَا شَيْئاً يُشَبِّه الكرمَ ، فذاك من بابِ اسْتِقْصَائِهِم
لمعاني الخمرِ وما تَحْدِثُهُ في شَارِبِهَا ، كما قد سيمر بك في بابِهِ ...

ولقد سَمَّتْ مَكَارِمُ الأخلاقِ بكثيرٍ مِنْ ذَوِي الأَرَبِيَّةِ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْطَعُونَ
نَوَالِمَ عَمَّنْ يَغْضَبُونَ عَلَيْهِمْ وَيَنْبَسُ النَّزَى بَيْنَهُمْ ، وقد رُوِيَ في ذلك أَنَّ

(١) الخلة : الخصلة والثلة ، وتلافاها — بحذف إحدى التائين : تلافاهَا ، أى
تداركها

(٢) عجز : بيت من معلقته وصدره :

✽ مُشْعَشَعَةٌ كَأَنَّ الحُصَّ فِيهَا ✽

يصف الخمر يقول : اسقني الخمر مشعشة ، أى مزوجة بالماء ، فإنها من شدة حررتها
كأنما أُلْقِيَ فِيهَا الحُصَّ - وهو الورس - نبات أحمر يشبه الزعفران - وإذا شربناها وسكرنا
جدنا بعقائل أموالنا وسمحنا بذخائر أعلاقنا ، فسخينا : فعل من سخى يسخى سخاء —
وهذه لغة - ولغة فيها وهى سخا يسخو سخاوة ، وثالثة وهى سخو يسخو - ويجوز أن تكون
سخينا صفة ومعناها الحار فيكون المعنى : كأنها حال امتزاجها بالماء وكون الماء حاراً
نور هذا البيت ، وإذن فلا مطعن عليه

بعض النبلاء كان يُجرى على رجلٍ شيئاً ، ثم غَضِبَ عليه ، وحدث أن كتب
أبْنُه إطلاقاتٍ ، ورُفِعَت إليه الإطلاقاتُ ، وترك اسمَ المغضوبِ عليه ، فقال له
أبوه : فأين ذِكرُ رِزقِ فلانٍ ؟ فقال : إنَّكَ قد كنتَ غَضِبْتَ عليه ، فقال :
يا بُنَيَّ ، غَضِبِي لَا يُسْقِطُ هَبْنِي ... إِنَّ أَبَاكَ لَا يَغْضَبُ فِي النَّوَالِ ...

وحَتَّى المحتاجينَ المغضوبِ عليهم كانت أَنفُسُهُم كريمةً أَيْبَةً ، فقد رُوِيَ
أَنَّ بَعْضَهُم كان يُجرى على رَجُلٍ شيئاً ، فغَضِبَ عليه ، ففَقَطَعَهُ ، ثم رَضِيَ عنه
فردَّه ، فأبَى الرجلُ أَنْ يَقْبَلَهُ وقال : إني كنتُ أَظُنُّ أَنَّ عطاءَهُ مَكْرُمَةٌ ؛ فَأَمَّا
وقد صارَ غَضْبُهُ يَقْطَعُهُ ، فلا حاجة لي فيه ... وكذلك بَلَغَتْ بِهِم مَكَارِمُ
الْأَخْلَاقِ أَنْ يُعْطُوا الْمُعْتَفِينَ ، أَكَانُوا فُقَرَاءَ أَمْ أَغْنِيَاءَ ، فَلَا يَخْضُونَ ،
وقد رُوِيَ فِي الْخَبَرِ : أَعْطُوا السَّائِلَ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ ، وَرَوَى أَيْضاً :
كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ ، لَغْنَى أَوْ فَقِيرٍ ؛ وَيُشَبَّهُونَ مَنْ هَذَا حاله بِالْغَيْثِ ، قال
ابن المعتز :

وَيُصِيبُ بِالْجُودِ الْفَقِيرَ وَذَا الْغِنَى كَالْغَيْثِ يَسْقِي مُجْدِباً وَمَرِيحاً
وقال المتنبي :

وَيَذُّهَا كَرُمُ الْغَمَامِ لِأَنَّهُ يَسْقِي الْعِمَارَةَ وَالْمَكَانَ الْبَلْقَمَا
وكذلك تَسَامَوْا وَبَاغَوْا مِنْ عِبْقَرِيَةِ الرُّوحِ أَنْ صَارُوا يُعْذُونَ الْإِنْخِدَاعَ
عَنِ الْمَالِ وَالنَّبَالَةِ فِي ابْتِذَالِهِ كَرَمًا ، وَقَالُوا : إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا مَا خَادَعْتَهُ
انْخَدَعَا ... وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْبَحْتَرِيُّ :

وَإِذَا خَادَعْتَهُ عَنْ مَالِهِ عَرَفَ الْمَسْلَكَ فِيهِ فَانْخَدَعْ

ويقول :

وقد يتغابى المرء عن عظم ماله ومن تحت برّديه المغيرة أو عمرو
 « المغيرة : هو المغيرة بن شعبة ، وعمرو : هو عمرو بن العاص وكانا من
 الدهماء ، ... وقيل لبعضهم : ما الشرف ؟ فقال : الانخداع عن المال ، ولا تجد
 أحداً يتغافل عن ماله إلا وجدت له في قلبه فضيلة لا تقدر على دفعها ،
 وقد أدبنا نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله : رحم الله سهل البيع سهل الشراء ،
 وهذا خلاف قول الناس : المغبون غير محمود ولا مأجور ، وقد قال صلى
 الله عليه وسلم : ألا أدلكم على شيء يحبّه الله ورسوله ؟ قالوا : بلى يا رسول
 الله ، قال : التغابن للضعيف ... وما يروى في هذا الباب ما أورده ابن
 خلكان في ترجمة الوزير الخطير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله
 ابن المعتض بالله العباسي - وكانت وفاته سنة ٣٢٧ هـ - وهو : أن رجلا اتصلت
 عظمته ، وانقطعت مادته ، فزور كتابا من أبي الحسن بن الفرات إلى أبي
 زنبور المارديني عامل مصر ، يتضمن الوصاة به والتأكيد في الإقبال عليه
 والإحسان إليه ، وخرج إلى مصر ، فلقية به ، فارتاب أبو زنبور في أمره
 لتغير الخطاب على ما جرت به العادة ، وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله
 فراعاه مراعاة قريبة ووصله بصلة قليلة ، واحتبس عنده على وعد وعده به
 وكتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الوارد عليه ، وأنفذه بعينه
 إليه ، واستثبته فيه ، فوقف ابن الفرات على الكتاب المزور ، فوجد فيه
 ذكر الرجل وأنه من ذوى الحرّات والحقوق الواجة عليه ، وعرضه على
 كتابه وعرفهم الصورة فيه وعجب إليهم منها وما أندم عليه الرجل ، وقال
 لهم : ما الرأي في أمر هذا الرجل عندكم ؟ فقال بعضهم : تأديبه أو حبسه ،
 وقال آخر : قطع إهابه لئلا يعاود مثل هذا ، ولئلا يقتدى به غيره فيما هو

أكثر من هذا، وقال أجمعهم مخضراً : يُكشَفُ لأبي زُنْبُور قصته، ويُرسَمُ له طَرْدُهُ وحرمانه، فقال ابن الفرات : ما أبعدكم من الحرية والخيرية : وأنفَرَ طباعكم عنها ! رجل تَوَسَّل بنا وتحَمَّل المشقة إلى مصر في تأميل الصلاح بجَاهِنَا، واستمداد صنَّع الله عز وجل بالانتساب إلينا، ويكون أحسن أحواله عند أحسنكم محضراً تكذيب ظَنِّه وتخييب سَعْيِهِ ! والله لا كان هذا أبداً، ثم إنه أخذ القلم من دواته ووقع على الكتاب المزور : هذا كتابي، ولست أعلم لم أنكرت أمره واعترضتكَ شبهة فيه ! وليس كلُّ من خَدَمْنَا وأوجب حقَّنا علينا نعرفه ! وهذا رجل خَدَمَنِي في أيام نَكَبَتِي، وما أعتقده في قضاء حقِّه أكثر مما كَفَّفْتُكَ في أمره من القيام به، فأحسن تفقُّده ووفِّر رِفْدَه وصَرَّفَه فيما يعود عليه نفعه ... وَرَدَّه إلى أبي زُنْبُور من يومه ؛ فلما مضت على ذلك مدة طويلة دخل على أبي الحسن بن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة ويزرة جميلة، وأقبل يدعو له ويُثني عليه ويُبكي ويُقبل الأرض، فقال له ابن الفرات : من أنت بارك الله فيك ! - وكانت هذه كلمته - فقال : صاحب الكتاب المزور إلى أبي زُنْبُور، الذي صَحَّحَهُ كرمُ الوزير وتفضُّله، فعل الله به وصنع، فضحك ابن الفرات، وقال : كم وصل إليك منه ؟ قال : وصل إلى من ماله ومما قسَّطه على عُمَّالِه وعَمِلِ صرَفَتِي فيه، عشرون ألف دينار، فقال ابن الفرات : الحمد لله، الزمنا، فإننا نُعرِّضُك لما يزدادُ به صلاحُ حالِك، ثم اختبره فوجده كاتباً مُبِيناً، فاستخدمه وأكسبه مالا جزيلاً ...

قِرَى الأضياف

وهناك لون من ألوان الجود، لقد أكثروا فيه القول وافتنوا، وأطالوا في التفاخر به والإشادة بمحاسنه، وجعلوه عنوان الكرم والنجدة والمروءة ووضعوا له آداباً ودرساتير. ذلك هو قِرَى الأضياف، ونحن فإننا نختار ذرواً من عقرياتهم في هذا المعنى. وفيما يتأشب إليه وينشعب منه والله المستعان ...

معنى قِرَى الضيف: قال علماء اللغة: يقال: قَرَى الضيفَ قِرَى وقَرَأَ: أضافه وأحسن إليه، واستقراني واقراني وأقراني: طلب مني القِرَى، وإنه لَقِرَى للضيف، والاثني قِرِيَّة، وكذلك: إنه لِمَقَرَى للضيف ومِقراء، والاثني مِقْرَأة ومِقراء ...

«وأما بعد، فقد قلنا في البخل إنه جِسْلَةٌ وإنه الأصل وإن الناس لقد حُلِقُوا بخلاء، إلى آخر ما قلنا صدر هذا الباب، وهذا الذي قلنا يقال في قِرَى الأضياف، وأن الأصل هو البُخل بالقِرَى؛ فلنورد عليك شيئاً مما قالوا في البخل بالقِرَى ثم نردفه بالقول على الجود بالقِرَى وحشم عليه، والكلام يدخل بعضه في بعض.

طَرَفٌ مِنْ مُلَحِّهِمْ فِي ذَلِكَ: قال بعض البخلاء لغلामه: هاتِ الطعام، وأغْلِقِ الباب، فقال الغلام: يا مولاي، ليس هذا بحزم! وإنما أُغْلِقُ الباب، وأُقدِّم الطعام، فقال له: أَنْتَ حُرٌّ لَوَجْهِ اللَّهِ... وطبخ بعض البخلاء قِدْرًا، وجلس يأكل مع زوجته فقال: ما أَطْيَبَ هذا الطعام لولا كثرة الزَّحَام! فقالت: وأي زحام وما ثمَّ إلا أنا وأنت! قال: أَحِبُّ أَنْ

أكون أنا والقدر ... وعَزَمَ بعض إخوانِ أشعَبَ عليه ليأكل عنده ، فقال :
 اتى أخاف من ثَقِيلٍ يَأْكُلُ مَعَنَا فَيُنْقَضُ لَدُنَّا ، فقال : ليس عندي إلا ما تُحِبُّ ،
 فَمَضَى معه ، فبينما هما يَأْكُلانِ ، إذا بالبَابِ قد طُرِقَ ، فقال أشعَبُ : ما أَرَانَا إِلَّا
 قد صِرْنَا لِمَا نَكْرَهُ ، فقال صاحب المنزل : إنه صديق لى : وفيه عَشْرُ خِصَالٍ
 إِن كَرِهْتَ مِنْهَا وَاحِدَةً لَمْ آذَنْ لَهُ ، قال أشعَبُ : هَاتِ ، قال : أَوَّلُهَا أَنَّهُ
 لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ ، فقال : التسع لك ودَعُهُ يَدْخُلُ ، فقد أَمِنَّا مِنْهُ مَا نَخَافُهُ ...
 وأكل رجل مع بعض البخلاء ، وكان على مائدته أرغفة هنا وهناك ، فلما
 فرغ من رَغِيفِهِ قال : يا غلام ، قَرَيْسِي ، فقال الداعى البخيل : وما تصنع به ؟
 قال : أَرْكَبُهُ إِلَى ذَلِكَ الرَغِيفِ ... وَحَدَّثَ أَبُو نُؤَاسٍ قال : قلت لرجل من
 أهل خراسانَ : لِمَ تَأْكُلُ وَحَدِّكَ ؟ قال : ليس علىّ فى هذا الموضع سؤال ،
 إنما السؤال على مَنْ أَكَلَ مع الجماعة ، لأن ذاك تَكْلُفٌ ، وَأَكَلِي وَحْدِي هُوَ
 الْأَكْلُ الْأَصْلَى ... وأضاف رَجُلٌ أَعْرَابِيًّا ، فلم يَأْتِهِ بشيء يأكله حتى غَشِيَ
 عليه من الجوع ، فأخذ يقرأ عليه القرآن ، فقال :

لِحُسْبُ يَا أَخِي عَلَيْهِ لَحْمٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَسَنِ الْقَرَانِ

تَظَلُّ تُذْهِدُهُ الْقُرْآنَ حَوْلِي كَأَنِّي مِنْ عَفَارِيثِ الزَّمانِ

وقيل للجَمَازِ : مَنْ يَحْضُرُ مَائِدَةَ فُلانٍ ؟ فقال : أَكْرَمُ خَلْقِ اللَّهِ : الْكِرَامُ
 الْكَاتِبُونَ ... واصطحب رجلان فقال أحدهما للآخر : تعالَ حَتَّى نَأْكُلَ
 مَعًا ، فقال : معي خَبِزٌ ومعك خَبِزٌ ، فلولَا أَنَّكَ تريد الشرَّ لَا كَلْتَ وَحَدِّكَ ...
 وقيل لآخر : أَلَا تَأْكُلُ مَعَنَا ؟ فقال : الجماعة بَجاعة ... ودَخَلَ على
 ابْنِ لِرْجُلٍ من الأشرافِ دَاخِلٌ وَبَيْنَ يَدَيْهِ فَرَارِيجُ ، فغَطَّى الطَّبَقَ بِمِنْدِيلِهِ
 وَأَدْخَلَ رَأْسَهُ فِي جَنْبِهِ وَقَالَ للداخل عليه : كُنْ فِي الْحُجْرَةِ الْآخَرَى حَتَّى

أَفْرَغَ مِنْ بَحُورِي ... وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ يَوْمًا وَالْمَائِدَةُ مَوْضُوعَةٌ
وَالْقَوْمُ يَأْكُلُونَ وَقَدْ رَفَعَ بِمُضْمِهِ يَدَهُ ، فَمَدَّ يَدَهُ لِيَأْكُلَ ، فَقَالَ : أَجْهَزُ عَلَى
الْجَرَحِي ، وَلَا تَتَعَرَّضُ لِلْأَصْحَاءِ ... « يريد : كُلْ مَا كُسِرَ وَنِيلَ مِنْهُ وَلَا
تَعْرِضْ إِلَى الصَّحِيحِ ، وَرَأَى رَجُلٌ الْحُطَيْمَةَ - الشَّاعِرَ الْمَخْضَرَمَ الْعَبْقَرِيَّ اللَّثِيمَ -
وَبِيْدَهُ عَصًا فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالَ : عَجْرَاءُ مِنْ سَلَمٍ ^(١) ، قَالَ : إِنِّي ضَيْفٌ ، قَالَ :
لِلضَّيْفَانِ أَعْدَدْتُهَا ... وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أَلْعَوَا مِنَ الصَّلَاةِ الْآذَانَ ،
مَخَافَةَ أَنْ تَسْمَعَهُ الْآذَانُ ، فَيَهْلَ عَلَيْهِ الضَّيْفَانِ ... وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ شَاعِرٌ :
تَرَأَوْهُمْ خَشْيَةَ الْأَضْيَافِ خُرُسًا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِلَا أَذَانٍ

وَكَانُوا يَعُدُّونَ أَنَّ بَيْتَ الرَّجُلِ شَبْعَانٌ وَجَارُهُ جَوْعَانٌ ، عَارًا وَشَنَارًا
وَلَوْ مَا وَنَذَالَةً ، وَيَتَهَاجِرُونَ بِذَلِكَ ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذَا قَوْلُ الْأَعَشَى -
مِيمُونِ بْنِ قَيْسٍ - فِي عِلْقَمَةَ بْنِ عُلاَثَةَ :
تَبِيتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءً يُطُونُكُمْ وَجَارَاتِكُمْ غَرْنِي يَسِينَنَّ خَمَائِصًا ^(٢)
وَقَوْلُ بَشَارِ بْنِ بُرْدٍ :
وَضَيْفٌ غَمِرُوا وَغَمِرُوا يَسْهَرَانِ مَعًا غَمِرُوا لِبَطْنَتِهِ وَالضَّيْفُ لِلْجُوعِ
وَقَالَ شَاعِرٌ :

وَجِرَّةٌ لَا تَرَى فِي النَّاسِ مِثْلَهُمْ إِذَا يَكُونُ لَهُمْ عِيدٌ وَإِفْطَارُ
إِنْ يُوقِدُوا يُوسِعُونَا مِنْ دُخَانِهِمْ وَلَيْسَ يَبْلُغُنَا مَا تُنْضِجُ النَّارُ

وَمِنْ مُأْجِهِمْ فِيمَنْ لَا يُظْفَرُ بِخُبْزِهِ . قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

(١) العجراة : العصا التي فيها إِبْنٌ - عَقْدٌ - ، وَالسَّلَمُ : شَجَرٌ

(٢) رَوَوْا أَنَّ عِلْقَمَةَ لَمَّا سَمِعَتْ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ : فَضَحْنِي وَاللَّهِ ، اللَّهُمَّ أَخْزِهِ إِنْ لَمْ

يَكُنْ صَادِقًا ، وَغَرْنِي : جَائِعَاتٌ ، وَمِثْلُهُ خَمَائِصُ

وما خُيِّبُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرَبٍ ^(١) بُصَّورُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمُنْتَلِ
وقال الآخر :

قَدْ فَرَّ مِنْ مَنَزِلِهِ فَأَرُهُ وَعَاذَ بِالْجِيرَانِ مَرْتَقَا
وهذا من قول امرأة لزوجها : والله ما يقيم الفأر في دارك إلا لحب
الوطن ، وقد تقدم آنفا ... وقيل لبخيل : إنك تُكْرِمُ خَبْرَكَ وَتُهِنُ
لِإِكْرَامِهِ نَفْسَكَ ! فقال : كيف لا أفعل ذلك والخبز هو الذي أخرج آدمَ
وحواءَ وإبليسَ والطاوسَ من الجنة ... وتغدى الجواز عند هاشمي ، فر الغلام
بصحفة فقطر منها قطرة على ثوب الجواز ، فقال الهاشمي : آتِيهِ بَطَسْتُ يَغْسِلُهَا ،
فقال الجواز : دَعَهُ ، فَرَقَّتْكُمْ لَا تُغَيِّرُ الثِّيَابَ ... يريد : لا دَسَمَ فيها ،

تفاخرهم بالإحسان إلى الضيف والجار : ولأنهم يعدُّون شَيْعَ المرءِ
وجارَهُ جائعاً ، عاراً - كما تقدم - تراهم يتفاخرون بِإِكْرَامِ الضيف والجار ،
ومن أحسن ما قيل في ذلك قول عروة بن الورد :
وإِنِّي أَمْرُوٌّ عَافِي إِنْ أُنِيَ شِرْكَةٌ وَأَنْتَ أَمْرُوٌّ عَافِي إِنْ أَنْكَ وَاحِدُ

(١) عَنْقَاءُ مُغْرَبٌ. وعَنْقَاءُ مغربة : طائر معروف الاسم مجهول
الجسم ، قال ابن الكلبي : كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان
بأرضهم جبل يقال له دُخْ مصعده في السماء ميل ، فكان يتناهب طائفة كأعظم ما يكون
لها عنق طويل ، من أحسن الطير ، فيها من كل لون ، وكانت تقع منقضة فكانت
تنقض على الطير فتأكلها فجاءت وانقضت على صبي فذهبت به فسميت عَنْقَاءُ مغرباً
لأنها تغرب - تبعد - بكل ما أخذته ، ثم انقضت على جارية ترعرعت وضمتهما إلى
جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ، ثم طارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم ،
فدعا عليها فساط الله عليها آفة فهلكت ، فضربتها العرب مثلاً في أشعارها ويقال :
ألوت به العنقاء المغرب ، وطارت به العنقاء ...

أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جَسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ
 « العافى : طالب المعروف ، يريد بالبيت الأول : أنه ليس من شرار
 الناس يأكل وحده ، وقوله : والماء بارد : كنى بذلك عن تحمله ضرر نفسه
 وعبرة بعض الشراح : يقول عروة : إن قُوَّتَهُ الذى هو قِوَامُ رَمَقِهِ ومُقيم
 جسمه ، يطعمه ويؤثر به على نفسه ، وأنه عند الجهد وشدة الزمان يَحْسُو
 الماء ويسقى اللبن ، فإنما رَغْبَةُ الجِوَادِ فى المَالِ لِيَهَبَهُ ، وطلبه له لِيُنْهَبَهُ . »
 وفى هذا المعنى يقول مسكين الدارمي - وهو شاعر شجاع من أهل العراق
 كان فى زمن معاوية بن أبى سفيان - :

إِنْ أَدَعَيْتُ مِسْكِينَ فَمَا قَصَرْتُ قَدَرِي بِبُوتِ الْحَيِّ وَالْجُدُرِ ^(١)
 مَامَسَ رَحْلِي الْعَنْكَبُوتُ وَلَا جَدِيَّاتُهُ مِنْ وَضْعِهِ غُبُرِ ^(٢)
 لَا أَخْذُ الصَّيَّانَ أَلْتَمُهُمْ وَالْأَمْرُ قَدْ يُغْزَى بِهِ الْأَمْرُ ^(٣)
 وَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ تَرَكْتُ وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَائِهِ سِتْرُ
 لَا يَزْهَبُ الْجِيرَانُ غَدَرَتْنَا حَتَّى يُوَارِيَ ذِكْرُنَا الْقَبْرُ

(١) قوله فَمَا قَصَرْتُ قَدَرِي الخ : فبيوت فاعل قصرت ، يقول : إن قدرى بارزة
 لاتحجبها السواتر والحيطان ، يصف نفسه بأنه مضيايف جواد محسن إلى جيرانه
 (٢) قوله مَامَسَ رَحْلِي الْعَنْكَبُوتُ الخ : كناية مليحة عن مواصلته السير لأن
 العنكبوت إنما ينسج على مالا تناله الأيدي ولا يكثر استعماله ، والجديات جمع جدية
 بسكون الدال وهى باطن دقة الرحل ، يقول : إن جديات رحله ليست غبراء
 لكثرة ترحاله

(٣) يقول : لا أقبل الصبي وأنا أريد التعرض لأمه ، وما أحلى قوله : والامر قد
 يغزى به الامر . ويغزى : يقصد ، ومثل هذا قول عقيل بن علفة :

وَلَا أَلْقِي لِذِي الْوَدَاعَاتِ سَوْطِي أَلَا عِبُهُ وَزَلَّتْهُ أَرِيدُ
 وزلته يروى وغزته ويروى ورببته ، والأعبه يروى لآلهيه . وللشعراء فى هذا المعنى
 كثير ، وهو معنى يدل على أن العرب غاية فى الفطنة ودقة الملاحظة وأنهم لاتخذعهم

لَسْنَا كَأَنفَواِمِ إِذَا كَلَّخَتْ إِحْدَى السَّنِينَ جَارُهُمْ تَمَرٌ^(١)
 مَوْلَاهُمْ لَحْمٌ عَلَى وَضْمٍ^(٢) تَنْتَابُهُ الْعِقَابُ وَالنَّسْرُ
 نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ وَإِلَيْهِ قَبْلِي تُنْزَلُ الْقِدْرُ^(٣)
 مَاضِرٌ جَارِي إِذْ أُجَاوِرُهُ أَنْ لَا يَكُونَ لَبِيَّتِهِ سِترٌ
 أَغْشَى إِذَا مَا جَارَتِي تَخَرَّجْتُ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْحِدْرُ^(٤)
 وَيَصُمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمِعِي وَمَا بِي غَيْرُهُ وَقُرُّ^(٥)

ظواهر الأمور عما تخفى وراءها . وغواة الناس إلى يومنا هذا قد استغلوا هذا المعنى استغلالا مكشوفاً بقبحهم الله .

(١) جَارُهُمْ تَمَرٌ : أى يستحلى الغدر به كما يستحلى التمر
 (٢) الوضْمُ : خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم ، وتركهم لحماً على وضْمٍ : أى أذلهم
 (٣) يروى أنه كان لمسكين هذا امرأة تماضه - تلاحيه وتنازعه - فلما قال : نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ قَالَتْ لَهُ : أَجَل ، إِنَّمَا نَارُهُ وَنَارُكَ وَاحِدَةٌ لِأَنَّهُ أَوْقَدُوهُم تَوْقِدًا ، وَالْقِدْرُ تُنْزَلُ إِلَيْهِ قَبْلَكَ ، لِأَنَّهُ طَبِخَ وَلَمْ يَطْبِخْ وَأَنْتَ تَسْتَطْعِمُهُ ، وَلَمَّا قَالَ أَنْ لَا يَكُونَ لَبِيَّتُهُ سِتْرٌ قَالَتْ لَهُ : أَجَل ، إِنْ كَانَ لَهُ سِتْرٌ هَتَكَتُهُ
 (٤) مِنْ دَقَائِقِ هَذِهِ اللُّغَةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ الْكَشَافِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ، قَالَ : بَضْمُ الشَّيْنِ وَفَتْحُهَا ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّهُ إِذَا حَصَلَتِ الْآفَةُ فِي بَصَرِهِ قَبْلَ عَشَى - أَيْ وَالْمُضَارِعُ يَعِشَى ، وَإِذَا نَظَرَ نَظَرَ الْعُشَى وَلَا آفَةَ بِهِ قِيلَ عَشَا - وَالْمُضَارِعُ يَعِشُو - وَنَظِيرُهُ عَرَجَ لِمَنْ بِهِ آفَةٌ وَعَرَجَ لِمَنْ مَشَى مَشْيَةَ الْعَرَجَانِ مِنْ غَيْرِ عَرَجٍ قَالَ الْحَطِيطَةُ :

مَتَى تَأْتِيهِ تَعِشُوا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدٍ
 أَيْ تَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظَرَ الْعُشَى لَمَّا يَضْعَفُ بَصْرُكَ مِنْ عَظَمِ الْوُقُودِ وَاتْسَاعِ الضَّوءِ ، فَمَعْنَى الْفَتْحِ : وَمَنْ يَعِمْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ بِالضَّمِّ فَمَعْنَاهَا وَمَنْ يَتَعَامَلُ عَنْ ذِكْرِهِ ، أَيْ يَعْرِفُ أَنَّهُ الْحَقُّ وَهُوَ يَتَجَاهَلُ وَيَتَغَابَى . (٥) الْوَقْرُ : الثَّقَلُ فِي الْأَذْنِ

وصية بخيل لابنه

وهاك وصية بخيل لابنه أراد بها أن ينصَح ابنه بالتقليل من الطعام ،
شحاً وكزاةً ، ولكنه أودعها على الرغم منه نصائحَ قيمةً يَجْمَلُ أن تُتَّخَذَ
دُستوراً في الطعام لمن أراد أن يصحَّ ويُعافى ، فهي حقُّ أريد بها باطل ، ومن
ثم اخترناها ، وهي وصية جاحظية أوردها الجاحظ في كتابه البخلاء ونسبها
إلى رجل يسمى أبا عبد الرحمن الثوري كان يحب الرأس - رؤس الضأن وغير
الضأن - قال الثوري لابنه - :

إياك وَنَهَمَ الصَّيَّانَ ^(١) ، وَشَرَّةَ الزُّرَّاعِ ^(٢) ، وَأَخْلَاقَ النُّوَائِحِ ^(٣) وَدَغَ
عَنكَ خَبْطَ الْمَلَّاحِينَ وَالْفَعْلَةَ ^(٤) وَنَهَشَ الْأَعْرَابِ وَالْمَهْنَةَ ^(٥) . وَكُلْ مَا بَيْنَ
يَدَيْكَ ؛ فَإِنَّمَا هُوَ حَقُّكَ الَّذِي وَقَعَ لَكَ ، وَصَارَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ ؛ وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ
فِي الطَّعَامِ شَيْءٌ طَرِيفٌ ، وَلُقْمَةٌ كَرِيمَةٌ ، وَنَضِغَةٌ شَهِيَّةٌ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلشَّيْخِ
الْمُعَظَّمِ ، وَالصَّبِيِّ الْمُدَلَّلِ . وَاسْتَـ واحداً منهما . فَأَنْتَ قَدْ نَأَى الدَّعَوَاتِ

(١) النهم : إفراط الشهوة في الطعام (٢) الشره : غلبة الحرص على الطعام .
ولمَّا خَصَّ شَرَّهُ الزُّرَّاعَ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كَدٍّ وَنَصَبٍ وَحَرَكَةٍ فَيَشْرَهُونَ إِلَى الطَّعَامِ لِفَرْطِ
مَا يَنْدُلُونَ مِنْ قَوَامِ الْبَدَنِ (٣) النوائح جمع نائحة : اسم يقع على النساء يجتمعن
في مناحة ، ولعله يريد أن النوائح ينحن ما ينحن فإذا حضر الطعام أقبلن عليه شرهات
ونسين ما كنَّ فيه من بكاء وعويل (٤) الملاح : نوق السفينة ، والخبط : السير
على غير هدى ، والفعله : عملة الطين ونحوه . يقول : لا تذهب في الطعام على غير هدى .
كالملاحين ، ولا تكن غنياً في أكلك كما تفعل الفعلة

(٥) يقول : لا تنهش اللحم كما ينهش الأعراب الجفاة وكما ينهش المهنة : جمع ماهن ،

وهو العبد الخادم

والولائم، وتدخلُ منازلَ الإخوانِ، وعهدُك باللحم قريب. وإخوانُك أشدُّ قَرَمًا إليه منك، وإنما هو رأس واحد، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتُصيب بعضاً. وأنا - بعدُ - أكره لك الموالاةَ بين اللحم، فإن الله يُبغضُ أهلَ البيتِ اللحمين^(١) وكان يقول: إياكم وهذه المجازيرُ فإن لها ضراوةً كضراوةِ الخمر^(٢) وكان يقول: مُدْمِنُ اللحم كُدْمِنِ الخمر. وقال الشيخ - ورأى رجلاً يأكلُ اللحم، فقال: لحمٌ يأكلُ لحماً... أف لهذا عملاً!

وقال الأول: أهلك الرجالَ الأحران: اللحمُ والخمرُ، وأهلك النساءَ الأحران الذهبُ والزعفران^(٣)... أى بُنى، عَوْدَ نَفْسِكَ الأثرة^(٤)، ومجاهدةَ الهوى والشهوة^(٥). ولا تنهش نهشَ الأفاعى، ولا تخضم تخضمَ البراذين^(٦)، ولا تديم الأكلَ لإدامة النعاج، ولا تَلْقَمَ لَقَمَ الجمال، إن

(١) هذا حديث أورده ابن الأثير في النهاية هكذا: إن الله ليُبغض أهل البيت اللحمين، قيل هم الذين يكثرُونَ أكل لحوم الناس بالغيبة: وقيل: هم الذين يكثرُونَ أكل اللحم ويدمنونه، وهو أشبه...

(٢) في اللسان: وفي حديث عمر: اتقوا هذه المجازير فإن لها ضراوة كضراوة الخمر، أراد مواضع الجزارين التي تنجر فيها الإبل وتذبح البقر والشاة ويباع لحانها وإنما نهى عنها لأنه كره لهم إدمان أكل اللحوم، وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر، أى عادة كعادتها، لأن من اعتاد أكل اللحوم أسرف في النفقة لجعل العادة في أكل اللحوم كالعادة في شرب الخمر، لما في الدوام عليها من السرف في النفقة والفساد

(٣) فالذهب للحلية والزعفران للتطيب

(٤) الأثرة: اسم مصدر من آثر بؤثر إثثاراً، أى عود نفسك أن تؤثر غيرك على نفسك (٥) ومجاهدة الخ: إما أنه يريد المعنى العام وإما يريد: لا تطلق لنفسك العنان فيما تشتهيه وتواه من ألوان الطعام (٦) الخضم: الأكل بجميع الفم والبراذين: جمع برذون كفرعون وهو من الخيل العظيم الخلق الجافيا الغليظ الأعضاء

الله قد فضلك ، فجعلك إنساناً ؛ فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا ، واحذر
سرعة الكظة ^(١) ، وسرف البطن ، وقد قال بعض الحكماء : إذا كنت بطينا
فعد نفسك في الزمى ^(٢) . وقال الأعشى :

• والبطن مما تسفه الأحلاما ^(٣) •

واعلم أن الشبع داعية البشم ^(٤) ، وأن البشم داعية السقم ، وأن السقم
داعية الموت . ومن مات هذه الميته فقد مات ميتة لثيمة . وهو قاتل نفسه ،
وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره ^(٥) أى بُنى ، إن القاتل والمقتول في النار ^(٦)
ولو سألت حذاق الأطباء لأخبروك أن عامة أهل القبور إنما ماتوا بالتخمر
وآعرف خطأ من قال : أكلة وموتة ! وأخذ بقول من قال : رب أكلة تمنع
أكلات ^(٧) . وقد قال الحسن البصرى - : يا ابن آدم كل في ثلك بطنك ، واشرب في
ثلك بطنك ، ودع الثلك للتفكر والتفلس . وقال بكر بن عبدالله المزني ^(٨) :
ما وجدت طعم العيش حتى استبدلت الخمص بالكظة ^(٩) ، وحتى لم ألبس من

(١) الكظة : الامتلاء من الطعام ، وسرعة الكظة أن يسرع إليه الامتلاء وهو لا يزال
يتناول الطعام فيتفاقم عليه الأمر

(٢) البطن : عظيم البطن من كثرة ما يأكل . والزمى : ذوو العاهات الذين يدوم
مرضهم زمنا طويلا (٣) الأحلام : العقول وتسفه الأحلام : تطيشها والبيت :

يأبى المنذر بن عبدان والبطن سنة مما تسفه الأحلاما
(٤) البشم : التخمة من كثرة الأكل (٥) ألوم من قاتل غيره : أحق منه
بأن يلام (٦) يقول : إن من مات بالتخمة فقد قتل نفسه فهو قاتل ومقتول في
وقت معاً فهو في النار على رأيه

(٧) أى لما ينشأ عنها من الأمراض (٨) كان من أفاضل التابعين صالحاً
قمتيا قال الجاحظ : وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخنا الحسن وقتاها بكر ...
مات سنة ١٠٨ هـ (٩) الخمص : الجوع أى حتى اتخذت الجوع بدل الكظة

ثيَابِي مَا يَسْتَعْدِمُنِي^(١)، وَحَتَّى لَمْ أَكُلْ إِلَّا مَا لَا أُغْسِلُ يَدِي مِنْهُ ! يَا بُنَيَّ، وَاللَّهِ مَا أَدَّى حَقَّ الرُّكُوعِ، وَلَا وَظِيفَةَ السُّجُودِ، ذُرْكَظَةً، وَلَا خَشَعَ لَهِ ذُو بَطْنَةٍ^(٢)، وَالصُّومَ مَصَحَّةً^(٣)، وَالْوَجَبَاتُ عَيْشَ الصَّالِحِينَ^(٤)، ثُمَّ قَالَ : لِأَمْرِ مَا^(٥) طَالَتْ أَعْمَارُ الْهِنْدِ^(٦)، وَنَحَّتْ أَبْدَانُ الْأَعْرَابِ . اللَّهُ دَرُّ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ^(٧)، حِينَ زَعَمَ أَنَّ الدَّوَاءَ هُوَ الْأَزْمُ^(٨)، وَأَنَّ الدَّاءَ هُوَ ادِّخَالُ الطَّعَامِ فِي أَثَرِ الطَّعَامِ ! أَيْ بُنَيَّ لِمَ صَفَّتَ أَذْهَانَ الْعَرَبِ؟ وَلِمَ صَدَقْتَ أَحْسَاسُ الْأَعْرَابِ^(٩) وَلِمَ صَحَّتْ أَبْدَانُ الرُّهْبَانِ، مَعَ طَوْلِ الْإِقَامَةِ فِي الصَّوَامِيعِ؟ وَحَتَّى لَمْ تَعْرِفِ النَّفْسَ، وَلَا وَجَعَ الْمَفَاصِلِ، وَلَا الْأَوْرَامِ؛ إِلَّا لِقَلَّةِ الرُّزْءِ^(١٠) مِنَ الطَّعَامِ، وَخِفَّةِ الزَّادِ، وَالتَّبْلُغِ بِالْيَسِيرِ^(١١)

أَيْ بُنَيَّ، إِنْ نَسِمْ الدُّنْيَا وَرَوَّحَ الْحَيَاةِ^(١٢) أَفْضَلَ مِنْ أَنْ تَذِيتَ كَطَظِيمًا،

(١) يستعديني : أي يجعاني خادما له أي بالمحافظة عليه ، لأنه ثمين
(٢) يقول : إن الممتلي طعاما لا يمكن أن يركع في الصلاة تمام الركوع ولا أن يسجد تمام السجود ، والخشوع وتفريغ القلب لله تعالى لا يكون مع التخمّة والعناء منها
(٣) مصحّة : يصح عليه (٤) الوجبات جمع وجبة وهي الأكلة الواحدة في اليوم واليلة

(٥) لأمر ما : أي لأمر عظيم (٦) أي أعمار أهاها (٧) طيب العرب سافر إلى فارس وتعلم هناك الطب واشتهر فيه وتال به مالا وأدرك الإسلام
(٨) أزم ، من باب ضرب : أمسك عن المطعم والمشرب روى أن عمر بن الخطاب سأل الحرث بن كلفة عن الطب ، فقال : هو الأزم ، يعني : الحمية

(٩) الاحساس جمع حس وهو الشعور بالشيء (١٠) الرزء هنا : ما يصيبه الإنسان من طعام (١١) التبليغ باليسير : الاكتفاء به (١٢) روح الحياة : راحتها وما يستروح إليه

وَأَنْ تَكُونَ لِقَاصِرِ الْعُمَرِ حَافِظًا . وَكَيْفَ لَا تَرْغَبُ فِي تَدْبِيرٍ يَجْمَعُ لَكَ صِحَّةَ
الْبَدَنِ ، وَذِكَاةَ الذَّهْنِ ، وَصَلَاحَ الْمَعْنَى ، وَكَثْرَةَ الْمَالِ ، وَالْقُرْبَ مِنْ عَيْشِ
الْمَلَائِكَةِ ^(١) ؟ أَيْ بَنَى ، لَمْ صَارَ الضُّبُّ أَطْوَلَ شَيْءٍ عُمرًا ؛ إِلَّا لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَعِيشُ
بِالنَّسِيمِ ^(٢) ؟ وَلَمْ قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الصُّومَ وَجَاءَ ^(٣) ، إِلَّا لِيَجْعَلَ
الْجُوعَ حِجَازًا دُونَ الشَّهَوَاتِ . أَيْ بَنَى . قَدْ بَلَغَتْ تِسْعِينَ عَامًا مَا نَفَضَ لِي ^(٤)
سِنٌّ ، وَلَا تَحْرَكَ لِي عَظْمٌ ^(٥) ، وَلَا انْتَشَرَ بِي عَصَبٌ ^(٦) ، وَلَا عَرَفْتُ ذَنْبِينَ
أَنْفٍ ^(٧) ، وَلَا سَيْلَانَ عَيْنٍ ^(٨) ، وَلَا سَلَسَ بُولٌ ^(٩) ، مَا ذَلِكَ عِلَّةٌ إِلَّا التَّخْفِيفُ
مِنَ الزَّادِ . فَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ الْحَيَاةَ فَهَذِهِ سَبِيلُ الْحَيَاةِ ، وَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ
الْمَوْتَ ، فَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ .



بخيل يبيع القرى

ونزل جريرٌ - الشاعر الإسلامي الأشهر - بقوم من بني العنبر بن عمرو
ابن تميم فلم يَقْرُوهُ ، حتى اشترى منهم القرى ، فانصرف وهو يقول :

(١) لَذَمٌ : لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ (٢) كَوْنُ الضُّبِّ لَا يَعِيشُ إِلَّا بِالنَّسِيمِ وَلَا
يَأْكُلُ أَلْبَسَةً غَيْرَ صَحِيحٍ وَلَكِنْ الثَّورِي تَقِلُّ خِزْرَافَةً قَدِيمَةً (٣) وَجَاءَ : مَانِعٌ
مِنَ الشَّهَوَاتِ

(٤) نَفَضَ : اضْطَرَبَ وَتَحَرَّكَ وَيُرْوَى نَقَصَ (٥) لَعَلَّهُ يَرِيدُ بِالتَّحَرَّكَ
الْإِلْتَوَاءَ كَأَحْدِيدَابِ الظَّهْرِ (٦) الْإِنْتِشَارُ : الْإِنْتِفَاحُ فِي الْعَصَبِ لِلْإِلْتِغَابِ
(٧) الذَّنِينَ : الْخَطَاطِ الرَّقِيقِ الَّذِي يَسِيلُ مِنَ الْأَنْفِ وَيُرْوَى ذَنْبَيْنِ أُذُنٍ وَالدَّانِينَ صَوْتِ
الذَّبَابِ وَنَحْوَهُ مِنْ هَيْئَةِ الْكَلَامِ الَّذِي لَا يَفْقَهُهُ وَالْمُرَادُ مَا يَشْبَهُ هَذَا الصَّوْتِ فِي الْأَذْنِ
مِنَ الْكَبَرِ (٨) هُوَ مَا يَحْدُثُ فِي الْكَبَرِ مِنْ ضَعْفِ الْعَيْنَيْنِ فَتَسِيلُ مِنْهَا دُمُوعٌ وَسَوَائِلُ
أُخْرَى (٩) سَلَسَ الْبُولُ : اسْتَرْسَلَهُ وَعَدَمَ اسْتِمْسَاكَهُ لِحُدُوثِ مَرَضٍ بِصَاحِبِهِ

يَا مَالِكُ ابْنَ طَرِيفٍ إِنَّ بَيْعَكُمْ رَفَدَ الْقَرَى مُفْسِدٌ لِلدِّينِ وَالْحَسْبِ
 قَالُوا نَبِيعُكُمْ بَيْعًا فَقُلْتُ لَهُمْ بَيْعُو الْمَوَالِي وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْعَرَبِ
 لَوْلَا كِرَامُ طَرِيفٍ مَا غَفَرْتُ لَكُمْ بَيْعِي قَرَائِ وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي
 هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ رِيَشُ الذُّنَابِ وَلَيْسَ الرَّأْسُ كَالذَّنْبِ
 «قوله : يبيعوا الموالى واستحيوا من العرب ، قال المبرد : تزعم الرواة : أن
 جِلَّةَ الْمَوَالِي - عُظَمَاءَهُمْ - أَتَوْا مِنْ هَذَا الْبَيْتِ ، لِأَنَّهُ حَطَّهُمْ وَوَضَعَهُمْ وَرَأَى
 أَنَّ الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ غَيْرُ مُحْسَبَةٍ عَيْنًا ... وقوله : وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي ، يقول :
 لَمْ أُؤَخِّرْهُ عَنْكُمْ ، وقوله : هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ ، فَالْإِشَابَةُ الْجَمَاعَةُ تَدْخُلُ
 فِي قَوْمٍ وَلَيْسَتْ مِنْهُمْ وَقَدْ تَطْلُقُ الْأَوْشَابُ عَلَى أَخْلَاطِ أَتَنَاسٍ تَجْتَمِعُ مِنْ كُلِّ
 أَوْبٍ ، مَا خُوِذَ مِنْ أَشْبِ الشَّيْءِ كَضَرْبٍ . خَلَطَهُ ، وَأَمَّا الزَّعَانِفُ فَأَصْلُهَا
 أَجْنَحَةُ السَّمَكِ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ الْأَدْعِيَاءُ لِأَنَّهُمْ انْصَقُوا بِالصَّمِيمِ كَمَا انْصَقَتْ تِلْكَ
 الْأَجْنَحَةُ بِعِظَامِ السَّمَكِ ،

عقرياتهم في قرى الأضياف

قال الله جلَّ شأنه في مدح قوم : وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
 وَيَتِيمًا وَأُسِيرًا ... وقال سيدنا رسول الله : أَيُّمَا رَجُلٍ ضَافَ قَوْمًا فَأَصْبَحَ
 الضَّيْفُ مُحَرُّومًا ، فَإِنْ نَصَرَهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَأْخُذَ بِقَرَى لَيْلَتِهِ مِنْ
 زَرْعِهِ وَمَالِهِ ^(١) ...

(١) قال الإمام العلقمي : قال شيخنا : هذا الحديث وما هو بسبيل منه كان في أول
 الأمر حين كانت الضيافة واجبة ، وقد نسخ وجوبها . أقول : وعلى أنه نسخ وجوبها
 فلا تزال معدودة في باب الفضائل الإنسانية المرغوب فيها والمثاب عليها والدالة على
 الحجة الباهرة الكريمة

وفي الحديث أيضا : الخَيْرُ أَسْرَعُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ مِنَ الشَّفْعَةِ فِي سَنَامِ
 البعير « الشَّفْعَةُ : السكين العظيمة العريضة » وقال صلوات الله عليه : ليس
 منا من بات شعبانَ وَضَيْفَهُ بَطْنُهُ طَاو . وقال تعالى في مدح القائم بخدمة
 ضيفه : هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرممين ؟ قيل وصفهم بذلك لأنه
 قام بخدمتهم بنفسه ... ونزل ضيف على جعفر بن أبي طالب ، فتخفف هو
 وغلبانه عند نزوله وعاونوه في حملوه ، فلما أراد الارتحال عنهم لم يُعِنه
 غلبانه ، فشكاهم فقال : إن غلبانا لا يعينون على الارتحال ... وقالوا : أمدح
 بيت قاله العرب قول حسان بن ثابت :

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهْرُ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
 « يقول : قد أنست كلابهم بالزوار فهي لا تتبجهم ، وهم من شجاعتهم
 لا يسألون عن جيش يقبل نحوهم لقلة اكترائهم ولثقتهم ببسالة أنفسهم
 وشدتهم على أعدائهم ، ومثل هذا قول أبي تمام :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لآية حرب أو لآية مكان
 أو تقول : لا يسألون عن السواد المقبل ، أى أنهم في سعة لا يهولهم الجمع
 الكثير ، لسعتهم وسخائهم »

وقال إبراهيم بن هرمة من أبيات في ابتهاج الكلب بالضيف :

يَكَادُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلًا يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ
 وقال حاتم الطائي وهو سيد الأجراد بالطعام :

أَضَاحُكَ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحِيلِهِ وَيُخَصِّبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيدُ
 وما الخصبُ الأضيافُ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى
 ولكنما وَجْهُ الكريمِ خَصِيبُ

ومن قولهم في الحث على ترك التكلف وتعجيل الحاضر: سُئِلَ أَقْرَى
أهل اليمامة للضيف: كيف ضَبَطْتُمُ الْقَرَى؟ قال: بأن لا تتكَلَّفَ مَا لَيْسَ
عِنْدَنَا... وقال بعضهم: الضيفُ إلى القليل العاجل أحوَجُ منه إلى الكثير
الآجل، أما سمعت قول الله تعالى: فَمَا كَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ^(١) وقال
تعالى: إلى طعامٍ غيرِ ناظرينِ إِنَّهُ... «أى غير منتظرين نُضِجَهُ وإدراكه
وبلوغه، يقال: أُنِيَ يَأْنِي: إذا نُضِجَ»

ومن قولهم فيمن أثر على نفسه: قولٌ صوفيٍّ لآخر: كيف يعمل
فقراؤكم؟ قال: إذا وجدوا أكلوا، وإذا عَدِمُوا صَبَرُوا، فقال: هذا فِعْلُ
الكلاب، إن الفقير منا إذا عَدِمَ صَبَرَ، وإذا وَجَدَ طعاماً أثر به غيره...
وقالوا في وصف الرجل الكريم يَسُوءُ خلقه مع أهله خوف التقصير:
والقائل زنب بنت الطَّيْرِية ترى أخاها يزيد:

إذا نَزَلَ الْأَضْيَافُ كَانَ عَذَوْرًا عَلَى الْأَهْلِ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهُ
يُعِينُكَ مَظْلُومًا وَيُنْجِيكَ ظَالِمًا وَكُلُّ الذِّي حُمَلَتْهُ فَهُوَ حَامِلُهُ
«العذور: السبي الخلق القليل الصبر فيما يريده ويهم به، وإنما جعلته
عَذَوْرًا لشدّة تهّمه بأمر الأضياف وحرصه على تعجيل قِراهم حتى تستقل
المراجل على الأثافي^(٢)، والمراجل: القُدور واحداها مِرْجَل. وقوله:
وَيُنْجِيكَ ظَالِمًا، أَى إِنَّ ظَلَمْتَ فَطَوَّلْتَ بِظُلْمِكَ حَاكَ وَمَنَعَ مِنْكَ،

(١) حذ الشاة: شواها وجعل فوقها حجارة محما لتضجها نهى حنيد

(٢) الأثافي: جمع أثفية: وهى الحجر توضع عليه القدر وثلاثة الأثافي: القطعة
من الجبل يجعل القدر عليها وعلى حجرين أمامها ويقال: رماه بثلاثة الأثافي: أى
بالشر كله

هذا؛ ومن السنة - كما ورد في الحديث - أن يُمَثَّى الرجل مع ضيفه إلى باب الدار .

وقد كان الأضياف يُعطون النُدْلَ وَيَرْضَخُونَ لهم بالمال ^(١) فقد رَوَى بعضهم قال : رأيت ابن عباس في وَلِيمة فأكل وألقى للخباز درهما .

محادثة الضيف

وكانوا يُجَاهِ محادثة الضيف على الطعام فربقن ، فبرقن يَسْتَجِبُهُ ويستحسنه ، ومن صاحب الدعوة أَحْسَنُ ، وقالوا في ذلك : محادثة الإخوان - تزيد في لذة الطعام . وقال شاعرهم :

وَأَكْثَرُ مَا أَلْذُّ بِهِ وَأَلْهُوُ مُحَادَثَةُ الضُّيُوفِ عَلَى الطَّعَامِ

وأما الفريق الآخر فيكره الحديث على المائدة وقالوا في ذلك : مَنْ أَكْثَرَ الْكَلَامَ عَلَى طَعَامِهِ غَشَّ بَطْنَهُ وَثَقُلَ عَلَى إِخْوَانِهِ . وقال الجاحظ في كتابه « التاج » : وَلِشَيْءٍ مَا كَانَتْ مَلُوكُ آلِ سَاسَانَ - إِذَا قُدِّمَتْ مَوَائِدُهُمْ - زَمَزَمُوا عَلَيْهَا ^(٢) ، فَلَمْ يَنْطِقْ نَاطِقٌ بِحَرْفٍ حَتَّى تَرْفَعَ ، فَإِنْ اضْطُرُّوا إِلَى كَلَامٍ ، كَانَ مَكَانَهُ إِشَارَةً أَوْ إِيْمَاءً يَدُلُّ عَلَى الْغُرُضِ الَّتِي أَرَادُوا وَالْمَعْنَى الَّتِي قَصَدُوا . . . وَكَانُوا يَقُولُونَ إِنَّ هَذِهِ الْأَطْعِمَةَ بِهَا حَيَاةُ هَذَا الْعَالَمِ ، فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَجْعَلَ ذِهْنَهُ فِي مَقْطَعِهِ وَيَشْغَلَ رُوحَهُ وَجَوَارِحَهُ فِيهِ ، حَتَّى تَأْخُذَ كُلُّ جَارِحَةٍ بِقِسْطِهَا مِنَ الطَّعَامِ ، فَيَتَغَذَّى بِهَا الْبَدَنُ وَالرُّوحُ الْحَيَوَانِيَّةُ الَّتِي فِي الْقَلْبِ وَالطَّبِيعَةُ الَّتِي فِي الْكَبِدِ ، اغْتِنَاءً تَامًا ، وَتَقْبَلُهُ الطَّبِيعَةُ قَبُولًا جَامِعًا . قَالَ الْجَاحِظُ : وَفِي تَرْكِ الْكَلَامِ عَلَى الطَّعَامِ فُضَائِلُ كَثِيرَةٌ هِيَ فِي آيَاتِهِمْ ^(٣) . . .

(١) النُدْل : خدم الضيافة : ويقال : رَضَخَ لَهُ مِنْ مَالِهِ رَضْخَةً : أَعْطَاهُ قَلِيلًا مِنْ كَثِيرٍ

(٢) الزمزمة : تراطن الملوغ على أكلهم وهم صموت (٣) آيَاتِهِمْ : قَانُونُهُمْ وَدُسُتُورُهُمْ

وقال المسعودى فى مروج الذهب : ذكروا أن كيرمرث هو أول من أمر بالسكوت عند الطعام ، لتأخذ الطبيعة بقسطها ، فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء ، وتسكن النفس عند ذلك ، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدبيرا يؤدى إلى ما فيه صلاح الجسم من أخذ صفو الطعام ، فيكون الذى يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها وما فيه صلاحها ، وإن الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب ، انصرف قسطن من التدبير وجزء من التغذى إلى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك ، فأضر ذلك بالنفس الحيوانية والقوى الإنسانية ، وإذا كان ذلك دائما أدى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميّزة الفكرية لهذا الجسد المرنى ، وفى ذلك تركٌ للحكمة وخروج عن الصواب ... أقول : وقد أبدت التجارب الحديثة هذا المذهب ، إذ تحققت أن الكلام على الطعام مدرّجته لسوء الهضم ... وإني بحمد الله أعلم هذا المذهب منذ نشأت ، أى أنى بفطرتى لا أتحدث على الطعام ، حتى عدت ذلك أهلى ومن يخاطونى مغمّزا فى يشف عما وراءه ، مما يشبه النّهم وليس به يعلم الله وإنما هى الفطرة التى فطرنى الله عليها ، ومن خلّقى أنى أعد الكلام على الطعام ضربا من التكلف الذى لا أستسيغه ... على أن الأكل مهمة حيوانية سخيّة يحمل أن لا يحتفل بها هذا الاحتفال الكرموى الذى نراه هذه الأيام ، ورحم الله جمال الدين الأفغانى إذ يقول : وددت لو أنى خلقت مضمّتا^(١) وقبله قال الخليل بن أحمد : أثقل ساعاتى الساعة التى آكل فيها ، أو كما قال :

أما محادثة الأضياف على غير الطعام : فن الجمع على استحسانه ، وفى

(١) المصمت : الذى لا جوف له

ذلك يقول مسكين الدارمي أو عتبة بن بجير :

لِحَافِي لِحَافِ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ وَلَمْ يُلْهِني عَنْهُ الْغَزَالُ الْمُنْفَعُ
أُحَدِّثُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقُرَى وَتَعَلَّمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ
« الغزال المنفع : زوجته ، ويهجع : ينام ، يريد أنه يحديثه ويقرّيه بهذا
الحديث حتى ينام »

وكانوا لكرمهم يفضلون الاجتماع على الأكل ويستقبحون التفرد :
شكا رجل إلى سيدنا رسول الله قلة البركة في طعامهم ، فقال : لعلمكم تتفردون
على طعامكم ! قال : نعم ، قال : اجتمعوا عليه واذكروا اسم الله لديه ...
وفي الحديث أيضا : ألا أخبركم بشراركم ؟ : من أكل وحده ، وضرب
عَبْدَهُ ، ومنع رِفْدَهُ ، « الرغد : العطاء » ... وقال قيس بن عاصم المِنقرى :
إِذَا مَا ضَنَعْتَ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيلًا فَإِنِّي لَسْتُ أَكِلُهُ وَحْدِي ^(١)

(١) بعده :

قَصِيًّا كَرِيمًا أَوْ قَرِيًّا فَإِنِّي أَخَافُ نَذَمَاتِ الْأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي
وَكَيْفَ يُسْبِغُ الْمَرْءُ زَادًا وَجَارَهُ خَفِيفُ الْمَتَى بِإِدَى الْخَصَاصَةِ وَالْجَهْدِ
وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُبْلِغُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ عَلَى عَمْدِ
وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا فِي إِلَّا تِلْكَ مِنْ شِبَعَةِ الْعَبْدِ
وقوله قصيا كريما أو قريبا فإني : هذا من طريق المعاني وذلك أنه لم يحتج
إلى أن يشترط في نسبته الكرم لأنه ضمن ذلك واشترط في القصي أن يكون كريما
لأنه كره أن يكون مؤاكلة غير كريم . ورواية الأغانى :

✽ أَخَا طَارِقًا أَوْ جَارِ بَيْتِ فَإِنِّي ✽

وروي أن قيسا لما قال فالتسي له أكىلا : أرسلت زوجته جارية فأته بأكيل وقالت :
أبي المرء قيس أن يذوق طعامه بغير أكىل إنه لكريم

وقال عبد الله بن المعتز في اجتماع الأيدي على الطعام:
 كَأَنَّ أَكْثَرَ الْقَوْمِ فِي جَفَنَاتِهِ قَطَا لَمْ يُنْفَرْهُ عَنِ الْمَاءِ عَصَارُخُ ^(١)
 وكانت العرب تعدّ التفرد بالآكل احتقَابَ وَزِرٍ ^(٢) حتى أنزل الله عز
 و تقدّس : ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ^(٣)...

السؤال

وعبقرياتهم فيه ، من جميع نواحيه

ذَمَّ السُّؤال : لما احتضر قيس بن عاصم المنقري ^(٤) سيد أدل الوبّر ، قال

(١) الجفّنات : جمع جفنة : القصعة الكبيرة

(٢) يقال : احتقَب فلان الإثم والوزر : احتمله ، كأنه جمعه واحتقبه من خلفه ،
 أى جمعه في حتمية ، والحقيّة الوعاء الذي يجعل الرجل فيه زاده وكانوا يجعلونها خلفهم
 على الراحلة (٣) قال البيضاوي : نزلت هذه الآية في بني ليث بن عمرو من كنانة ،
 كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده ؛ أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف
 لا يأكلون إلا معه ؛ أو في قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في
 الفذارة والنهم

(٤) تقدم له ذكر فيما أسلفنا وهذا قيس هو الذي يقول فيه عبدة بن الطيب يرثيه
 - عبدة شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم وكان في جيش النعمان بن مقرن الذين
 حاربوا معه الفرس بالمداثر - :

وما كانَ قَيْسُ هُلُكُهُ هُلُكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدِمًا
 وعبدة هذا هو صاحب الآيات التي روى أن عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه : أى
 المناديل أفضل ؟ فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرقى البيض ، وقال آخرون
 مناديل اليمن ، كأنها نور الربيع ، فقال عبد الملك : بل مناديل أخى بني تميم : عبدة بن
 الطيب حيث يقول :

لبنيه : يَا بَنِيَّ ، احفظوا عَنِّي ثَلَاثًا ، فَلَا أَحَدَ أَتَصَحَّ لَكُمْ مِنِّي ، إِذَا أَنَا مِتُّ
 فَسَوِّدُوا كِبَارَكُمْ وَلَا تُسَوِّدُوا صِغَارَكُمْ ، فَيَحَقَّرَ النَّاسُ كِبَارَكُمْ وَتَهُونُوا
 عَلَيْهِمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِحِفْظِ الْمَالِ ، فَإِنَّهُ مَنبَهَةٌ لِلْكَرِيمِ وَيُسْتَفْنَى بِهِ عَنِ اللَّئِيمِ ،
 وَإِيَّاكُمْ وَالْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ ... سَوِّدُوا كِبَارَكُمْ : فَالسَّيِّدُ هُنَا
 الرَّئِيسُ أَيْ أَسَدُوا رِيَاسَتَكُمْ إِلَى كِبَارَكُمْ ، وَمَنْبَهَةٌ لِلْكَرِيمِ : أَيْ مُشْعِرٌ بِقَدْرِهِ
 وَمُغْلٍ لَهُ ، وَقَوْلُهُ : فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ فَأَحْرُ بِقَصْرِ الْمَهْمَةِ : أَيْ أَذْنَى
 وَأَرْذَلُ ، وَإِذَا مُدَّ فَمَعْنَاهُ : أَنَّ السُّؤَالَ آخِرُ مَا يَكْتَسِبُ بِهِ الْمَرْءُ عِنْدَ الْعِجْزِ عَنِ
 الْكَسْبِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ إِيَّاكُمْ وَالْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ ،
 فَلَعَلَّ قَيْسًا أَخَذَهَا مِنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ قَيْسًا مَنِ اسْلَمَ وَنَزَلَ الْبَصْرَةَ
 وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا : مَنْ سَأَلَ وَهُوَ غَنِيٌّ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَدُوشًا
 أَوْ نُخُوشًا أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ «الْكُدُوحُ : الْخَدُوشُ ، وَكُلُّ أَثَرٍ مِنْ خَدَشٍ
 أَوْ عَضٍّ فَهُوَ كَدَحٌ ، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ أَحَدُكُمْ يَخْرُجُ بِمَسْأَلَتِهِ مِنْ
 عِنْدِي مُتَأَبِّطًا ، وَمَا هِيَ إِلَّا النَّارُ ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَلِمَ تُعْطِيهِ
 وَهِيَ نَارٌ ؟ فَقَالَ : يَا بَنُونَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُوا وَيَأْتِيَ اللَّهَ لِي الْبُخْلُ ... وَقَالُوا :
 إِيَّاكَ وَطَلَبَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّهُ فَقَرٌّ حَاضِرٌ ، وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ : السَّخَاءُ
 سَخَاءَانِ : سَخَاؤُكَ بِمَا فِي يَدِكَ ، وَسَخَاؤُكَ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَهُوَ أَجْمَعُ فِي

لَمَّا نَزَلْنَا ضَرَبْنَا ظِلَّ أُخْيَةِ وَفَارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ الْمَرَاغِيلُ
 وَرَدَّ وَأَشْقَرُ مَا يُؤْنِيهِ طَابِخُهُ مَاغِيرَ الْعَلَى مِنْهُ فَهُوَ مَا كَوُلُ
 نُمَتَّ قُنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوِّمَةٍ أَعْرَافُهُنَّ لَا يَدِينَا مَنَادِيلُ

«يعني بالمراجيل : المراحل فراد فيها اليا. ضرورة ، وما يؤنيه : ما ينضجه ، والجرد

المسومة : الخيل

الكرم، وأبعدُ من الدَّنس، ومن جمَّهما فقد استكمل الفضل ٠٠٠ وقال شاعرٌ :
 لَا تَحْسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبَلَى وإنما الموتُ سُؤالُ الرِّجَالِ
 كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنَّ ذَا أَشَدُّ مِنْ ذَاكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ
 وقد كانوا يتحملون المكارهَ تفادياً من السؤال : روى الأصمعي قال : مررت
 بكنَّاسٍ بالبصرة يَكْنُسُ كنيفاً وَيُغْنَى :

أضاعوني وأَيَّ قَبِيٍّ أَضَاعُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ تُغِيرُ ^(١)
 فقلت له : أما سِدَادُ الكنيفِ فأنت مَلِيٌّ به ^(٢) ، فلا عِلْمَ لِي بِكَ كَيْفَ
 أَنْتَ فِيهِ ، وكنْتُ حَدِيثَ السَّنِّ فَأَرَدْتُ الْعَبَثَ بِهِ - فَأَعْرَضَ عَنِّي مَلِيًّا ثُمَّ أَقْبَلَ
 عَلَيَّ وَأَنْشَدَ مُتَمَثِّلًا :

وَأُكْرِمُ نَفْسِي إِنِّي إِنْ أَهَنْتُهَا وَحَقَّقَ لَمْ تَكْرُمْ عَلَيَّ أَحَدٌ بَعْدِي
 قال الأصمعي : فقلتُ له : والله ، ما يكون من الهوانِ شيءٌ أَكْثَرَ مِمَّا بَذَلْتُمُ الْهَـ ،
 فبأَيِّ شيءٍ أَكْرَمْتُمَهَا؟ فقال: بَلَى ، والله ، إن من الهوانِ لَشَرًّا أَمَا أَنَا فِيهِ ، فقلت : وما هو؟
 فقال : الحاجةُ إِلَيْكَ وإلى أمثالك من الناس ، فأنصرفتُ عنه أَخْزَى النَّاسِ ٠٠٠ ومثله
 ما روى أن أبا عمرو بن العلاء قال : اجتزت بكنَّاسٍ يُنْشِدُ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِنَفْسِكَ قَدْرَهَا هَوَانًا لَهَا كَانَتْ عَلَى النَّاسِ أَهْوَانًا
 فقلت : سبحان الله ، أَتُنْشِدُ مِثْلَ هَذَا وَتَتَعَاطَى مِثْلَ هَذَا الْفِعْلِ؟ فقال :
 إِنَّ إِنْشَادِي لِمِثْلِهِ أَصَارَنِي إِلَى هَذَا ، فَرَارًا مِنْ ذَلِكَ السُّؤَالِ ...



(١) سيمر بك حديث طريف عن هذا البيت في موضع آخر من هذا الكتاب

(٢) مَلِيٌّ بِهِ : مضطلع به

ذم الإلحاح والحث على الإجمال في الطلب :

في الحديث : إن الله يُبْغِضُ من عباده السائلَ المُلْحِفَ ، وقال حكيم :
لَا يُكْثِرَنَّ الرَّجُلُ عَلَى أَخِيهِ الْمَسْأَلَةَ ، فَإِنَّ الْعِجْلَ إِذَا أَفْرَطَ فِي مَصِّ أُمِّهِ
نَطَخَتْهُ وَنَحَّتُهُ ، وقال بشار بن برد : * وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ *
ووقع بعض الكبار في قصةٍ مُلْحِحٍ مُكْثِرٍ للسؤال : دَخَ هَذَا الضَّرْعُ
يَدِيرٌ لغيرك كما دَرَلَك . وقالوا : اطلبوا الحاجات بعِزَّة النفس فإن يَسُدَّ الله
قضاءَهَا ... وقال ابن الرومي في الإحسان يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِهِوَان :

إِذَا أَنَا نَالْتَنِي فَوَاضِلُ مُفْضِلٍ فَأَهْلًا بِهَا مَا لَمْ تَكُنْ بِهِوَانِ
فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْهُوَانُ قَرِينَهَا فُبُعْدًا لَهَا مَا يَنْقُضِي لِأَوَانِ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَلْتَذُّ شَهْدًا بِعَلَقَمٍ أَبَتْ لَهَوَاتِي ذَاكَ وَالشَّفَتَانِ
يَدُ مَكَانًا مِنْ كَرِيمٍ يَصُونُنِي وَإِلَّا فِلي رِزْقٍ بِكُلِّ مَكَانِ

دقة موقف السائل : ومن عبقرياتهم في صعوبة موقف من يسأل لنفسه
شيئا ولا سيما إذا كان ممن يُكْرَمُونَ أَنْفُسَهُمْ :

قال سعيد بن العاص : موطنان لَا أَعْتَدِرُ مِنَ الْغِيِّ فِيهِمَا : إِذَا سَأَلْتُ
حَاجَةً لِنَفْسِي ، وَإِذَا كَلَّمْتُ جَاهِلًا ... وسار الفضلُ بن الرِّيع - الوزير كان - إلى
أبي عباد في نكبتِهِ يسأله حاجة ، فَأَرْتَجَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عِبَادَ : هَذَا
اللِّسَانُ خَدَمَتْ خَلِيفَتَيْنِ ! فَقَالَ الْفَضْلُ : إِنَّا تَوَوَدُّنَا أَنْ نُسْأَلَ لَا أَنْ
نُسْأَلَ ... وَكَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَتَلَجَّجَ فِي كَلَامِهِ ، فَقَالَ :
لَا تَكُنْ عَلَى الْإِخْطِلَاطِ ، فَإِنَّ مَعِيَ ذُلَّ الْحَاجَةِ وَمَعَكَ عِزُّ الْاسْتِغْنَاءِ ...

عقبرياتهم في آداب السؤال واستنجاح الحوائج

ولهم في السؤال وآدابه واستنجاح الحوائج ودستوره، تحاسنُ رأينا أن نُسلِّمَ بها، إتماماً لهذا الباب، فمن ذلك حَثُّهم على سؤال الشبان دون الشيوخ، والصباح دون القباح، والكريم الفقير دون الغني اللئيم. وهذا لعمري من حَذق الأرائل وتفطنهم إلى طبائع النفوس...

قال حكيم: طَلَبُ الحوائج عند الشُّبَّانِ أَسْهَلُ منها عند الشيوخ، ألا ترى أن يعقوبَ عليه السلام لما سأله بنوه أن يستغفر لهم قال: سوف أستغفر لكم ربِّي، وقال يوسف عليه السلام: لا تُزَيِّبَ عليكم اليوم... وفي الأثر: اطلبوا الحوائج إلى حَسَّانِ الوجوه^(١)... وسُئِلَ ابنُ عائشة عن هذا الحديث فقال: معناه: اطلبوها من الوجوه التي يَحْسُنُ بالمرءِ أن يَطْلُبَهَا منها... وقال البحتريُّ:

مَنْ حَسَّنَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَسَجَا يَأْهُ وَأَعْطَاهُ كُلَّ الْكُلْفَا

وقال السري الرفاء:

صَرَفْتُ عَنِ الْكَثِيرِ الْوَفْرِ طَرْفِي وَهَا أَنَا لِلْقَلِيلِ الْوَفْرِ رَاجٍ^(٢)

وَكَمْ مِنْ نُظْفَةٍ عَذُوبَتْ وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ بَحْرِ أَجَاجٍ^(٣)

وقالت امرأة من ولد حسان بن ثابت:

(١) في الجامع الصغير: اطلبوا الخير إلى حسان الوجوه

(٢) الوفّر: المال الكثير (٣) النظفة: الماء القليل الصافي يبقى في الدلو

أو القربة ونحوهما، وأجاج: ملح مُز

سَلِ الْخَيْرَ أَهْلَ الْخَيْرِ قَدَمًا وَلَا تَسَلْ

فَتَى ذَاقَ طَعْمَ الْعَيْشِ مُنْذُ قَرِيبٍ

وقال مسلم بن قتيبة : لا تَطْلُبَنَّ حاجتك إلى كذاب ، فإنه يُقَرِّبُهَا وهي بعيدٌ ، وَيَبْعِدُهَا وهي قريبٌ ^(١) ، ولا إلى أحقِّ فإنه يُريد أن يَنْفَعَكَ فيَضُرُّكَ ولا إلى رجلٍ له عِنْدَ مَنْ تَسْأَلُهُ الْحَاجَّةَ حَاجَّةٌ ، فإنه لا يُؤَثِّرُكَ على نَفْسِهِ وقال شاعر :

لَا تَطْلُبَنَّ إِلَى لَيْثِمٍ حَاجَةً وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ قَانِمًا كَالْقَاعِدِ

يَاخَادِعِ الْبُخْلَاءِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ هَيْهَاتَ تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ

وقال بعض الأدباء : عليك بذى الحَصْرِ الْبَيْكِيِّ ^(٢) ، وبذى الْحَيْمِ الرِّضِيِّ ^(٣)

فإن مثقالا من شدة الحياء والعِي ، أنفعُ في الحاجة من قطارٍ من لسانٍ سليلٍ وعَقْلٍ ذَكِيٍّ ، وعليك بالشَّهْمِ النَّدْبِ ^(٤) الذى إن عجز أيا سَك ، وإن عجز أطمعك ... وقال الفاروق رضى الله عنه : لا تَسْتَعِنْ على حاجتك إلا بالَّذِي يُحِبُّ نَجَاحَهَا لك ... وقال ابن عباس : لا تَسْأَلُنْ حَاجَةً بِاللَّيْلِ ، ولا تَسْأَلُنْ أَعْمَى ، فإن الحياء في العينين .

ومن آداب السؤال عندهم أن لا يُتجاوزَ الحدَّ فيه : قالوا : من سأل

(١) بعيد وقريب : يوصف بهما المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ومنه قوله تعالى «إن رحمة الله قريب من المحسنين»

(٢) الحصر : ضرب من العِي ، والبيكى : القليل الكلام

(٣) الحيم : الخلق والطبيعة والسجية والأصل ، قال :

وَمَنْ يَبْدَعُ مَا لَيْسَ مِنْ خَيْمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خَيْمُهَا

(٤) الشَّهْم : الذكى الفؤاد ، المتوقد النجد النافذ في الأمور ، والندب : الخفيف

في الحاجة

خوق قدره ، فقد أَسْتَوْجَبَ الرَّدَّ ، ومن لم يَرْجُ إلا ما هو مُسْتَحِقُّ له ، فإلى الرَّدِّ ... وقال الشاعر :

إِنَّكَ إِنْ كَلَفْتَنِي مَالِمَ أَطِقَ سَاءَكَ مَا سَرَّكَ مِنِّي مِنْ خُلُقٍ

وكانوا لا يرون بأسا بسؤال الملوك وسؤال الابن أباه : فقالوا : مسألة الرجل السلطان ، ومسألة الابن أباه ، لا تَنْقُصُهُ ولا تَشِينُهُ :

وَإِذَا ابْتُلِيتَ بِبَذَلٍ وَجْهَكَ سَائِلًا فَأَبْذُلْهُ لِلْمُتَكَرِّمِ الْفِضَالِ

وقال أبو جعفر المنصور لرجل أَسْلَمَ منه أمرا : سَلْ حاجتك فقال :

يُبْقِيكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قال : سَلْ ، فليس يمكنك ذلك في كل وقت ؛

فقال : ولم يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فوالله ، لا أَسْتَقْصِرُ عَنْكَ وَلَا أَرْهَبُ بِخُلُوكِ

وَلَا أَغْتَنِمُ مَالَكَ ، وَإِنْ سَأَلَكَ لَزِينَ وَإِنْ عَطَاكَ كَشَرَفٌ ، وما على أحد

بَذَلٌ وَجْهَهُ إِلَيْكَ نَقْصٌ وَلَا شَيْنٌ ، فَأَمْرٌ حَتَّى مُلِيَ فَوْهُ دُرًّا ... وقال العتّابي :

إِنْ طَلَبْتَ حَاجَةً إِلَى ذِي سُلْطَانٍ ، فَأَجَلْ فِي الطَّلَبِ إِلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ وَالْإِلْحَاحَ

عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْإِلْحَاحَ يَكْلِمُ عِرْضَكَ ، وَيُرِيْقُ مَاءَ وَجْهِكَ ، فَلَا تَأْخُذْ مِنْهُ

عَوَضًا لِمَا يَأْخُذُ مِنْكَ ، وَلَعَلَّ الْإِلْحَاحَ يَجْمَعُ عَلَيْكَ إِخْلَاقَ مَاءِ الْوَجْهِ وَحِرْمَانَ

النَّجَاحِ فَإِنَّهُ رُبَّمَا مَلَّ الْمَطْلُوبُ إِلَيْهِ حَتَّى يَسْتَحِثَّ بِالطَّالِبِ .

ومن قولهم في الحث على الحَذَقِ وَاللَّطَافَةِ فِي الْمَسْأَلَةِ : قال رجل لآخر :

لَوْ أَنَا مِتُّ مَا كُنْتَ تَفْعَلُ ؟ قال : كُنْتُ أَكْفُنُكَ وَأَدْفِنُكَ ، قال : فَاكْسُنِي

السَّاعَةَ بِمَا تُكْفِنُنِي بِهِ ، وَإِذَا مِتُّ فَأَذِقْنِي عُرْيَانًا ... وقال شاعر :

أَحْلُبُ لَبُونَكَ إِبْسَاسًا وَتَمْرِيمَةً لَا يَقْطَعُ الدَّرَّ إِلَّا عُنفٌ مُحْتَلِمُهُ

« اللبون : الناقة أو الشاة ذات اللبن ، والإبسّاس : أن يسمحَ صَرَعُ الناقة

يُسَكِّنُهَا لِتَدْرَّ ، ومثله التمرية ، والدَر : اللبن ، ... وسأل أعرابي عبد الملك بن مروان -

وكان بخيلا وكانوا يطلقون عليه : رَشَحَ الحجر - فقال له : سل الله ، فقال :
سألته فأحالني عليك ، فضحك منه وأعطاه .. وأتى رجل بعضَ الولاة ، وكان
صديقه ، فتشاعل عنه ، فترأى له يوما ، فقال : اُعْذِرْنِي فَإِنِّي مشغول ، فقال لولا
الشُّغْلُ مَا أَتَيْتُكَ ، لا بلَغْنِي اللهُ يومَ فراغِكَ . وفي هذا المعنى يقول أبو علي البصير :

لَا تُصَيِّرْ شُغْلَكَ اليَوْمَ مَ اعْتِذَارًا لِمَطَالِكَ

إِنَّمَا يُحَمَّدُ أَنْ تَفْرُغَ فِي وَقْتِ اشْتِغَالِكَ

لَوْ تَفَرَّغْتَ مِنَ الشُّغْلِ آتَوْنَا فِي الْمَسَالِكِ

وقال بعض الأدباء للصاحب بن عباد : إن جِرْذَانَ دارِي ^(١) يَمْشِينَ بالعِصَا
هَزَالًا ، فقال : بَشْرُهُنَّ بِمَجِيءِ الحِنْطَةِ ... وقَسَمَ بَعْضُهُمْ مَالًا بَيْنَ بَنِيهِ فقال له
عبد صغير : فَأَعْطِنِي أَوَّلًا ، فقال له : وَلِمَ ؟ قال : لِأَنَّ اللهَ تعالى يقول : المَالُ
والبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فبدأ بالمال ، وَأَنَا مَا لَكَ ، فَأَعْطَاهُ وَقَدَّمَهُ ... ودخل
محمد بن واسع على قتيبة بن مُسَلَم ، فقال له : إِنِّي أَتَيْتُكَ فِي حَاجَةٍ ، فَإِنْ شِئْتَ
قَضَيْتُهَا وَكُنَّا جَمِيعًا كَرِيمِينَ ، وَإِنْ شِئْتَ مَنَعْتُهَا وَكُنَّا جَمِيعًا لَثِيمِينَ . وقال ابن
عبد ربه صاحب العقد : أَرَادَ : إِنْ قَضَيْتُهَا كُنْتُ أَنْتَ كَرِيمًا بِقَضَائِهَا ، وَكُنْتُ
أَنَا كَرِيمًا بِسُؤَالِكَ إِيَّاهَا لِأَنِّي وَضَعْتُ طَلِبَتِي فِي مَوْضِعِهَا ، فَإِنْ لَمْ تَقْضِهَا
كُنْتُ أَنْتَ لَثِيمًا بِمَنَعِكَ ، وَكُنْتُ أَنَا لَثِيمًا بِسُوءِ اخْتِيَارِي لَكَ ، وَسَرَقَ حَبِيبُ
- أَبُو تَمَام - هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ :

عِيَّاشُ إِنَّكَ لِلْثَّيْمِ وَإِنِّي مُذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبِي لِلثَّيْمِ

وَمِنْ مُلَاحِظِ الْمُكْدِينَ وَوَصَايَاهُمْ : قِيلَ لِرَجُلٍ مُكْدٍ : مَتَى تَعْلَبُ الْكُدِيَّةَ
وَالسُّؤَالَ ؟ قَالَ : يَوْمَ وَلَدْتُ ، مُنِعْتُ الثَّدْيَ نِصْحَتَ ، وَبَكَيْتُ فَأُعْطِيتُ

الثدى، فسكت ... وقال رجل لآخر : قد وَضَعَ مِنْكَ سَوَأُكَ ؟ فقال : لقد سأل موسى والخضرُ عليهما السلام أهلَ قرية ، فأَبَوْا أن يُضيفوهما ، فوالله ما وضع هذا من نبي الله وعالمه ، فكيف يضع مني ! وقال بعض المُكِدِّينَ : مكتوبٌ على باب الجنة : مَنْ صَبَرَ عَبْرَ ... وقال آخر : كَلْبٌ طَائِفٌ ، خَيْرٌ مِنْ أَسَدٍ رَابِضٍ ، وقالوا : الهية خيبة ، وقال سَلْمُ الخاسر :
 من راقب الناس مات غمًا وفاز باللذة الجسورُ
 وقال أشجع السلي :

ليس للحاجات إلا مَنْ له وَجْهٌ وَقَاحٌ

وقال أبو تمام :

وَحُذِفُمْ بِالرُّقَى إِنَّ الْمَهَارَى يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الْخَدَاءِ

وقال ابن الرومي :

وإنَّ الأُمَّ لم تُرَضَّعْ صَبِيًّا مع الإشفاق لو سَكَتَ الغلامُ
 ومن قولهم في الحث على معاودة السؤال : قولُ عمر رضى الله عنه : إذا سَأَلْتُمُونَا حَاجَةً فَمَا وَدُونَا فِيهَا ، فإنما سميت القلوب قلوباً لتقلبها ... وقال عبد الملك بن مروان في خطبة له : لا يَمْنَعُنْ رَجُلًا سَأَلَ الْيَوْمَ شَيْئاً فَمَنَعْتُهُ ، أن يسأل غداً ؛ فإنَّ الأمورَ بيدَ الله لا يدي . وقال شاعرٌ :

لَا يُؤَيِّسُكَ مِنْ كَرِيمِ نَبْوَةٍ يَنْبُو الْفَتَى وَدَوَّ الْجَوَادِ الْخَضِرُ^(١)
 فَإِذَا تَبَا فَاسْتَبِقْهُ وَتَأَنَّهُ حَتَّى يَجِيَّ بَهَا الطَّبَاعُ الْكَرُمُ^(٢)

(١) النبوة : الجهوة والتباعد ويقال : نباعنه بصره ينبو : تجافى ولم ينظر إليه كأنه حقره . والخضر بالسكر : الجواد الكثير العطاء أو السيد الحرول

(٢) يقال : تأنيتك حتى لا أناة بي ، أى تنظرتك حتى لا انتظار بي ، والطباع كالغرار واحد طباع الإنسان أى الخليفة والسبعية التى طبع عليها قال الزجاجى الطباع واحد

وقالوا : إذا سألتَ كَرِماً حاجةً فدعه وسَومَ نفسه ^(١) فإنه لا يُفَكِّرُ
إلا في خير ، وإذا سألتَ لثيماً حاجةً فعاقصه ^(٢) ولا تدعه يتفكر
فيتَغَيَّرَ ، وقال بعضهم في ضد ذلك : إذا سألتَ لثيماً حاجةً فأجَلْهُ حتى يروض
نفسه ... « أى يعالج نفسه الكزة اللثيمة »

ولهم في الاعتذار عن سؤال اللثيم وأخذهم منه : قال أبو تمام :
مُحَذِّمٌ مَا أَتَاكَ مِنَ اللَّثَمَا مَ إِذَا نَأَى أَهْلُ الْكَرَمِ
فَالْأَسَدُ تَفْتَرِسُ الْكِلَا بَ إِذَا تَعَدَّرَتِ الْغَنَمُ

وقال المتنبي :

غَيْرَ اخْتِيَارٍ قَبْلْتُ بِرِّكَ بِي وَالْجَوْعُ يُرِضِي الْأَسْوَدَ بِالْجَيْفِ
وقال المهلبى الوزير :

مَا كُنْتُ إِلَّا كَلَّحْمٍ مَيِّتٍ دَعَا إِلَى أَكْلِهِ اضْطِرَارُ
ولأبى على البصير :

لَعَمْرُ أَيْكَ مَا نُسِبَ الْمَعْلَى إِلَى كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمُ
وَلَكِنَّ الْبِلَادَ إِذَا افْتَشَعَرَتْ وَصَوَّحَ نَبْتُهَا رُغْيَ الْهَشِيمِ

واقشعرت : قال الأزهرى : يقال : اقشعرت الأرض من المَحَلِّ - الجذب -
وفي الحديث : إن الأرض إذا لم ينزل عليها المطر اربدت واقشعرت : أى
تقبضت وتجمعت ، وصَوَّحَ نَبْتُهَا : يَبَسَ ،

ومن قولهم في التعريض بالسؤال : قال أمية بن أبى الصلت :
أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ

مذكر كالنجار - الأصل - (١) أى وما يريد ويتجه إليه

(٢) فعاقصه : فاسلك معه مسلكاً ملتويّاً بعِزَّة

إذا أثنى عليك المرأة يوماً كَفَّاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ
وقال ابن الرومي :

يَا مَنْ إِذَا التَّعْرِيزُ صَافَحَ نَفْسَهُ أَغْنَى الْعُقَاةَ بِهِ عَنِ التَّصْرِيحِ
وقال المتنبي :

أَقْلَ سَلَامِي حُبِّ مَا خَفَّ عَنْكُمْ وَأَسْكُتُ كَمَا لَا يَكُونُ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتُ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتِي بَيَانُ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
وقال أبو بكر الخوارزمي :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً فُلِقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ
فَإِذَا رَأَاكَ مُسْلِمًا عَرَفَ الَّذِي حَمَلَتْهُ فَسَكَانَةٌ مَلْزُومُ

المسئول تجاه السائل

قال شُرَيْحٌ^(١) : مَنْ سَأَلَ حَاجَةً فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ عَلَى الرَّقِّ ، فَإِنْ قَضَاهَا

(١) هو القاضي شريح بن الحارث ، استقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة وذكا. ومعرفة وعقل وإصابة ، وكان شاعراً محسناً وكان مزاحاً ، دخل عليه عددي بن أراطة فقال له : أين أنت أصلحك الله فقال : بينك وبين الحائط ، قال : استمع مني ، قال : قل أسمع ، قال : إني رجل من الشام ، قال : من مكان سحيق ، قال : تزوجت عندكم ، قال : بالرقاء والبنين قال : وأردت أن أرحلها ، قال : الرجل أحق بأهله ، قال : وشرطت لها دارها قال : الشرط أملك قال : فاحكم الآن بيننا ، قال : قد فعلت ، قال : فعلى من حكمت ؟ قال : على ابن أملك ، قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالتك ... ويُروى أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه دخل مع خصم له ذى إلى القاضي شريح هذا فقام له ، فقال على : هذا أول جورك ، ثم أسند ظهره إلى الجدار وقال : أما لو أن خصمى كان مسلماً جلست بجانبه ... وتزوج شريح امرأة من بني تميم تسمى زنبب فأنقم عليها شيئاً فضر بها ثم ندم وقال :

المسؤلُ استعبده بها ، وإن رَدَّه ، رجع حُرًّا ، وهما ذيلان ، هذا بذلُّ اليوم
وهذا بذلُّ السؤال . وقال أبو تمام :

ماماءُ كَفَّكَ - إن جادت وإن بَحَلَتْ من ماءٍ وَجَّهِي إذا أَفْنَيْتُهُ - عَوْضُ

وقالوا : العَجَبُ لمن يشتري العبيدَ بالآموال ولا يشتري الأحرارَ بالآوال ...
وسئل خالدُ بن يزيدَ : ما الجود ؟ قال : أن تُعْطِيَ مَنْ سَأَلَكَ ، فقال ابنه :
يَا أَبَتِ ، هذا هو الكَدُّ ، إنما الجودُ أن تُعْطِيَ مَنْ سَأَلَكَ ومن لم يَسْأَلْكَ ...
وقالوا : أهنأُ المعروفُ أعَجَلُهُ . وقال بعضُ الناس : إذا أوليتني نعمةً فَعَجَّلْها ،
فإن النفسَ مولى لعمَّةٍ بحُبِّ العاجلِ ، وإن الله تعالى قد أخبر عما في نفوسنا فقال :
كلا ، بل تُحِبُّونَ العاجلةَ ... ولزم بعضُ الحكماء بابَ بعضِ ملوك العجم دَهْرًا
فلم يَصِلْ إليه ، فتأطَّفَ للحاجِبِ في إيصالِ رُقعةٍ ، ففعل ، وكان فيها أربعة أسطر
السطر الأول : « الأمل والضرورة أقدمانى عليك »
والسطر الثاني : « والعُدْمُ لا يكون معه صَبْرٌ على المطالبة »
والسطر الثالث : « الانصراف بلا فائدة شمانة للأعداء ،
والسطر الرابع : « فإما تَعْمُ مُشِيرَةٌ ، وإما لا مُرِيحَةٌ ،
فلما قرأها وَقَعَ في كل سطرٍ زِهْ ؛ فَأَعْطِيَ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ مِثْقَالٍ فِضَّةً -
« زِهْ في لغة الفرس معناها : أحسنت ، ... ووقفت عجوزٌ على قيس بن سعد فقالت :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمْ فَتَلَّتْ يَمِينِي يَوْمَ أَضْرِبُ زَيْنَبَا
أَأَضْرِبُهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَتَقُ بِهِ فَمَا الْعَدْلُ مِنِّي ضَرْبُ مَنْ لَيْسَ مُذْنِبَا
فَزَيْنَبُ شَمْسُ وَالنِّسَاءُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ تُبْقِ مِنْهُنَّ كَوَكِبَا
توفى شريح سنة ٨٧ هـ وهو ابن مائة سنة .

أشكروا إليك فلة الجرذان : قال : ما أحسن هذه السكناية ؟ أملتوا بيدها خبزاً ولحماً
وسمناً وتمراً . وقد تقدم مثلها .

الاعتذار عن المسئول إن لم يعط

قال أبو نواس :

فإن توريتني منك الجميل فأهله وإلا فإني عاذر وشكور

وقال ابن الرومي :

وإن عاق القضاء نذاك عني فليست أراك في منعى مليا^(١)

وما عيشت إذا يجتاز أرضاً إلى أخرى بمعتد آثيا

وكتب أبو العيناء إلى ابن أبي دؤاد : سنا وأهلنا اضر ، وبضاعتنا المودة
والشكر ، فإن تعطينا فانت أهل لذلك ، وإن لم تعطينا فلسنا بمن يلزك في
الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذنهم يسخطون^(٢) وهناك
من لا يعذر ، رَوَوْا أن الحجاج لما دخل مكة قال لأهلها : أتيناكم وقد غاض
الماء لكثرة الزوائب ، فاعذرونا ، فقال رجل : لا عذر الله من عذرك ، وأنت
أمير المصيرين وابن عظيم القريتين^(٣) فقال : صدقت . واستقرض ما لا من
التجار فقرق فيهم ، وقال أبو تمام :

فلو حاردت شول عذرت لفاحها

ولكن حرمت اندر والضرع حافل^(٤)

(١) مليا : فاعلا ما يلام عليه (٢) اللز : العيب والوقوع في الناس . يشير الى

الآية الكريمة (٣) القريتان : مكة والطائف

(٤) حاردت الافة : قل لبها ، والشول جمع شائلة والشائلة من الإبل التي أتى عليها
من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبها ، واللحاق : جمع نفحة : الحامل والمراد : عذرتها

طلب الكثير والرضا بالقليل

قال أعرابيٌّ لخالد بن عبد الله من أبيات :

أخالدُ بين الحمد والاجر حاجتي فأثيها تأتي فأنت عمادُ

فقال له خالد : سَلْ ما بَدَأَكَ ، فقال : مائة ألف درهم ، قال : أسرفت ، قال :

ألف درهم ، قال خالد : ما أدري أَمِنْ إِسْرَافِكَ أَتَعْجَبُ أَمْ مِنْ حَظِّكَ ، فقال :

إني سألتُكَ على قدرِكَ ، فلما أبيتَ سألتُ على قدرِي ، فقال : إذن والله لا تَغْلِبَنِي

على معروفي ...

من يسأل حاجة يزعمها صغيرة

قال رجل لعمارة بن حمزة : أتيتُكَ في حَويِجَةٍ ، فقال : اطلب لها رُجِيلاً ...

وقال آخر مثل هذا فقال : دَعَاهَا حتَّى تَكْبُرَ ... وقال رجل لعبد الله بن عباس

رضي الله عنه : أتيتُكَ في حاجة صغيرة ، فقال : هايتها ، فالحرُّ لا يَصْغُرُ عن

كبير أخيه ولا يكْبُرُ عن صغيره ...

الحث على الصبر والآنأة في طلب الحاجات

قال الشاعر :

إن الأمورَ إذا اتسَدَّتْ مَسَالِكُهَا فالصبرُ يَفْتَحُ منها كلَّ ما ارْتَبَجَا^(١)

أخلاقُ بَذَى الصَّبْرِ أنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ وَمُذْمِنُ الْقَرَعِ الْأَبْوَابِ أَنْ يَلْجَا

لَا تَأْتِيَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةُ إِذَا اسْتَعْنَتْ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجَا

وقال أبو نواس :

هذه الشول والدر : اللبن ، وحافل : ملآن (١) كل ما ارتج : كل ما أغلق

وَلَا يُدْرِكُ الْحَاجَاتِ مِنْ حَيْثُ تُبْتَغَى

مِنَ النَّاسِ إِلَّا الْمَصْبِحُونَ عَلَى رَجُلٍ ^(١)

تَأَنَّ مَوَاعِيدَ الْكِرَامِ فُرُبَمَا

أَصَبَتْ مِنَ الْإِلْحَاحِ سَمَحًا عَلَى بُخْلِ

وَقَالَ الْقَطَامِيُّ :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْدَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ
وَالْعَرَبُ تَقُولُ : رَبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا ؛ يَرِيدُونَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَخْرُقُ
وَيَحْمُقُ فَيَعْجَلُ فِي حَاجَتِهِ فَتَأَخَّرُ أَوْ تَبْطُلُ بِذَلِكَ .

العطية لا تجدى في غير وقتها

قال البحرى :

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْغَيْثَ لَيْسَ بِنَافِعٍ لِلسَّرِّ مَا لَمْ يَأْتِ فِي إِبَانِهِ

وَقَالَ : * يُرْجَى الطَّيِّبُ لِسَاعَةِ الْأَوْصَابِ *

المسئول أهل لأن يسأل

قال عَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْقَحْلِ مِنَ قَصِيدَةِ يَخَاطَبُ الْحَارِثَ بْنَ أَبِي شَمْرٍ

الْغَسَانِي - وَكَانَ أَسْرَ أَخَاهُ شَأْسًا فَرَحَلَ إِلَيْهِ يَطْلُبُهُ مِنْهُ - :

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطَتْ بِنِعْمَةٍ فُحِّقَ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنْوبٌ ^(٢)

وَقَالَ أَحَدُ بَنِي أَبِي طَاهِرٍ - :

أَتَيْتُكَ لَمْ أَطْمَعْ إِلَى غَيْرِ مَطْمَعٍ كَرِيمٍ وَلَمْ أَفْزَعْ إِلَى غَيْرِ مَفْزَعٍ ^(٣)

(١) يقول : إنما يقضيها المشمرون القيام لا المتزملون النيام

(٢) خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما ، شبه بخابط الليل . والذنوب :

الحظ والنصيب (٣) فزع إليه : لجأ إليه

التأسف على الحرمان

قال البحرى من أبيات يمدح بها الفتح بن خاقان ويعاتبه :
 سحابٌ حَطَّائِي جَوْدُهُ وَهُوَ مُسْبِلٌ^(١) وَبَحْرٌ عَدَائِي قَيْضُهُ وَهُوَ مُفْعَمٌ^(٢)
 وَبَدْرٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
 وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلِمٌ^(٣)
 أَأَشْكُو نَدَاهُ بَعْدَ أَنْ وَسِعَ الْوَرَى
 وَمَا إِنَّ يَذُمُّ الْغَيْثَ إِلَّا مُدَمَّمٌ

تعريضهم بمن خيبهم

وَقَفَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى دَارٍ سَائِلًا : فَقَالَ لَهُ صَبِيٌّ مِنَ الدَّارِ : بورك فيك ، فقال
 له : قَبِّحَ اللَّهُ هَذَا النِّفَمَ ، فَقَدْ تَعَلَّمَ الشَّرَّ صَغِيرًا ... وَوَقَفَّ سَائِلٌ عَلَى قَوْمٍ
 فَقَالَ أَحَدُهُمْ : صَنَاعَتُنَا وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ السَّائِلُ : فَأَنَا قَوَّادٌ فَهَلْ أَنْتُمْ قَوَّادُونَ ؟

☆☆☆

يَرُونَ الْهَدَايَا وَالرِّشَى مَدْرَجَةً لِلنَّجَاحِ

كانت العرب تقول : هُنَّ صَانَعٌ لَمْ يَحْتَشِمِ مِنْ طَلَبِ الْحَاجَةِ «صانع : هادى» ...
 وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه : نِعَمَ الشَّيْءُ : الْهَدِيَّةُ أَمَامَ الْحَاجَةِ ... وَكَانَ
 سَفِيَانُ الثَّوْرِي يَقُولُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَزَوَّجَ فَاهْدِ إِلَى الْأُمِّ ... وَمِنْ أَمْنَاهُمْ :
 مَنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ يُعْطِي مَهْرًا ... «يريدون هُنَّ طَلَبُ حَاجَةٍ مُهِمَّةٌ بِذَلِكَ
 فِيهَا» ، وَقَالَ شَاعِرُهُمْ :

(١) الجود : المطر الغزير ، ومسبل : هاطل (٢) الرحل : المنزل ، ومفعم : مالىء

مَا مِنْ صَدِيقٍ وَإِنْ تَمَّتْ صِدَائَتُهُ

يَوْمًا بِأَجَحَّ فِي الْحَاجَاتِ مِنْ طَبَقِي

إِذَا تَقَنَّعَ بِالْمِنْذِيلِ مُنْطَلِقًا لَمْ يَخْشَ نَبْوَةَ بَوَابٍ وَلَا غَلَقِ

لَا تُكَذِّبَنَّ فَإِنَّ النَّاسَ مُذْخُلِقُوا لِرَغْبَةِ يُكْرِمُونَ النَّاسَ أَوْ فَرَقِ

«نبوة : جفوة ، و فرق : خوف » وقال رؤبة بن العجاج :

لَمَّا رَأَيْتُ الشُّفَعَاءَ بَلَدُوا وَسَأَلُوا أُمِيرَهُمْ فَأَنْكَدُوا

نَامَسْتُهُمْ بِرِشْوَةٍ فَأَفْرَدُوا وَسَهَّلَ اللَّهُ بِهَا مَا شَدَدُوا

« بَلَدُوا : يقال : بَلَدَ الرجل : إِذَا لَمْ يَتَّجِهْ لشيءٍ ، وَبَلَدَ : إِذَا تَنَكَّسَ فِي

الْعَمَلِ وَضَعَفَ حَتَّى فِي الْجَرَى . وَقَوْلُهُ : فَأَنْكَدُوا : أَيَّ وَجَدُوهُ عَمِيراً

مُقَالاً إِذْ لَمْ يَجِدُوا عِنْدَهُ إِلَّا نِزْراً قَلِيلاً ، وَقَوْلُهُ : نَامَسْتُهُمْ بِرِشْوَةٍ : يَقُولُ :

أَفْهَمْتُهُمْ أَنَّ يَلْجَأُوا إِلَى رِشْوَةِ الْأَمِيرِ وَيَحْتَالُوا بِذَلِكَ ، قَالَ فِي اللِّسَانِ : نَامَسَ

الرَّجُلُ صَاحِبَهُ : سَارَهُ ، وَمِنَ النَّامُوسِ ، وَهُوَ صَاحِبُ سَرِّ الرَّجُلِ - وَيُقَالُ لَهُ

الْيَوْمَ السَّكْرَتِيرُ الْخَاصُّ - وَقَوْلُهُ : فَأَفْرَدُوا : أَيَّ خَضَعُوا ، وَفِي الْحَدِيثِ : إِيَّاكُمْ

وَالْإِفْرَادَ ، قَالُوا : يَارَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا الْإِفْرَادُ ؟ قَالَ : الرَّجُلُ يَكُونُ مِنْكُمْ أَمِيرًا

أَوْ عَامِلًا فَيَأْتِيهِ الْمَسْكِينُ وَالْأَرْمَلَةُ فَيَقُولُ لَهُمْ : مَكَانَكُمْ ، وَيَأْتِيهِ الشَّرِيفُ

وَالْغَنِيُّ فَيُذْنِيهِ وَيَقُولُ : عَجَلُوا قِضَاءَ حَاجَتِهِ وَبِتْرُكِ الْآخَرُونَ مَقْرَدِينَ

«أَي سَاكِنِينَ ذُلًّا»

قطع العادة

ومن أحسن ما قيل في قطع العادة قول أعرابي - وقد سأل قوما ، فرق له

رجلٌ منهم فضمة إليه وأجرى له رزقا أياما ثم قطع عنه - فقال الأعرابي :

تَسَرَّى فَلِمَا حَاسِبَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ رَأَى أَنَّهُ لَا يَنْسْتَقِيمُ لَهُ السَّرُّ
 «تَسَرَّى : أى تكلف السَّرُّ ، والسَّرُّ : السخاء» وقال شاعر - قيل هو
 أبو الأسود الدؤلى ، وقيل أنس بن أبى أنس اللبني - :

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ أَمِيرِي مَا الَّذِي غَالَهُ فِي الْوَدِّ حَتَّى وَدَّعَهُ
 لَا تُنْهِنِي بَعْدَ إِذْ أَكْرَمْتَنِي وَشَدِيدُ عَادَةِ مُنْزَعَةٍ
 لَا يَكُنْ بَرُّكَ بَرًّا خُلْبًا إِنَّ خَيْرَ الْبَرِّ مَا الْغَيْثُ مَعَهُ

«البرق الخلب : الذى لا مطر معه» وفى الحديث : الخير عادة والشرُّ لجاجة . يقال :
 لَجَّ فِي الْأَمْرِ يَلُجُّ وَيَلْجُ لَجًّا وَلَجًّا : إذا تَمَادَى عَلَيْهِ وَأَبَى أَنْ يَنْصَرِفَ
 عَنْهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ وَأَنْ غَيْرَهُ خَيْرٌ مِنْهُ ، وتقول العرب فيمن اصطنع معروفًا ثم
 أَفْسَدَهُ بِالْمَنِّ أَوْ قَطَعَهُ حِينَ كَادَ يَسْتَمُّ : شَوَى أَخُوكَ حَتَّى إِذَا أَنْضَجَ رَمَدَ
 «رَمَدَ : أَلْقَى الشَّيْءَ فِي الرَّمَادِ»

شكوى العافين

من تفضيل بعضهم على بعض في العطاء
 قَدِمَ عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُتُّ مِنَ الْعَرَبِ ، فَأَعْطَاهُمْ
 وَفَضَّلَ رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : كُلُّ الْقَوْمِ عِيَالٌ عَلَيْهِ .
 وَأَعْطَى سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ يَرْمُ حُتَيْنِ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ ، وَكَانُوا أَشْرَافًا ،
 يَأْتِلُهُمْ وَيَتَأَلَّفُ بِهِمْ تَوْمَهُمْ ، فَأَعْطَى فِيمَنْ أَعْطَى ، عُيَيْنَةَ بْنِ حِضْنِ الْفَزَارِيِّ ،
 وَالْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسِ النَّمِيمِ ، أَعْطَى كُلًّا مِنْهُمَا مِائَةَ بَعِيرٍ ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ
 مِرْدَاسٍ أَبَا عَرَّ ، وَكَانَ كَذَلِكَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَكَانَ شَاعِرًا ، فَسَخِطَهَا وَقَالَ
 يِعَاتِبُ سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ :

أَتَجْعَلُ لِي نَهْيَ وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ بَيْنَ عُيَيْنَةٍ وَالْأَقْرَعِ ^(١)
وما كان حِصْنٌ وَلَا حَائِشٌ يَفُوقَانِ مِرْدَاسٍ فِي بَجْعٍ ^(٢)
وما كنتُ دونَ امرئٍ منهما وَمَنْ تَضَعُ اليَوْمَ لَا يُرْفَعُ
وقد كنتُ في الحربِ ذَا تَدْرَأٍ فلمْ أُعْطَ شَيْئًا وَلَمْ أُمْنَعْ ^(٣)
إِلَّا أَفَاقِلَ أُعْطِيَتْهَا عَدِيدَ قَوَائِمِهِ الْأَرْبَعِ ^(٤)
فلما أنشدناها بين يدي رسول الله قال لعلي بن أبي طالب : يا علي ، اقطع
عني لسانه ، فقبض على يده وخرج به فقال : أقطعُ أنت لسانِي يَا أَبَا الْحَسَنِ ؟
فقال : إني لَمُضٍ فيك ما أُمِرْتُ ، ثم مضى به إلى إيل الصدقة فقال خذ
ما أَحْبَبْتَ ...

بلاغه المكيدين

سأل أعرابيُّ فقال في مسأله : أَمَدُ جُعْتُ حَتَّى أَكَلْتُ الذَّوَى الْمُحْرَقَ ،
ولقد مَشَيْتُ حَتَّى اتَّعَلْتُ الدَّمَ ، وَحَتَّى سَقَطَ مِنْ رِجْلِي بَخْصُ لَحْمٍ ، وَحَتَّى تَمَنَّيْتُ
أَنْ وَجْهِي حِذَاءَ لِقَدَمِي ، فهل من أخ يرْحَمُنَا ؟ « البخص : اللحم يخالطه بياض
من فساد يحلّ به » ... ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال : رَحِمَ
الله أَمْرًا أَعْطَى مِنْ سَعَةٍ وَوَأَسَى مِنْ كِفَافٍ وَآثَرٍ مِنْ قُوْتٍ . فقال الحسن :

- (١) النهب : الغنيمة ، والعبيد بالتصغير اسم فرس العباس ، وكان يدعى فارس العبيد
(٢) مرداس مصروف ولكنه هنا ممنوع من الصرف للضرورة ، وانظر كتب النحاة ،
(٣) تدرأ : من الدرء وهو الدفع قال في الصحاح : وقولهم : السلطان ذو تدرأ ،
أي ذو عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وهذا اسم موضع للدفع ، وقوله : فلم
أعط شيئا إلخ أي لم أعط شيئا طائلا أو لم أعط شيئا استحقه وهو المائة : ولم أمنع
من الإعطاء لأنني أعطيت بعضا

(٤) الأفاقل : جمع أفيل بالغناء كالفضيل وزنا ومعنى

ما ترك أحداً منكم حتى سأله... وقال المازني : وقف علينا أعرابي فقال :
 رحم الله امرأة لم تمجج أذناه كلامي ، وقدم لنفسه معاذاً من سوء مقامى ،
 فإن البلاد مجذبة والحال مضعبة ^(١) والحياة زاجر يمنع من كلامكم ، والعدم
 عاذر يدعو إلى إخباركم ، والدعاء أحد الصدقتين ، فرحم الله امرأة أمرت بمخير
 ودعا بخير . فقال له رجل من القوم : بمن الرجل ؟ فقال : اللهم غفراً بمن
 لا تُضرك جهالته ، ولا تفعلك معرفته ، ذل الاكتساب ، يمنع من
 عز الانتساب .

حسن الخلق

وعقرياتهم فيه وفيما يتأشب إليه
 وهذا هو أحد لوني الإحسان إلى الناس ، وإن شئت قلت هو اللون
 الثالث من ألوان البر ، أعني حسن الخلق

تحضيضهم على حسن الخلق

قال الله عز وجل : واخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .
 وقال : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . « خذ العفو :
 فالعفو : السهل الميسر ، يقول سبحانه : احْتَمِلْ أَخْلَاقَ النَّاسِ واقْبَلْ مَا سَهَّلَ
 منها وتيسر ، ولا تستقص عليهم فيستقصى الله عليك ، دع ما فيه من العداوة
 والبغضاء قال سُريح :

خُذِ الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقْ فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

(١) يقال صعب الامر وأصعب : صار صعباً

فإني رأيتُ الحبَّ في الصَّدرِ والأذى

إذا اجتمعَا لم يلبثِ الحبُّ يذهبُ

وقوله سبحانه وتعالى : وأعرض عن الجاهلين : فالجهل هنا ما قابل العقل والجاهلون : الحمقى الأشرار السيئوا الأخلاق ، أمر الله نبيه بأن لا يمارى الجاهلين ولا يكافئهم بمثل أفعالهم »

وقال سيدنا رسول الله : إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم . ومن ذا قول حكيم وقد قيل له : هل من جودٍ يُتناول به الخلق ؟ فقال : نعم ، أن تحسن الخلق وتنوي الخير لكل أحد ... وقال صلوات الله عليه : ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم مني مجلس يوم القيامة ! : أحاسنكم أخلاقا المؤطون أكنافا ، الذين يالفون ويؤلفون ، ألا أخبركم بأبغضكم إلى وأبعدكم مني مجلس يوم القيامة ! : الثرثارون المتفهبون ... » قوله : أحاسنكم أخلاقا يريد : الأحاسن منكم على إرادة التفضيل لا الوصف ، وذلك أن العرب تقول في الوصف : رجلٌ حسنٌ ولم تقل رجلاً أحسن ، مع قولهم امرأة حسنة . ونظيره في عكسه : غلامٌ أمردٌ ولم يقولوا جاريةً مرداء . وقوله : المؤطون أكنافا : يريد دماثة الخلق ولين الجانب وأن ناحيته يتمكن فيها صاحبه غير مؤذى ولا ناب به موضعه . وأصل التوطئة : التذليل والتهديد يقال : فرائس وطىء إذا كان وثيراً - أى ليناً - والثرثارون : الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق ، وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء يقال : عينٌ ثرثارة وثرارة : إذا كانت كثيرة الماء ... والمتفهبون : بسبيل من « الثرثارون » ، وهو تأسيس له ، واشتقاقه من قولهم : فهِق الغدير يفهِق : إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد : يصفهم

بأنهم يوسعون أشداقهم ويملاونها بالكلام . قال أبو العباس المبرد بعد ما أورد ما أوردناه من تفسير هذا الحديث : وتصديق ما فسرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يُريد الصدق في المنطق والقصد وترك ما لا يحتاج إليه : قوله لجرير بن عبد الله البجلي : يا جرير : إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف ، وقال الله جل شأنه في الحث على لين الكلام : وقولوا للناس حسناً . وقال : فقولا له قولاً ليناً ، وقال : وقُلْ لها قولاً كريماً . وقال : فقلْ لهم قولاً ميسوراً ... وقالوا : من لانت كلمته وجبت محبته . وقالت جدة سفيان بن عيينة له :

بُنَى ابْنِ الْبَرِّ شَيْءٌ هَيْنٌ الْمَفْرُشُ اللَّيْنُ وَالطُّعْمُ

وَمَنْطِقٌ إِذَا نَطَقْتَ لَيْنٌ •

• قولها هَيْنٌ : فالعرب تقول : رَجُلٌ هَيْنٌ لَيْنٌ وَهَيْنٌ لَيْنٌ ، وفي الحديث : الْمُؤْمِنُونَ لَيْنُونَ كَالْجِلْدِ الْأَنْفِ إِنْ قُدَّتْهُ انْقَادَ وَإِنْ أَنْخَتَتْهُ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتِنَاخَ • جِلْدُ أَنْفٍ : أَيْ مَأْنُوفٌ ، أَيْ يَشْتَكِي أَنْفَهُ مِنْ خَشَاشٍ أَوْ بَرَّةٍ ^(١) أَوْ خِزَامَةٍ فِي أَنْفِهِ فَلَا يَمْتَنِعُ عَلَى قَائِدِهِ فِي شَيْءٍ لِلْوَجْعِ ، فَهُوَ ذَلُولٌ مُنْقَادٌ ، وَمَعْنَى الْمُؤْمِنُونَ كَالْجِلْدِ الْأَنْفِ : أَنَّهُمْ لَا يَرِيمُونَ التَّشَكِّيَّ ، أَيْ يُدِيمُونَ التَّشَكِّيَّ بِمَا بِهِمْ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا إِلَى سِوَاهُ . أَقُولُ : وَأَحْسَنُ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : الْجِلْدُ الْأَنْفِ : الذَّلِيلُ الْمُؤَاتَى الَّذِي يَأْتِيهِ مِنَ الزَّجْرِ وَمِنَ الضَّرْبِ وَيُعْطَى مَا عِنْدَهُ مِنَ السَّيْرِ عَفْوَاً سَهْلاً ، كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى زَجْرٍ وَلَا

(١) الخشاش : عويد من خشب يُدْخَلُ فِي عَظْمِ أَنْفِ الْبَعِيرِ يَشُدُّ بِهِ الزَّمامَ لِيَكُونَ أَسْرَعَ لَانْقِيَادِهِ . وَالْبَرَّةُ : مَا يَوْضَعُ فِي لَحْمِ أَنْفِ الْبَعِيرِ وَيَكُونُ مِنْ صَفَرٍ - نَحَاسٍ أَيْضاً - أَمَّا الْخِزَامَةُ فَهِيَ مِنْ شَعْرِ

عِتَاب ، وما لَزِمَهُ من حَقٍّ صَبَرَ عَلَيْهِ وقَامَ بِهِ ، وهذا تَفْسِيرٌ جَمِيلٌ ، وهو أَلِيْقٌ
يُكَلِّمُ سَيِّدَنَا رَسُوْلَ اللهِ ، . وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ خُحَاقِ النَّبِيِّ صَلَّى
اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : أَوْ مَا تَقْرَوْنَ الْقُرْآنَ : وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ... وَقَالُوا :
صَفَاءُ الْإِخْلَاقِ مِنْ نَقَاءِ الْأَعْرَاقِ . «الْأَعْرَاقُ جَمْعُ عِرْقٍ وَهُوَ الْأَصْلُ يُقَالُ رَجُلٌ
مُعْرِقٌ فِي الْحِسْبِ وَالْكَرَمِ قَالَتْ قُتَيْلَةُ بِنْتُ النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ أَوْ أُخْتُهُ :

أُحَمَّدٌ وَلَآنْتَ ضَنْءٌ نَجِيَّةٌ فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فُحْلٌ مُعْرِقٌ

أَيُّ عَرِيقِ النَّسَبِ أَصِيلٌ ، وَيَسْتَعْمَلُ فِي اللَّوْمِ أَيْضًا تَقُولُ : إِنْ فَلَانًا لُمُعْرِقٌ فِي
الْكَرَمِ ، وَمُعْرِقٌ فِي اللَّوْمِ . وَالضَنْءُ : الْوَلَدُ وَالْأَصْلُ وَالْمَعْدَنُ ، وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْخَلَائِقِ إِنَّهَا مُسَلَّةٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَأْتَمٌ

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ : ثَلَاثَةٌ مِنْ قَرِيْشٍ أَحْسَنُهَا أَخْلَاقًا وَأَصْبَحُهَا
وَجُوهًا وَأَشَدُّهَا حَيَاءً ، إِنْ حَدَّثُوكَ لَمْ يَكْذِبُوكَ ، وَإِنْ حَدَّثْتَهُمْ بِحَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ
لَمْ يَكْذِبُوكَ : أَبُو بَكْرٍ الصَّدِّيقُ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ، وَعُمَانُ بْنُ عُفَانَ
رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ...

وَفِي الْآثَرِ أَيْضًا : أَنْ حُسْنَ الْخُلُقِ وَحُسْنَ الْجَوَارِ يُعَمِّرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ
فِي الْأَعْمَارِ . وَفِي كِتَابِ لِلْهَنْدِ : مَنْ تَزَوَّدَ خَمْسًا بَلَّغَتْهُ وَآتَتْهُ : كَفُّ الْأَذَى ،
وَحُسْنَ الْخُلُقِ ، وَجُنَابَةُ الرَّيْبِ ، وَالنَّبِيلُ فِي الْعَمَلِ ، وَحُسْنَ الْأَدَبِ

نَهْيُهُمْ عَنِ سُوءِ الْخُلُقِ

وَقَالُوا : سُوءُ الْخُلُقِ يَنْسُدُ الْعَمَلَ كَمَا يُنْسَدُ الصَّبْرُ الْعَسَلُ « الصَّبْرُ هُوَ هَذَا
الدَّوَاءُ الْمُرُّ وَلَا يَسْكُنُ إِلَّا فِي ضَرُورَةِ الشَّعْرِ » وَفِي الْحَدِيثِ : مَنْ سَاءَ
خُلُقُهُ عَذَّبَ نَفْسَهُ ، وَقَالَ الْعَتَّابِيُّ :

وَكُنْتَ أَمْرًا لَوْ شِئْتَ أَنْ تَبْلُغَ الْمَنَى بَلَغْتَ بِأَذْنِي غَايَةٍ تَسْتَدِيمُهَا
 وَلَكِنْ فِطَامُ النَّفْسِ أَثْقَلُ تَحْمِيلًا مِنْ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ حِينَ تَرُومُهَا
 وَقَالَ عِقَالُ بْنُ شَبَّةَ : كُنْتُ رَدِيفَ أَبِي ، فَلَقِيَهُ جَرِيرٌ عَلَى بَغْلٍ ، خِيَاهُ
 أَبِي وَالطَّفَةُ ، فَلَمَّا مَضَى قُلْتُ : أَبْعَدُ مَا نَالَ لَنَا مَا قَالَ ! قَالَ : يَا بُنَيَّ ، أَنَا وَسَّعُ
 جُرْحِي ١ . وقال ابن الحنفية : قَدْ يُدْفَعُ بِاحْتِمَالِ مَكْرُوهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ ...
 وقال أبو الدرداء : إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وَجْهِهِ قَوْمٌ وَإِنْ قُلُوبُنَا لَتَقْلِيهِمْ ^(١)
 وقالوا : لَا مُدَارَاةَ لِلْخُلُقِ السَّيِّئِ الْقَبِيحِ ، كَالشَّجَرَةِ الْمُرَّةِ لَوْ طَلَيْتَ بِالْعَسَلِ
 لَمْ تُشْمَرْ إِلَّا مُرًّا ، وَكَذَنَّبَ الْكَلْبُ لَوْ أَدْخَلْتَهُ الْغَالِبُ سَنِينَ لَعَادَ إِلَى أَعْوَجَاجِهِ .
 وَمَنْ طُرِفَهُمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلَ بَعْضِهِمْ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ : لَقَدْ أُعْطِيَ مَالٌ
 يُعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : إِنْ لَمْ تَخْرُجْ مِنْ ذَلِكَ لِأَضْرِبَكَ ،
 فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنْ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ : وَلَوْ كُنْتُ فُظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفْضُوا
 مِنْ حَوْلِكَ وَأَنْتَ فُظٌّ وَنَحْنُ لَا نَنْفُضُ مِنْ حَوْلِكَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : خَطَبْتُ
 امْرَأَةً ، فَأَجَابَتْنِي فَقَالَتْ : إِنْ بَيَّيْتُ الْخُفَّاءَ ؛ فَقَالَتْ : أَسْوأُ خُلُقًا مِنْكَ مِنْ يُلِجُّكَ
 إِلَى سُوءِ الْخُلُقِ ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِرَجُلٍ بَيَّيْتُ الْخُفَّاءَ : إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَغْيِرَ
 خُلُقَكَ وَإِلَّا فَلْيَسْعُكَ مِنْ أَخْلَاقِنَا مَا ضَاقَ بِهِ ذَرْعُكَ ...

صعوبة تغيير الطباع والمتخلق يرجع إلى شيمته

قالوا في ذلك : تَأْبَى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ ؛ وَ: الْعَادَةُ طَبِيعَةٌ ثَانِيَةٌ ، وَ:
 ظَلَمْتُ امْرَأَةً كَلَّفْتَهُ غَيْرَ خُلُقِهِ . وَهَلْ كَانَتْ الْأَخْلَاقُ إِلَّا غَرَارِزًا
 وَ: كُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَرُشَّحُ

(١) نكشر في وجوه قوم : أى نبسم فى وجوههم وأصل الكشر : بدو الانسان
 يكون ذلك فى الضحك وغيره؛ وتقليهم : نبغضهم

و : * إِنَّ الْخُلُقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ *

وقال ذو الإصبع العذواني :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ خِيَمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيَمُهَا

« الخيم : السجية والطبيعة والأصل » وقال زهير بن أبي سُلي :

وَهُمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخَفَى دَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ
وقال أبو تمام :

وَالسِّيفُ مَا لَمْ يُلَفَّ فِيهِ صَقِيلٌ مِنْ سِنِّهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالِ

« السنخ : الأصل ، والصقال : الجلاء » وقال المتنبي :

وَكُلُّ يَرَى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَلَكِنْ طَبَعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدُ
وقال :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَقَى أَكَانَ سَخَاءً مَا أُنِيَ أَمْ تَسَاخِيَا

مداراة الناس

قال النظم^(١) : مَا يَسُرُّنِي تَرْكُ الْمُدَارَاةِ وَلِيْ حُرْمُ النِّعَمِ ، فَقِيلَ لَهُ : وَلِمَ ؟

قال : لِأَنَّ الْأَمْرَ إِذَا غَشِيَكَ فَشَخَصَتْ لَهُ أُرْدَاكَ ، وَإِذَا طَاطَأَتْ لَهُ
تَخَطَّاهُ... وقال شاعر :

وَأَنْزَلَنِي طُولُ النُّوَى دَارَ غُرْبَةٍ إِذَا شِئْتُ لَا قَيْتُ امْرَأَةً لَا أَشَاكِلُهُ

خَافَمَتُهُ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أَعَايِلُهُ

وقال بشار بن برد :

وَمَا أَنَا إِلَّا كَالزَّيْمَانِ إِذَا صَحَّاحَا صَحَّوْتُ وَإِنْ مَاقَ الزَّمَانِ أَمُوقُ

« ماق يموق : موقا وموقا وُوقا واستمق ، كل أولئك : حَقَقَ فِي

(١) هو إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ وأحد كبار المعتزلة .

غباوة، ويقال : فلان أحق مائق : والعرب تقول : أنت متق وأنا متق، أى أنت ممتلئ غضبا وأنا سيئ الخلق، فلا تنفق، وقال معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه : لو كان بينى وبين الناس شجرة ما انقطعت، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها، وإذا أرسلوها جذبتها، وهكذا كان معاوية نبي الحلم والأناة والكياسة والرياسة والسياسة .

من حسن خلقه وخلقه ومن اختلف خلقه وخلقه

قال ابن الرومي :

كلُّ الحلال التي فيكم محاسنكم تشابهت فيكم الأخلاقُ والحِلَقُ
 كأنكم شجرُ الأثرَجِّ طاب معاً خَمَلًا ونورًا وطاب العودُ والورقُ
 « الأثرَجِّ والشَّرْج : ثمر من فصيلة الليمون ويسميه أهل الشام الكبَّاد، والحل بفتح الحاء - والكسر لغة - ثمر الشجرة ؛ ومن دقَّتْ هذه اللغة الكريمة أنها تفرق بين الحِمْل الذى يحمل على ظهر أو رأس، وبين الحَمْل الذى يحمل فى البطن من الأولاد فى جميع الحيوانات، فالأول يكسرون حاءه، والآخر يفتحون حاءه، قائلين : ما كان لازما للشئ فهو حَمْل وما كان بائنا فهو حِمْل وأما حَمْل الشجرة فلما كان شديدا بحمل المرأة لاتصاله فتحو حاءه ولم كان يُشبه حَمْل الشئ على الرأس لبروزه من جهة ولأنه ليس مستبطنا كحَمْل المرأة من جهة أخرى كسروا حاءه ؛ والنور بفتح النون : الزهر، وفى الأثر : ما أحسن الله حَقَّ أحدٍ وُخِّلَقه فأطعمه النار... ووصف بعضهم رجلا فقال : يقرى العينَ جمالا والأذنَ بياناً^(١)... وقال قتادة :^(٢) ما بعث الله نبيا إلا حسنَ

(١) يقرى يريد : يطعم، ولك أن تضع مكان يقرى : يفترق، من قولهم فى الحسناء إنما تغرق العين أى لاتدعها تنظر إلى غيرها جمالا (٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة

الخُلُق حَسَنَ الْوَجْهِ ... وقال الفلاسفة : قَلَّ صُورَةُ حَسَنَةٍ تَتَّبِعُهَا نَفْسٌ رَدِيئَةٌ .
 وقال جالينوس : ينبغي الرجل أن يَنْظُرَ إلى وجهه في المِرْآةِ ، فإن كان
 حَسَنَ الْوَجْهِ جَعَلَ عَنَابَتَهُ أَنْ يُضَمَّ إِلَى جَمَالِ وَجْهِهِ كَمَا لَخُلُقِهِ وَكَمَا لِنَفْسِهِ ،
 وإن رأى صورة سَمِيحَةٍ تَحَرَّزَ مِنْ أَنْ يَكُونَ ذَمِيمَ الْخُلُقِ ذَمِيمَ الْخُلُقِ ...
 ونظر فيلسوف إلى غلام حَسَنِ الْوَجْهِ يتعلم العلم فقال : أَحَسَنْتَ ، إِذْ قَرَنْتَ
 بِحُسْنِ خُلُقِكَ حُسْنَ خُلُقِكَ ... ونظر فيلسوف إلى رجل حسن الوجه خبيث
 النَّفْسِ فقال : بَيْتٌ حَسَنٌ وَفِيهِ سَاكِنٌ نَذْلٌ ... ورأى آخرُ شابا جميلا فقال :
 سَلَبْتَ حَاسِنُ وَجْهِكَ فُضَائِلَ نَفْسِكَ ... وقالوا :

فَلَا تَجْعَلِ الْحُسْنَ الدَّلِيلَ عَلَى الْفَقْرِ فَمَا كُلُّ مُصْقُولٍ الْحَدِيدَ يَمَانِ
 وَ : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْلُفُ طَعْمَهُ

وإن كان لَوْنُ الْمَاءِ فِي الْعَيْنِ صَافِيًا ^(١)

واستعرض المأمون الجُندَ فَرَّ بِهِ رَجُلٌ ذَمِيمٌ ، فَاسْتَنْطَقَهُ ، فَرَأَاهُ الْكَنَّ ،
 فَأَمَرَ بِإِسْقَاطِهِ ، وَقَالَ : إِنَّ الرُّوحَ إِذَا كَانَتْ ظَاهِرَةً كَانَتْ وَسَامَةً ، وَإِذَا كَانَتْ بَاطِنَةً
 كَانَتْ فَصَاحَةً ، وَأَرَاهُ لَا ظَاهَرَ لَهُ وَلَا بَاطِنَ ...

«وبعد» فسيمر بك كثير من عبقرياتهم فيما يتصل بهذه المعاني ويمت إليها بسبب
 واصل ، في باب الطبائع ... وباب الصداقة والصديق ... وباب عبقرياتهم
 في معاني شتى ...

التقوى

وهالك اللون الأخير من ألوان البر ، ولقد أسمعناك فيما أسلفنا أن التقوى

(اللازمة كان من كبار علماء التابعين ولد سنة ٦٠ وتوفي سنة ١١٨ هـ)

(١) خلف الماء واللبن والطعام من باب دخل : إذا تغير طعمه أو ريحه

هى عماد البر وقوامه، على جميع ألوانه، أى أنه مادام هناك تقوى بمعناها الصحيح كان هناك صلة الرحيم، وكان هناك الإحسان، وكان هناك مكارم الأخلاق، وكان هناك الخير كله والبر فى جميع ما يشتمل عليه وينتظمه، ولنورد عليك بادية ذى بدء قولهم فى التقوى والمراد بها، ثم نردف ذلك بعقرياتهم فى التقوى وما يتأشب إليها... ويجرى منها على عرق...

معنى التقوى

التقوى فى اللغة من الاتقاء، بمعنى اتخاذ الوقاية، وفى اصطلاحهم: صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك، وقال أبو البقاء فى كلياته: التقوى - على ما قاله على رضى الله عنه - ترك المعصية وترك الاعتراض بالطاعة، وهى التى تحصل بها الوقاية من النار والفوز بدار القرار، وغاية النقي البراءة من كل شئ سوى الله، ومبدؤها اتقاء الشرك، وأوسطها انقاء الحرام، وغايتها منتهى الطاعات، قال: وقد تسمى التقوى خوفاً وخشية... أقول:

فإن لا يَكُنْها أو تَكُنْها فإنه أخوها غَدَتْهُ أمُّه بِلَبائِها^(١)

وقد عقد الإمام أبو حامد الغزالي للخوف كتاباً فى كتابه الإحياء جاء فيه: إن التقوى والورع أسام اشتقت من معان شرطها الخوف، فإن خلت من الخوف لم تُسم بهذه الاسامى... أقول: ومن أروع ما قيل فى الخوف قوله تعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء... أقول: وإذن يكون: كلما ازداد المرء علماً بالله سبحانه ازداد منه خوفاً، كما جاء فى الأثر: أعلمكم بالله أشدكم له

(١) لآبى الاسود الدؤلى فى نبيذ التمر، واللبن بكسر اللام، يقال: هو أخوه لبان أمه ولا يقال لبين أمه، إنما اللبن: الذى يشرب من ناقة أو شاة أو غيرهما من البهائم.

خشية... ومن كان من العلماء لا يخشى الله ولا يرأبُهُ في سائر أحواله، فليس من العلم بالله في كثير ولا قليل... وما أجل ما يقول عبد الله بن همام السلولي^(١) في وصف هذا الصنف من العلماء:

إِذَا تَقَبَّضُوا لِلْقَوْلِ قَالُوا فَأَحْسِنُوا وَلَكِنْ حُسْنَ الْقَوْلِ خَالَفَهُ الْفِعْلُ
وَذُكُّوا أَلْسَانُ الدُّنْيَا وَهُمْ يَرَضُّونَهَا أَقَارِيقَ حَتَّى مَا يَدِرُّ لَهَا تُعَلُّ
« قوله : إذا نصبوا الخ يريد : إذا تقبضوا أنفسهم للقول وأعدوها له ،
والأصل في التَّصَبُّبِ : أن يقوم رافعاً رأسه ؛ ورَضَعَ بَرَضٍ كَضَرَبٍ يَضْرِبُ
في لغة قيس ، وكَسَمِعَ يَسْمَعُ في لغة أهل الحجاز ، وقوله : يرضعونها : قرأ

(١) من التابعين ، وعداده في أهل الكوفة ، ويثناه المذكوران من آيات له قالها
للنعمان بن بشير الأنصاري عامل معاوية على الكوفة ، وكان معاوية أمر لاهل
الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم فأبى النعمان أن ينفذها لم فقال عبداه :

زِيَادَتُنَا نِعْمَانُ لَا تَحْزَمُنَا خَفِ اللَّهُ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَتْلُو
فَإِنَّكَ قَدْ حُمِلْتَ مِنَّا أَمَانَةً بِمَا عَجَزْتَ عَنْ الصَّلَاحَةِ الْبُزْلُ
وَأَنْ يَكُ بَابُ الشَّعْرِ يُخْسِنُ فَتَحَهُ فَلَا يَكُ بَابُ الْخَيْرِ مِنْكَ لَهُ قُفْلُ
فَقَدْ زِلْتَ سُلْطَانًا عَظِيمًا فَلَا يَكُنْ لِغَيْرِكَ جَمَاتُ النَّدَى وَلَكَ الْبُخْلُ
وَأَنْتَ امْرُؤٌ حُلُوُ الْأَسَانِ بَلِغُهُ فَا بِالْهُ عِنْدَ الزَّيَادَةِ لَا يَحْلُو
وَقَبْلَكَ قَدْ كَانُوا عَلَيْنَا أَيْمَةً بِهِمْهُمْ تَقْوِيمُنَا وَمُمْ عَصَلُ

والصلاحة : الصلاب المسانعة وفي الحديث : عرضت الأمانة على الجبال الصم الصلاخم
وأصل الصلخم : البعير الجسم الشديد الماضي ، والبزل : جمع بازل ، ويقال رجل بازل
على التشبيه بالبعير ، يعنون بذلك كمال عقله وتجربته وانكسار قوته . وجات : كثيرات ،
وقوله : كانوا علينا أئمة فائمة فاعل كانوا وهذا على لغة أكلوني البراغيث وإذا أرجعت
الضمير في كانوا إلى المذكورين في البيت الثاني فتكون أئمة خبر كانوا ، وعصل : فالعصل
الاعوجاج وكل معوج فيه صلابة : أعصل .

بكسر الضاد وفتحها؛ وأفارق جمع أفراق جمع فيقه بكسر الفاء ، وهو اسم للّبن الذي يجتمع بين الحلبتين ، يريد : أنهم يرضعونها ثم يتركونها مقدار ما يجتمع اللبن فيرضعونها ، وهكذا ، والثعل لا يدُرُّ من اللبن شيئاً ، يصفُّهم بأنهم صغير من أخلاف الناقة وضرع الشاة لا يدُرُّ من اللبن شيئاً ، يصفُّهم بأنهم أحرص الناس على طلب المال يستنزفونه من خزائنه حتى لم يبق منه شيء ، وإنما ذكر الثعل للبالغة في الارتضاع ، والثعل لا يدُرُّ ، وهي مبالغة حسنة في معنى الاستئصال والنقاد ،



ومما جاء في الخوف أيضاً قوله سبحانه : وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، وقوله جل شأنه : وخافون إن كنتم مؤمنين ، وقوله : وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، وقوله تعالى : إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ؛ وقال عز وتقدس : واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه... قال سفيان بن عيينة : لو لم يُنزل الله تعالى علينا إلا هذه الآية لكان قد أعذر ، أعذر : بلغ أقصى الغاية في العذر ، أى صار معذوراً عندك إذ حذرك أن لا تحذره وهو يعلم ما في أنفسنا ؛ ومن هذا المثل : من أنذر فقد أعذر ، ومما يؤثر في باب الخوف قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله .

الحكمة

وهذا الحديث الشريف - على وضوحه وجماله وإشراقه وإنارته، وعلى أنه مما كنا نستظهره إِبَّانَ الحداثة، إذ يلغنوننا إياه أوائل التعليم في المكاتب لابدّ من التبسط في القول عليه . قال صاحب القاموس : الحكمة تأتي بمعنى العدل ^(١) والعلم ^(٢) والحلم ^(٣) والثبوت ^(٤) والقرآن والإنجيل ^(٥) ووضع الشيء في موضعه وصواب الأمر وسداده ، وقال أبو البقاء في كلياته - بعد أن أورد ما قال صاحب القاموس - : والحكمة في عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية ، باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة الثابتة على الأفعال الفاضلة قدر طاقتها ، قال : وقال بعضهم : الحكمة هي : معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة ، وهي العلم النافع المُعَبَّرُ عنه بمعرفة مالها وما عليها ، المُشار إليه بقوله تعالى : ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أُوتِيَ خيرا كثيرا . وإفراطها التجرّبة ^(٦) وهي استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالتشابهات ^(٧) ، وعلى وجه لا ينبغي ك مخالفة

(١) ضد الجور ، فلا يميل بصاحبه الهوى حتى يجور في الحكم

(٢) أى العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها

(٣) هو ضبط النفس عندهيجان الغضب (٤) فالحكمة في قوله تعالى : ويعلمه الكتاب والحكمة وقوله : وآتاه الله الملك والحكمة وقوله : وآتيناها الحكمة : بمعنى النبوة والرسالة ، كما أنها تأتي بمعنى القرآن والإنجيل ، لتضمن كل منهما الحكمة في لونها - العلمية والعملية .

(٥) يقال في اللغة : رجلٌ جربز : خب خداع خيث منكر والظاهر أن الجربة والجربز والقربز معربات (٦) قال صاحب اللسان - بعد أن أورد كلاما كثيرا في معنى التشابه من القرآن وفي الحديث - في صفة القرآن : آمنوا بمشابهه واعملوا بمحكمه :

الشرائع؛ وتغريطها : الغباوة التي هي : تعطيل القوة الفكرية والوقوف عن اكتساب العلم ... انتهى .

« وبعد » إن المُستَقْصَى لكل ما أوردوه من معاني هذه الكلمة - الحكمة - يرجع إلى إحكام الشيء ، أى إتقانه ، كيلا يتسرب إليه خللٌ أو فسادٌ ، وكى يبلغ ذروة الكمال جُهدَ الاستطاعة ، حتى قيل لكل من يُحسن دقائق الصناعات وَيُتْقِنُهَا : حكيم ، ومن ثم يقال للعالم العامل بعلمه : حكيم ، والرجل العاقل الْمُهْتَذِبُ الْمُؤَوَّق : حكيم ، وللقاضى العادل فى أحكامه : حكيم ، وللرجل المجرب الذى حَسَنَته التجارب وَوَقَّفَته حتى لا يصدر عنه إلا كلُّ ما هو سَدَاد : حكيم ، ويقال للمواعظ والأمثال التى يَنْتَفِعُ الناس بها : حكمة ، ولكل كلام نافع يَنْمَعُ من الجهل والسَّفَه : حكمة ، ومن ذا تسمية القرآن والإنجيل وسائر الكتب المنزلة ، وكل ما يَحْذَرُ على حَذْوِها ، مما يَضمُنُ مراعى وآداباً وأخلاقاً فاضلة : حكمة ، إذ كل أولئك يَرْتَدُّ إلى معنى الإِتْقَانِ والتوثيق والإصابة والسَّدَاد ... وإذن يكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله : أس الحكمة وقواها : الخوف منه سبحانه ، لأن الحكمة من شأنها أن تَمْنَعِ النفسَ عن كل ما تُهِنُها عنه ، ولا يَحْدِرُ المرء على العمل بها إلا الخوف منه ، عز وتقدس ، ومتى كان هذا الخوف شعاره حاسب نفسه على كل خطرة ونظرة ولذة ؛ وبذلك تكون مخافة الله آكد أسباب النجاة ولا تَنِمُ الحكمة إلا بها ...



المتشابه : ما لم يتلق معناه من لفظه ، وهو على ضربين : أحدهما إذا رَدَّ إلى الحكم عرف معناه والآخر ، ما لا سبيل إلى معرفة حقيقته ، فالمتبع له متبع للفتنة لأنه لا يكاد ينتهى إلى شيء تسكن نفسه إليه « راجع اللسان مادة شبه ».

هذا، ويُعجبني من الشعر في باب الخوف من الله قول محمود النوراني^(١):

يَا نَاطِرًا يَرْنُو بَعِيْنِي رَافِدٍ وَمُشَاهِدًا لِأَمْرٍ غَيْرِ مُشَاهِدٍ^(٢)
مَتَيْتَ نَفْسَكَ ضَلَّةً وَأَبْجَتْهَا طُرُقَ الرَّجَاءِ وَهَنْ غَيْرُ قَوَاصِدٍ^(٣)
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي دَرَكَ الْجِنَانِ بِهَا وَفُوزَ الْعَابِدِ^(٤)
وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

وقال الحسن البصري: إن خوفك حتى تلقى الآمن، خير من أمنك حتى تلقى الخوف... وقال: ينبغي أن يكون الخوف أغلب على الرجاء، فإن الرجاء إذا غلب الخوف فسد القلب... وقال بعضهم: قلت لسفيان: بلغني في قول الله تعالى: (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) أنه الذي يلقي ربه وليس فيه أحد غيره، فبكي وقال: مسمعت منذ ثلاثين سنة أحسن من هذا التفسير... وقالوا: من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء... وقال الفضيل بن عياض: إني لَأَسْتَحْيِي من الله أن أقول تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، ولو تَوَكَّلْتُ عَلَيْهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ، مَا خِفتُ وَلَا رَجَوْتُ غَيْرَهُ.

«وأما بعد»، فهو معلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانه خلق الإنسان وهو يعلم مَاتُوْا سُوْسَ بِهِ نَفْسُهُ، وهو أقرب إليه من جبل الوريد^(٥) مَا يَفِظُ من قول إلا لديه رقيب عتيد^(٦)، وإنَّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين

(١) هو محمود بن الحسن الوزاق البغدادي مولى بني زهرة يكنى أبا حسن، شاعر كثير الشعر جيده، وبعثته في الحكم والمواعظ والزهد؛ ترجم له صاحب فوات الوفيات.

(٢) برنو: ينظر (٣) غير قراصد، يريد: وهي حائرة غير مستقيمة

(٤) درك: اسم من الإدراك

(٥) جبل الوريد: عرق في العنق (٦) عتيد: حاضر

يعلمون ما تفعلون^(١) :

إِنْ مَنْ يَرْكَبُ الْفَوَاحِشَ سِرًّا حِينَ يَخْلُو بِسِرِّهِ غَيْرُ خَالٍ
كَيْفَ يَخْلُو وَعِنْدَهُ كَاتِبَاهُ شَاهِدَاهُ، وَرَبُّهُ ذُو الْجَلَالِ^(٢)

وكذلك هو معلوم ، أن الناس قَوَارِي الله في أرضه^(٣) ، أى أن الناس ولا سيما الصالحون منهم - شهودُ الله في أرضه - لأنهم يتَّبَعُ بعضهم أحوالَ بعض ، فإذا شَهِدُوا لإنسان بخير أو بِشِرٍّ فقد أَوْجَبَ^(٤) ... وبعبارة أخرى : إن على كلِّ إنسانٍ رُقْبَاءَ هُمْ لَهُ بِالْمِرْصَادِ ، يُزَوِّنُ عَلَيْهِ^(٥) ، وَيَجْعَلُونَ بِالْهَمِّ إِلَيْهِ ، وَلَا تَكَادُ تَخْفَى عَلَيْهِمْ خَلِيقَةٌ لَدَيْهِ :

وَهُمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَالِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ ، تَعْلَمُ
أَلَيْسَ فِي نَفْسِ كُلِّ إِنْسَانٍ قَبَسٌ مِنْ نَوْرِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ نَوْرُ السَّمَرَاتِ
وَالْأَرْضِ ؟ وَالنَّاسُ بِهَذَا النُّورِ - وَلَا سِيَّمَا الصَّالِحُونَ مِنْهُمْ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَبْدُو
فِيهِمْ هَذَا النُّورُ خَالِصاً غَيْرَ شَوْبٍ بَرَيْنٍ وَطَبَعٍ وَغَيْمٍ - يَرَوْنَ بَعْضُهُمْ مِنْ
بَعْضٍ مَا قَدْ يَتَوَقَّعُ الْجَاهِلُونَ أَنَّهُ لَا يُرَى ، فَكَأَنَّ النَّاسَ لَذَلِكَ شُهُودُ اللَّهِ فِي

(١) كل هذه آيات كريمة مقتبسة من القرآن الكريم (٢) هذان اليتان لنا بعة بنى شيان واسمه عبد الله بن المخارق بن سليمان ، شاعر بدوى كان يفد إلى ملوك بنى أمية بالشام وأكثر من مدح منهم الوليد بن يزيد (٣) حديث شريف ، وقوارى : أخذ من أن الناس يقررون الناس ، أى يتبعونهم فيظفرون إلى أعمالهم ، وقال الزخشرى : المسلمون قوارى الله فى الأرض ، أى أمنائوه وشهدائوه الميامين ، شهبوا بالقوارى من الطير وهى الخضر التى يتبعون بها

(٤) يقال : أوجب الرجل : إذا عمل عملاً يوجب له الجنة أو النار ، والموجبة : الكلمة أو الفعل الذى يوجب لقائلها الجنة أو النار

(٥) زناً عليه : إذا ضيق عليه ، وعامة المصريين يستعملون اليوم هذا الحرف بمعناه الصحيح

الأرض ، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر ، فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وكلٌّ يجزى بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذا كله حقٌّ لاسبيل إلى الإلحاد فيه ... وشيء آخر ، وهو أن من كان شعاره خوف الله في السرِّ والعلَن وحسنت سيرته ، رشَد وحسنت سيرته ، ومن عرَاه الله من هذا الشعار وساءت سيرته ، غيَّ وساءت سيرته . وجلة القول : أن خوف الله وما يستتبعه من قلة الاكتراث لما سواه من الخلق في سبيل الحق ، مما يورث صاحبه ما يطلو قرن عليه اليوم « الشجاعة الأدبية » فضلاً عن الجرأة والإقدام وسائر الخلال الكريمة النادرة . نخوف الله كما ترى أس من أسس الأخلاق ، وهذا مصداق الحديث الشريف ، رأس الحكمة مخافة الله ، ...

هذا ، وقد يُظنُّ ظان أن مخافة الله مغزاها الخوف من عقابه والطمع في ثوابه ، فمن عمل صالحاً فكى يُثاب ويُجزى الجزاء الأوفى ، ومن أئتم فلكى ينجو من عذاب النار ، وهذا كتمرى ، وإن عُدَّ خوفاً ، بيد أنه أذننى درجات الخوف ، وهو خوف العامة وأشباه العامة . قال بعض الحكماء : إني لأستحي من ربى أن أعبيده رجاء الجنة فأكون كالاجير ، أو خوف النار فأكون كعبد السوء ، إن خاف عَمِلَ وإن لم يخف لم يعمل ، لكن يستخرج منى حب ربى مالا يستخرجه غيره .. وقال بعضهم : من عبد الله بعوض فهو لثيم . وقال بعض الصوفية : لو لم يكن لله ثواب يُرجى ولا عقاب يُخشى لكان أهلاً أن لا يعصى ، ويُذكر فلا يُذسى ، بلا رغب في ثواب ولا رهب من عقاب ، لكن لِحبه ، وهو أعلى الدرجات ، أما تسمع قول موسى عليه السلام : وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ، أقول : . إذن فأفضل الأعمال ما كان

للحقِّ والخير والجمال والمثل الأعلى في ذات الله العليّ الأقدس الذي له
الاسماء الحسنى ^(١).

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِلْأَجْلِ ثَوَائِهَا ^(٢)
أما الثواب والعقاب فالله سبحانه وما يُعَذِّبُ عبده من ذلك، وتحقيق بالعباد أن
يُحَسِّنَ ظَنَّهُ بربه ويرجو لديه رحمته التي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وليكن كما قال محمد بن
وُهَيْب :

وَإِنِّي لَأَرْجُو اللَّهَ حَتَّى كَأَنِّي أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللَّهُ صَانِعٌ
وَسِيمٌ عَلَيْكَ قَرِيبًا طَرَفٌ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي الرَّجَاءِ.

عقرياتهم في التقوى

ولناخذ الآن في عقرياتهم في التقوى : قال الله سبحانه : « إِن أكرمكم عند
الله اتقاكم » قال الإمام البيضاوي في تفسيره : فإن التقوى بها تكمل النفوس
وتفاضل الأشخاص ، فمن أراد شرفاً فليلتزمه فيها ، كما قال عليه الصلاة والسلام :
مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَامٌ فَلْيَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقُ مِنْهُ
بِمَا فِي يَدَيْهِ ... أقول : هذا كلامٌ علويٌّ مُعَرِّقٌ له في الصدق والحق والكمال
والمثل الأعلى .

(١) الحسنى : تأنيث الاحسن يقال : الاسم الاحسن والاسماء الحسنى . والاسماء
الحسنى معروفة وهي ٩٩ اسماً ، انظر نهاية الارب ج ٥ ص ٢٢٦ ، ومرادنا بقولنا
والله الاسماء الحسنى : الصفات ، وهي الوحدانية والقدرة الى آخر مسميات هذه الاسماء
الحسنى ... وقد جاء في القرآن الكريم : والله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين
يلحدون في أسمائهم سيجزون ما كانوا يعملون ، سورة الاعراف ،
(٢) للعمرى ، وقد تقدم هذا البيت صدر باب البر والتقوى .

كَلِمَةٌ فِي التَّوَكُّلِ

«وبعد» فللمناسبة ذكر التوكل وإقترانه بالتقوى فيها أوردنا عليك من الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة، وإشادة الإسلام به، والحث على أن يكون شعار المؤمن في كل أسبابه، رأينا أن نُنِيلَ به وبحقيقته إماماً. فنقول: التوكل: كلمة يراد بها أمران، لا يُعَدُّ التوكل توكلًا على الحقيقة إلا إذا تحقَّقا معاً. فأما أول الأمرين فهو: الاعتقاد بأن الله عزَّ وتقدَّس هو وحده الذي بيده كلُّ شيء، وأنه لا سواه الذي له مقاليد السموات والأرض، وأنَّ جميع الخلق فقراء كلُّ الفقر إلى عونه سبحانه، وأنه:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ اللَّهِ لَلْفَتَى فَأُولَ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ
وكل هذا مما لا خفاء بأنه مما تقتضيه عقيدة التوحيد التي قام عليها الإسلام؛
وأما الأمر الآخر فهو: أن لا يكون المرء وُكْلَةً، فلا يعتمد بعد الله إلا على نفسه،
وهذا الأمر الثاني يكاد يكون ضَرْبَ قولهم اليوم «الاعتماد على النفس» أو
قول الطغرائي:

وَإِنَّمَا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا مَنْ لَا يُعَوِّلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ
والشطر الأول، يقتضى الاعتقاد بالقَدَرِ خيره وشره، والشطر الآخر
يقتضى السعى والاحتياط لأمره، ولانْتِهَايَ بَيْنَهُمَا أَلْبَتَّةَ، وإنما هما، لدى إنعام
النظر، شيء واحد يُعَبَّرُ عنه بالتوكل...

جاء رجل إلى سيدنا رسول الله فقال له: إني أُرْسِلُ نَاقِيًا وَأَتُوَكِّلُ؛ فقال صلوات
الله عليه: بل اُعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ... ومَرَّ الشَّعْبِيُّ بِإِبِلٍ قَدْ فَشَا فِيهَا الْجَرَبُ، فقال لصاحبها:
أَمَا تُدَاوِي إِبِلَكَ؟ فقال: إِنْ لَنَا مَجُوزٌ تَتَكَلَّى عَلَى دَعَائِهَا فَقَالَ: اجْعَلْ مَعَ دَعَائِهَا

شيئا من القَطْران ... وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر رضى الله عنه حين كره طواعين الشام ورجع إلى المدينة : أَتَفِرُّ من قَدَرِ الله ؟ قال : نعم ، إلى قَدَرِ الله ... فقال له أينفع الحذرُ من القَدَر ؟ فقال : لست بما هناك في شيء « نأمل » ، إنَّ الله لا يأمر بما لا ينفع ولا ينهى عما لا يضُرُّ ، أَلَيْسَ بِالك ، وقد قال تعالى : ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكَةِ ، وقال تعالى : خذُوا حِذْرَكُمْ ... وفي كتاب كَلِيْلَة : لا يَمْنَعُ العاقلَ يَقِينُهُ بِالْقَدَرِ مِنَ تَوَقُّيِ الخَوْفِ ، بل ليجمع تصديقا بالقَدَرِ وأخذاً بالحَرَمِ ، وقال شاعر :

والمَرْءُ تَلْقَاهُ مِضْياعاً لِقُرْصَتِهِ حتى إذا فاتَ أَمْرُ دَائِبِ القَدَرِ
وقال آخر :

إذا عُيروا قالوا مَقاديرُ تَدَّرَتْ وما العارُ إلا ما تَجَسَّرُ المَقادِرُ
وقال آخر :

وأوَّلُ عَجْزِ النُّفُوسِ عَمَّا يَنْوِبُهُمْ تَدَا فُعُهُمْ عَنْهُ وَطُولُ التَّوَاكُلِ
وقالوا في المثل : مِنَ العَجْزِ الإِحَالَةُ عَلَى المَقادِيرِ ...

وإليك ما قاله الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخاري المسمى فتح الباري ^(١) تأييداً لهذا الذي قلنا في التوكل : والمراد بالتوكل : اعتقاد ما دلت عليه الآية : وما من دَائِبَةٍ في الأرض إلا على الله رزقُها ، وليس المراد به ترك التَّسَبُّبِ ، والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين ، لأن ذلك قد يجرُّ إلى ضدِّ ما يُراد من التوكل ، وقد سُئِلَ أحمد - بن حنبل - عن رجلٍ جلس في بيته أو في المسجد وقال : لا أَعْمَلُ شيئاً حتى يَأْتِيَنِي رِزْقِي ، فقال : هذا رجلٌ جَهِلٌ العِلْمِ . « نأمل » فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله جعل رزقك تحت ظِلِّ رُجْحِي ،

وقال: لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يُرزق الطير تَغْدُو خِطَافًا وَتَرُوحُ بِطَانًا^(١)، فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق؛ قال: وكان الصحابة يتَجَرَّون ويعملون في نَحْلِهِمْ، والقُدْوَةُ بهم ... انتهى. (وبعد، فإن التوكل كما ترى وعلى ضوء هذا الذي قلنا: أُسُّ من أُسِّس الأخلاق، إذ أنه يَكْسِبُ صاحبه الجُرْأَةَ والإقدام والشجاعة الأدبية، وأن لا يَخْشَى في الحقِّ لومة لائم، وَيَنْفَى عنه الجُبْنَ والتخاذل والخوف من الموت والجزع لدى نزول المصائب وما يجري هذا المجرى؛ وَيَكْسِبُ صاحبه كذلك خُلُقَ الاعتماد على النفس وأن لا يَتَسَكَّلَ بعد الله إلا على نفسه. ومصدق هذا كله قوله صلى الله عليه وسلم: من سرّه أن يكون أعزّ الناس فليكن بما في يَدِ الله أوثق منه بما في يده، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

عود إلى عبقرياتهم في التقوى

وقال سبحانه: ومن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إن الله بالغُ أمره قد جعل الله لكل شيء قَدْرًا مَخْرَجًا: مَخْلَصًا من مضايق الدهر، وقوله سبحانه: من حيث لا يحسب، أي من وجه لا يخطر بباله ولا يقع في حسابه، وبالفِعال أمره: يبلغ ما يريد ولا يفوته مراد ولا يُعْجِزُه مطلوب، وجعل لكل شيء قَدْرًا: أي تقديرًا وتوقيتًا، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا عَلِمَ أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يَبْقَ إلا التسليمُ للقدر والتوكلُ، ولا معنى للسخط وعدم الرضا، وعنه صلى الله عليه وسلم: إني لأعلم

(١) أي تغدو بكرة وهي جياح وتروح عشاء وهي مملئة الاجواف.

آيَةً لِّوَأَخْذِ النَّاسِ بِهَا لِكُفَّتِهِمْ : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ... الْآيَةُ . وقال سبحانه : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . «حق تقاته أى حق تقواه ، ودوا استقراغ الوُسْع في القيام بما أَمَرَ الله به واجتباب ما نَهَى الله عنه ، ومثله : فاتقوا الله ما استطعتم ، يريد : بالِقُوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع شيئاً ، وعن عبد الله بن مسعود : هو أن يُطَاعَ فلا يُعَصَى وَيُشْكَرَ فلا يُكْفَر وَيُذَكَّرَ فلا يُنْسَى ، وقيل : هو أن تُنَزَّهَ الطاعاتُ عن الالتفات إليها ، وعن تَوْقَعِ المجازاة عليها ، وقيل : هو أن لا نَأْخُذَهُ في الله لَوْنُهُ لَأَنَّهُم وأن يقوم بالقِسْط - العَدْل - ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه ، وقال سبحانه : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » محسنون : أى في أعمالهم ، مِنْ أَحْسَنِ الشَّيْءِ : أَنْفَنَهُ ... وقال بَزْرُجْهَر : مَنْ قَوِيَ فَلْيَقْوِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَمَنْ خَضَعَ فَلْيَضَعْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ... قال ابن المقفع : لِيَحْرِصَ الْبُلَاءُ أَنْ يَزِيدُوا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ - كَلِمَةِ بَزْرُجْهَر - حَرْفًا ، « يريد : أنها كلمة جامعة ، وقال عبد الملك بن مروان لِبْنِهِ في مَرَضِهِ : أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَإِنَّهَا أَزِيدُنْ حُلَّةً وَأَحْصَنُ كَهْفٍ ، فقال مُسْلِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَلِكِ - وَكَانَ حَاضِرًا - وَأَنْزَبُ إِلَى الصَّوَابِ ، وَأَنْفَعُ فِي الْمَذَابِ : فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : هَاتَانِ لَا إِلَّا وَلِيَان ... الْحُلَّةُ : كُلُّ ثَوْبٍ جَدِيدٍ ، وَلَا يُقَالُ لَهُ حُلَّةٌ إِلَّا إِذَا اجْتَمَعَ مَعَهُ ثَوْبٌ آخَرٌ وَعِمَامَةٌ ، وَالْكَهْفُ : الْمَلْجَأُ ، وَأَصْلُهُ كَالْبَيْتِ الْمُنْقُورِ فِي الْجَبَلِ » وقال الخطيب :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ تَجْمَعُ مَالٍ وَلَكِنْ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ

وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآنَتَى مَزِيدٌ

وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ : قَرِيبٌ وَلَكِنْ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدٌ

وقال الأعشى في أبياته التي مدح بها سيدنا رسول الله :

أَجِدُّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيَّ الْإِلَهِ حَيْثُ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَحَّلْ بَزَادٍ مِنَ الثَّقَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونُ مَكَانَهُ فَتُرْصِدَ لِلْمَوْتِ الَّذِي كَانَ أَرْصَدَا
« قوله : أجدك قال سيديوه : هو مصدر كأنه قل . أجدا منك ، ولكنه
لا يستعمل إلا مضافا ، وقال الأصمعي : أجدك ، معناه : أجدا هذا منك ونصبا
بطرح الباء ، وقال الليث : من . أجدك بكسر الجيم فإنه يستحلفه
بجده وحقيقته ، وإذا فتح الجيم استحلفه بجده ، وهو بجنه تقول : أجدك
لا تفعل كرا ، وأجدك لا تفعل كذا . وأرصد : أعد ، وقال لييد :

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرُ نَقْلٍ وَيَا ذَنْ اللَّهَ رَبِّي وَعَجَلُ
أَحْمَدُ اللَّهَ فَلَا زِدَّ لَهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلُ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُ

« النزل : الغنيمة والجمع أنمال ، ثم قل لييد : وبإذن الله وتسميله ربي ، أى
بطني ، وعجل : أى سرعتي ، فحذف ياء الإضافة للوزن : يقول ، إن الحركة
والسكون بيد الله ، ولا ند له : لا مثل له ، ويديه الخير : أى بقدرته التي هي
كالآلة في أفعاله تعالى ، كاليد في أفعالنا ، وثنية اليد للبالغة في التشبيه ، وما
شاء فعل : أى ما أَرَادَهُ فعله وبين ذلك بالبيت الثالث ، ... وقال أبو نواس :

أَخِي مَا بَالُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَنْتَقِي كَأَنَّكَ لَا تَنْظُنُّ الْمَوْتَ حَقًّا
أَلَا يَا بَنَ الَّذِينَ فُتُّوا وَبَادُوا أَمَّا وَاللَّهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبَقِي
وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَحْظَى وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَشَقَى
وَلَا لَكَ غَيْرَ تَقْوَى اللَّهِ زَادٌ إِذَا جَعَلْتَ إِلَى اللَّهِ هَوَاتٍ تَرُقَى

« جعلت : يريد النفس أو الروح وإن لم يتقدم لذلك ذكر ، واللهرات جمع لهاة وهي : لحمه حمراء في الخنك معانة على عكدة اللسان ، وقال أبو التماهية :

أَطْعِ اللَّهَ بِجُهِدِكَ عَامِداً أَوْ دُونَ جُهِدِكَ
أَعْطِ مَوْلَاكَ كَمَا تَطْلُبُ مِنْ طَاعَةِ عَبْدِكَ

وقال بعض المتصوفة : من كان مع الله فقد هلك ، وإنما نجاح من كان الله معه ، وقال رجل للشبلي : متى يقربُ العبد من ربه ؟ فزعم ثم أنشد :

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْوَصَالِ أَهْلًا فَكُلُّ إِحْسَانِهِ ذُنُوبٌ

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى ابنه عبد الله في غيبة غابها : أما بعد ، فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكره زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى جلاء بصرك ، وعماد ظهرك ، فإنه لا عمل لمن لا نيّة له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خلق له ... « قوله : ومن شكره زاده : فسيمر عليك قريباً معنى الشكر ، وقوله : ومن أقرضه جزاه ، فالقرض في الأصل : ما يُعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه ، ولما كان الله سبحانه لا يستقرض من عوز فقد قالوا في مثل قوله تعالى : وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، و : من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له : إن القرض معناه الفعل الحسن من اتباع أمر الله وطاعته ، والعرب تقول لكل من فعل إليه خيراً : قد أحسنت قرضى وقد أقرضتني قرضاً حسناً ، وفي الحديث : أقرض من عريضك ليوم فقرك ... يقول صلوات الله عليه : إذا نال عريضك رجل فلا تجازه ، ولكن استبق أجره مؤمراً لك قرضاً في ذمته لتأخذه منه يوم حاجتك إليه ، ... وقال عمر بن عبد العزيز : ليست التقوى قيام الليل ولا صيام النهار والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن التقوى ترك

عَا حَرَّمَ اللَّهُ وَأَدَاءُ مَا افترض الله، فمن رُزِقَ خيراً بعد ذلك فهو خيرٌ ... وقال رجل للحكيم : أَوْصِنِي : فقال : إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تُسِيءَ إِلَى مَنْ يُحِبُّ فافْعَلْ ، فقال : وهل يُسِيءُ المرءُ إِلَى مَنْ يُحِبُّ ؟ قال : نعم : نَفْسُكَ إِنْ عصيت الله .

التقوى مع الجهل

قال الحسن البصري : أدركتُ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : مَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مما يُصْلِحُهُ ... وقال أيضاً : قَصَمَ ظَهْرِي عَالِمٌ لَا زُحْدَ مَعَهُ ، وَزَاهَدٌ لَا عِلْمَ مَعَهُ ، هذا يدعو إِلَى جهله بِزُهدِهِ ، وَهَذَا يُنْقَرُّ عَنْ عِلْمِهِ بِزُحْدِهِ : وقيل لأنوشروان : أَيْ النَّاسِ أَوْلَاهُمْ بِالسَّعَادَةِ ؟ فقال : أَفْلَهُمْ ذُنُوباً ، قِيلَ : وَمَنْ أَفْلَهُمْ ذُنُوباً ؟ قال : أَكْلُهُمْ عَقْلاً ... وَسَيِّدُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ أَكْمَلُهُمْ عَقْلاً ، وَقَدْ تَقَدَّمَ آخِراً . وَفِي الْأَثَرِ : يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قُرَاءَةُ فَسَقَةٍ وَعِبَادَةٌ جَهْلَةٍ ، وَرَكْعَةٌ مِنْ عَالِمٍ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رَكْعَةً مِنْ عَابِدٍ لَا عِلْمَ مَعَهُ .

التماوت والإفراط في الخشوع

والأصل في هذا المعنى قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ جَدَّ فِي الْعِبَادَةِ حَتَّى غَارَتْ عَيْنَاهُ : إِنْ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بَرَقٌ ، وَلَا تُبْغِضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ ، فَإِنَّ الْمُتَنَبِّتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى ، وَلَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ... «متين : أى شديد ، من متن متانة : أَشَدُّ وَقْوَى ، قَالَ تَعَالَى : وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ، وَقَوْلُهُ : فَأَوْغِلْ فِيهِ بَرَقٌ : أَيْ ادْخُلْ ، وَأَصْلُ الْإِيغَالِ : الْإِمْعَانُ فِي السَّيْرِ وَالْإِبْعَادُ فِيهِ يَقُولُ : يَسِرُّ فِي الدِّينِ بَرَقٌ وَلَا تَحْمِلُ

على نفسك فتكلفها ما لا تطيق فتعجز وتترك العمل ، والمنبت : الذى أتعب
 دَابَّتُهُ حَتَّى عَطِبَ ظَهْرُهُ فَبَقِيَ مُنْقَطِعاً بِهِ ، من الانبتات وهو الانقطاع ...
 ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً مُطْأِطاً رَأْسَهُ ، فقال له : ارفعْ
 رَأْسَكَ ، فإن الإسلام ليس بمريض ... ونظر يوماً إلى رجلٍ مُظْهِرِ النَّسَكِ
 مُتَمَامٍ ^(١) خَفَقَهُ بِالِدَّرَّةِ وقال : لَا تُمِتْ عَلَيْنَا دِينَنَا أَمَاتَكَ اللَّهُ ... ونظرت
 السيدة عائشة رضى الله عنها إلى رجلٍ كَادَ يَمُوتُ تَخَافُنَا ^(٢) فقالت : ما لهذا ؟
 فقالوا : أَحَدُ الْقُرَاءِ ، فقالت : قد كان عمر بن الخطاب سَيِّدَ الْقُرَاءِ ، فكان إذا
 قَالَ أَسْمِعْ ، وَإِذَا هَشَى أَسْرَعَ ، وَإِذَا ضَرَبَ أَوْجَعَ ... وقال صلى الله عليه وسلم :
 إِنْ اللَّهُ بَعَثَنِي بِالْخَيْفَةِ السَّمْحَةِ وَلَمْ يَبْعَثْنِي بِالرَّهْبَانِيَةِ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي
 فَلَيْسَ مِنِّي ...

قوله اليقين فى الناس

قال الشعبي : لم يَقْسِمِ اللَّهُ بَيْنَ النَّاسِ أَقْلًا مِنَ الْيَقِينِ ... وقال ابن الرومى من
 همزته البارعة التى يعاتب فيها أبا القاسم الشطرنجى - ونذكر من أياتها المختارة
 ما يصح أن يذكر هنا ، كما يصح أن يذكر فى باب القناعة قال :

مَرْحَباً بِالْكَفَافِ يَأْتِي هَنِئاً وَعَلَى الْمُتَعَبَاتِ ذَيْلُ الْعَفَاءِ ^(٣)

ضَلَّةَ لَامِرِيٍّ يُشْمَرُ فِي الْجَمْعِ لِعَيْشٍ مُشْمَرٍ لِلْفَنَاءِ ^(٤)

(١) المتماوت : الذى يظهر من نفسه الضعف من العبادة والزهد والصوم

(٢) التخافت : تكلم الخفوت ، وهو : الضعف والسكون

(٣) الكفاف من الرزق : القوت وما كف عن الناس أى أغنى عنهم ، والمتعبات :

الامور التى تتعب صاحبها فى تحصيلها ، والعفاء : الدروس وإحياء الآثار

(٤) ضل من يكبد فى جمع المال لعيش يسرع فى الزوال

دَائِباً يَكْتُمُونَ الْقَنَاظِيرَ لِلَّوَا رِثٍ وَالْعُمُرُ دَائِبٌ فِي انْقِضَاءٍ (١)
حَبْذَا كَثْرَةُ الْقَنَاظِيرِ لَوْكَا نَت لِرَبِّ السَّكَوْزِ كَنْزَ بَقَاءِ
إِلَى أَنْ قَالَ :

حَسْبُ ذِي إِرْبَةٍ وَرَأْيٍ جَلِيٍّ نَظَرَتْ عَيْنُهُ بِلَا غُلَوَاءِ (٢)
صِحَّةُ الدِّينِ وَالْجَوَارِحِ وَالْعِرِّ ضٍ وَإِحْرَازُ مُسْكِهِ الْحَوْبَاءِ (٣)
تِلْكَ خَيْرُ لَعَارِفِ الْخَيْرِ مِمَّا يَجْمَعُ النَّاسُ مِنْ فُضُولِ الثَّرَاءِ
وَلَهَا مِنْ ذَوِي الْأَصَالَةِ عُشَا قَى وَلَيْسُوا بِتَابِعِي الْأَدْوَاءِ
لَيْسَ لِلْمُكْثِرِ الْمُنْعَصِ عَيْشٌ إِنَّمَا عَيْشُ عَائِشٍ بِالْهَنَاءِ
إِلَى أَنْ قَالَ :

طَلَبْتُ حَاجَتِي فَلَاذَتْ بِحَقْوٍ بِكَ فَأَسْأَلْتَهَا لَكَفِّ الْقَضَاءِ (٤)
وَقَضَاءُ الْإِلَهِ أَحْوْطُ لِلنَّاسِ مِنْ الْأَمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ (٥)
غَيْرَ أَنْ الْيَقِينَ أَفْخَى مَرِيضًا مَرَضًا بَاطِنًا شَدِيدَ الْخَفَاءِ
مَا وَجَدْتُ أَمْرًا يُرَى أَنَّهُ بُوَ قِنُ إِلَّا وَفِيهِ شَوْبُ أَمْتَرَاءِ (٦)
لَوْ يَصِحُّ الْيَقِينُ مَا رَغِبَ الرَّأْ غِبُ إِلَّا إِلَى مَلِيكَ السَّمَاءِ
وَعَسِيرُ بُلُوْغِ هَاتِيكَ جَدَا تِلْكَ عَلَيَا مَرَاتِبِ الْأَنْبِيَاءِ

- (١) دَائِباً من دَاب في عمله : مضى فيه بجهد وتعب ، ويكنز من باب ضرب ونصر :
يحجز الأموال ، والقَنَاظِيرُ : يعني من الذهب والفضة وما إليهما
(٢) الْإِرْبَةُ : الدهاء ، والغُلَوَاءُ : الغلو (٣) أَى وَالْحَصُولُ عَلَى مَا يَمْسُكُ الْإِبْدَانُ
مِنَ الْغِذَاءِ وَالشَّرَابِ ، وَالْخَوْبَاءُ : النفس (٤) لَادَتْ : لجأت واحتضنت ، والحقو
بفتح الحاء وكسرهما : الإزار أو معقده يقول : فعملت بأهدابك أَى التَّجَاتِ إِلَيْكَ
فَسَلَمْتُهَا وَتَرَكْتُهَا لِلْقَضَاءِ (٥) أَحْوْطُ : أعظم حفظاً وصيانة (٦) يقول : لم أجد
أحداً يظن أن عنده يقينا بالله إلا وفي نفسه شوب من الشك

وقال حكيم : من الدلالة على قلة اليقين ، أنك تَحَيَّرُ يوماً عن خير الدنيا بالنسيئة : طمعاً في الربح ، طفيف ربح مع ما فيه من الخطر ، وتأبى أن تُقَرِّضَ اللهَ درهماً بثمانمائة ، مع زَعْمِكَ وقولك إن مُسْتَقَرِّضَهُ مَلِيٌّ وفي هكذا وَرَدَت هذه الكلمة في محاضرات الأدباء ، ويظهر أنها إما مُحَرَّفَةٌ وإما أنها مُعَاظَلَةٌ^(١) وهي على الرغم من ذلك تكاد تكون مفهومة ، فالظاهر أن قائلها يريد أن يقول : إن مما يدلُّ على قلة اليقين أنك لو خيَّرت بين ربح كثير آجل نسيئة عند الله ، بأن تُقَرِّضَهُ مثلاً درهماً بثمانمائة ، وبين ربح طفيف عاجل في الدنيا قد حُفِّ بالخطر ، لاخترت الثاني على الأول ، مع زَعْمِكَ بأن من تقرضه - وهو الله عز وجل - مُضْطَلَعٌ بمضاعفة القرض وتوفيتك حقك وإعطائك إياه وافياً ...

إصلاح الضمير

دخل مُحَمَّدُ الطويل على سليمان بن علي وإلى البصرة فقال له : عِظْنِي ، فقل حميد : لئن كنت حين عَصَيْتَ رَبَّكَ ظَنَنْتَ أنه يراك فقد اجترأت على الله ، ولئن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت ... وقالوا : إذا فسدت التَّيَّةُ وقعت البلية ، وقال رجل لسيدنا رسول الله : لقد سمعناك يا رسول الله تقول : شَيَّبَتْنِي هُودُ^(٢) ، فما الذي شَيَّبَكَ منها ؟ قال : قوله تعالى : فاستقيم كما أمرت ... وَرَوَوْا أَنَّ السيد المسيح صلوات الله عليه قال : ياربِّ ، مَنْ أَشْرَفُ النَّاسِ ؟ قال : مَنْ إِذَا خَلَا عِلِمَ أَنِّي ثَانِيهِ فَأَجَلَّ قَدْرِي عَنْ أَنْ يُظْهِرَنِي عَلَى مَعَاصِيهِ ... وَمَرَّ

(١) معاظلة : أى عاظلها قائلها : أى عقدها عجزاً عن الإفصاح أو قصداً

(٢) هود : أى سورة هود وفيها يقول الله جل شأنه لسيدنا رسول الله : فاستقيم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ، ولما كان العمل بمضمون هذه الآية الكريمة في غاية العسر قال سيدنا رسول الله : شَيَّبَتْنِي هُودُ

عمر رضى الله عنه بمملوك يرعى غنما، فقال : أَتَبِيعُنِي مِنْهَا شَاءَ ؟ قال : ليست لي ، قال : فَأَيْنَ الْعِلَلُ ؟ قال : فَأَيْنَ اللَّهُ : فاشتراه عمر وأعتقه ، فقال المملوك : اللهم قد رزقتني العِتَقَ الأصغر فارزقني العِتَقَ الأكبر ، أعوذ بك من قلب غائب عنك ... وقال السري السقطي ^(١) : بتصحیح الضمائر تُغْفَرُ الكبائر ؛ وفي الأثر : تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة « أى تعرّف إليه في الرخاء بالشكر وذكّر الآلاء يعرفك في الشدة بالعصمة ... » وقال بعض المتصوفة : إن الله لَا يَشْغُلُهُ عَنْكَ شَيْءٌ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ فَافْعَلْ ...

احتمال المكارة في العاجل رجاء المسار في الآجل

ورمن جوامع الكلم في ذلك قول سيدنا رسول الله : حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ حُفَّتْ : أُحِيطَتْ ، والمكارة جمع مَكْرُودَةٍ وهى : ما يكرهه المرء ويشق عليه ، والشهوات : كل ما يوافق النفس وتصبو إليه . قال الإمام القرطبي : أصل الحَفِّ : الدائر بالشئ المحيط به الذى لَا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِعَدْوٍ أَنْ يُتَخَطَّى ، فمثل المصطفى المكاراة والشهواتِ بِذَلِكَ ، فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكارة والصبر عليها ، والنار لَا يُنْجَى مِنْهَا إِلَّا بِقَطْعِ النَّفْسِ عَنْ مَطْلُوبَاتِهَا ، وقال ابن حجر : هذا من جوامع كلم المعطفي وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس ، والحث على الطاعات وإن كرهتها وشقت عليها « ولما تاب بعض الصوفية كان لَا يَتَهَنَأُ بِطَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ : أَرَفَقَ بِنَفْسِكَ ، فَقَالَ : الرَّأْفُ أَطْلُبُ لَهَا ... وَهَذَا كَقَوْلِ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ وَقَدْ صَلَّى طَوْلَ لَيْلَتِهِ حَتَّى أَصْبَحَ وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : أَتَعْبَتَ نَفْسَكَ فَقَالَ : رَاحَتُهَا أَطْلُبُ ...

(١) أحذر رجال الطريقة وخال أبى القاسم الجنيد ، ترجم له ابن خلكان

ومثل هذا - وإن كان من بابة أخرى - قول العباس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لَتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لَتَجْمُدَا^(١)

وقول الآخر :

تَقُولُ سَلِيمِي لَوْ أَقَمْتُ بِأَرْضِنَا وَلَمْ تَدْرِ أَنِي لِلْمَقَامِ أَطَوُّفُ

مرعاة الدين والدنيا معاً

قال تعالى : وَلَا تَذَسْ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ... وقال سيدنا رسول الله : ليس بخيركم مَنْ تَرَكَ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، وَلَا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ ، حَتَّى يُصِيبَ مِنْهُمَا جَمِيعًا ، فَإِنَّ الدُّنْيَا بِلَاغٌ إِلَى الْآخِرَةِ ، وَلَا تَكُونُوا كَلَاءً عَلَى النَّاسِ ... « كَلَاءٌ : عِيَالًا وَثِقَلًا ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى الدُّنْيَا بِالْغِنَى ، وَعَلَى الْآخِرَةِ بِالتَّقْوَى . » وقال مروان بن أبي حفصة لعمارة بن حمزة^(٢) : أَنْشَدْتُ الْمَأْمُونَ قَوْلِي :

أَنْخِي إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونَ مُشْتَغِلًا بِالْدِّينِ وَالنَّاسِ بِالدُّنْيَا مَشَاغِلُ
فَلَمْ يَهْتَمَّ لِذَلِكَ فَقَالَ عِمَارَةُ : مَا زِدْتَ عَلَى أَنْ صَيَّرْتَهُ عَجُوزًا مُعْتَكِفَةً فِي مَحَرِّهَا ،

(١) كنى بالجود عن السرور ... وللنقاد في هذه الكناية كلام حسن انظره إذا شئت في شرحنا على النخيص

(٢) شخصية ضخمة ، كان أدبياً وكان كاتباً وكان جواداً كريماً وكان من سروات الناس وكان تيامها معجباً معتداً بنفسه وكان في زمن السفاح والمنصور وبقى الى زمن المأمون وتولى الولايات العظيمة في أيامهم وكان من شدة اعتداده بنفسه إذا أخطأ يمسح على خطائه ويأنف من الرجوع ويقول : نقض أبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ، انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت وهي زاخرة بكل ما يطرأ ويعجب من سيرة هذا عمارته بن حمزة ،

فَمَنْ لَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلًا قُلْتَ كَمَا قَالَ جَرِيرٌ :

فَلَا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضِيعٌ نَصِيْبُهُ

وَلَا غَرَضٌ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاغِلُهُ !

والمشهور في هذا المعنى قول الفاروق رضي الله عنه : اَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ
أَبَدًا وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا... وقال الشاعر :

وَلِلَّهِ مِنِّي جَانِبٌ لَا أُضِيعُهُ وَلِلَّهِ مِنِّي وَالْخَلَاةُ جَانِبٌ

وسيمر بك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى، في مواضع أخرى من
هذا الكتاب .

الرجاء والجمع بينه وبين الخوف من الله

قال تعالى : فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ : يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، وقال حكيم :
أَرْجُ إِذَا خِفْتُ وَخَفْتُ إِذَا رَجَوْتُ ، وكن كالمرأة الحامل ليس رجاؤها أن تلد
ولداً ذكراً بأكثر من خوفها أن تلد أنثى . وقريب من هذا قول رجل لابنه :
خَفِ اللَّهَ خَوْفًا لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الرَّجَاءِ ، وَارْجُهُ رَجَاءً لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخَوْفِ ، فالمؤمن
له قلبان : يرجوه أحدهما ويخافه الآخر وقال :

أَنَا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ وَاقِفٌ بَيْنَ وَعْدِهِ وَالْوَعْدِ
وقال أبو نؤاس :

لَا تَحْطُرُ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ امْرَأَةً أَحْرَجًا فَإِنْ حَظَرَكَ بِالْدِّينِ إِذْرَاءُ
وقال أيضاً :

يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ عَفْوَ اللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْثَرُ

وقال :

تَبَسَّطْنَا عَلَى الْآثَامِ لَمَّا رَأَيْنَا الْعَفْوَ مِنْ ثَمَرِ الذَّنُوبِ

وقال :

تَكْثُرُ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بِالْإِسْخِ رَبًّا غَفُورًا

سَتُبْصِرُ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ عَفْوًا وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا

تَعُوضُ نَدَامَةً كَقَفِيكَ بِمَا تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ السُّرُورًا

وفي الاثر : مَا أَحْبَبُّ أَنْ لِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ... وقال ابن عباس لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أَى آيَةٍ أَرْجَى ؟ قال : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، فقال : إِنَّ هَذِهِ لِمَرْجُوءَةٌ ، وَأَرْجَى مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لَذُوُ مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ... وقال أعرابي لابن عباس : مَنْ يَحَاسِبُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قال : يَحَاسِبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبًا : نَجُونَا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ، فقال : كَيْفَ ! قال : إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا قَدَرَ غَفَرَ ... وسمع أعرابي عبد الله بن عباس يقرأ قول الله تعالى : وَكُتِبَ عَلَى سَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، فقال : وَاللَّهِ مَا أَنْقَذَنَا مِنْهَا وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يُلْقِيَنَا فِيهَا ! فقال ابن عباس : خذوه من غير فقيه ...

العبادة لاطلبا للثواب ولا خوفا من العقاب

وقد تقدم لنا آثافا قول في ذلك وتزيد فزور دطرقا من عبقر بانهم في هذا المعنى : قال الشَّيْلَى : مَنْ عَبَدَهُ رَجَاءَ الْجَنَّةِ فَهُوَ عَبْدُهَا ، أَوْ خَوْفَ النَّارِ ، فَهُوَ عَبْدُهَا ، لِأَنَّهُ مِنْ خَافَ شَيْئًا أَوْ رَجَاهُ فَهُوَ مَعْبُودُهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَنْ عَبَدَ

الله بعوض فهو لثيم، وقال آخر : اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك
فأحرقني ، أو طمعا في جنتك فأحرقنيها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك حباً
لك وشوقاً إلى لقائك فأبحنيني ... وقيل لرابعة العدوية : مالك لاتسألين
الله الجنة في دعائك ؟ فقالت : الجار ثم الدار ... « تعنى بالجار : ذا الجلال
والإكرام » وقد أوردنا بيت المعري :

ولتفعل النفسُ الجميلَ لأنه خَيْرٌ وأحسن لا لأجل ثوابها

غير مرة فيما أسلفنا، وقال بعضهم في قوله صلى الله عليه وسلم : أكثرُ أهلِ
الجنة البُلَهُ ، قال : لأنهم في سُغُلٍ فأكهون ، شغلهم النعم عن المنعم ، وعن
رضي بالجنة عن الله فهو أبله . أقول : حديث : أكثر أهل الجنة البُلَهُ :
حديث ضعيف « انظر شرح الجامع الصغير للناوي » وعلى أنه ضعيف فقد
أولوه تأريلاً حسناً : فقال الأزهري : الأبله : الذي طبع على الخير ، فهو
غافلٌ عن الشرِّ لا يعرفه - أقول : أو يعرفه ولكن يتجنبه - وقال النضر بن
شميل : الأبله : الميتُ الداء ، أى أن شره ميت لا يئبته له . والمرأة باهاء ،
قال الشاعر :

ولقد هَوَتْ بِطِفْلَةٍ مَيَّالَةٍ بلهاء تُطْلَعُنِي عَلَى أَسْرَارِهَا

أراد : أنها غر لا دهاء لها فهي تخبرني بأسرارها ولا تفطن لما في ذلك
عليها . وقال الزبير قان بن بدر : خيرُ أولادنا الأبلهُ المَقُول ، يعنى : أنه لشدّة
حياته كالأبله وهو عقول « مبالغة من العقل » وقال الزمخشري في صفة الصلحاء : هيئون
كئينون ، غير أن لا هراة في الحق ولا دهانة ، بله ، غوصهم على الحقائق يعمر
الآلِبابَ والأذهان ، وذلك لأنهم أغفلوا أمرَ دنيائهم فجهلوا حذقَ التصرف
فيها فأقبلوا على آخرتهم ففعلوا بها فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهلها ،

الرياء

الرياء : ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه ؛ ومن عقوباتهم فيه : قال سيدنا رسول الله : **إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءُ الظَّاهِرُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ** . وقالوا : **أَعْظَمُ الرِّيَاءِ حُبُّ الْمَحْمَدَةِ** . وقالوا إذا عمل الرجل العمل وكنتمه وأحب إعلام الناس أنه كنمه ، فذلك أقبح الرياء ، وقال أبو نواس :

وإذا نزعْتَ عن الغواية فليكن لله ذاك النزعُ للناس
وقال لقمان لابنه : **اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُرَيِّ النَّاسَ أَنْكَ تَخْشَاهُ لِيُكْرِمَكَ ...**
وقال بعضهم : **كَانَ النَّاسُ يَرَاؤُنَ بِمَا يَفْعَلُونَ فَمَسَارُوا يَرَاؤُنَ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ** .
وقالوا : **مَا الدِّخَانُ بِأَدَلَّ عَلَى النَّارِ مِنْ ظَاهِرٍ أَمْرُ الرَّجُلِ عَلَى بَاطِنِهِ ...** وقالوا
في وصف المرائي : **لَهُ سَمْتُ أَبِي ذَرٍّ عَلَى قَلْبِ أَبِي جَهْلٍ ^(٢)** وقال صلى الله
عليه وسلم **فَمَنْ تَذَسَّكَ طَمَعًا فِي عَرَضِ الدُّنْيَا : أَكْثَرُ مُنَافِقِي هَذِهِ الْأُمَّةِ**
قَرَأُوهَا ، قال ابن الأثير : **أَيُّ أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ نَفْيًا لِلْأَهْمَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ**
وَهُمْ مُعْتَقِدُونَ تَضْيِيعَهُ ^(٣) ، وكان المنافقون في عصر النبي بهذه الصفة . وقال

(١) إذا أردت التوسع في القول على الرياء ، وحقيقته وأنواعه وعلاجه ، فعليك بإحياء علوم الدين للغزالي

(٢) أبو ذر الغفاري هو الصحابي الجليل الزاهد الورع الصادق للهجة الذي قال فيه سيدنا رسول الله : **مَا أَقَلَّتْ الْغِبْرَاءُ وَلَا أَظَلَّتْ الْخِضْرَاءُ أَصْدَقَ لَهْجَةٍ مِنْ أَبِي ذَرٍّ** وقال فيه سيدنا علي : **أَبُو ذَرٍّ عَوَاءٌ مَلِيٌّ عَلِمَانٌ أَوْكِيٌّ عَلَيْهِ أَوْكِيٌّ عَلَيْهِ أَيُّ شَدِّ بِالْوَكَا** . وهو الحيط يشد به قم القربة ، توفي سنة ٢١ هـ أما أبو جهل فهو عمرو بن هشام أعدى أعداء سيدنا رسول الله قتل في غزوة بدر (٣) أي مضربون عدم العمل به

الزخشرى : أراد بالنفاق الرياء ، لأن كلا منهما إرادة مافى الظاهر خلاف مافى الباطن . وقال الغزالي : أحذر من خصال القراء الأربعة : الأمل والعجلة والكبر والحسد ، قال : وهى عللٌ تعترى سائر الناس عموماً والقراء خصوصاً ، ترى القارئ يطول الأمل فيورقعه في الكسل ، وراه يستعجل الخير فيقطع عنه ، وراه يحسد نظراءه على ما آتاهم الله من فضله فربما يبالغ به مبالغاً يحمله على فضائح وقبايح لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر . وقال الفضيل بن عياض لابنه : اشترُوا داراً بعيدة عن القراء ، مالى والقوم ! إن ظهرت منى زلة فتلونى ، وإن ظهرت على حسنة حسدونى ، ولذلك ترى الواحد منهم يتكبر على الناس ويستخف بهم مُعَبَّساً وجهه كأنما يمنُّ على الناس بما يُصَلِّي زيادة ركعتين ، أو كأنما جاءه من الله منشوراً بالجنة والبراءة من النار ، أو كأنه استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس ، ثم دو مع ذلك يلبس لباس المتواضعين ويتماوت ، وهذا لا يليق بالكبر والترفع ولا يلائمه لكن الأعمى لا يبصر ... أقول : كل ما قالوه فى القراء مما يصح أن يقال فى علماء الدين وفى المتتسكين ، لأنه يقال تقرأ فلان أى تنقّه ، ويقال : تقرأ : أى تنسك ، قال زيد بن تركي الزبيدي ، وقال القراء : أنشدني أبو صدقة الديري :

ولقد عَجِبْتُ لكَاعِبِ مَوْدُونَةٍ أطرافها بالحنى والحناءِ
بيضاء تصطادُ القوى وتَنبِي بالحن قلبَ المسلمِ القراءِ

« مودونة : مُلَيَّنَةٌ وأطرافها نائب فاعل «ودونة» ، ورووا أن بلال بن أبى بردة وفد على عمر بن عبد العزيز فجعل يُدِيمُ الصلاة فقال عمر : ذلك التصنع ، فقال له العلاء : أنا آتيتك بخبره ، فجاءه وهو يُصَلِّي فقال له : مالى عندك إن بعثت أمير المؤمنين على توليتك العراق ؟ قال عما لى سنة أى وظيفتى ومُرَّتْ بى - وكان مبلغه عشرين

ألف درهم ، فقال : اكتبْ به خَطَّكَ ، فكتب إليه ، لجاء الملاء إلى عمر فأخبره ، فقال : أراد أن يَغُرَّنَا بالله ... ودخل على أبي جعفر المنصور رجلٌ بين عيْنيه كُرْكَبَةُ البعير - وذلك يكون من أثر السجود - يريد القضاء ، فقال المنصور : إن كنتَ أبررتَ الله بهذا فما ينبغي أن تشغلك عنه ، وإن كنت أردتَ خداعتنا فما ينبغي أن نتخذِكَ لك . وقال شاعر :

لا تَصْـحَـبْـ بَنَ صَحَابَةَ حَلَقُوا الشَّوَارِبَ لِلطَّمَعِ
يَبْكِي وَجُلُّ بُكَائِهِ مَا لِلْفَرِيصَةِ لَا تَقَعُ

وقال آخر :

عَمَّرُوا وَوَضِعَ التَّصْنُوعُ مِنْهُمْ وَمَكَانُ الصَّلَاحِ مِنْهُمْ خَرَابٌ
وَيُرَوَّى هَذَا الْبَيْتُ عَلَى وَجْهِ آخِرٍ ...

ورَوَوْا أن بعض الناس كان يَدْعُ زَكَاتَهُ مِنَ الْفَقِيرِ وَيَسْتَرْجِعُهَا مِنْهُ بِدِرْهَمٍ أَوْ دَرَاهِمِينَ . وَيُرَوَّى أَغْرَبُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقْعَدُ فِي بَابِ الْحَيْلِ الشَّرْعِيَةِ الْحَرَمَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ مَشِيخَتِنَا الَّذِينَ تَوَلَّوْا مَشِيخَةَ الْإِسْلَامِ وَالْإِفْتَاءِ فِي الْجِيلِ الْغَابِرِ بِمِصْرَ - وَكَانَ غَنِيًّا مَثْرِيًّا - كَانَ يَحْتَالُ فِي زَكَاةِ الْمَالِ بِأَنْ يَضَعَ قِيَمَةً مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ - عَنْ مَالِهِ فِي الْعِيَابِ « الزَّكَاةِ » الْمَمْلُوءَةِ قِحَاشٍ يُفْقَهُمُ الْفُقَرَاءُ أَنَّ هَذِهِ زَكَاتُهُمْ ثُمَّ يَشْتَرِيهَا مِنْهُمْ بِشَمْنٍ مُغَرٍّ ، وَبِذَلِكَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ قَامَ بِفَرِيضَةِ الزَّكَاةِ وَيَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ،

التوبة

التَّوْبَةُ : الرَّجُوعُ عَنِ الذَّنْبِ ، يُقَالُ : تَابَ إِلَى اللَّهِ يَتُوبُ تَوْبَةً وَتَوَّابًا وَتَابًا : أَنْ تَابَ وَرَجَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ : وَفَّقَهُ إِلَى التَّوْبَةِ أَوْ

عاد عليه بالمغفرة ، وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : التوبة على أربعة دعائم : استغفار باللسان ونية بالقلب وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود .
وفي الحديث : من تاب قبل موته بفواق ناقة حرم الله وجهه على النار .
« الفواق : أن تُحاب الناقة ثم تُترك لحظة يرَضُّعُها الفصيل لتدِرَ ثم تحلب »
وقال عز وجل : يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا . التوبة النصوح : الخالصة التي لا يُعاوَدُ بعدها الذنب ، وقال تعالى : إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن . يقول سبحانه : إنما قبول التوبة كالمحتوم على الله لمن أذنب بجهالة وسفه . فإن ارتكاب الذنب سفه وتجاهل ، ومن ثم قيل : من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالة . ثم يتوبون قبل الموت قال عليه السلام : إن الله يقبل توبة عبده ما لم يُغرغر ، قال المفسرون : وسماه قريبا لأن أمد الحياة قريب ، أو قبل أن يُشرب في قلوبهم حبه فيتعذر عليهم الرجوع ،

المبادرة إلى التوبة

وقد حثوا مع ذلك على المبادرة بالتوبة والإفلاع عن المعاصي فروا أنه قيل لرجل : أوص ، فقال : أحذرُكم سوف ، وقال شاعر :
والمرءُ مُرْتَهَنٌ بِسَوْفٍ وَلَيْتَنِي . وهلاكه في سَوْفِهِ وَاللَّيْتِ
وقال آخر :

أُسُوفُ تَوْبَتِي خَمْسِينَ عَامًا وَظَنِّي أَنِّ مِثْلِي لَا يَتُوبُ

وقال بعضهم : نحن لا نريد أن نموتَ حتى نتوبَ ولا نتوبَ حتى نموتَ ...
وقال بعضهم لرجل : عِظْنِي ، فقال : قد قطعتَ عامةَ سَفَرِكَ ، فإن استطعتَ
ألا تَظِلَّ في آخره فافعل ... وقال مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْرِ : ادفع سَطْوَةَ اللَّهِ
بسرعة التَّزُّوْع ، وحسن الرجوع ، فَيُوشِكُ أَنْ الْمَنَائِيَا تَسْبِقُ الْوَصَايَا ، وقالوا في
قوله تعالى : بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : يُكْثِرُ الذُّنُوبَ وَيُوَخِّرُ التَّوْبَةَ
أَوْ يُسَوِّفُ بِالتَّوْبَةِ وَيَقْدِمُ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ ، وقال مُؤَرِّجُ السَّدُوسِيِّ ^(١) : فَجَرَ :
إِذَا رَكِبَ رَأْسَهُ ، فَمَضَى غَيْرَ مُكْتَثِرٍ ، وقوله : لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : لِيَبْضُ أَمَامَهُ رَاكِبًا
رَأْسَهُ ... وقال سيدنا رسولُ اللَّهِ لرجل وهو يَعِظُهُ : اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ :
حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَشَبَابَكَ
قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ . « اغْتَنِمْ حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ : اغْتَنِمْ مَا تَأْتِي
نَفْسَهُ ، وَثَوَابَهُ بَعْدَ مَوْتِكَ . وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ : اغْتَنِمِ الْعَمَلَ حَالِ الصَّحَّةِ
فَقَدْ يَمْنَعُ مَانِعٌ كَالْمَرَضِ فَنُقَدِّمُ بِهِ زَادَ . وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ : اغْتَنِمِ فَرَاغَكَ
فِي هَذِهِ الدَّارِ قَبْلَ شُغْلِكَ بِأَهْوَالِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، أَيْ اغْتَنِمِ فُرْصَةَ الْإِمْكَانِ
لِعَالِكَ تَسْلَمَ مِنَ الْهَوَانِ . وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ : اغْتَنِمِ الطَّاعَةَ وَفِعْلَ الْخَيْرِ حَالِ
قُدْرَتِكَ قَبْلَ هَجُومِ عِجْزِ الْكِبَرِ عَلَيْكَ فَتَنْدَمَ عَلَى مَا فَرَّطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ .
وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ : اغْتَنِمِ الْإِحْسَانَ وَالتَّصَدَّقْ بِفَضُولِ مَالِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ
جَائِحَةٌ تُفْقِرُكَ . وَلَكَ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ الْكَرِيمَةَ مَغْزَاهَا عَامٌّ شَامِلٌ
يُرَادُ بِهَا الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْعَمَلِ وَانْتِهَازُ الْفُرْصِ قَبْلَ فَوَاتِهَا ، وَقَالَ الشَّاعِرُ .
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزُرْ وَأَبْصَرْتَ حَاصِدًا نَدَيْتَ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الْبَذْرِ
وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

فَوَاعِبًا كَيْفَ يُعْصَى الْمَلِيكَ أَمْ كَيْفَ يَجْمَعُهُ الْجَاهِدُ

(١) نحوى بصرى ، أخذ عن الخليل ؛ توفي هو وأبو نواس في يوم واحد سنة ١٩٥

وَاللَّهُ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ وَتَسْكِينَةٍ فِي الْوَرَى شَاهِدٌ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وقال الآخر:

تَرْجُو النَّاجَةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ
وجاء حبيب بن الحارث إلى سيدنا رسول الله فقال: إني مُقَارِفٌ للذنوب،
فقال: تَبُّ، فقال: إني أتوب ثم أعود، فقال: كلما أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قُتِبَ، فَمَقُوءُ
الله أكبر من ذنوبك. وفي الحديث: إن الرجل لِيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ،
فَقِيلَ: وَكَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يَكُونُ نُصَبٌ عَيْنِهِ خَائِفًا مِنْهُ حَتَّى يَدْخُلَ
الْجَنَّةَ... واجتمع ثلاثة من الحكماء عند كِسْرَى فتذاكروا في شَرِّ الْأَشْيَاءِ فَمَالَ
أَحَدُهُمُ: الْهَمُّ يَقْتَرِنُ بِالْعُدْمِ - الْفَقْرُ - وقال الثاني: سُقْمُ الْبَدَنِ وَدَوَامُ الْحُزَنِ،
وقال الثالث: دُنُوُّ أَجَلٍ وَسُوءُ عَمَلٍ... فَخُتِمَ لَهُذَا... ودعا بعض الصالحين
فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وَقُوعِ الْعَنِيَّةِ وَلَمَّا أَبْلَغَ الْأَمْنِيَّةَ... وقال حكيم:
الْأَيَّامُ صَحَائِفُ أَجَالِكُمْ فَأَوْدِعُوهَا أَجَلِ أَفْعَالِكُمْ... وقال علي بن الحسين رضي الله
عنهما: عَجِبْتُ لِمَنْ يَحْتَمِي عَنِ الطَّعَامِ لَمْ يَضُرَّهِ وَلَا يَحْتَمِي عَنِ الذَّنْبِ لَمْ يَمُوتْ!
وقال بعضهم حضرتُ مجلس الشُّبْلِيِّ^(١) فقام إليه رجل من أصحابه وقال له:
أَوْصِنِي، فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ أَوْصَاكَ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ:

قَالُوا تَوَقَّ دِيَارَ الْحَيِّ إِنْ لَمْ يَمُتْ
عَيْنًا عَلَيْكَ إِذَا مَا نِمْتَ لَمْ تَمُتْ

(١) الشبلي - وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب - هو أبو بكر دلف بن جحدر، والشبلي:
نسبة إلى شبلة، بلدة من بلاد ما وراء النهر - سمرقند وبخارى وما بينهما - كان في مبدأ
أمره واليا لإحدى الولايات ثم ناب وتصرف وبلغ المبالغ في ذلك، كان جليل القدر
مالكي المذهب وصحب الشيخ أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصالحين توفي سنة
٣٣٤ هـ ببغداد وعمره سبع وثمانون سنة

وقال يحيى بن معاذ : اجتناب السيئات أشد من اكتساب الحسنات ...
وسمع الحسن البصري رجلا يقول : اللهم اجعلنا منك على حذر ، فقال : إنه فعَل
ذلك ، أليس قد سترَ عنك أجلك ، فليستَ من حياة ساعةٍ على يقين !

الاستغفار

قال علي بن أبي طالب : العَجَبُ لِمَنْ يَقْطَعُ ومعه النجاة : الاستغفار ... وقالوا
لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . وقال حكيم : أيها السلاطين ،
لا بدَّ لكم من المعاصي الكبار فافعلوا بإزائها طاعات عظيمة ، أيها الأوساط ،
يُمْسِكُكم الطاعات العظيمة ، كالمصالح التي لا يَقْدِرُ عليها إلا السلاطان ، فلا تركبوا
المعاصي الكبيرة ... وقال بعضهم : سمعني راهبٌ أقول : أستغفر الله ، فقال :
يا فتى ، سرَّعة اللسان بالاستغفار توبة الكذَّابين ... ويدل على ما قاله قوله صلى
الله عليه وسلم : المستغفر باللسان المُصِرُّ على الذنب كالمُسْتَهْزِئِ بربه . وقال
الربيع بن خثيم : لا يقولنَّ أحدكم : أستغفر الله وأتوبُ إليه فيكون ذنباً
جديداً إذا لم يفعل ، ولكن ليقل : اللهم ، تُبْ عليَّ واغفر لي ، فقل : ولم ؟
فقال : انته عما ينهاك عنه فإنه يغفر لك ... وقال عمر رضى الله عنه : لم أرَ
أشدَّ طلباً وأسرعَ دَرَكَاً من حسنةٍ حديثةٍ لذنْبٍ قديم . « دركا بسكون الراء
وتجها : لحافوا إدراكا » ... وسئل بعض المجَّان : كيف أنت في دينك ؟ قال : أخرِّقه
بالمعاصي وأرَّعُه بالاستغفار ...

« وأما بعد ، فلو يؤخذ اللهُ النَّاسُ بما كَسَبُوا مترك على ظهرها
من دابة ولكن يؤخِّرهم إلى أجلٍ مُسمًى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان
بعبادته بصيراً ^(١) .

(١) آية كريمة والآية : ولو يؤخذ الله الناس... الآية

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبُعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ
وَيَرَى عُروْقَ نِيَاطِهَا فِي نَحْرِهَا وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحْلِ
أَغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ قَرَطَاتِهِ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ (١)

عبقریات شتی

في الخوف والتقوى

ورددني الحديث الصحيح : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ولما ساء لكم الطعام ولا الشراب ، لضحكتم قليلا : أي لم تضحكوا ألبتة إذ القلب ههنا بمعنى العدم ... وجاء في خطبة سيدنا رسول الله : أيها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دُنياه لآخِرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الممات ، فوالذي نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مُستَعْتَبٍ ، وما بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنة والنار ... معالم جمع مَعْلَم ، وهو ما جعل علامة للطرق والحدود ، ضربه مثلا لأحكام الله وحدوده

(١) هذه الآيات لجار الله الزمخشري أنشدما في الكشف عند تفسير قوله تعالى : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، ونسبها إلى بعضهم ، وكان قد أوصى أن تكتب على لوح قبره ، يقول : يا الله ، يا مبصر الخفيات حتى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليل ، اغفر لي الخ والبهيم : المظلم ، لانهم الأشياء فيه ، والليل أفل تفضيل من الليل وإن كان جامدا ، للبالغة في الظلمة ، والنياط : عرق غليظ منوط بالقلب تتصل به عروق دقيقة ، والنجر : أسفل العنق ، والمخ : مافي وسط العظام ، والنحل : جمع ناحل أي دقيق ، والفرطات : ذنوبه التي قرطت منه ، وما كان : مفعول اغفر ، والزمان الاول : زمن الشباب ، وقد تمثل المؤلف بهذه الآيات كما تمثل الزمخشري

« ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلم نفسه »، ومستعتب : مصدره يمي معناه طلب الرضا ، تقول : استعبت فلانا : إذا طلبت منه العتي ، وهى الرضا ، يريد : ليس بعدالموت من استرضاء ، لأن الأعمال بطلت وانقضت زمانها ، وما بعدالموت دار جزاء لا دار عمل ،

وقال أبو العتاهية :

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم مغبر
الخير مما ليس يخفى هو المعروف والشر ذو المنكر
والوعد الموت وما بعده الحشر فذاك الموعد الأكبر
لا تنخر إلا غر أهل الثقى غدا إذا ضمهم المحشر
ليعلن الناس أن الثقى والبر كانا خيراً ما يذخر
عجبت الإنسان في نفسه وهو غدا في قبره يقبر
مابال من أوله نظفة وجيفة آخره يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره فى كل ما يقضى وما يقدر

« أما قوله : يا عجباً للناس لو فكروا... ألبيت ، فأخوذ من قولهم : الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك ؛ ومن قول لقمان لابنه : يا بني ، لا ينبغي لعاقل أن يخجل نفسه من أربعة أوقات ، فرقت منها يناجى فيه ربه ، ووقت يحاسب فيه نفسه ، ووقت يكسب فيه لمعاشه ، ووقت يخجل فيه بين نفسه وبين لذتها ليستعين بذلك على سائر الأوقات . وقوله : وعبروا الدنيا إلى غيرها... ألبيت . مأخوذ من قول الحسن البصري : أجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها ولا تعمرها .

وقوله: الخير مما ليس يخفى... ألبيت، مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عبد الله، كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس ^(١) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ ^(٢) وصارَ الناسُ هكذا، وشَبَّكَ بين أصابعِهِ؟ فقلتُ: مُرِّقِي، يا رسول الله، فقال: تُخَذُّ مَا عَرَفْتَ وَدَعَّ مَا أَنْكَرْتَ وَعَلَيْكَ بِخَوْيَصَةِ نَفْسِكَ وَإِيَّاكَ وَعَوَامَّهَا ^(٣)... وقوله: لِيَعْلَمَنَّ النَّاسُ... ألبيت، مأخوذ من حديث أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا حُشِرَ الناسُ في صعيد واحد نادى مُنَادٍ من رِجْلِ الْعَرْشِ: لِيَعْلَمَنَّ أَهْلُ الْمَوْقِفِ مَنْ أَهْلُ الْكَرَمِ الْيَوْمَ؟ رَلَيْتُمْ الْمُتَّقُونَ، ثم تلا رسول الله: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، وقد تقدم صدرَ باب البر أن الاخل سَبَقَ أبا العتاهية في هذا بقوله:

وإذا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ
وقوله: ما بال من أوله نطفة... ألبيت، مأخوذ من قول علي رضي الله عنه: وما ابن آدم والفخر وإنما أوله نطفة وآخره جيفة، لا يَرْزُقُ نَفْسَهُ، وَلَا يَدْفَعُ حَتْفَهُ، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه يقول: أيها الناس إنما خُلِقْتُمُ الْمَالِدَ، وَلَكِنِّكُمْ تُنْقَلَوْنَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ... وقال مالك بن دينار ^(٤):

- (١) أصل الحثالة: ما يبقى في الإناث من ردى الطعام، وحثالة التمر: أردؤه وما لا خير فيه، ضربه رسول الله لرجال الناس وشرارهم
(٢) مَرَجْتَ عُهُودَهُمْ: اختلطت وذهبت بهم كل مذهب، ومرج: كطرب، أما مرج الماء بمعنى سال فلم يكن له مانع، فبابه نصر.
(٣) خويصة: تصغير خاصة، بأمره صلى الله عليه وسلم بمجاهدة نفسه ويحذر مشاركته العامة في أعمالها (٤) كان عالما زاهدا لا يأكل إلا من عمل يده مات سنة إحدى وثلاثين بالبصرة.

جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم... وقال على رضى الله عنه : مَنْ سَرَهُ
الْغِنَى بِلَا مَالٍ ، وَالْعِزُّ بِلَا سُلْطَانٍ ، وَالكَثْرَةُ بِلَا عَشِيرَةٍ ، فَلْيَتَخَرَّجْ مِنْ ذَلِكَ
بِعَصِيَةِ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ ، فَإِنَّهُ وَاجِدُ ذَلِكَ كُلِّهِ ... وقال يزيد بن الصَّقِيلِ الْعَقِيلِيُّ -
وكان يَسْرِقُ الْإِبِلَ فِي عَهْدِ بَنِي أُمَيَّةٍ ثُمَّ تَابَ وَقُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - :

أَلَا قُلْ لِأَرْبَابِ الْخَائِضِ أَهْمِلُوا فَقَدْ تَابَ يَمَّا تَعْلَمُونَ يَزِيدُ
وَلِأَنَّ امْرَأَةً أَتَتْهُ مِنَ النَّارِ بَعْدَ مَا تَزَوَّدَ مِنْ أَعْمَالِهَا لَسَعِيدُ

« الخائض جمع مخاض - ومخاض واحد خِلْفَةٌ - الناقة استبان حملها - فمخاض
جمع الجمع ، ومخاض ! جمع على غير واحد ، كما تقول : امرأة ونساء ، وقوله : أهملوا :
أى أَسْرَحُوا إِبِلَكُمْ - » وفي هذا الشعر :

إِذَا مَا الْمَنَائِيَا أَخْطَأَتْكَ وَصَادَفَتْ حَمِيمَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهَا سَتَعُودُ

وفي معنى هذا البيت ما يروى عن محمد بن الحنفية - ابن الإمام على - أنه
كان يقول - إِذَا مَاتَ لَهُ جَارٌ أَوْ حَمِيمٌ - : أَوْلَى لِي ، كِدْتُ وَاللَّهِ أَكُونُ
السَّوَادَ الْمُخْسَرَمَ ... « أولى لى ، مثله : أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ، وهى
كلمة تهديد ووعد ، معناها : قاربك ماتكره ، أو الشرُّ أقرب إليك ، والسوادُ :
شخص الإنسان وكلُّ شيء من متاع وغيره ، وفي الحديث : إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ سَوَادًا
بَلِيلٍ فَلَا يَكُنْ أَجْبَنَ السَّوَادِينَ ، فإنه يخافُكَ كما تخافُهُ ، والمُخْتَرَم - من اخترمته
المنية : أخذته من بين أصحابه ... »

وقال أبو نواس :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَاةِ بَدَلَوْهُمْ وَأَسْمَتُ سُرْحَ اللَّهِ وَحَيْثُ أَسَامُوا
وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ فَإِذَا عُصَاةٌ كُلُّ ذَلِكَ أَفَامُ

« أثم كسلام : عقاب الإثم وجزاؤه ، ونهزت بدلهم يقال : نهزت بالدلو في البئر : إذا حركتها لتملئ ... وهو هنا على المثل ... يقول أبو نواس : لقد غَوَيْتُ زماناً مع الغَوَاةِ وَلَهَوْتُ كَمَا لَهَوُوا وَخَلَعْتُ عِذارِي كَمَا خَلَعُوا عِذارَهُمْ وَبَلَغْتُ شِبابِي المَبَالِغَ ، من اللهو والبغى والفساد ، وَأَنْلَيْتُهُ أَقْصَى مَا يَشْتَهِي من شهوات الحياة الدنيا ، فوجدتُ كلَّ ذلك ضلالاً في ضلالٍ وَعَبَثاً في عبثٍ وظلماتٍ بعضها فوق بعض ، وما اجْتَنَيْتُ من ورائه إِلَّا المُرَّ والحَنْظَلُ ، من الأدواء والأسقام والبُعد عن ملكوت الله وقُدْسِيَّتِهِ ، وكلَّ مَأْثُورِهِ المعاصي من الدَّسِّ والطَّبع والرَّيْنِ ، وَإِنَّ في ذلك لَعِبْرَةً لِمَن اَعْتَبَرَ »

وقال هشامُ بنُ عبد الملك - وهو من الآيات المنفردة القائمة بنفسها - :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَغْصِ الهَوَى قَادَكَ الهَوَى

إلى بعض ما فيه عليك مقال

وهذا بكلام الملوك أشبه ، ومن كلمة للسيدة عائشة رضي الله عنها : مَنْ أَرْضَى اللهَ يَسْخِطِ الناسَ ، كَفَاهُ اللهُ ما بينه وبين الناسَ ، وَمَنْ أَرْضَى الناسَ يَسْخِطِ اللهُ ، وَكَأَنَّ اللهَ إلى الناسَ ، وَمَنْ أَصْلَحَ سِرِّيَّتَهُ ، أَصْلَحَ اللهُ عِلَانِيَتَهُ . وفي حديث الدعاء : لَا تَكِلْنِي إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ فَأَهْلِكَ ... تَوَلَّانا اللهُ بِرِعايَتِهِ الصَّمَدَانِيَّةِ إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ ...

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

وهذا بابُ الشكر بابٌ له مَكَاتِنُهُ فيما خَلَّفُوهُ لَنَا من آدابٍ وذخائرٍ، وإنَّ بينه وبين البر على جميع ألوانه لَرَحْمًا مَاسَّةً وقرابةً قَرِيبَةً، ومن ثمَّ جعلناه رِدْفَآلَهُ، وأُفَرَدنا له هذا الباب .

معنى الشكر

والشكر: مُقَابَلَةُ النِّعْمَةِ بالقول والفعل والنَّيَّةِ، فَيُنْفِي الْمُنْعَمُ عَلَيْهِ عَلَى الْمُنْعِمِ بِلِسَانِهِ، وَيُذِيبُ نَفْسَهُ فِي طَاعَتِهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُوَالِيهَا؛ وَهُوَ مِنْ شَكَرَتِ الْإِبِلُ تَشْكُرُ: إِذَا أَصَابَتْ مَرَعَى فَسَمِنَتْ عَلَيْهِ. وَإِذَنْ يَكُونُ مَعْنَى شُكْرِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ: أَنْ يَحْتَدَّ الْعَبْدُ جُهْدَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَيُؤَدِّي مَا وَظَّفَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ وَلِيُّ نِعْمَتِهِ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ عَزَّ وَتَقَدَّسَ... وَقَدْ جَاءَ الشُّكُورُ وَصْفًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَزْكُو عِنْدَهُ الْقَلِيلُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَيُضَاعِفُ لَهُمُ الْجَزَاءَ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهُ: الْمَغْفِرَةُ... هَذَا؛ وَإِنْ فُرِّقَ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ، فَالشُّكْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ يَدٍ، وَالْحَمْدُ عَنْ يَدٍ وَعَنْ غَيْرِ يَدٍ وَأَنْشَدُوا لِأَبِي نُحَيْلَةَ (١):

(١) شاعر إسلامي، وكان أسود، والرجز أغلب عليه من الشعر، وسمى أبا نُحَيْلَةَ لِأَنَّ أُمَّهُ وَلَدَتْهُ تَحْتَ نُحْلَةٍ فَهُوَ اسْمُهُ، وَيَمْدَحُ بِهَذَا الشَّعْرُ مُسْلِمَةَ بِنْتُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا:
أَمْسَلَمَ إِنِّي يَا ابْنَ كُلِّ خَلِيفَةٍ وَيَا فَارِسَ الْهَيْجَا وَيَا قَمَرِ الْأَرْضِ
وقوله: فَنَبِهَتْ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلًا: أَخَذَهُ أَبُو تَمَامٍ فَكَشَفَ مَعْنَاهُ وَحُسْنَهُ بِالصَّنَاعَةِ

شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ الثَّقَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضَى
فَنَبَّهْتَ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلًا وَلَكِنْ بَعْضُ الذِّكْرِ أَنْبَاءُ مِنْ بَعْضٍ
قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ يَدٍ ، أَلَا
تَرَاهُ يَقُولُ : وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضَى ؟ أَيْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً
يَشْكُرُكَ عَلَيْهَا وَيُقَالُ : شَكَرَهُ وَشَكَرَ لَهُ ، وَبِاللَّامِ أَفْضَحُ ، وَتَقُولُ : شَكَرْتُ
نِعْمَةَ اللَّهِ ، وَلِنِعْمَتِهِ ، وَتَشْكُرُ لَهُ بِلَاغِهِ ، كَشَكَرَهُ ، وَتَشْكُرُ لَهُ مِثْلَ شَكَرَ لَهُ ،
هَذَا خِلَاصَةُ مَا قَالَهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ . وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ فِيمَا قَالَ ، إِذَا طَالَ : الشُّكْرُ :
عِرْفَانُ الْإِحْسَانِ ، وَمِنْ اللَّهِ الْمَجَازَاةُ ، وَأَصْلُ الشُّكْرِ : تَصَوُّرُ النِّعْمَةِ وَإِظْهَارُهَا
وَحَقِيقَتُهُ : الْعَجْزُ عَنِ الشُّكْرِ ، إِلَى أَنْ قَالَ : وَالشُّكْرُ الْعُرْفُ : صَرَفُ الْعَبْدِ
جَمِيعَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهَا ، إِلَى مَا خَلَقَ لَهُ
وَأَعْطَاهُ لِأَجْلِهِ ، كَصَرَفِ النَّظَرِ إِلَى مَصْنُوعَاتِهِ ، وَالسَّمْعِ إِلَى تَلَقُّي لِنَذَارَاتِهِ ،
وَالذَّهْنِ إِلَى فَهْمِ مَعَانِيهَا ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ :
وَتَوَفِيَّةُ شُكْرِ اللَّهِ صَعْبٌ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُسْتَنْ بِالشُّكْرِ مِنْ أَوْلِيَانِهِ إِلَّا عَلَى إِبْرَاهِيمَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ
يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؛ وَعَلَى

فَقَالَ مِنْ آيَاتِ يَمْدَحِهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزُّبَاي :

لَقَدْ زِدْتُ أَوْضَاحِي امْتِدَادًا وَلَمْ أَكُنْ

بِهَا وَلَا أَرْضِي مِنَ الْأَرْضِ بِجَهْلًا

وَلَكِنْ أَبَادٍ صَادَفْتَنِي جِسَامُهَا أَغْرَّ فَأَوْفَتْ بِي أَغْرَّ مُحْجَلًا

وَالْأَوْضَاحُ جَمْعُ وَضْعٍ وَهُوَ الْيَاضُ ، وَالْبَهِيمُ : الْأَسْوَدُ ، وَالْمُجْهَلُ : أَرْضُ بِلَا أَعْلَامٍ
وَهَذَا عَلَى الْمَثَلِ ،

نُوح عليه السلام إذ قال : إنه كان عبداً شكوراً ... ونَزِيد هذا توكيداً وتبييناً
 ليُراد كلمة الراغب في الذريعة ، قال الراغب - مع شيء من التصرف - :
 الشكر تصوُّرُ المُنْعَم عليه النعمة ، وإظهارُها ، وبضادّه الكُفْر ، وهو - أى الكفر -
 من كَفَرَ الشيء : غَطَاه ، ودَابَّةٌ شكور : أى مُظْهِرَةٌ بِسْمَنِهَا إِسْدَاءَ صاحبها
 إليها ؛ وقيل : أصله من عَيْنُ شَكَرَى : أى مُتَمَلِّئَةٌ ، فالشكر هو : الامتلاء من
 ذكر المنعم عليه المُنْعِم ، ومن هذا الوجه قيل : هو أبلغ من الحمد ، لأن الحمد
 ذِكْرُ الشيء بصفاته ، والشكر : ذكر الشيء بصفاته وبنعمه ، فالشكر على ثلاثة
 أَضْرِبٍ : شكرٌ بالقلب ، وهو تصوُّر النعمة ، وشكرٌ باللسان ، وهو الثناء على المنعم ،
 وشكرٌ بسائر الجوارح ، وهو مكافأته بقدر استحقاقه ؛ وهو أيضاً باعتبار الشاكر
 والمشكور : ثلاثة أَضْرِبٍ : شكر الإنسان لمن هو فوقه ، وذلك يكون بالخدمةِ
 والثناء والدعاء ، وشكرٌ لنظيره ، وهو بالمكافأة ، وشكر لمن هو دُونَهُ ، وهو
 بالثواب والإفضال . وشكرُ العبد لله سبحانه هو : معرفةُ نعمته وحِفْظُ جوارحه
 بمنعِها من استعمال مالا ينبغي . ثم قال : وشكرُ المنعم في الجملة واجبٌ بالعقل ،
 كما هو بالشرع ، - وهذه مسألة كلامية انظرها في كليات أبي البقاء ، - وأوجبها
 شكرُ البارئ تعالى ، ثم شكرُ مَنْ جعله سبيلاً لوصول خير إليك على يده ، ولهذا
 قال عليه الصلاة والسلام : لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لم يَشْكُرِ الناسَ ؛ قال : وقال
 بعضهم : كلُّ نعمةٍ يُمكنُ شكرُها إلا نعمةَ الله ، فإنَّ شُكْرَ نعمته نعمةٌ منه ،
 فيحتاج العبد أن يَشْكُرَ نعمةَ الشكر ، كما شكر أصل النعمة ، وهكذا حتى يُودَى
 ذلك إلى مالا يتناهى ، ومن هذا أخذ الشاعر الذي يقول :

إذا كان شُكْرِي نعمةَ الله نعمةً علىَّ له في مثْلِها يجبُ الشُّكْرُ
 فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضله وإن طالَّتْ الأيامُ واتَّصلَ العمرُ

ولهذا قيل: غايةُ شكر الله تعالى الاعترافُ بالتعجزِ عنه ، بل قد قال الله تعالى :
 وإن تُعدُّوا نعمة الله لا تحصوها ، وأيضا فكلُّ ما يفعلُ الله بعبده فهو نعمة منه ،
 وإن كان بعض ذلك يُعَدُّ بليَّةً ، ولهذا قال بعض الصالحين : ياتنُّ منُّه
 عطاءً وبلاؤه نِعْماءٌ ^(١) ... ولاجل صعوبة شكر الله قال عز وجل : وقليل
 من عبادي الشكور ...

عقوباتهم في الشكر

حثُّهم على الشكر

قال حكيم : إذا قُصِرَتْ يدُك عن المكافأة فليُطْلُ لسأئك بالشكر ؛ وقالوا :
 النِّعم إذا شُكِرَتْ قَرَّتْ وإذا كُفِرَتْ فَارَتْ . والأصل في هذا قوله تعالى :
 وإذا تَأَذَّنْ رَبُّكُمْ لئنْ شكرْتُمْ لأزيدنكم ولئنْ كفرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لشديد ...
 وقالوا : النِّعمُ وحشيَّةٌ فاشْكروها بالشكر ؛ يقال : شكَل الدابة يشكُلها : شدَّ
 قوائمها بجبل ، واسم ذلك الجبل : الشِّكال ، وقال ابن المقفع : استوثقوا عُرَى
 النِّعم بالشكر . « العُرَى جمع عُروة ، والعروة في الأصل تقال لعروة الدلو والكموز
 ونحوه ، أى مقبضه . والعروة المازدة أى أذنها . والعروة القميص : مدَّخِلُ زَرِّه ،
 ولعروة النَّبات : ما بقى له خضرة في الشتاء ترعاها الإبل إذا أجذب الناس ، ومن

(١) هذا كلام بعيد الغور غاية في النفاسة ، وقد بما قرأت كلاما لا أذكر لفظه بيدان
 معناه لا يزال عالقا بذهنى ، وهو أن الإنسان قد يظن أن حرمانه الجاه أو المال أو ما
 إليهما ، شروقة ، ولكنه في الحقيقة نعمة ، إذ لو أعطى ما يشتهيه من المال أو الجاه
 لساءت حاله وكان هذا المال أو الجاه بما يفسده لئما يصلحه ومن ثم حثوا على أن
 يرضى الإنسان بما أعطى ويعتد ذلك مدرجة إلى صلاحه وحسن حاله وأن ما أعطاه الله
 إياه مهما كان قليلا هو الخير كل الخير في الواقع ولا خير في غيره ولا صلاح ...

هذا استعاروا العروة لكل ما يلجأ إليه ويُعَوَّل عليه ويوثق به ويُتَمَسَّك؛ فيقال لقادة الجيش: العُرى، والصحابة رضوان الله عليهم: عُرى الإسلام، وقوله تعالى: فقد آتَمَسَكَ بالعروة الوثقى لانفصام لها؛ شَبَّه ما يعتصم به من الدين بالعروة التي يُتَمَسَّك بها ويلجأ إليها، والوُثْقَى: المُحْكَمَةُ، فقول ابن المقفع: استوثقوا: أى أحكموها، وقال البحتري:

يزيد تفضلاً وأزيد سُكراً وذلك دأبه أبداً ودأبي
وقال عمرو بن مسعدة: لا تَصْحَب من يكون استمتاعه بمالكٍ وجاهك
أكثرَ من إمتاعه لك بشكر لسانه وفرائد عمليه. وقال يحيى بن أكرم: كنت
عند المأمون فأثنى برجل تُرْعِد فرائضه، فلما تَئَلَّ بين يديه قال المأمون:
كفرتَ نعمتي ولم تشكر معروفي! فقال: يا أمير المؤمنين، وأين يقع سُكْرِي
في جنب ما أنعم الله بك عليّ! قال يحيى: فنظر إلى المأمون وقال مُتَمَثِّلاً:

ولو كان يَسْتَفْنِي عن الشكر ماجدٌ لرفقة نذر أو عُلُو مكان
لما أمرَ الله العبادَ بِشُكْرِهِ فقال: أشكروا لي أيها الثقلان
ثم التفتَ إلى الرجل وقال: هلاً قلت كما قال أضرَمُ بن حميد:

مُلِكْتَ حَمِيدِي حَتَّى إِنِّي رَجُلٌ كُلِّي بِكُلِّ ثَنَاءٍ فِيكَ مُسْتَعِيلُ
خَوَّلْتُ سُكْرِي لِمَا خَوَّلْتَنِي نِعَمٍ فُحِرْتُ سُكْرِي لِمَا خَوَّلْتَنِي خَدَمِ
وقريب من هذا قول أبي الفتح البستي:

أئن عَجَزْتَ عن شكر بَرِّك فُونِي وأتَوَى الْوَرَى عن شكر بَرِّكَ عَاجِزُ
فإن ثَنَائِي واعتِقَادِي وطَاقَتِي لَأَفْلَاكِ مَا أَوَاتَيْتَهَا مَرَاكِزُ
ومن أروع ما قيل في الشكر قول البُحْتَرِيِّ:

فَلَوْ كَانَ لِلشُّكْرِ شَخْصٌ يَبِينُ إِذَا مَا نَأَمَّ لَهُ النَّاطِرُ

لَبَيْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ فَتَسْلَمَ أُنَى امْرُؤٍ شَاكِرٍ
ولكنه ساكنٌ في الضمير يُحَرِّكُهُ السَّكِيمُ السَّائِرُ

وقال عبد الله بن الزبير الأسدي في عمرو بن عثمان بن عفان - لما زاره فنظر
عمرو فرأى تحت ثيابه ثوباً رثياً ، فدعا وكيله وقال : اقترض لنا مالاً ، فقال : هيات
ما يُعطينا التُّجَّار شيئاً ، قال : فأربحهم ماشأوا : فاقترض له عشرة آلاف فوجه
بها إليه مع تَحْتِ ثياب « التخت : وعاء تصان فيه الثياب » - :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا مَا تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أَيْادِي لَمْ تُتَمَنَّ وَإنْ هِيَ جَلَّتْ
قَتَى غَيْرُ مُحْجُوبٍ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلَا مُظْهِرٍ الشُّكُورَى إِذَا النُّعْلُ زَلَّتْ
رَأَى خَلَّتْ مِنْ حَيْثُ يُخْفَى مَكَانَهَا فَكَانَتْ قَذَى عَيْنِهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

د قوله : سأشكر : فالعرب تستعمل السين إذا أرادت تكرار الفعل
وتأكيده ولا تريد التنفيس فيه . ولم تمن : لم يتبعها من ، وإذا النعل زلت :
يريد : إذا زلت قدمه في مزالق الدهر فلا يجد مركباً يقيه مصرع السوء
ولا مَسْكاً يعتمد عليه في نهضته ، والخلة : الحاجة ، وقوله من حيث يخفى
مكانها : أى من حيث لا يدركها لحاظ غيره ، وفكانت قذى عينيه : أبرع كلمة
في معنى الاهتمام بالحاجة ...

وقال ابن عَنقَاء الْفَزَارِيُّ فِي عُمَيْلَةِ الْفَزَارِيِّ - وَكَانَ قَدْ وَصَلَهُ بِنَصْفِ مَا !

لَمَّا رَأَى مِنْ رَثَائِهِ حَالِهِ ، وَكَانَ عُمَيْلَةً غَلَامًا جَمِيلًا - :

رَأَى عَلَى مَا بِي عُمَيْلَةً فَاشْتَبَكَ إِلَى مَا لِي حَالِي أَسْرًا كَمَا جَهَرَ
دَعَانِي فَأَسَانِي وَلَوْ ضَنَّ لَمْ أَلَمْ عَلَى حِينٍ لَا بَدْوٌ يُرْجَى وَلَا حَضَرُ
غُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ يَا فَعَا لَهُ سَيِّمِيَاءُ لَا تَشْقُ عَلَى الْبَصَرِ
كَأَنَّ الثَّرِيًّا عُلِقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشُّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْقَمَرُ

إِذَا قِيلَ الْعُورَاءُ أَعْضَى كَأَنَّهُ ذَلِيلٌ بِلَا ذُلٍّ وَلَوْ شَاءَ لَا تَنْصَرُ
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدَ اسْتَعِيرَ ثِيَابَهُ تَرَدَّى رِدَاءً وَاسِعَ الذَّلِيلِ وَأُتَزَّرُ
فَقُلْتَ لَهُ خَيْرًا وَأُثْنَيْتُ فِعْلَهُ وَأَوْفَاكَ مَا اسْدَبَتْ مَنَ ذَمٍّ أَوْ شُكْرِ

« السِّمَا والسِّمِيَا والسِّمَاء والسِّمِيَاء : العلامة يُعرف بها الخير والشر ،
وقوله : لَا تُشَقُّ عَلَى الْبَصْرِ يريد : لَا تُؤْذِيهِ بِلِ يُسَرُّ بِهَا ، وَالْثُرَيَّا : مِنَ الْكُوكَبِ
كَثِيرَةِ الْأَنْجَمِ مَعَ صَغَرِ مَرَاتِمَا ، وَالشَّعْرَى يريد بها الشَّعْرَى الْعَبُورُ ، وَهُوَ كُوكَبُ
نَيْرٍ خَلْفَ الْجُوزَاءِ يُطْلَعُ فِي صَمِيمِ الْحَرِّ . وَالْعُورَاءُ : الْكَلِمَةُ الْقَبِيحَةُ ،
وَأَعْضَى : أَطْبَقَ أَجْفَانَهُ حَيَاءً وَنَبَلًا ؛ وَاسْتَعِيرَ ثِيَابَهُ : كُنِيَ بِذَلِكَ عَنْ
قَلَّةِ الْإِبْجَادِ »

العجز عن الشكر

قال بعضهم :

أَيَادِي لَا أَسْطِيعُ كُنَّةَ صِفَاتِهَا وَلَوْ أَنَّ أَعْضَاءِي جَمِيعًا تَكَلَّمُ
وقال آخر :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ ثَمَنِيَةِ شَعْرَةٍ لِسَانًا يَبُثُّ الشُّكْرَ فِيكَ لَقَصَّرَا
وقال بعضهم : شُكْرِي لَا يَقَعُ مِنْ نِعْمَةِ الظَّاهِرَةِ : دَوْقِ النَّقْطَةِ مِنَ الدَّائِرَةِ .

وقال أبو نُوَاس :

قَدْ قُلْتُ لِلْعَبَاسِ مُعْتَذِرًا عَنْ ضَعْفِ شُكْرِيهِ وَمُعْتَرِفًا
أَنْتَ أَمْرٌ جَلَلْتَنِي نِعْمًا أَوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفَا
فَالْيَكِ مِنْ يَوْمٍ تَقْدِمَةً تَلْقَاكَ بِالتَّضَرُّجِ مُنْكَشِفًا
لَا تُسَدِّدَنَّ إِلَى عَارِيَّةٍ حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

«شكريه : شكرى إياه» وقال المتنبي :

ولم تَمَلَّ تَفْقُدَكَ المَوَالِي ولم نَذُمَّ أَيَادِيكَ الجِسامَا
ولكن الغُيُوثَ إِذَا تَوَالَتْ بأَرْضِ مُسَافِرٍ كِرَةِ المَقَامَا

الموالى جمع، ولى : العبد، وتروى الموالى : أى الذى يلى بعضه بعضاً، والأيادى النعم، والجسام : العظام، وقوله ولكن الغيوث ... البيت، فالغيوث جمع غيث : المطر، وتوالت : تابعت، والمقام : الإقامة؛ يقول : إن المسافر إذا كثر عليه المطر ملّ إقامته واحتباسه، لأجل المطر، كذلك نحن، عطايك تتوالى علينا وأنت قيدتنا يا حسانك وأنا مسافر أريد الارتحال ولولا هذا لم أملت نعمتك، والمطر يسأله كل أحد إلا المسافر... وقال البُحْتَرى وأبدع :

أَخَجَلْتَنِي بِنَدَى يَدَيْكَ فَسَوَّدَتْ ما بَيْنَنَا تِلْكَ اليَدُ البَيْضَاءُ
وقَطَعْتَنِي بِالْجُودِ حَتَّى لَأَنَّى مُتَخَوِّفٌ أَنْ لَا يَكُونَ إِقْدَاءُ
صِلَّةٌ عَدَدَتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ طِيعَةٌ عَجَبٌ، وَبِرٌّ رَاحَ وَهُوَ جَفَاءُ
وقال أيضاً :

إِيهًا بِالْفَضْلِ شُكْرِي مِنْكَ فِي نَصَبٍ أَقْصِرْ فَإِلَى جَدِّوَاكَ مَنْ أَرَبِ
لَا أَقْبِلُ الدَّهْرَ نَيْلًا لَا يَقُومُ بِهِ شُكْرِي وَلَوْ كَانَ مُسْدِيهِ إِلَى أَبِي
ومن ألفاظهم فى ذلك : شُكْرُهُ شَأْوٌ بَعِيدٌ لَا تَبْلُغُهُ أَشْوَاطِي ، وَلَا أَتْلَفُ فِي
التفريط فيه يافراطى « الأشواط جمع شوط : الجرى مرّة إلى غاية تقول : عدا - جَرَى - شوطاً ، أى طَلَقاً » وعندى له تَبَارُّزٌ أعجزنى شكرها ، كما أعوزنى حَضْرُها
« مبارّج جمع مبرة » وقال بعض الشعراء فى الصاحب بن عباد :

وَفَدَّنَا لِنَشْكُرَكَ كَافِيَ الكُفَاةِ وَنَسْأَلُهُ السَّكْفَ عَنْ بَرِّنَا

فقال بعض الحاضرين : قد كُفِّيت ، فإن الصاحب صار لَا يُعْطَى شيئاً...

من لا تخفى أياديه

قال نُصَيْبٌ^(١) :

فَعَا جُوا فَأَثْوُوا بِالذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَّتُوا أَثْنْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ
وقال بعضهم :

وَكَيْفَ بِكَفْرَانِي صَنَائِعُهُ الَّتِي إِذَا جُحِدَتْ يَوْمًا أَقَرَّ بِهَا جِلْدِي
ومثله :

وَإِذَا سَكَتُ فَإِنَّ أَنْطَقَ مِنْ فَمِي عَنِّي يَدُ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ
وقالوا في أمثالهم : لسانُ الحال أفصح من لسانِ الشكر ... ومن كلمة
للجاء حظ : نحن نُزَخِرُفُ بِاللِّسَانِ ، وَالنَّاسُ يَقْضُونَ بِالْعِيَانِ ، وَفِي أَمْرِنَا أَثَرٌ
يَنْطِقُ عَنَّا ، وَيَتَكَلَّمُ إِذَا سَكَّتْنَا ...

الشكر بقدر الاستحقاق

وَعَتَبُهُمْ مَنْ شَكَرُوهُ وَلَمَّا يَنْتَوِجِبْ

قال علي بن أبي طالب : انشاء من غير الاستحقاق مَلَقٌ ، والتقصير عن

(١) هو نصيب بن رباح من أهل وِزَانَ وكان عبداً لرجل من كنانة هو وأهل بيته ، وكان أهل البادية يدعونه « النصيب » تفخيماً له وكانت أمه أمة سوداء وكان شاعراً فخلاً فصيحاً مقدماً في النسيب والمدح وكان أثيراً عند الملوك ، وهذا البيت من أبيات له في سليمان بن عبد الملك وأول الأبيات :

أَقُولُ لِرَكْبٍ صَادِرِينَ لَقَيْتُهُمْ تَفَاذَاتِ أَوْشَالٍ وَمِرَالِكَ قَارِبُ
قَفُّوا خَبْرُوتِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنِّي لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَّانٍ طَالِبُ
فَعَا جُوا

وتفا : أي خلف والعرب تقول : لقيت فلاناً قفا العتبة أو الثانية : أي خلفها ، وميرال : يخاطب سليمان ويريد بالمولى نفسه ولعله يريد بذات أوشال : موضعاً بعينه ، والقارب في الأصل : طالب الماء ليلاً ،

الاستحقاق عني وحسب، وقال رجل لابن الأعرابي: إن نُضِيْباً — الشاعر الذي تقدم ذكره — يقول: إنما تُمدح الرجال على قدر ثوابها، فقال: إن العرب تقول: على قدر رِيحِكُمُ تَمَطُّرون... وقال الصاحب بن عباد:

وَإِذَا الصَّدِيقُ أَدَامَ سُكْرِي لِلَّتِي لَمْ آتِهَا إِلَّا عَلَى التَّقْدِيرِ
أَيَقْنْتُ أَنَّ الْعَتَبَ بَاطِنُ أَمْرِهِ فَسَكَتُ مُحْتَشِمًا عَلَى التَّقْصِيرِ

من لم يَرَدِّعْهُ خَوْفُهُ عَنِ الشُّكْرِ

بعث أبو جعفر المنصور إلى شيخ من بطانة هشام بن عبد الملك، فاستحضره وسأله عن تدبير هشام وأحواله، فأقبل الشيخ يقول: فقل رحمه الله، وقال يوم كذا رحمه الله، فقال المنصور: قُمْ لِعَمَلِكَ اللَّهُ، أَتَطَأُ بِسَاطِي وَتَرْحَمُ عَلَى عَدُوِّي! فقال الشيخ: إن نعمة عدوك لِقِلَادَةٌ فِي عُنُقِ لَا يَبْزُعُهَا إِلَّا غَاسِلِي، فقال المنصور: أَرْجِعْ إِلَى حَدِيثِكَ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ غَرَسَ شَرِيفَ وَابْنُ حُرَّة... وَلَمَّا قَتَلَ مَسْلُةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ أَمْرًا بِأَنْ يَحْضُرَ الشُّعْرَاءُ لِيَقُولُوا فِي ذَلِكَ، فَلَمْ يَأْلُوا أَنْ ذَكَرُوهُ بِأَقْبَحِ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، مَا خَلَا رَجُلًا مِنْ بَنِي دَارِمٍ فَإِنَّهُ قَالَ: لَا أَذُمَّ رَجُلًا لَا أَمْلِكُ رَيْعًا وَلَا مَالًا وَلَا أَثَمًا إِلَّا مِنْهُ وَلَوْ قُطِّعَتْ إِرْبَابُ إِرْبَابًا^(١)، وَلَقَدْ رَثَيْتُهُ بِأَحْسَنِ مَا يُرْتَى بِهِ رَجُلٌ. وَأَنْشَدَ أَيْبَاتًا رَائِعَةً — فَجَزَاهُ مَسْلُةُ خَيْرًا وَقَالَ: إِذَا اضْطَنَعَ فَلْيُصْطَنِعْ مِثْلُ هَذَا... أَقُولُ: لَا أَدْرِي: أَمْ يَقِفُ هَؤُلَاءِ الْبَرَّةَ الْوَفِيَاءَ الشُّجْعَانَ الصُّرَحَاءَ يُعْجِبُ الْمَرْءَ، أَمْ بِأَوْلَئِكَ الْمُلُوكِ الَّذِي يَقْدَرُونَ هَذَا الْوَفَاءَ وَيَطْرَبُونَ لَهُ وَلَوْ كَانَ فِي جَانِبِ أَعْدَائِهِمْ أَفَلَهُ دَرُّ أَوْلَئِكَ النَّاسِ الَّذِينَ شَرَفُوا الْإِنْسَانِيَّةَ بِهَذِهِ الْخَلِائِقِ الْكَرِيمَةِ النَّبِيلَةِ، يَنْبِئُ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالْجَبَنِ وَالْزَلَالَةِ قَدْ كَلَّمُوا^(٢) الْإِنْسَانِيَّةَ

(٢) كَلَّمُوا: جَرَحُوا

(١) إِرْبَابُ إِرْبَابٍ: عَضَاوُ عَضَاوٍ

وهو را بها إلى الحضيض الأوهـد ...

شكر من همَّ بإحسان ولم يفعل

وقالوا : من لم يشكرك على حُسن النية ، لم يشكرك على إسداء العطية .
وقال شاعر :

لأشكرنَّكَ معروفًا همَّتَ به إنَّ اهْتِمَامَكَ بالمعروفِ معروفُ
ولا أذُنُكَ إن لم يُمنِّهِ قدرُ فالشيءُ بالقدر المحترِّمِ مصروفُ

ثَقُلُ الشكر والحمد

وقال أبو تمام في ثقل الشكر والحمد من آيات له في الحسن بن وهب :

والحمدُ شَهِدٌ لا تَرَى مُشْتَارَهُ يَجْنِيهِ إِلَّا مِنْ نَقِيعِ الْخَنْظَلِ ^(١)

عُلٌّ لِحَامِلِهِ وَيَحْسِبُهُ الَّذِي لم يُوهِ عَاتِقُهُ خَفِيفَ الْحِمْلِ ^(٢)

وقيل لبعض الصالحين : مالك لا تطلب الدنيا ؟ فقال : من خاف السؤال

عن الشكر طابت نفسه عن المال ...

وقال أبو العتاهية :

ما فاتني خيرُ امرئٍ وَضَعْتُ عَنِّي يَدَاهُ مَوْوَنَةَ الشُّكْرِ

ترغيبهم في الثناء ووصفهم إياه بالبقاء

وتفضيلهم إياه على المال والعطاء

قال عمر بن الخطاب لابنة هَرَمِ بن سنانٍ ممدوح زهير بن أبي سلمى :

(١) المشتار : مستخرج العسل ، والشهد : بفتح الشين وضمها : العسل في شمعها

(٢) الغل : القيد ، والحمل : الحمل

ما وَهَبَ أبوكَ لَوْهُيرَ ؟ فنالت : أموالا فَنِدَتْ وَأَثْوابا بَلَيْتَ وَأَشْيَاءَ انْتَسَيْتَ ،
فقال الفاروق : لكن ما أعطاكوه زُهَيْرٌ لَا يَفْنَى وَلَا يُنْسَى ... وكتب
أرسطو إلى الإسكندر المقدوني : إِنَّ كُلَّ عَقِيلَةٍ ^(١) يَأْنِي عَلَيْهَا الدَّهْرُ ، فَيُخْلِقُ
أَثَرَهَا وَيُمِيتُ ذِكْرَهَا ، إِلَّا مَا رَسَخَ فِي الْقُلُوبِ ، مِنَ الذِّكْرِ الْحَسَنِ يَتَوَارَثُهُ
الْأَعْقَابُ . وقالوا : في الثناء الباقي على الدهر ، خلفٌ من نفاذ العمر .
قال الشاعر :

وَإِنِّي أَحِبُّ الْخُلْدَ لَوْ اسْتَطَعْتُهُ وَكَالْخُلْدِ عِنْدِي أَنْ أَبِيتَ وَلَمْ أَلَمْ
وَقِيلَ لِبُزْرِ جَهْرٍ حِينَ كَانَ يُقْتَلُ : تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ نَذَرَهُ ، فقال : الكلام
كثير ، وَلَكِنْ إِنْ أَمَكْنِكَ أَنْ تَكُونَ حَدِيثًا حَسَنًا فَافْعَلْ .
ولما رُضِعَ الْوَزِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ فِي التَّثْوَرِ قَالَ لَهُ خَادِمُهُ :
يَاسِنْدِي ، قَدْ صِرْتَ إِلَى مَا صِرْتَ وَلَيْسَ لَكَ حَامِدٌ أَقَالَ : وَمَا نَفَعُ الْبَرَامِكَةَ
مَنْ صَنِعَهُمْ ، قَالَ : ذِكْرُكَ لِهَمِّ السَّاعَةِ ، فقال : صدقت ... وقال شاعر :
لَمَنْ طَبَّتْ نَفْسًا عَنْ ثَنَائِي فَإِنِّي لَا طِيبُ نَفْسًا عَنْ نَدَاكَ عَلَى عُسْرِي
فَلَسْتُ إِلَى جَدِّوَاكَ أَعْظَمَ حَاجَةً عَلَى شِدَّةِ الْإِعْسَارِ مِنْكَ إِلَى سُكْرِي
وقال أبو تمام :

وَمُحْجَبٌ حَارَلَتْهُ فَوَجَدَتْهُ نَجْمًا عَنِ الرَّكْبِ الْعُقَاةِ شَسُوعَا
أَعْدَمَتْهُ - لَمَّا عَدِمْتُ نَوَالَهُ - سُكْرِي فَرُحْنَا مُعْدِمَيْنِ جَمِيعَا
وقال عَوْفُ بْنُ مَحْمَدٍ الشَّيْبَانِي :
قَتَّى يَتَّقَى أَنْ يَخْدِشَ الذَّمُّ عِرْضَهُ وَلَا يَتَّقَى حَدَّ السُّبُوفِ الْبَوَاثِرِ

(١) العقيلة في الأصل : المرأة الكريمة النفيسة ثم استعمل في الكريم من كل شيء
في الذوات والمعاني . وعقائل الإنسان : كرائم أمواله ، وهو المراد هنا

وقال حكيم : من أحبَّ الشَّاءَ ، فليصبر على بَذْلِ العطاء ، وليؤْطِنْ نَفْسَهُ
على الحقوق المُرَّة ، وعلى احتمال المُوْنة ... وقال الشاعر في هذا المعنى :
ما أعلم الناس أنَّ الجودَ مَكْسَبَةٌ للحمْدِ اكْنَه يَأْنِي على الدَّشْبِ

تسهيل القول على الشاكرين

بتوافر ما يشكر عليه وعكس ذلك

قيل للفرزدق : أحسن الكَيْتُ في الهاشميات ، فقال : وَجَدَ آجُرًا وَجِصَّةً
فَبَنَى ... وقال شاعر :

مَا أَقِينَا مِنْ جُودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَى تَرَكَ النَّاسَ كَالْهَمِّ شُعْرَاءَ
وقال ابن الرومي :

كُرِّمْتُمْ بِنَافِثِ الْمُفَحِّمُونَ لِمَذْحِكُمْ إِذَا رَجَزُوا فِيكُمْ أَيْبُنْتُمْ قَقَّصَدُوا
كَأَزْهَرَتْ جَنَاتُ عَدْنٍ وَأَثْمَرَتْ فَأَضْحَتْ وَعُجِمَ الطَّيْرِ فِيهَا تُغَرَّدُ
وبما كتبه بعضهم : فَتَحَتْ شَيْئُهُ عَلَى الْمُدَّاحِ مُسْتَغْلَقَاتِ الْكَلَامِ ...
وقال أبو تمام :

مَلِكٌ إِذَا مَا الشُّعْرُ حَارَ بِلَدَةٍ كَانَ الطَّرِيقَ لِمُطَرِّفِهِ الْمُتَحِيرِ
وقال المتنبي :

يَا أَيُّهَا الْمَحْسِنُ الْمَشْكُورُ مِنْ جِهَتِي وَالشُّكْرُ مِنْ قِبَلِ الْإِحْسَانِ لَا قِبَلِي
وقال ابن طباطبا ^(١) فيمن يُستفاد منه ما يُمدح به :

(١) ابن طباطبا : هو أبو القاسم أحمد الشريف الحسيني المصري نقيب الطالبين
بمصر، ترجم له ابن خلكان، وطباطبا : لقب جده إبراهيم، وذكره الثعالبي في النونية توفي
سنة ٣٤٥ هـ

لَا تُنْكِرُنْ إِعْدَاءَنَا لَكَ . نَطَقًا مِنْكَ اسْتَعْدْنَا حُسْنَهُ وَنِظَامَهُ
 فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَشْكُرُ فِعْلَ مَنْ يَنْتَلُو عَلَيْهِ وَحْيَهُ وَكَلَامَهُ
 وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ^(١) فيمن يليق به مدحه :
 وَأَرَى الْمَدِيحَ إِذَا عَدَاكَ نَقِصَةً فَأَعَافَهُ وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَاتِمِ
 فَإِذَا امْتَدَحْتَ سِوَاكَ قَالَ الشَّعْرَى لَمْ تَرَعْ حَقِّي إِذْ أَبْجَتَ حِمَارِي
 ووصف أعرابي رجلاً مجمعاً على مدحه : كَأَنَّ الْأَلْسَنَ وَالْقُلُوبَ رِيضَتْ
 لَهُ ، فَمَا تُعَقِّدُ إِلَّا عَلَى وَدِّهِ ، وَلَا تَنْطِقُ إِلَّا بِحَمْدِهِ . وقال البحرى :
 وَأَرَى الْخَلْقَ مُجْمِعِينَ عَلَى فَضْلِهِ مِنْ بَيْنِ سَيِّدٍ وَمَسُودٍ
 عَرَفَ الْجَاهِلُونَ فَضْلَكَ بِالْعِ لَمْ وَقَالَ الْجُهَّالُ بِالْتَقْلِيدِ
 وقال ابن الرومي :

يَأْمَنُ إِذَا قُلْتُ فِيهِ صَالِحَةً عِنْدَ عَدُوٍّ أَقْرَ وَاعْتَرَفَا
 وقال البحرى في المُسْتَعْنَى عن المدح لكثرة فضله :
 جَلَّ عَنْ مَذْهَبِ الْمَدِيحِ فَقَدْ كَادَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فِيهِ هِجَاءُ
 وقال المتنبي :

تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَدْحِ حَتَّى كَانَهُ بِأَكْثَرِ مَا يُنْتَى عَلَيْهِ يُعَابُ

حَبُّ الْمُنْعِمِ أَنْ يُرَى أَثَرُ إِعْنَامِهِ

قال سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ

(١) هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الأديب الشاعر صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه وصاحب الأبيات المشهورة التي أولها : يقولون لي فيك أنقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
 توفي سنة ٤٣٦٦ هـ

نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ ... قَالَ الْإِمَامُ الْمَنَازِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى الْجَامِعِ الصَّغِيرِ :
 قِيلَ مَعْنَى يُرَى : مُزِيدُ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى ، بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالنَّشَاءِ وَالذِّكْرِ لَهُ بِمَا
 هُوَ أَهْلُهُ ، وَالْعَطْفُ وَالتَّرَحُّمُ ، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ فَضْلِ مَا عِنْدَهُ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ
 اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ ، فَيُرَى أَثَرُ
 الْجِدَّةِ عَلَيْهِ زِيَّاءً وَإِنْفَاقاً وَشُكْراً ، إِلَى آخِرِ مَا قَال ، وَهَكَذَا يُحِبُّ النَّاسُ أَنْ
 يُرَى أَثَرُ إِنْعَائِهِمْ عَلَى مَنْ يُنْعِمُونَ عَلَيْهِمْ ، رَوَى أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ عَنْ
 الْعُتْبِيِّ مَا يَلِ : أَرَادَ جَعْفَرُ بْنُ يُحْيَى حَاجَةً كَانَ طَرِيقُهُ إِلَيْهَا عَلَى بَابِ الْأَصْمَعِيِّ
 فَوَدَّعَ إِلَى خَادِمٍ لَهُ كَيْدَافاً فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ وَقَالَ : إِنِّي سَأَعْرِجُ فِي رَجْعَتِي عَلَى
 الْأَصْمَعِيِّ ، ثُمَّ سَيُحَدِّثُنِي وَيُضِحِّكُنِي ، فَإِذَا ضَحِكْتُ فَضَعِرَ الْكَيْسُ بَيْنَ يَدَيْهِ ،
 فَلَمَّا رَجَعَ وَدَخَلَ إِلَيْهِ رَأَى حُبَّاءَ مَكْسُورَ^(١) الرَّأْسِ وَجَرَّةَ مَكْسُورَةِ الْعُنُقِ ،
 وَقِصَّةَ مُشْعَبَةَ ، وَجَفْنَةَ أَعْيُنَ ، وَرَأَى عَلَى مُصَلًّى بِالٍ وَعَلَيْهِ بَرْنُكَانٌ^(٢)
 أَجْرَدٌ ، فَمَمَزَ عَلَامَتَهُ أَنْ لَا يَضَعُ الْكَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمْ يَدْعِ الْأَصْمَعِي شَيْئاً
 مِمَّا يُضْحِكُ النَّكْلَانَ وَالغَضَبَانَ إِلَّا أَوْرَدَهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَتَبَسَّمْ ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ
 لِرَجُلٍ يُسَاطِرُهُ : مَنْ اسْتَرْعَى الذُّنْبَ ظَلَمَ ، وَمَنْ زَرَعَ السَّبِيخَةَ^(٣) حَصَدَ الْفَقْرَ ،
 إِنِّي وَاللَّهِ لَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَكْتُمُ الْمَعْرُوفَ بِالْفِعْلِ مَا حَفِلْتُ بِنُشْرِهِ
 لَهُ بِاللِّسَانِ ، وَأَيْنَ يَقَعُ مَدِيحُ اللِّسَانِ مِنْ آثَارِ الْعِيَانِ ! إِنْ اللِّسَانُ قَدْ
 يَكْذِبُ ، وَالْحَالُ لَا تَكْذِبُ ، وَلِلَّهِ دَرُ نَصِيبٍ حَيْثُ يَقُولُ :

فَعَاوُ فَاتَّنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَنُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

ثُمَّ قَالَ : أَعْلِمْتُ أَنَّ نَاوُوسَ أَبْرِيزَ أَمْدَحُ لَأَبْرُويزَ مِنْ زَهِيرِ لَّالِ سِنَانٍ !

(١) الحب : الخاوية ، فارسي معرب (٢) برنكان على وزن زعفران :

ضرب من الأكسبة . (٣) أرض سبخة : ذات ملح ونز

وقالت الحكماء : لسان الحال أصدق من لسان الشكر : وقد أجاد ابن الرومي في هذا المعنى فقال :

حَالِي تَبُوحٌ بِمَا أُولَيْتَ مِنْ حَسَنِ فِكْلُ مَا تَدَّعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودٍ
كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَجِلُّ لَكُمْ فَمَا يُدَاوِيكُمْ مَنِّي سِوَى الْجُودِ
وقالوا : شهادات الأحوال أعدل من شهادات الرجال

لَا يَمْدَحُونَ إِلَّا إِذَا أُعْطُوا

واعتذارهم عن ذلك

قالت بنو تميم لسلامة بن جندل : مجّدنا بشعرك ، فقال : افعلوا حتى أثنى ، ونحوه قول عمر بن مَعْدِيكَرِبَ :

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنِ الرَّمَاحَ أَجَرَّتِ
وَأَجَرَّتْ : قطعت ، يقول : لو قاتل قومي أو آبأوا لَدَكَ كَرْتُ ذَلِكَ وَغَفَرْتُ
به ، ولكن رِمَاحُهُمْ أَجَرَّتْنِي : أى قطعت لسانى عن الكلام بفرارهم ، أراد
أنهم لم يقاتلوا

وقال بعض الأكابر لأبى هفان ^(١) : مَالَكَ لَا تَمْدَحْنِي ؟ فقال :

لِسَانُ الشُّكْرِ تُنْطِقُهُ الْعَطَايَا وَيَخْرُسُ عِنْدَ مُنْقَطِعِ النِّوَالِ
وعاتب يوماً محمد بن عبد الملك الزيات الوزير أبا تمام على مدحه سواء
فاعتذر إليه بأبيات يقول فيها :

أَمَّا الْقَوَافِي فَقَدْ حَصَلَتْ عُذْرَتُهَا فَمَا يُصَابُ دَمٌ مِنْهَا وَلَا سَلَبٌ

(١) أبو هفان : هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزى العبدى ، راوية عالم بالشعر والغريب ، وشعره جيد إلا أنه مقل وهو من شعراء الدولة الهاشمية .

مَمَعَتْ إِلَّا مِنْ الْأَكْفَاءِ نَاكِحَهَا وَكَانَ مِنْكَ عَلَيْهَا الْعَطْفُ وَالْحَدَبُ
 وَلَوْ عَصَلَتْ عَنِ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهَا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِي أَظْهَارِهَا أَرْبُ
 كَانَتْ بَنَاتٍ نُصِيبَ حِينَ ضَنَّ بِهَا عَلَى الْمَوَالِي وَلَمْ تَحْفَلْ بِهَا الْعَرَبُ

« العذرة : البكارة ، والحدب : الإشفاق ، وعصل الأيتم : فالأيتم : التي
 لأزواج لها بكرا كانت أو ثيبا والجمع : أيايم وأيايم ، وعصل الرجل أيمه
 يعصلها ويعصلها عضلا : مَنَعَهَا الزَّوْجَ طُلُبَا قَالَ تَعَالَى : فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ
 يَنْسَكُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ ، نَزَلَتْ فِي مَعْقِلِ بْنِ يَسَارِ الْمَرْثَى - وَكَانَ زَوْجَ أُخْتِهِ
 رَجُلًا فَطَلَّقَهَا ، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا خَطَبَهَا ، فَآلَى أَنْ لَا يُزَوِّجَهَا إِيَّاهَا وَرَغِبَتْ
 فِيهِ أُخْتُهُ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ ... وَكَانَ نُصِيبُ الشَّاعِرِ الْأَسْوَدُ لَهُ بَنَاتٌ وَكَانَ يَرْغُبُ
 عَنْ أَنْ يُزَوِّجَهُنَّ مِنَ الْمَوَالِي ، وَالْعَرَبُ لَا تَرْغُبُ فِيهِنَّ ، فَبَقِينَ بِأَزْوَاجٍ ،
 قِيلَ لَهُ يَوْمًا : مَا حَالُ بَنَاتِكَ ؟ فَقَالَ : صَبَبْتُ عَلَيْهِنَّ مِنْ جِلْدِي فَكَسَدْنَ عَلَى ... ،
 وَكَتَبَ هَذَا الْوَزِيرُ الْزِّيَاتُ إِلَى أَبِي تَمَامٍ يَوْمًا يَحْتَجُّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ يَمْدَحُ غَيْرَهُ وَأَنَّهُ
 لَوْ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ لِأَغْنَاهُ وَأَنْ كَثْرَةَ مَدْحِهِ النَّاسَ زَهَدَتْ فِيهِ :

رَأَيْتُكَ سَمَحَ الْبَيْعِ سَهْلًا وَإِنَّمَا يُغَالِي إِذَا مَاضٍ بِالشَّيْءِ بَائِعُهُ
 هُوَ الْمَاءُ إِنْ أَجْمَعْتَهُ طَابَ وَرَدُّهُ وَيَفْسُدُ مِنْهُ مَا تَبَاحَ شَرَائِعُهُ
 فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُو تَمَامٍ :

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ كُنْتَ أَصْبَحْتَ شَاعِرًا أَسَاحِلُ فِي بَيْعِي لَهُ عَنْ أَبَائِهِ
 فَقَدْ كُنْتَ قَبْلِي شَاعِرًا ذَارِوِيَّةً نَسَاحِلُ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ بَضَائِعُهُ
 وَصِرْتَ وَزِيرًا وَالْوِزَارَةُ مَشْرَبٌ يَغْصُ بِهِ بَعْدَ الْأَذَاذَةِ كَارِعُهُ
 وَكَمْ مِنْ وَزِيرٍ قَدْ رَأَيْنَا مُسَلِّطًا رَأَيْنَاهُ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ مَطَالِعُهُ
 وَلِلَّهِ قَوْسٌ لَا تَطِيشُ سِهَامُهَا وَلِلَّهِ سَيْفٌ لَا تُقْلُ مَقَامِلُهُ

« يقول : إن سِهامَ الله مَصِيبةٌ لا تُخطئُ رَسيقَه لا يَثلُمُ أَلبَتَه ، فهو الذي جعلك وزيراً ولو شاء لَأَنزَلَكَ عن دَستِكَ »

حُثُّهم على الشكر ولو لمن ليس على دينهم

قال رجلٌ لسعيد بن جُبَيْر : المَجُورُ سَيُّئٌ يُؤَلِّينِي خيراً فَأشكرُهُ ، وَيُسَلِّمُ عَلَيَّ فَأُردُّ عَلَيْهِ ؟ فقال سعيد : سألتُ ابنَ عَبَّاسٍ عن نَحْوِ هذا ، فقال لي : لو قال لي فِرْعَوْنُ خيراً لَرَدَدْتُ عَلَيْهِ ... وسَلَّمَ نصرانيٌّ على الشَّعْبِيِّ ، فقال الشَّعْبِيُّ : وعليكَ السلام ورحمةُ الله ، فقال له رجلٌ : سبِحانَ الله ، تقول لهذا النَّصرانيِّ ورحمةُ الله ! فقال الشَّعْبِيُّ : أليس في رحمةِ الله يعيشُ ؟ قال : بلى ، قال : فما وَجْهُ الإنكارِ على عافاك الله ورحمنا وإياك برحمته ؟

استحياءُهم من المديح

ولا سيما إذا كان مُتَكَلِّفاً أو مُبَالَغا فيه

سمع سيدنا رسول الله رجلاً يُثْنِي على آخر ، فقال : قَطَعْتَ مَطَاهُ ، لو سمع ما أَفْلَحَ « المطا : الظهر » وقالوا : استحياءُ الكَرِيمِ من المدح أَكْثَرُ من استحياءِ اللَّيِّمِ من الذَّمِّ ... وأثنى رجلٌ على هِشَامِ بن عبد الملك ، فقال : إِنَّا نَكرَهُ المدح ، فقال : لستُ أمدحك ولكني أحمَدُ الله فيكَ ... وكان أبو بكر الصَّدِّيقَ رضوان الله عليه يقول إذا مُدِّح : اللهم ، أنت أعلم مِنِّي بِنَفْسِي مِنهم ، اللهم ، اجعلني خيراً مما يَحْسَبُونَ ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ... وكان رجلٌ يُكثِرُ الثَّناءَ على عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وَعَلِمَ من قلبِهِ خِلافَ قولِهِ ، فقال له : أنا دونَ ما تقول ، وفوق ما في نَفْسِكَ ؛ وقال الجاحظ : شرُّ الشكر ، ثناءُ المُواجِهِ لك المُسرِّفِ في مدحك ،

وخَيْرُهُ، ثناء الغائب عنك، المقتصد في وَصْفِكَ . وقالوا : كنْ من أفرط في تركيتك أَحَدَر من أفرط في الزراية بك . وقالوا : مَنْ مَدَحَ الرجل بما ليس فيه فقد بالغ في ذمِّه . وقال أبو فراس الحمداني :

ولا تَقْبَلَنَّ القولَ من كلِّ قائلٍ سأَرْضِيكَ مَرَأًى لست أَرْضِيكَ مَسْمَعاً
وقال الفضيل بن عياض : لو شِئْتُمْ راحمة الذنوب مني ما قَرِبتُموني ...
وأثنيَ على زاهدٍ ، فقال : لو عَرَفْتَ مِنِّي ما عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِي لَا بَغَضْتَنِي .
وقال المتنبي :

يُحَدِّثُ عَنْ أَفْضَلِهِ مُكْرَهاً كَأَنَّهُ لَهْ مِنْهُ قَلْباً حَسُوداً

من يمدح نفسه

خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه خطبة حسنة ، فقال : هل من خليل ؟ فقال رجل من عُرض الناس : خالُّ المُنْخَلِّ ، فاستدعاه وقال : ماذا الخلل ؟ قال : إعجابك به ومدحك له ... وقبل الحكيم : ما الذي لا يحسن وإن كان حقاً ؟ قال : مدح الرجل نفسه ... وقال معاوية لرجل : مَنْ سيِّد قومك ؟ فقال : أنا ، فقال له : لو كنتَ كذلك لم تَقُلْهُ ... ومن طُرفهم في ذلك ما روى عن بعض الشعراء أنه سُئِلَ : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت والله أظرف الناس وأشعر الناس وأدب الناس ، فقال السائل : أسكت حتى يقول الناس ذلك ، فقال : أنا منذ ثلاثين سنة أنتظر أن يقول الناس وليسوا يقولون ... ومدح أعرابي نفسه فعوتب في ذلك ، فقال : أأكله إليكم الإذن والله لا تقولوا أبدا ...

عذر من يُضطرّ إلى مدح نفسه

قال ابن الرومي في ذلك :

وعَزِيزٌ عَلَيَّ مَدْحِي لِنَفْسِي غَيْرَ أَنِّي جُشِّمْتُهُ الدَّلَالَةَ
وهوَ عَيْبٌ يَكَادُ يَسْقُطُ فِيهِ كُلُّ حُرٍّ يُرِيدُ يُظْهِرُ حَالَهُ

ووصف لأبي جعفر المنصور بعض الأفاضل ، فأمر بإشخاصه إليه ؛ فلما دخل
قال له : أعالمُ أنت ؟ فقال : أكره أن أقول : نعم ، وفيه مافيه ، أو أقول : لا ،
فأكون جاهلا . فأعجب المنصور بجوابه وألزمه المهدي

نهيهم عن المدح قبل الاختبار

قالوا : لا تُعرف قبل أن تعرف ، أى لا تمدح قبل التجربة ، وأصل الهُرف :
الهديان قال الأزهرى : الهُرف : شبه الهديان من الإعجاب بالشئ يقال : هو
يهرِف بفلان نهاره كله هُرْفاً ، وقالوا : لا تَحْمَدَنَّ أُمَّةً عامَّ شرائها ، ولا حُرَّةً
قبل بنائها ، قبل الدخول بها ، ... وقال رجل لعمر رضى الله عنه : إن فلاناً
رجلٌ صِدِّيقٌ ، فقال : هل سافرت معه ، أو ائتمنته ؟ قال : لا ، فقال :
إذن لا تمدحه ، فلا عِلْمَ لك به ، لعلَّكَ رأيته يرفع رأسه ويخفُّضه في المسجد

ختام الباب

عقريات شتى في الشكر

قال أبو ذرٍّ : قلتُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : الرجل يَعْمَلُ العملَ وَيُحِبُّهُ
الناسُ ؟ قال : تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ ... وقال صلوات الله عليه :
إذا أُرِدْتُمْ أَنْ تَعْمَلُوا مَالاً لِّلْعَبْدِ عِنْدَ اللَّهِ فَانْظُرُوا مَاذَا يَتَّبِعُهُ مِنَ الشَّأْنِ ...

وقال شاعر :

عُثْمَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَمْدَ ذُو بَيْنٍ لَكِنَّهُ يَشْتَهِي حَمْدًا بِمَجَانٍ
وَالنَّاسُ أَكْثَرُ مَنْ أَنْ يَحْمَدُوا رَجُلًا

حتى يَرَوْا قَبْلَهُ آثَارَ إِحْسَانٍ

وقال معاوية بن أبي سفيان يُعَارِبُ قُرَيْشًا :

إِذَا أَنَا أُعْطِيتُ الْقَلِيلَ شَكَوْتُمْ وَإِن أَنَا أُعْطِيتُ الْكَثِيرَ فَلَا تُشْكُرْ
وَمَا لُمْتُ نَفْسِي فِي قَضَاءِ حُقُوقِكُمْ وَقَدْ كَانَ لِي فِيهَا اعْتَذَرْتُ بِهِ عُذْرُ
وَأَمْنَحُكُمْ مَالِي وَتُكْفَرُ نِعْمَتِي وَتَشْتِمُ عَرِضِي فِي مَجَالِهَا فَهَرُ^(١)
إِذَا الْعُذْرُ لَمْ يُقْبَلْ وَلَمْ يَنْفَعِ إِلَّا سَيِّئِي وَضَاقَتْ قُلُوبُ مَنْهُمْ حَشُوهَا الْغَمْرُ^(٢)
فَكَيْفَ أَدَاوِي دَاءَكُمْ وَدَوَاؤُكُمْ يَزِيدُكُمْ غَيًّا ! فَقَدْ عَظُمَ الْأَمْرُ^(٣)
سَاحِرِمُكُمْ حَتَّى يَذِلَّ صِعَابُكُمْ وَأَبَاحُ شَيْءٍ فِي صَلَاحِكُمُ الْفَقْرُ^(٤)

وقال ابن الرومي :

كَمْ مِنْ يَدٍ بَيَضَاءُ قَدْ أَسَدَيْتَهَا تَنَنِي إِلَيْكَ عِنَانٌ كُلُّ وَدَادٍ
شَكَرَ إِلَاهُ صَنَائِمًا أَوْلَيْتَهَا سَلَكَتْ مَعَ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ

وقال الشريف الرضي :

أَلْبَسْتَنِي نِعْمًا عَلَى نِعَمٍ وَرَفَعْتَ لِي عِلْمًا عَلَى عِلْمٍ
وَعَلَوْتَ بِي حَتَّى مَشَيْتُ عَلَى بُسْطٍ مِنَ الْأَعْنَاقِ وَالْقِمَمِ
فَلَا شُكْرُنَّ يَدِيكَ مَا شُكَّرْتَ خُضِرَ الرِّيَاضُ مَصَانِعَ الدِّيمِ

(١) فهر : هو فهر بن غالب بن النضر بن كنانة ثم سمي به القبيلة وقريش كلهم ينسبون إليه

(٢) الأسى : العلاج والدواء والإصلاح والعدل ، والغمر : الحقد

(٣) الغي : الضلال (٤) يذل : ينقاد

فَالْحَمْدُ يُبْقَى ذِكْرُ كُلِّ قَتَى وَبَيْنَ قَدَرٍ وَاقِعِ الْكَرَمِ
وَالشُّكْرُ مَهْرٌ لِلصَّنِيعَةِ إِنْ طَلِبْتَ مُهُورَ عَقَائِلِ النَّعَمِ

« القم جمع قمة : أعلى الرأس وأعلى كل شيء ، والديم جمع ديمة : المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق يدوم ثلث نهار أو ثلث ليل فأكثر ، والصنيعة : ما أسديت من معروف ، والعقائل : كرائم الأموال ، وقال رجل لبعض ذوى السلطان : المواجهة بالشكر ضرب من الملق ، منسوب من عرف به إلى التخليق ، وأنت تمنعني من ذلك ، وترفع الحال بيننا عنه ، ولذلك تَرَكْتُ إِقَاءَكَ بِهِ ، غير أني من الاعتراف بمعرفتك ، ونشر ما تطوى منه ، والإشادة بذكره عند إخوانك ، والانتساب إلى التقصير مع الإطنا ب في وصفه ، على ما أرجو أن أكون قد بلغت به حال المحتمل للصنيعة الناهض بحق النعمة . وقال أبو يعقوب الخريزمي :

زَادَ مَعْرِوْفَكَ عِنْدِي عِظَمًا أَنَّهُ عِنْدَكَ مَحْقُورٌ صَغِيرُ
تَنَاسَاهُ كَانَ لَمْ تَأْتِهِ وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرُ
وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا تَتَّقِ بِشُكْرٍ مِنْ تُعْطِيهِ حَتَّى تَمْنَعَهُ ، فَإِنَّ الصَّابِرَ هُوَ
الشَّاكِرُ ، وَالْجَازِعُ هُوَ الْكَافِرُ ... وَقَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا أَنَا لَمْ أَشْكُرْ عَلَى الْخَيْرِ أَهْلُهُ وَلَمْ أَذْمَعْ الْجَبَسَ اللَّيْمَ الْمَذْمَمُ^(١)
فَقِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ وَشَقَّ لِي اللَّهُ الْمَسَاعِجَ وَالْقَمَا
وَقَالَ ابْنُ التَّوَيْمِ^(٢) : كُلُّ مَنْ كَانَ ، جُودُهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَوْلَا رُجُوعُهُ
إِلَيْهِ لَمَا جَادَ عَيْلَكَ ، وَلَوْ تَيَّأَ لَهُ ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي مَوَاكِلَ مَا قَصَدَ إِلَيْكَ ،
فَلَيْسَ يَجِبُ لَهُ تَعْلِيكَ شُكْرُ ، وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِالْجُودِ فِي الْحَقِيقَةِ وَبِشُكْرِ عَلَى

(١) الجبس : النذل الذليل (٢) هو عتبة بن التويم من رجال الحديث

النَّفْعَ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ ، الَّذِي إِنْ جَادَ عَلَيْكَ فَلَمَّا جَادَ ، وَنَفَعَكَ أَرَادَ ، مِنْ
غَيْرِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ جَوْدُهُ بِشَيْءٍ مِنَ النَّفْعِ عَلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَهُوَ اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنْ شَكَرْنَا النَّاسَ عَلَى بَعْضِ مَا جَرَى لَنَا عَلَى أَيْدِيهِمْ ،
فَلَا مَرَيْنَ : أَحَدُهُمَا التَّعَبُّدُ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْظِيمِ الْوَالِدِينَ وَإِنْ كَانَا
شَيْطَانَيْنِ ، وَتَعْظِيمِهِمْ مِنْهُ أَسْنُ مِنْنًا وَإِنْ كُنَّا أَفْضَلَ مِنْهُ . وَالْآخَرُ : لِأَنَّ
النَّفْسَ مَا لَا تُحْصِلُ الْأُمُورَ وَتُمَيِّزُ الْمَعَانِيَ ، فَالسَّابِقُ إِلَيْهَا حُبٌّ ، مَنْ جَرَى
لَهَا عَلَى يَدَيْهِ الْخَيْرُ وَإِنْ كَانَ لَمْ يُرِذْهَا وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهَا . أَلَا تَرَى أَنَّ عَطِيَّةَ
الرَّجُلِ صَاحِبَهُ لَا تَخْلُو أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ أَوْ لَغَيْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ فَتَوَابَهُ عَلَى
اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَجِبُ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ شُكْرُهُ وَهُوَ لَوْ صَادَفَ ابْنَ سَبِيلٍ غَيْرِي لَمَا
أَعْطَانِي ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ لِلذِّكْرِ ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّمَا جَعَلَنِي
سُلْبًا إِلَى حَاجَتِهِ وَسَبِيلًا إِلَى بُغْيَتِهِ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ طَلِبًا لِلْمُكَافَأَةِ
فَإِنَّمَا ذَلِكَ تِجَارَةٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِحَرْفِ يَدِي أَوْ لِسَانِي أَوْ اجْتِرَارِ مَعُونَتِي
وَنُصْرَتِي ، وَسَبِيلُ هَذَا مَعْرُوفٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِلرَّحْمَةِ وَالرَّفَقَةِ وَلِمَا يَجِدُ
فِي فَوَادِهِ مِنْ انْتِصَرٍ وَالْأَلَمِ ، فَإِنَّمَا دَاوَى بِتِلْكَ الْعَطِيَّةِ مِنْ دَائِهِ ، وَرَفَقَهُ مِنْ
خِنَاقِهِ ... وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

أُنْثِيَ عَلَيْكَ وَلِيَّ حَالٍ تُكْذِّبُنِي فَبِمَا أَقُولُ فَاسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ

قَدْ قُلْتَ إِنَّ أَبَا حَفْصٍ لَا كَرَمَ مِنْ بَمَشِي نَفَاصِمِي فِي ذَاكَ إِفْلَاسِي

وَكَانَتْ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ أُنْثَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

وَقَالُوا : خَمْسَةُ أَشْيَاءَ ضَائِعَةٌ : سِرَاجٌ بُوْقَدُ فِي شَمْسٍ ، وَمَطَرٌ جَوْدُ فِي

سَخِيَّةٍ ، وَحُسْنَاءُ تَرْفُ إِلَى عَيْنَيْنِ ، وَطَعَامٌ اسْتُجِيدَ وَفُدَّمَ إِلَى سُكْرَانٍ ،

وَمَعْرُوفٌ صُنِعَ إِلَى مَنْ لَا شُكْرَ لَهُ ...

الباب الثالث

في الصبر وعبرياتهم فيه ، وفي الدنيا وأكدارها ، وفي هادم اللذات
ماذا يراد بالصبر في هذا الباب ؟

قال علماء اللغة : الصبرُ : نقيض الجزع ، أو حبسُ النفس عند الجزع ،
يقال : صبرَ فلانٌ عند المصيبة يصبرُ صبراً ، وصبرتهُ أنا : حبستهُ ، والتصبرُ :
تكلفُ الصبر ، قال عمر رضي الله عنه : أفضلُ الصبر : التصبرُ ... وقال الراغب
الأصفهاني في الذريعة : الصبرُ ضربان : جَسَمِيٌّ ونَفْسِيٌّ ، فالجَسَمِيٌّ : هو تحمُّلُ
المشاقِّ بقدر القوة البدنية ، وأكثرها لذوى الجسوم الحشنة ، وليس ذلك
لفضيلة تامة ، وذلك في الفعل كالمشي ورفع الحجر ، وفي الانفعال كالصبر
على المرض ، والنفسِيَّ - وبه تُسَلَّقُ الفضيلة - ضربان : صبرٌ عن تناول
مُشْتَهَى ، ويقال له : العِفَّةُ ؛ وصبر على تحمل مكروه أو مُحْبُوب ، وهذا
تختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقفه ، فإذا كان في نزول مُصِيبَةٍ فإنه مما
استَبَدَّ به اسم الصبر ، وضده الجزع والهلع والحزن ، وإن كان في احتمال
عَنَى فقد سُمِّيَ ضبط النفس وِبِضَادِهِ الدَّفْعُ والبَطَرُ ، ^(١) وإن كان في محاربة
سُمِّيَ شجاعة وِبِضَادِهِ : الجبن ، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وطر
الغضب سُمِّيَ حِلْماً ، وِبِضَادِهِ : التذمُّرُ ^(٢) ، وإن كان في نائبةٍ مُضْجِرَةٍ سُمِّيَ
سَعَةً الصدر ؛ وِبِضَادِهِ ضيق الصدر والضجر والتبرُّم ، وإن كان في إمساك كلام

(١) الدقع : الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر ، والبطر : الطغيان في النعمة

(٢) التذمر : التغضب ومنه : فلان حامى الذمار وهو كل ما يلزمك حفظه وحياطته .

وحمايته وما يجب على أهله التذمر له والغضب من أن ينال منه

في الضمير سُمِّيَ كتمان سرٍّ ، وبيضاًده : الإفشاء ، وإن كان في الإمساك عن فضولات العيش سمي قناعة وزهداً ، وهذا يضاذه : الحرص والشره ...
« وبعد ، فها أنت ذا ترى بما أوردنا عليك من كلام الراغب : أن الصبر ألوانٌ ، ومن أخص ألوانه : الصبر على المصائب ، ذلك الذي يضاذه الجزع وهذا اللون هو الذي سوف تتصدى له في هذا الباب ، أما سائر الألوان فإن لكل منها باباً لقد عقدناه فيما يلي هذا الباب من الأبواب .

عقرياتهم في الصبر

قال الراغب في فصل عنوانه « مداواة الغم وإزالة الخوف » مع شيء من التصرف : خَلِيقٌ بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الدُّنْيَا جَمْعُ الْمَصَائِبِ رَنَقَةُ الْمَشَارِبِ تُشْمِرُ لِلْبَرِيَّةِ أَضْعَافَ الْبَلِيَّةِ^(١) ، فيها مع كلِّ لُقْمَةٍ عُصَّةٌ^(٢) ، ومع كلِّ جُرْعَةٍ شَرْقَةٌ^(٣) ، فهي عُدْوَةٌ وَمَحْجُوبَةٌ كما قال أبو نواس :
إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبَ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَدْوٍ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ
وَمَا رَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : مَا مِثْلُنَا مَعَ الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا قَالَ كَثِيرٌ :

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَامَلُومَةٌ لَدُنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ^(٤)

(١) البرية : الخلق ، وأضعاف البلية يريد البلية مضاعفة والبلية : المحنة

(٢) العصاة : الشجى - ما ينشب في الخلق من عظم وغيره

(٣) الجرعة من الماء : حسوة منه ، والشرقة : الغصة ولكنه بالماء والريق ونحوهما

قال عدى بن زيد :

لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ حَلِيقِي تَشْرِقُ كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي

(٤) مقليّة : مكروهة ، وتهاش بحذف إحدى التامين وتقلّى الشيء : نبغض ، خاطب

كثيرهم غائب

فما أحدهُ فيها إلا وهو في كلِّ حالاته غرض لِسماهاها :

مُناضِلُهُ الآفاتُ مِنْ كُلِّ جانبٍ فُتْخِطُّهُ يوماً ويوماً تَصِيْبُهُ ^(١)

وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فقْدُ محبوبٍ أو فوتُ مطلوبٍ ، ولا يَسْكُمُ منهما إنسان ، لأن الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد فمن أَحَبَّ أن يعيش هو وأهله وأحبابه سالمين فهو غيرُ عاقل ، لأنه يريدُ أن يَمْلِكَ ما لا يُملِكُ ، ويوجد له ما لا يوجد ، فحَقِيقٌ بالمرء أن لا يُخْلِى قلبه من الاعتبار بما يَرى ، من ارتجاع لودائنها من أربابها ، وحلول لنوائبها بأصحابها .

ثم من حَقَّه أن يقلل من اقتناء ما يُورِثُه الحزن ، فقد قيل للحكيم : لم لا نَنعَمُ ؟ فقال : لأنني لم أَقْنِ ما يُغْنِي فَقْدُهُ ، أخذه الشاعر فقال :

فَن سَرُّهُ أن لا يَرى ما يسوؤُه فلا يَتَخَذُ شيئاً يَخافُ له فَقْدُ

وقيل للحكيم : هل الإنسان أن يعيش آمناً ؟ قال : نعم ، إذا احترس من الخطيئة ، وقنع بحلاله ، ولم يحزن لما هو واقع به لاحالة . واعلم أن الجزع على ما فات لا يُلْمُ ما تَشَعَّثَ ولا يُبْرِمُ ما انتكثت ؛ فأما غمُّه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجه : إمَّا في شيء ممتنع كونه ، أو واجب كونه ، أو ممكن ، فإن كان على ما هو ممتنع كونه فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا كان من قبيل الواجب كونه ، كالموت الذي هو حتمٌ في رقاب العباد ، وإن كان ممكناً كونه فإن كان من الممكن الذي لا سبيل إلى دفعه كما كان الموت قبل الهرم فالحزن له جهل ، واستجلابُ غمٍّ ، وإن كان من الممكن الذي يصحُّ دفعه فالوجه أن يحتال إلى دفعه بفعلٍ غير مشوبٍ بحزن ، فإن دفعه وإلا

(١) ناضله مناضلة فضله : باراه في الرى نغلبه

تلقاه بصبرٍ، وليتحقق قوله عز وجل: ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم، فمن عَلِمَ أنَّ ما جرى في حكمه، وسَبَقَ في عِلْمِهِ لاسيَّلا إلى أن لا يكون، هانت عليه الثُّوبُ، واعلم أن الذي يَغُرُّ النَّاسَ هو حسنُ ظَنِّهم باغترارِ الآفات، واغترارُهم حالة بعد حالة بصفاء الأوقات، ولو تأملوها لتحقَّقوا أنها كما قال عليُّ رضي الله تعالى عنه: ما قال الناس لقرمِ طوبى لكم إلا وقد خبأَ الدهرُ لهم يومَ سوءٍ:

إِنَّ اللَّيَالِيَّ لَمْ تُحْسِنْ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بِمَدِّ إِحْسَانٍ

انتهى كلام الراغب، ومن أبدع ما قيل في الصبر والجزع قول ابن الرومي:

أَرَى الصَّبْرَ مَحْمُودًا وَعَنهُ مَذَاهِبٌ فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْهُ مَذْهَبٌ^(١)
هُنَاكَ يَحِقُّ الصَّبْرُ وَالصَّبْرُ وَاجِبٌ وَمَا كَانَ مِنْهُ كَالضَّرُورَةِ أَوْجِبُ^(٢)
فَشَدَّ أَمْرُوهُ بِالصَّبْرِ كَكُفِّهِ لَهْ عِصْمَةُ أَسْبَابُهَا لَا تَقْضُبُ^(٣)
هُوَ الْمَهْرَبُ الْمُنْجِي لِمَنْ أَحْدَقَتْ بِهِ مَكَارِهِ دَهْرِ لَيْسَ مِنْهُمْ مَهْرَبُ^(٤)
أَعْدُوهُ خِلَالًا فِيهِ لَيْسَ لِعَاقِلٍ

من الناس - إن أنصفن - عنهن مرغب^(٥)

لبؤس جمال، جُنَّةٌ من شِمَاتِهِ شَفَاءُ أَمْسَى يُثْنَى بِهِ وَيُثَوَّبُ^(٦)

(٢٠١) يقول: إن صبر الإنسان على ما يناله من مكروه أو عما يريد نيله من محبوب: محمود، ولو أنه يجد طرقا كثيرة يتخلص بها من المكروه أو يحصل بها على الرغائب، فكيف إذا لم يجد وسيلة إلى إزالة المكروه أو إدراك المرغوب؟ لا شك أن الصبر إذن واجب وما كان منه أشبه بالضرورة أنظم وجوبا

(٤٠٣) فشدد أمرؤ بالصبر ككفا يقول: خليف بالمرء أن يستظهر بالصبر على تحمل المكروه، إذ أن الصبر عصمة وثيقة لا تنقطع حبالها فنعم الملاجأ هو لمن أحاطت به نوائب الدهر التي لا محيص عنها

(٦٠٥) يقول: إن في الصبر خلا لا يلبق بعاقل أن يتركها إذا كان هناك إنصاف

فَيَا عَجَبًا لِلشَّيْءِ هَذِي خِلَالُهُ وَتَارَكَ مَا فِيهِ مِنَ الْحِظِّ أَعْجَبُ
 وَقَدْ يَتَظَنَّى النَّاسُ أَنَّ أَسَاسَهُمْ وَصَبْرَهُمْ فِيهِمْ طِبَاعُ مُرَكَّبٍ ^(١)
 وَأَنَّهُمَا لَيْسَا كَشَيْءٍ مُصَرَّفٍ يُصَرِّفُهُ ذُو نَسْكَبٍ حِينَ يُنْكَبُ
 فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَأْسَى أَطَاعَ لَهُ الْآسَى وَإِنْ شَاءَ صَبَرَ اجَاهَهُ الصَّبْرُ يُجَلَّبُ
 وَلَكِنْ ضَرُورِيَانِ كَالشَّيْءِ يُبْتَلَى بِهِ الْمَرْءُ مَغْلُوبًا وَكَالشَّيْءِ يَذْهَبُ
 وَأَيْسَابُ كَا ظَنُّهُمَا ، بَلْ كِلَاهُمَا لِكُلِّ لَيْبٍ مُسْتَطَاعٌ مُسَبَّبٌ ^(٢)
 يُصَرِّفُهُ الْمُخْتَارُ مِنْهَا ، فَتَارَةً يُرَادُ فِيهَا أُنَى أَوْ يُزَادُ فَيَذْهَبُ ^(٣)

ومعدلة، وهذه الخلال هي : أن الصبر لبوس جمال ، أى أنه زينة وحلية جميلة ، وأنه جنة من ثماتة ، أى وقاية من فرح الأعداء بما يصاب به المرء :

وَتَجَلْدِي لِلشَّامَتِينَ أُرِيهِمْ أَنَّى لَرَبِّ الدَّهْرِ لَا تَضَعُضُ
 وأنه شفاء أسى ، أى مذهب للحزن ، وأنه يثنى به ، أى أنه مدرجة للحصول على الثناء ، وأنه يشوب ، أى يجازى عليه

(١) يتظنى أصلها : يتظن ، أى يعملون الظن ، أى يذهبون مع ظنهم ، والآسى : الحزن ، وطباع : أى طبع ، يقول : وقد يظن الناس أن الحزن والصبر طبع ، لا حيلة لمن طبعه الحزن في أن يصبر ، ولا لمن طبعه الصبر أن يحزن ، ثم قال في البيت التالى : وأن كلا الحزن والصبر ليسا من الأشياء التى يمكن تحويلها من حال إلى حال حتى يحولها المنكوب المصاب فإذا أراد الحزن أطاعه الحزن وإن أراد الصبر والتجلد جلبا إليه - وهذا معنى قوله فإن شاء ... البيت ، ثم قال : ولكن يظن الناس أن كلا من الآسى والصبر ضروريان كأن الحزن شئ يملك على الإنسان أمره لا حيلة له فى التخلص عنه وكذلك الصبر ترى الإنسان يصبر كما لو ضاع منه شئ لا بد أن يتحمل فقدسه أى يصبر على ضياعه ثم فند هذا بقوله : وليسا كما ظنوهما ... الايات

(٢) يقول : وليس الحزن والصبر كما يظنهما الناس وإنماهما مما يقدر عليه ومن المستطاع التصرف فيهما والتسبب لتحويل كل منهما وتركه إلى الآخر
 (٣) المختار : ذو الإرادة ، ويزاد : يدفع ويبعد

إذا احتجَّ مُخْجَجٌ عَلَى النَّفْسِ لَمْ تَكْذُ عَلَى قَدَرٍ يُمْنِي لَهَا تَتَعَبُّ (١)

وساعدها الصَّبْرُ الْجَمِيلُ فَأَقْبَلَتْ إِلَيْهَا طَوْعاً جَنَائِبُ تُجَنَّبُ (٢)

وإنَّ هُوَ مَنَّاها الْإِبَاطِيلَ لَمْ تَزَلْ تُقَارِلُ بِالْعَتَبِ الْقَضَاءُ وَتُغْلِبُ (٣)

فَتُضْجِي جَزْوَاعاً إِنْ أَصَابَتْ مُصِيبَةٌ وَتُتَمْنِي هَلْوَاعاً إِنْ تَعَذَّرَ مَطْلَبُ (٤)

فَلَا يَعْدِرَنَّ التَّارِكُ الصَّبْرَ نَفْسَهُ بِأَنْ قِيلَ: إِنْ الصَّبْرُ لَا يُتَكَسَّبُ (٥)

وقال الأصمعيُّ: أحسنُ ما قيل في الصبر مع الشرح قول أبي ذؤيب الهذلي:

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيَهُمْ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ

حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ بِصَفَا الْمُشَقَّرِ كُلِّ يَوْمٍ تُقْرَعُ

ولا أتضعع: لا أذلُّ ولا أخضع، وريب الدهر: صرْفُهُ، والمرْوة واحدة

المرْوة وهي: حجارة بيض براقه يقدح منها النار: ومرْوة المَسْعَى التي تذكر مع

الصفاء في الحج- وهي أحد رأسيه اللذين ينتهي السعي إليهما- سميت بذلك، وبصفا

(١) يعني: يقدر يقول: إذا أقمت للنفس الدلائل على أن الصبر اختياري مكتسب

ثم ألت بها المصائب فإنها تقنع ولا تعتب على القضاء والقدر

(٢) الجنائب جمع جنيب وهو الفرس يجنب إلى الفرس حتى إذا فتر المركوب ركب

المجنوب، وله متعاقب جنائب أي جنائب للصبر، يقول: متى اطمأنت النفس إلى الدليل

على أن الصبر مكتسب وتركت عتاب القدر ساعدها على تحمل مصائبها صبر جميل

يواتها مسعفا

(٣) يقول: أما إذا تركت النفس تذهب مع الأوهام والإباطيل فإنها لا تزال في

عتب على القضاء والقدر مما أصابها ولا تزال أعتب عبتا وبلا فائدة حتى تقهر وتغلب

(٤) الهلوع: الجزوع جزعا شديدا يقول: فيشتد جزعها إذا أصابها مصيبة ويشد

أكثر إذا فاتها مطلب من مطالبها

(٥) يقول: لا عذر لمن يترك الصبر اغترارا بقول القائل: إن الصبر طبع غير

مكتسب إذ ظهر أن هذا القول باطل وأن الحق أن الصبر اكتسابي

المَشْقَرُ يروى : بَصْفَا المَشْرِق ، أما المَشْقَرُ فهو : موضع أو حصن بالبحرين قديم بناه كسرى ، والمَشْرَقُ فهو : جبل يسوق الطائف ، والصفاء : جمع صفاة : صخرة ملساء وبه سمي أحد جبلي المسعى ؛ وهذان اليتان من قصيدة أبي ذؤيب ^(١) التي يرثي بها بنيہ الخمسة وقد ماتوا في عام واحد ، وأولها :

أَمِنَ المَؤَنَ وَرِيهَ تَوَجَّعُ والدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَن يَجْزَعُ ^(٢)
قالت أُمَامَةُ : مَا لِي جِسْمِكَ شَارِحًا مُنْذُ ابْتُلَيْتَ وَمِثْلُ مَا لِكَ يَنْفَعُ ^(٣)
أَمَ مَا لِي جِسْمِكَ لَا يَلَانُكُمْ مَضْجَعًا إِلَّا أَقْضَ عَلَيْكَ ذَاكَ المَضْجَعُ ^(٤)

يروى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنه استأذن على معاوية في مرض موته ليعودته ، فأدَّهَنَ واكْتَحَلَ - أى معاوية - وأمرَ أن يُقَعَّدَ وَيُسْنَدَ وقال : إِنْ دَنَوَالَهُ ، وَلَيْسَ قَائِمًا وَلْيَنْصَرَفْ ، فلما سَلَّمَ عليه وولى ، أنشد معاوية قول أبي ذؤيب : وَتَجَلَّدَى لِلشَّامَتَيْنِ ... أَلَيْتَ : فاجابه ابن عباس على الفور :

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
ثم ما خرج من داره حتى سَمِعَ نَعِيَهُ ... وقال ضابطُ بن الحارث البرُّجُمِيُّ من أبيات قالها في سجن عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ رضى الله عنه :

وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَضِيرُكَ ضَيْرَةٌ وَلِلْقَلْبِ مِنْ خُشَايَيْنِ وَجِيبُ
وَلَا خَيْرَ فِى مَنْ لَا يُؤَظِّنُ نَفْسَهُ عَلَى نَائِمَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنْوُبُ

-
- (١) أبو ذؤيب الهذلى : شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم
(٢) المئون هنا : الدهر فلذلك ذكره ، ومن أراد به المنية أنه ، معتب : مزيل عتبة ، أى مُرِضٍ
(٣) ومثل مالك ينفع ، يقول : ما لجسمك شاحبا ومثل مالك لا يكون معه هزال ولا شحوب لأنه واسع مبذول
(٤) إلا أقض عليك ذاك المضجع : أى تجده كأن فيه قضة وهى : الحصى الصغار

« قوله : لا تضيرك ضيرة ، فالعرب تقول : ضارُهُ يضيرُهُ ضيراً وَضِيرَةً -
 المرة من الضير - ولا ضيرٌ عليك ، وضرةٌ يضُرُّه ولا ضررٌ عليه ، والخشاة :
 مصدر خشية يخشاه خشية وخشاة ومخشية : خافه ، وفي معنى هذا البيت يقول
 أبو العتاهية :

وقد يهلك الإنسان من بابٍ أُنْهَ وَيَنْجُو بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ يُحَذَّرُ
 والأصل في هذا قوله عز وجل : وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَحِبَّ اللَّهُ
 فِيهِ خيراً كثيراً ، وقوله : ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... البيت : نظيره
 قول كثير عزة :

أقول لها : يا عَزْرُ ، كُلُّ مُصِيبَةٍ إِذَا وُطِّتْ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ

قال عبد الملك : لو قال كثير هذا البيت في صفة الحرب لكان أشعر الناس ،
 وفي الأثر : للمحن أوقاتٌ ولها غايات ، واجتهاد العبد في محنته قبل إزالة الله لها ،
 زيادة فيها قال تعالى : إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي
 بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قلُ حَسْبِيَ اللَّهُ عليه يتوكلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ...
 وقلوا : الْمُتَمَتِّحُنْ كَالْمُخْتَنِقِ كلما ازدادَ اضطراباً ازدادَ اختناقاً ... وحكى عن
 بعض الصالحين : أذا بنا له مات فلم يرَ به جزئ ، فقيل له في ذلك فقال : هذا أمرٌ
 كنا نتوقعه ، فلما وقع لم نُنْكِرْهُ ... وقالوا : مَنْ أَرَادَ طَوْلَ الْبَقَاءِ فَلْيُوطِّنْ نَفْسَهُ
 عَلَى الْمَصَائِبِ ؛ وقالوا : المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان ، وقال أكرم بن
 صَيْفِي : حيلةٌ هُنَّ لِاحِيلَةٍ لَهُ : الصبر . وسيد الكلام في الصبر قول المصطفى
 صلوات الله عليه : لو كان الصبرُ رجلاً لكان رجلاً كريماً الكريم ضد اللئيم ،

عود إلى أسباب الحزن

وقال الفيلسوف أبو يعقوب الكِنْدِيّ: أسباب الحزن: فَقْدُ محبوب ، أُرْتُ مطلوب ، ولا يَسْلُمُ منهما إنسانٌ ، لأن الثباتَ والدوامَ معدومان في عالم الكَوْنِ والفساد ؛ وقال الحسن البصري : الدنيا دارُ غُمرٍ ، فمن عُوِجَلَ فُجِعَ بنفسه ، ومن أُجِّلَ فُجِعَ بأحبابه ؛ وقال بعض الفلاسفة : مَنْ أراد أن لا يُصابَ بِمُصِيبَةٍ ، فقد أرادَ ما لا يكون ، لأن المصائب في عالم الكون والفساد طبع بالطبع ؛ فيلَبِغِي أن يكون منا على بال : أن جميع الأشياء التي تَصِلُ إلينا كانت قَبْلَنا لغيرنا ، فانتقلت إلينا على شريطة ما كان لمن قبلنا... وقيل لُسُقراط : مالك لا تَجْرُعُ ؟ قال : لأنني لا أَقْنِي ما يَحْزُنُنِي فَقَدُهُ ... وقال ابن الرومي في هذا المعنى :

وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ لَا يَرَى مَا يَسُوؤُهُ فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدًا
أقول : يريدون بذلك : أنه لا بُدَّ في هذه الدنياء من المصائب مادام ، هناك قُنْيَةٌ من مال وولد وما إليهما من كل ما هو مُسْتَهْدَفٌ لِسَهامِ الأيام ، ومن أراد أن لا يصابَ فَلَا يَقْتَنِي ما يَسُوؤُهُ فَقْدُهُ - وَالْقُنْيَةُ لا بُدَّ منها في هذه الحياة الدنيا ، وإذْ ن لا بد من توطين النفس وإعدادها لتَلْقَى المصائب ... وإذا كان هناك مَنْ يترامى بمثل هذا الكلام إلى الحثِّ على الزهد ، فهذا مَرَمَى آخر ، منهم مَنْ يَفْزَعُ إليه لمثل هذا الغرض - تَوَقَّى المصائب ما أمكن - ولا غراض أخرى تراها بعدُ ... وقالوا : الجزعُ مَنَقَصَةٌ للحياة ، ومن أعان على نُقْصانِ حياته ، فقد عَظُمَتِ خطيئته ... وقالوا : التأسف على الفائت تضييع وقت ثانٍ ، إن كنتَ جازِعًا لِمَا أَفْلَتَ منك فاجزَعْ على ما لم يَصِلْ إليك ؛ وقال

على كَرَمِ الله وجهه : الصبر مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُو ، والقَنَاعَةُ سَيْفٌ لَا يَلْبُو . وقال
 عمر رضى الله عنه : لو كان الصبرُ والشكرُ بَعِيرَيْنِ مَا بَايْتُ أَهْمًا رَكِبْتُ ؛
 وقيل : الصبرُ يُنَاصِلُ الحَدَثَانِ ، والجَزَعُ من أَعْوَانِ الزَّمَانِ ، وما فى الشكوى
 إِلَّا أَنْ تُحْزِنَ صَدِيقَكَ وَتُشْمِتَ عَدُوَّكَ ؛ وقيل : اجْعَلْ صَبْرَكَ عَلَى النَوَائِبِ
 كِفَاءً شُكْرَكَ عَلَى الْمَوَاهِبِ ، الصبرُ عِنْدَ النِّعَمِ ، والشكرُ عِنْدَ النِّعَمِ ، وقال
 حكيم : جَمِيعُ مَكَارِهِ الدُّنْيَا تَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ ، ضَرْبٌ فِيهِ حِيلَةٌ ، فَالْأَضْطِرَابُ ^(١)
 دَوَائِهُ ، وَضَرْبٌ لَا حِيلَةَ فِيهِ ، فَالصَّبْرُ شِفَاؤُهُ ، وَقَالَتِ الْفَرُسُ : كَلِمَتَانِ
 يَقُولُهُمَا الْعَاقِلُ عِنْدَ نَائِدَتِهِ : إِحْدَاهُمَا : هَذِهِ الْحَالُ خَيْرٌ مِمَّا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا ،
 وَالْآخَرَى : لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَحْمَلَ فِي هَذَا الْمَكْرُوهِ خَيْرًا وَكَلِمَتَانِ يَقُولُهُمَا الْجَاهِلُ :
 لَعَلَّ مَا أَصَابَنِي يَدْعُو إِلَى شَرٍّ مِنْهُ ! وَالْآخَرَى : لَوْ كَانَ بَدَلَ كَذَا كَذَا مِنْ
 الْمَصِيبَةِ ! وَقَالُوا : الصبر على مرارة العاجل ، يُفِضِي إِلَى حَلَاوَةِ الْآجِلِ ،
 لَأَنَّكَ لَا تَتَأَلَّ قَلِيلٌ مَا تُحِبُّ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى كَثِيرٍ مَا تَكْرَهُ ، وَقَالُوا : لِكُلِّ شَيْءٍ
 ثَمَرَةٌ ، وَثَمَرَةُ الصَّبْرِ الطَّقَرُ ، وَالصَّبْرُ كَاشِحٌ ، وَعَاقِبَتُهُ الْعُسْلُ ، . وَالصَّبْرُ عَلَى
 الْمَصِيبَةِ مُصِيبَةٌ عَلَى الشَّامِتِ . وَقَالَ عَلِيٌّ : إِنْ صَبَرْتَ فَأَنْتَ مُأْجِرٌ ، وَإِنْ جَزِعْتَ
 جَرَى عَلَيْكَ الْمَقْدُورُ .

حشهم على تصوّر المصائب

والاستعداد لها كفى تخيف وطأتها

وقالوا فى ذلك : من كان مُتَوَقِّعًا ، لم يُلَفَّ مُتَوَجِّعًا ، وقال بعضهم

(١) الاضطراب : يريد : الحركة والاحتياال فى دفعه

- قيل لابن الرومي، ولم أرها في ديوانه، وإن كانت أشبه بمذهب ابن الرومي - :

أَلَمْ تَرَ رُزْءَ الدَّهْرِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ كِفَاحًا إِذَا فَكَّرْتَ فِي الْخَلَوَاتِ
فَمَا لَكَ كَالرَّمِيِّ فِي مَأْمَنِ لَهُ يَبْدُلُ أَتْنَهُ غَيْرَ مُرْتَقَاتِ
فَإِنْ قُلْتَ مَكْرُوهٌ أَنَا فِي فُجَاءَةٍ فَمَا فُوجِئْتُ نَفْسٌ مَعَ الْخَطَرَاتِ
وَلَا عُوقِبْتُ نَفْسٌ يَبْلُوَى وَقَدْرَاتِ عِظَاتٍ مِنَ الْإَيَّامِ بَعْدَ عِظَاتِ
إِذَا بُعِثَتْ أَشْيَاءٌ قَدْ كَانَ مِثْلُهَا قَدِيمًا فَلَا تَعْتَدُهَا بَغَاتِ
وهذه الآيات من الوضوح والإنارة بحيث لا يعوزها شرح ، وقالوا :
ما أمتنع الدهر إلا لينع ، ولا أعطى إلا ليسترّد ، ولولا اغترار الجاهل
بعوائده ، لحلت النفوس من الحسرة على نواتبه ، وقالوا : لا تُخِلْ فِكْرَكَ
من عوارض الفكر وخواطر الذكر فيما تعروك به الأيام ، من ارتجاع
ودائرها ، وحلول وقائدها ، - وهذا ما قاله ابن الرومي آنفا ،

الغمّ يورث السقم والهَرَمَ

قال المتنبي :

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيَهْرِمُ
« يخترم : يستأصل ويقطع ، والجسيم : العظيم الجسم ، والنحافة : الهزال ،
والناصية : شعر مقدم الرأس ، يقول : إن الحزن إذا استولى على
المرء أذهب جسم العظيم الجسد وهزله حتى يأتي عايه من الهزال ، ويشيب
الصبي قبل الأوان حتى يصير كالهرم من الضعف والعجز » ... وسئل عبد الله
ابن عباس عن الحزن والغضب فقال : أصلاهما واحد ، وذلك وقوع الأمر

على خلاف المحبة ، فأما فرعاها ففجأة لمان ، فالمكروهُ مَنْ فوقك ينتج حزنا
ومَنْ دونك يُنتِجُ غضبا

« فحزنُ كلِّ أخِي حُزنٌ أخو الغضبِ »^(١) *

الحزن ييلي بتقادم العهد

وقالوا في الحزن ييلي بعد انقضاء مدة : الحُزنُ يَنْضُو عن ابن آدم كما
يَنْضُو الصَّبْغُ عن الثوب ^(٢) ولو بقي لقتله .

وقال المتنبي :

إذا استقبلتَ نفسَ الكريمِ مُصابها يَحْبُثُ ثَلْتُ فاستدبرتهُ إيطيبِ
والوَّاجِدِ المكروبِ من زفَّراتِه سُكونٌ عزاءٍ أو سُكونٌ لُغوبِ

« قوله : إذا استقبلت ... ألبت ، فالمصاب مصدر بمعنى الإصابة ، والحبث
هنا : الجزع ، والطيب هنا : الصبر وترك الجزع ، وثنت : صرفه - أى الجزع -
النفس ، يقول : إذا جزع الكريم - ضد اللثيم - فى أول نزول المصيبة ،
وراجع أمره ، عاد إلى الصبر والتسليم ، ومَنْ لم يُوطِّن نفسه على المصيبة فى
أول الأمر صُعَبَ عليه عند وقوعها . وقوله : وللواجد المكروب ... ألبت

(١) للمتنبي فى مرثيته التى يرى بها أخت سيف الدولة وأوله :

جَزَاكَ رَبُّكَ بِالْأَحْزَانِ مَغْفِرَةً حُزْنُ كُلِّ أَخِي حُزْنُ أَخِي الغضبِ
يقول : غفر الله لك أحزانك إذا الحزن مما يستغفر منه ، لأن الحزن كالغضب من هو دونك إذا
أصابك بما تكرهه والحزن من هو فوقك ، والإنسان إذا حزن على مصيبة تصيبه فكأنه يغضب

على القدر حيث لم يجر بمراده ، والغضب على المقدور مما يستغفر منه

(٢) يقال : نضا الخضاب ونضوا : ذهب لونه ونصل

يقول : لا بُدَّ للمحزون من سكون ، إما أن يَسْكُنَ عَزَاءً ، أو يَسْكُنَ إعياءً ،
وإذن لتحقيق بالعافل أن يَسْكُنَ تَعَزُّياً ، كما قال محمود الوراق :
إذا أنت لم تَسَلْ اضطِباراً وحِسْبَةً سلوت على الأيام مثل البهائم -
وكما قال أبو تمام :

أَتَصْبِرُ لِلْبَسَلَوَى عَزَاءً وَحِسْبَةً فَتُوجِرَ أَمْ تَسْلُوا سُلُوَ الْبَهَائِمِ -
« الحسبة : طلب الأجر والثواب ،

ومن أحسن ما قيل من الشعر القديم ، في أن الحزن يبلى إذا تقادم عهده
قول أبي خراش الهذلي - شاعر مخضرم أسلم وهو شيخ كبير ، يوم حزين - :
على أنها تَعْفُو السُّكُومُ ، وإنما نُوكَلُ بِالْأَذَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي
وقبل هذا البيت :

حَدَّثَ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةٍ إِذْ نَجَا خِرَاشٌ ، وَبَعْضُ الشَّرَّاهُونَ مِنْ بَعْضِ
فَوَالله : مَا أَنْسَى قَبِيلاً رُزْنَتَهُ بِجَانِبِ قُوسَى مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ
على أنها تغفو الكلام ... البيت

ولم أَذِرْ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَا جَدَّ مَحْضِ
وكان من حديث هذا الشعر ، أَنَّ عُرْوَةَ بِنَ مَرَّةَ أَخَا أَبِي خِرَاشٍ ، وَخِرَاشُ
ابْنُ أَبِي خِرَاشٍ ، اصْطَحَبَا فِي مُتَصَرِّفٍ لهُمَا : فَأَسْرَمَا بَطْنَانِ مِنْ
ثَمَالَةٍ : بَنُو رَازِمٍ وَبَنُو بِلَالٍ - وَكَانَا مَوْتُورَيْنِ - فَاخْتَلَفُوا فِي الْإِبْقَاءِ
عَلَيْهِمَا وَقَتْلَهُمَا ، فَقَالَ بَنُو بِلَالٍ إِلَى قَتْلِهِمَا ، وَتَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ ، إِلَى
أَنْ صَارَ يُودَى إِلَى الْمَقَاتِلَةِ ، فَتَفَرَّدَ أُولَئِكَ بِعُرْوَةَ فَقَتَلُوهُ ، وَتَفَرَّدَ وُلَاءُ بَخْرَاشٍ
خُفْلَا بِهِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : مُسْتَهْزِئاً لِلْفُرْصَةِ فِي الْإِسْدَاءِ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ دَلِيلُكَ ؟
فَقَالَ : قِطَاةٌ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ وَقَالَ : انْجُ ، فَمَرَّ لِطَيْتِهِ ، فَلَمَّا انْحَرَفُوا لِلنَّظَرِ

في أمره قال لهم مُمَسِّكُهُ إِنَّهُ أَفَلَتْ ، فطردوه - أَيْ تَبِعُوا خِرَاشًا - فَأَعْيَاهُمْ ، فلما وصل خِرَاش إلى أبيه وَخَبَّرَهُ بِمَا جَرَى عَلَى عُرْوَةٍ وَبِمَا أَتَّفَقَ مِنْ صَاحِبِهِ فِي بَابِهِ ، انْقَضَ قِصَّتُهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ... وقوسى اسم مكان ، وقوله : على أنها تعفو الكلام ... أَلَيْتِ فَإِنَّ هَذَا يَجْرَى مَجْرَى الْإِعْتِذَارِ مِنْهُ وَالِاسْتِدْرَاكِ عَلَى نَفْسِهِ فِيمَا أَطْلَقَهُ مِنْ قَوْلِهِ : « لَا أَنْسَى قَتِيلًا رُزْنَتَهُ مَا مَشِيَتْ عَلَى الْأَرْضِ » ، أَيْ مَدَّةَ حَيَاتِي ؛ وَالضَّمِيرُ فِي أَنَّهَا : لِلْقِصَّةِ ، وَخَبَرُ أَنَّ : الْجُمْلَةَ بَعْدَهَا ؛ وَالْعَفَاءُ : الدُّرُوسُ وَالذَّهَابُ ؛ وَالْكَلُومُ جَمْعُ كَلِمٍ ؛ وَبَعْنِي بِهِ : الْحَزَّ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْفَجِيعَةِ ، وَجَلَّ : عَظُمَ ؛ يَقُولُ : لَا أَنْسَاهُ وَلَوْ طَالَ عَهْدُهُ وَعَفَتْ آثَارُهُ ؛ وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُؤَكِّلُ بِالْجَزَعِ الْمَصِيبَةِ الْقَرِيبَةِ الْعَهْدِ ؛ فَأَمَّا الْمُتَقَادِمُ مِنَ الْأَرْزَاءِ فَإِنَّ مُضَيَّ الزَّمَنِ يُعْفِيهِ . وقوله : ولم أدر ... أَلَيْتِ ؛ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ لَا نَعْرِفُ مَنْ مَدَحَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ غَيْرَ أَبِي خِرَاشٍ ،

التَّاسِي بِمَنْ مَصَابِهِ كَمَصَابِ الْمَصَابِ أَوْ يُرَبِّي عَلَيْهِ

وقولهم في عكس ذلك

أما قولهم في عكس ذلك فأحسن ما قيل فيه قول ابن الرومي :

ليس تأسو كلوم غيري كلومي مابه مابه وما بي ما بي
« تأسو : تُدَاوِي ، وَالْكَلُومُ : الْجُرُوحُ ، وَقَبْلَ هَذَا الْبَيْتِ - وَهِيَ آيَاتُ يَنْدُبُ بِهَا الشَّبَابَ - :

يَا شَبَابِي ! وَأَيْنَ مَنِّي شَبَابِي ؟ أَذْنَتِي حَبَالُهُ بِانْقِضَابِ
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى نَعِيمِي وَلَهْوِي تَحْتَ أَفْنَانِهِ اللَّدَانِ الرِّطَابِ
وَمَعَرَّيَ عَنِ الشَّبَابِ مُؤَسِّرِ بِمَشْيِ اللَّدَاتِ وَالْأُتْرَابِ

قلت - لما انتحى يعدُّ أساهُ من مُصابٍ شبابهُ فمُصابٍ :
 ليس نأسو كلوم غیری كلومی ألیت
 وأما قولهم فی النَّاسِ بِنِ مَصِیْبَتِهِ كَمَصَابِ الْمَصَابِ أَوْ تُرْبِ عَلَيْهِ فَمِنْ ذَلِكَ
 قول أَفْلاطُون لِرَجُلٍ رَأَاهُ مَغْمُومًا : لَوْ أَحْضَرْتَ قَلْبَكَ مَا فِيهِ النَّاسُ مِنْ
 الْمَصَائِبِ ، لَقَلَّ قَهْمُكَ ... « انظر مقالة الكاتب أديسون آخر هذا الباب » ...
 وقالت الخنساء :

ولولا كثرةُ الباكين حولى على إخوانهم لَقَتَلْتُ نَفْسِي
 وما يَبْكُونُ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَسْأَلُ النَّفْسَ عَنْهُ بِالنَّاسِ
 وقال حُرَيْثُ بْنُ سَلَمَةَ بْنِ مُرَّارَةَ بْنِ مُحَقِّصٍ ، أَحَدِ بَنِي خَزَاعِيٍّ بْنِ مَازِنٍ -
 شاعر جاهلي - :

ولولا الأثسى ما عِشْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَهُ وَلَكِنْ إِذَا مَا شِئْتُ جَاؤَ بَنِي مِثْلِي

« عروة بن الزبير »

« مثل أعلى للصبر والتأسي »

كان عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، أَحَدُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ بِالْمَدِينَةِ ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ
 - أَحَدِ الْعَشْرَةِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ وَابْنِ صَفِيَّةَ عَمَّةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ - وَشَقِيقُ
 عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ - الَّذِي وَلِيَ الْخِلَافَةَ فِي الْحِجَازِ حِينَما مِنَ الدَّهْرِ أَزْمَانُ بَنِي أُمَيَّةَ
 وَالَّذِي تَوَلَّى قَتْلَهُ الْحِجَاجُ - وَأُمُّ عُرْوَةَ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - وَهِيَ ذَاتُ
 النَّطَاقَيْنِ ^(١) ، وَخَالَتُهُ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَكَانَ عَالِمًا صَالِحًا ،

(١) النطاق : شقة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بجبل ثم ترسل الأعلى على
 الأسفل إلى الركبة عند معاناة الأشغال لئلا تعثر في ذيلها ، وكان لاسماء نطاقان تلبس

أقول : كان عروة هذا من قوة الإيمان والتسليم والرضا بالقدر خيريه وشره ورجحان العقل ، بحيث يُعَدُّ مثلاً أعلى للصبر والتسلي ، وذلك أنه وقد من المديته على الوليد بن عبد الملك بِدِمَشَقَ - عاصمة الأمويين - وكان معه ابنه محمد - وكان من أجل الناس ، فيقال : إن الوليد عانته - أصابه بعينه - فدخل محمد دارَ الدواب ، فضربته دابةً فخرَ مَيْتاً ، ووقعت في رجل عروة الأكلّة - داء في العضو يأكل منه - ولم يدع ورده تلك الليلة ، فقال له الوليد : آتَظْهَها وإلا أفسدت عليك جسدك ، فلما دعى الجزار ليقطعها قال له : تَسْقِيكَ الخمر حتى لا تجحد لذلك ألماً ، فقال : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ، قالوا : تَسْقِيكَ المُرْقِدَ « دواء يُرْقِدُ شاربَه كالافيون » قال : ما أحب أن أُسَلِّبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألمَ ذلك فأحتسبه « أحتسبه : أطلب به الأجر » . ودخل عليه قوم أنكرهم فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يُمَسْكُونُكَ فإن الألم رُبَّمَا يعزُبُ معه الصبر « يعزُب : يبعد » قال : أرجو أن أكفَيْكُمْ ذلك من نفسي ، ففُطِعت كَعْبُهُ بالسكين ، حتى إذا بلغ العظم وُضِعَ عليها المِشْشار ، ففُطِعت وهو يُهْلَلُ وَيُكَبَّرُ « يهلل : يقول : لا إله إلا الله ، ويكبر : يقول : الله أكبر » ثم إنه أُغْلِيَ له الزيت في مغارف الحديد ، فحَسِمَ به ، ففُشِيَ عليه ، فأفاق وهو يَمْسَحُ العرق عن وجهه ، ولما رأى القدم بأيديهم دعاها فقلبها

أحدهما وتحمل في الآخر الزاد إلى سيدنا رسول الله وأبي بكر وهما في الغار ، فلذلك سميت ذات النطاقين ، وروت عائشة : أن النبي صلوات الله عليه لما خرج مع أبي بكر مهاجرين صنعنا لهما سفرة طعام المسافر ، في جراب وعاء من جلد ، ففُطِعت أسماء بنت أبي بكر من نطاقها وأوكت به الجراب وشدته بالوكاء : الحبل الذي يشد الوعاء ، فلذلك كانت تسمى ذات النطاقين

في يده ، ثم قال : أما والذي حَمَلَنِي عَلَيْكَ ، إِنْهُ لَيَعْلَمُ أَنِّي مَامَشَيْتُ بِكَ إِلَى حَرَامٍ ، وَلَمَّا دَخَلَ ابْنُهُ إِصْطَبِلَ الْوَلِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَتَلَتْهُ الدَّائِبَةُ كَمَا تَقَدَّمَ لَمْ يُسْمَعْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَوْلُهُ « لَقَدْ لَقَيْنَا مِنْ سَفَرْنَا هَذَا نَصَبًا ، وَلَمَّا قُطِعَتْ رِجْلُهُ قَالَ : اللَّهُمَّ ، إِنْهُ كَانَ لِي أَطْرَافُ أَرْبَعَةٍ فَأَخَذْتُ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتُ لِي ثَلَاثَةً ، فَهَكَذَا الْحَمْدُ ، وَأَيُّمُ اللَّهِ ، لَنْ أَخَذْتُ لَقَدْ أَبْقَيْتُ ، وَلَنْ أَبْتَلَيْتُ لَقَدْ عَافَيْتُ ... وَلَمَّا مَاتَ ابْنُهُ وَقُطِعَتْ رِجْلُهُ ، وَفَدَّ فِي هَذِهِ الْآيَامِ عَلَى الْوَلِيدِ قَوْمٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ فِيهِمْ رَجُلٌ ضَرِيرٌ ، فَسَأَلَهُ الْوَلِيدُ عَنْ عَيْنِيهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَتُّ لَيْلَةً فِي بَطْنٍ وَادٍ وَلَا أَعْلَمُ عَبْسِيًّا يَزِيدُ مَالَهُ عَلَى مَالِي ، فَطَرَقْنَا سَيْلٌ فَذَهَبَ بِمَا كَانَ لِي مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَمَالٍ ، غَيْرَ بَعِيرٍ وَصَبِيٍّ مَوْلُودٍ ، وَكَانَ الْبَعِيرُ صَعْبًا ، فَتَدَّ ، فَوَضَعْتُ الصَّبِيَّ وَاتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ فَلَمْ أَجَاوِزْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى سَمِعْتُ صَيْحَةً ابْنِي وَرَأْسَهُ فِي فَمِ الذَّنْبِ وَهُوَ يَأْكُلُهُ ، فَلَحَقْتُ الْبَعِيرَ لِأَحْبِسَهُ فَتَفَقَّحَنِي بِرِجْلِهِ « ضَرْبُهُ بِحَدِّ خُفِّهِ » عَلَى وَجْهِهِ ، فَخَطَمَهُ وَذَهَبَ بِعَيْنِيَّ ؛ فَأَصْبَحْتُ لَا مَالَ لِي وَلَا أَهْلًا وَلَا وَلَدًا وَلَا بَصَرَ ؛ فَقَالَ الْوَلِيدُ : انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى عُرْوَةَ لِيَعْلَمَ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ بِلَاءٌ ...

وَمَنْ عَزَى عُرْوَةَ : إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَاهُةٍ قَالَ لَهُ : وَاللَّهِ مَا بَكَ حَاجَةٌ إِلَى الْمَشْيِ وَلَا أَرَبُ فِي السَّعْيِ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَكَ عِضْوٌ مِنْ أَعْضَانِكَ وَابْنٌ مِنْ أَبْنَائِكَ ؛ إِلَى الْجَنَّةِ ؛ وَالْكُلُّ تَبِعٌ لِلْبَعْضِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَقَدْ أَبْقَى اللَّهُ لِنَامِكَ مَا كُنَّا إِلَيْهِ فَقَرَاءَ ؛ وَعَنْهُ غَيْرُ أَغْنَاءَ ، مِنْ عِلْمِكَ وَرَأْيِكَ ؛ نَفْعَكَ اللَّهُ وَإِيَانَا بِهِ وَاللَّهُ وَلِيُّ ثَوَابِكَ ؛ وَالضَّمِينُ بِحِسَابِكَ ...

مطرح الهموم

وهذه كلمة طريفة في معنى ما نحن بصدده، كتبها الكاتب «أديسون» ونقلها المرحوم محمد السباعي إلى مجلة البيان التي كان يقوم بإخراجها مؤلف هذا الكتاب، قال أديسون :

«ما يؤثرُ عن الحكيم سُقْرَاطُ أنه قال : إذا جُمِعَتْ مَصائبُ البشرِ كُلِّها في وعاءٍ ، ثم قُسمَتْ على جميع الناس بالسواء لا صِبحَ من كان يَحْسِبُ نفسه أشقى الناس وأخسَرهم يُفَضَّلُ أولى الحالين على الثانية ، وجاء بعدُ سُقْرَاطُ الشاعرُ الرومانيُّ «هوراس» فعدَّل هذا المعنى فقال : إنَّ ما يُكابِدُ أحَدنا من المصائب أخفُّ عليه من مَصائبِ أَى إنسانٍ آخر إذا وقع بين الرُّجَلَيْنِ تبادلٌ... فبينما أنا ذات يوم مُتَّكِئٌ في خَلْوَتِي أَفَكِّرُ في هاتَيْنِ الحِكْمَتَيْنِ وقد أَخَذَتْنِي سِنَةُ من النوم إذ نُحِيلُ إلى أَنَّهُ بِأَمْرِ إِلَهٍ الْإِلَهَةِ قد نَوْدِيَ في الناس : أن يَحْمِلَ كُلُّ امرئٍ مَصائبَهُ فَيَأْتُواها جميعاً فَيَطْرَحُوها بعضها فوق بعضٍ ، في سَهْلٍ فسيحٍ ، فوقفْتُ وَسَطَ ذلك السهل ، وسرَّني أن أرى الناس طُرّاً يأتون واحداً بعد واحدٍ يُلْقُونَ أثقالَهُم العديدة ، حتى ارتفع من مجموعها جبل طالت ^(١) ذُؤَابَتُهُ السحاب .

وكان هنالك امرأةٌ نَحِيْلَةٌ خفيفةٌ قد شَمَرَتْ عن ساعِدِ الجِدِّ وَسَطَ هذه

(١) سميت فوق السحاب قال :

إِنَّ الْفِرْزَدَقَ صَخْرَةً عَادِيَةً طالت - فليس تنالها - الأَجْبالا

فليس تنالها جملة معترضة والأجبالا مفعول طالت والتقدير : طالت الأجبالا فليس تنالها الأجبال .

الخلايق، تحمِل في إحدى يديها مجَهْرًا، وعليها ثوبٌ مُنْفَضُّ هَفَافٌ مُسَابِغٌ
الدَّيْلُ مُوَشَّى بِعَدَدٍ عَدِيدٍ مِنْ تَصَاوِيرِ الْجَانِ وَالْعَفَارِيثِ، كُلُّهَا ضَرَبَتْ الرِّيحَ
الْجِلْدَابَ تَلَوْنَتْ وَتَشَكَّلَتْ تِلْكَ التَّهَاوِيلُ أَشْكَالًا وَأَلْوَانًا؛ وَكَانَ فِي عَيْنِهَا وَآهٌ
وَتَلَهُّفٌ وَحَيْرَةٌ، وَكَانَ اسْمُهَا «الْوَهْمُ» وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تَسُوقُ كُلَّ فَرْدٍ مِنَ
البشر إِلَى الْمَسْكَنِ الْمَعِينِ بَعْدَ إِعَاتِهَا إِيَّاهُ عَلَى رِبْطِ حُزْمَتِهِ وَحَبْكِيهَا وَإِلْقَائِهَا عَلَى
عَاتِقِهِ، فَأَذَابَ قَلْبِي رُؤْيَا إِخْوَتِي وَأَبْنَاءِ أُمِّي وَأَبِي يَنْوُونَ بِأَحْمَالِهِمْ. وَيَذْنُونَ
تَحْتَ أَثْقَالِهِمْ؛ وَفَتَّتَ كَيْدِي أَنْ أَبْصَرَ ذَلِكَ الْجَبَلَ الْبَاذِخَ الَّذِي مِنْ أَحْزَانِهِمْ
تَسْكُونُ، وَمِنْ آلامِهِمْ تَأَلَّفَ، عَلَى أَنَّهُ أَلْهَانِي عِنْدَ ذَلِكَ، وَسَلَّانِي هُنَاكَ:
عِدَّةٌ مِنَ الْقَوْمِ، لِغَرِيبِ أَحْوَالِهِمْ وَعَجِيبِ هَيْئَاتِهِمْ؛ فَمِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ رَجُلٌ فِي
حُلَّةٍ مُطَرَّزَةٍ أَقْبَلَ يَسْعَى حَتَّى جَاءَ الْمَكَانَ، فَأَخْرَجَ مِنْ تَحْتِ حُلَّتِهِ الْمَوْشَاةَ
الْمَزْرُكَةَ حِمْلًا، فَأَلْقَاهُ فَحَدَجَتْ بِيَصْرِي أَتَبَيَّنَتْ، فَإِذَا هُوَ: الْفَقْرُ؛ وَأَقْبَلَ
آخَرُ يَرْزُحُ تَحْتَ ثِقَلِهِ، وَبَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ التَّنَفُّسِ وَالزَّفِيرِ أَلْقَى حِمْلَهُ؛
فَنَظَرْتُ؛ فَإِذَا هُوَ: زَوْجَتِي؛ وَرَأَيْتُ عِدَدًا عَدِيدًا مِنَ الْعُشَّاقِ عَلَى كَوَاهِلِهِمْ
أَنْقَالَ عَجِيبةً مِنْ سَهَامٍ وَسُعْلٍ؛ وَلَكِنْ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ بَرَّغَمَ مَا رَأَيْتُهُ يَكَادُ
يُمَزِّقُ قُلُوبَهُمْ مِنْ غُلَوائِ الْوَجْدِ وَبُرْهَاءِ الْكَمَدِ؛ وَبَرَّغَمَ زَفَرَةَ لَهُمْ تَرَقَّى؛
وَعَبْرَةَ لَا تَرَقَا ^(١) كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَطَاوِعَةَ عَقُولِهِمْ عَلَى إِلقاءِ تِلْكَ الْأَثْقَالِ
عِنْدَ مَا بَلَّغُوا الْكَثِيبَ؛ وَلَكِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْمَحَاوَلَةِ - مَحَاوِلَةِ الْمُتَشَاوِلِ
الْمُتَكَرِّرِ - هَزُّوا رُؤُسَهُمْ وَرَجَّعُوا بِأَثْقَالِهِمْ أَشَدَّ ثِقْلًا وَأَفْدَحَ
حِمْلًا، وَأَبْصَرْتُ كَثِيرًا مِنَ الْعَجَائِزِ يُلْقِينَ تَغَايِضِينَ وَجُوهَهُنَّ

(١) أى: لا تفيض ولا تنجف وأصل ترقا: ترقا ففخف، وترقى الأولى: ترتفع

وكثيراً من الفتيات يُلقين سُمرَ جلودِهِنَّ . ورأيت كوماً ^(١) من أنوفٍ حمراء
 وأسنانٍ قلحاء ^(٢) وشِفاهٍ فلحاء ^(٣) . والعَجَبُ العُجَابُ أني رأيت معظمَ الجبل
 مؤلفاً من غاماتٍ بدنية . وآفاتٍ جسدية ، ثم لحتُ من بعيدٍ رجلاً على ظهره
 جملٌ لم أرَ في سائر الاحمالِ ما يُدانيه عِظماً ، فأنعمتُ النظرَ فإذا هي حَدَبَةٌ ،
 فألقاها - فرحاً بذلك - بين سائر البلايا الآدمية . ورأيت كذلك عِللاً وأمراضاً
 من كلِّ ضربٍ وصنِفٍ ، غير أني رأيت الوهميَّ من ذلك أكثرَ من الحقيقيِّ
 وشاهدتُ بين هذه أنواعاً قد أُلِّفَ من جميع الأمراضِ والعِللِ يحِملُ في الأكفِّ
 عددٌ عظيمٌ من ذوى النعمةِ والرِّفاهيةِ ، واسمُ هذا الداءِ : المَلَلُ ، وأعظمُ
 عَجبي وحيرتي أني لم أرَ أحداً قطُّ أُلِّقَ بين هذه الآفاتِ والمصائبِ شيئاً مما
 ابتليتُ به نفوسُ البشرِ من الرذائلِ والحقايقِ والأضاليلِ والنقائصِ والسخافاتِ
 والباطيلِ ، فأدهشني ذلك أيّما دهشٍ ، إذ كنتُ قد ظننتُ أنها فرصةٌ لا يدعُها
 أحدٌ حتى يطهرَ نفسه من أدرانِ الأهواءِ والشهواتِ . ويُخلصَ طبعه من
 أكدارِ العيوبِ والعوراتِ . ورأيت في الجماعة رجلاً فاسقاً لم أشكَّ في أنه جاء
 مُثَقلاً بأوزاره وآثامه : فلما أقبلتُ على مارماه أفتشهُ ألفتُ أنه لم يَرِمَ شيئاً
 من تلك الذنوبِ والآثامِ وإنما رَمَى ذاكرته ، وتبعه رجلٌ ساقطٌ جاهلٌ ،
 فنظرته فإذا هو قد نبذَ حياته لا جهله ... ولما فرغ الناس من طَرَجِ ألقاهم
 وفرغتِ الجنيَّةُ النحيلةُ الخفيفة ^(٤) من عملِها ، وكانت قد رأت مني رجلاً ينظرُ

(١) جمع كومة ، يقال : كَوم كومة بالضم : إذا جمع قطعة من ترابٍ ورفع رأسها
 ونظيره : الصبرة من الطعام

(٢) القلح : صفرة في الأسنان (٣) فلحاء : مشقوقة

(٤) الوهم كما يذكر التماري

ولا يعمل، دنت مني، فلم يرعني إلا رفعها المجهز إزاء عيني، وكنت أعرف في وجهي القصر، فإذا هو قد تناهى قصره حتى عاد أبشع شيء، فساء في منظره، فألقيته كما يلقى القناع. وكنت قبل ذلك ببرهة أبصرت رجلا رمي بوجهه لفرط طوله، وكان أطول وجه حتى لذقته وحدها تطول^(١) وجهي بأكمليه، فاستراح من مصيبته واسترخت، واستراح الخلق طرا؛ وأطلق لكل امرئ أن يستبدل بيلواه محنة غيره.

على أنه لم يبق في الجمع إلا متعجب من هذه المحنة كيف عدّها أهلها محنة وكيف كان قد غرّبها وخدع فيها، فحسبها نعمة وفائدة! وبينما نحن تتأمل خليط المصائب، ومزيج النوائب، صدر أمر الإله الأكبر أن يستبدل كل امرئ بمصائبه ويرجع إلى مثواه بحظه الجديد، عند ذلك تحركت «الوهم»، وقسمت الكتيب في أخف نشاط وأكمل سرعة، فأعطت كلاً نصيبه، - وكانى بالبراع يعجز أن ينعت ما حدث إذ ذاك من هرج ومرج^(٢)، ثم كانت أمور كثيرة أذكر الآن بعضها:

رعى شيخ كبير على كتيب المصائب علة كانت في بطنه، وكان عاقرا، يتمنى ولداً يكون عماد شيخه ووارث ثروته، فمدّ يده ليتعاض من دائه الذي طرحه فاختطف ولداً فاجراً عاقراً، كان آفة أب له، وكان ذلك الأب قد نبذّه في النبت^(٣) يريد به بديلاً، وقد أخذ بدله مرض البطن الذي رعى به الرجل الأول. فلم تمض إلا برهة حتى رأيت ذلك الغلام قد ناز بالشيخ الكبير فأخذ بلبحيته وناصيته، وهم أن يفلق رأسه. فما هو إلا أن أبصر الأب

(١) زيد عليه طولاً (٢) اختلاط (٣) المنبذات، أى: الأشياء المنبوذة
يعنى بها الآفات التي كان الناس يرمونها تخلصاً منها وليتقاضوا بدلها

الأصلي، وكان يستعى نحوه بمسكا بحشاه من وجع المعدة حتى صاح به :
 يرحمك الله وإيانا، خذْ ولذلك بارك الله فيه وأعطى عِلَّتِي، ولكن قُضِيَ
 الأمر، وكان مالا يكونُ تبديله، ولا يُستطاع تحويله ...

يا ابنُ بُورَان لا مفرَّ منَ الله ولا منَ قضائه المحتوم

ورأيت أسيراً مُقَيَّدًا خُلعَ قَيْدِهِ، وقُلِعَ صَفْدُهُ، فاعتاض منه النِقِرْسُ^(١)
 ولكن أبْدَى من التَّأَوُّه والتَّأَقُّفِ والتَّلَوَّى والتَّنَزَّى ما دَلَّ على أنه لم يكن
 في تجارته تلك بالراجح الصَّفقة .

ولقد كان من المُمْتِنِعِ اللَّأْذُ أَنْ تُبَصِّرَ ما وقع إِذْ ذاك من المبادلاتِ
 والمقايضاتِ، من عِلَّةٍ بِخَلَّةٍ^(٢) وجوعٍ يَفْقِدَانِ شهوةً، وهَمٍّ وتسهيدٍ، بأَسْرِ
 وتقييدٍ . أما النساءُ فكنَّ من تبادُلِ الأَعْضاء - أعضاء الوجه والجسم - في
 شُغْلِ شَاغِلٍ، فواحدةٌ تستعِضُّ لِمَّةً شَمْطَاءَ، من جلدةٍ سَمْرَاءَ، وثانيةٌ تأخذ
 عنقاً قصيراً، وتُعْطَى أنفًا كبيراً، وثالثةٌ تَرْمِي عِرْضاً مَفْضُوحاً . وتَلْقِطُ وجهها
 مقبوحاً، وما مِنْهُنَّ إِلَّا من تُدْرِكُ في الحال أنها اعتاضت من سَيِّئٍ أَسْوَأَ،
 ومن ردىءٍ أَرْدَأَ، وكذلك حال سائر الجمع في كل بليَّةٍ وآفةٍ، لَعَلَّهُ لَأَنَّ
 ما أصابنا به الله مناسِبٌ لمقدار صبرنا واحتمالنا، أو لأن كل مصيبةٍ تدلُّها
 العادة ...

فقلت لها : يا عَزُّ، كلُّ مصيبةٍ إِذَا وَطَّئَتْ يوماً لها النفسُ ذَلَّتْ
 ولقد رَحِمْتُ من صميم مُهْجَتِي ذلك الاحْدَبَ الْآفِيفَ الذَّكْرَ، إِذْ راح معتدلاً
 الْقَامَةِ وَإِنِّي الشَّطَّاطُ، لكن بداء في كُلاه؛ وعِلَّةٌ في حَشَاهُ، كما رَحِمْتُ مُعَاقِدَهُ
 ومُبايعَهُ الذي راح مُخَدَّوِدَ الظَّهْرِ يَطَّاعُ وَسْطَ سِرْبٍ من الفتياتِ كُنَّ قَبْلَ به مَوَاعِمَاتِ

(١) من مرض بفقر (٢) داء في الرجلين يمنعهما من الحركة .

وفيه هائمات . ولست ناسياً ذِكرَ شأني وشأنِ ذِي الوجهِ الطويل ، فإن ذلك
الرفيقَ ما كادَ يأخذُ وجهي القصيرَ حتى أضحي فيه أعجوبةَ الأعاجيب ، فاستلقتُ
ضاحِكاً من وجهي حتى أخجلتُ وجهي ، وأدرك الرجلُ المسكينُ خطيئته
وعَرَفَ غَلَطَته ، فغجل واستخجني ، غير أني ما لبثتُ أن فُتُّ^(١) إلى نفسي
فعلبتُ أنه ليس لي أن أزهى وأختال وأستخر من الغير وأنا سُخرَةٌ ، وأضحك منهم وأنا
ضُحكة^(٢) ، وإن لي في غرابة هيتي لشغلاً عن اللهو بهيناتِ الناسِ ومندوحةً ،
وذلك ، أيها القارئ ، أني رفعتُ يدي أريدُ جَبْهتي فلم تفعِ لِطولِ وجهي إلا
على الشَّفَةِ العليا ، وكذلك بينا أنا أُجِيلُ يدي في وجهي أريدُ إحدى عينيَّ
صَكَتْ يدي أنفي ، لِبُرُوزِهِ وضخامته ، مراراً .

ثم نظرتُ ناحيةً مني فأبصرتُ رجُلين في مثلِ حالِنا من السُّخريةِ قد أحداثا
تبادلاً في زوجين من الأرْجُل ، زوج غليظ أنعوج قصير ، وزوج طويل
نحيل ، فكان صاحبُ الرجلينِ النحيلين كأنما قد رُفِعَ في الهواء على عمودَي
بيت ، فهامته تدور مع الريح حينما دارت ، وأما صاحب الرجلين العُجَاجينِ
القصيرين فكهما حاولَ السيرَ دارَ في مكانه لا يَبْرُحه . ولما رأيت على نُحْيَاهُ
سِياً الحِلْمِ والظُّرْفِ والفكاهةِ أقبلتُ عليه أمارحه فقلت له : سأجعلُ لك كذا
وكذا إنِ استطعتَ أن تبأغ هذا ، ورسمتُ له خَطّاً على مسافةِ ذِرَاعَيْنِ من
مُرْسَى قَدَمَيْهِ ، في مُدَّةِ نصفِ ساعة .

وأخيراً تمَّ توزيعُ كَثِيبِ المِحَنِ والآفاتِ على أهلِها ، من ذِكرٍ وأنثى .

(١) رجعت (٢) يقال : فلان سخرة كسفرة : يسخر منه ، وسخرة كهرة :

يسخر من الناس ، وضحكة بسكون الحاء : يضحك منه ويفتحها : كثير الضحك

وأقبلوا جميعاً تحت أُنْقَالِهَا الْجَدِيدَةِ رُزْحاً حَسْرَى . وَلَهَا حَيْرَى . وقد مَأْوَا
السَّهْلَ وَالْحَزْنَ صَجَّةً وَأَيْنَا . وَرَنَةً وَحْنِينَا . ثم أدركتهم رحمة الله ، فأمرهم
بَطَرْحِ أُنْقَالِهِمْ كَرَّةً أُخْرَى ، فالتقوها فَرِحِينَ بِالقائِهَا مَسْرُورِينَ . وأمره الوهم ،
تلك الشيطانة التي غَرَّرَتْ بِهِمْ وَضَلَّتْهُمْ ، أن تنصرف ، فانصرفت ، وأرسل
الإلهُ بَدَلَهَا مَلَكاً كَرِيماً ، جِدَّ مُخَالَفٍ لَهَا هَيْئَةً وَشَكْلاً . مُبَايِناً لَهَا خَلْقاً وَخُلُقاً ،
رَزِينَ الْحَرَكَاتِ ثَابِتَ الْجَنَانِ ، قد جَمَعَ فِي هَيْئَتِهِ بَيْنَ الطَّلَاقِ وَالْجِدِّ وَالْوَقَارِ وَالْبِشْرِ ،
لَا يَنْفَكُ مِنْ حِينٍ إِلَى آخِرٍ يَرْفَعُ نَحْوَ السَّمَاءِ طَرْفَهُ ، وَيُسْمُو إِلَى عَرْشِ اللَّهِ
بِأَسْمِهِ ؛ وَأَسْمُ هَذَا الْمَلِكِ . الصَّبْرُ ، وَأَعْجَبُ مَا رَأَيْتُ أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ مَا قَامَ بِجَانِبِ
جَبَلِ الْآلَامِ إِلَّا وَأَخَذَ الْجَبَلَ يَهَيِّطُ وَيَضُولُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ رُبْعِهِ ،
ثُمَّ أَعَادَ مَلَأَ الصَّبْرَ إِلَى كُلِّ حَظَّةٍ أَوَّلًا ، وَأَلْهَمَهُ الصَّبْرَ الْجَلِيلَ ، وَأَشْعَرَ قَلْبَهُ
قُوَّةَ الْجَلَدِ وَنُورَ الْيَقِينِ ، فَرَأَحَ مُغْتَبِطاً سَعِيداً يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ مَا عَطَاهُ ، تَائِباً مِمَّا
اِقْتَرَفَهُ مِنَ الْجَهْلِ وَجَنَاهُ .

فَمَا أَفْذْتُ مِنْ هَذِهِ الْعِظَاتِ وَالْعِبَرِ أَنِّي لَسْتُ حَقِيقاً أَنْ أَتَبَرَّمَ بِشَيْءٍ مِمَّا
بُصِيصُنِي بِهِ اللَّهُ أَوْ أَنْفَسَ عَلَى امْرِئٍ هِبَةً أَوْ نِعْمَةً ، إِذْ كَانَ مُسْتَحِيلًا عَلَى امْرِئٍ
أَنْ يَعْلَمَ حَقِيقَةَ جَارِهِ وَيَعْرِفَ سِرَّ صَاحِبِهِ وَيَقِفَ عَلَى مَبَايِغِ أَحْزَانِهِ وَأَشْجَانِهِ
وَكُرْبِهِ ، وَنُوبِهِ ، وَبَلَايَاهُ ، وَرَزَايَاهُ ، فَكُلُّ لُكْلٍ سِرٌّ غَائِضٌ وَخِزَانَةٌ مُقْفَلَةٌ
وَسِفَرٌ مُطَبَّقٌ . وَلَكِنِّي آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَخْذَ نَفْسِي بِثَلَاثَ : كِتْمَانِ الْعِلَّةِ ،
وَكِتْمَانِ الْفَاقَةِ ، وَكِتْمَانِ الْمَصِيبَةِ ، مَعَ الصَّبْرِ عَلَيْهَا جَمِيعاً ، وَأَنْ لَا أَحْسَدَ أَمْرًا عَلَى
شَيْءٍ ، وَأَنْ أَكُونَ أَبَدًا حَاضِرَ الصَّفْحِ لِلنَّاسِ ، وَاسِعَ الْعَفْوِ ، إِذْ كَانَ أَعْقَلُ
النَّاسِ أَعْذَرَهُمُ لِلنَّاسِ ...

عقرياتهم في الدنيا

وأنها دار يحن وأكدار

ولأن الدنيا التي أسماها سيدنا رسول الله : أَمَّ دَفْرٍ - والدَّفْرُ ، النَّسْنُ ، دَفْرًا دار فرأى لهذه الدنيا - أقول : لما كانت هذه الدنيا دارَ مَصَائِبَ وَحَنٍّ وأكدار ، وحسبك بهادم اللذات - الموت - الذي فُضِّحَ هذه الدنيا وبَيَّهَها أيما فضيحة والذي هو نهاية كل حي ، من مصيبة أى مصيبة - لأجل هذا قال الأوائل والأواخر في هذه الدنيا وأبدعوا وافتشوا كل الافتتان ؛ ونحن فسوف نورد عليك أطيب ما قالوا في ذلك ، لما بينه وبين الصبر من وإشجة الرحم ، ولأنه كلام خالد ، لأنه حق وصدق ، لا يليق بعاقِل أن لا يكثر له ، وإنما الواجب أن يجعله دائما نُصَبَ عينيه ، وأن ينظر إليه نظرة رجل ثاقب الرأي بعيد أفق الفكر . لانظرة رجل أحق مُتَمَلِّخِ العقل أعمته أباطيل هذه الحياة وألهاة التكاثر وبهرجها عن كُنْهها فارتطم في أوحالها وصار يَمَلِّخُ في لذائذها مَلْخًا ، لاهيا عن المنهاة المؤسسة التي تنظرنا جميعا ، جالبا بنفسه على نفسه ما يضاعف آلامها ، لا ما يخفف أحزانها ويهون ما أمكن شدائدها وأكدارها . ونحن إذ نورد في هذا الكتاب ما قالوا في الدنيا فإننا لاندعو إلى الزهد فيها وفي تعميرها - كما سيمر عليك في هذا الفصل - ولكن مادام كتبنا في عقريات الأوائل والأواخر ، في كل شيء ، كان واجبا علينا أن نورد عقرياتهم في الدنيا ، وفي الموت ، كما نورد عقرياتهم في سائر المماني التي يعالجها الناس ويتداولونها فيما بينهم ، على أنهم إذ ذموا الدنيا إنما يترامون بذلك «أولا» ، إلى أن يَصْدَتُوا بالحقيقة وهي أن الدنيا في الواقع دار أحزان وأكدار ، ودثانياء إلى حيث الناس على الإجمال في الإقبال عليها ، والتعقل في

النهاية على شهواتها، والا اعتبار بعبرها، والتزوّد فيها لما بعدها، ومن يُنكر أن ذلك جميل ونافع ! ذمّ رجل الدنيا بحضرة علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال علي: آسكت، إنا الدنيا دارُ صدق لمن صدّقها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مهبط وحى الله، ومَنجى أوليائه... إلى آخر ما قال. ومن كلامه أيضا رضوان الله عليه: الناس أبناء الدنيا ولا يُلام المرء على حُب أمه... وسيمر عليك كثير من أمثال هذا...

أسماء الدنيا

الدنيا: اسم لهذه الحياة، وتُكنى الدنيا: أمّ دُفْر، أسماها بذلك - كما أسلفنا - سيدنا رسول الله، والدُفْر: النَّنْ، وتُكنى كذلك: أمّ شَمْلَة، أنشد ابن الأعرابي:

مِنْ أُمِّ شَمْلَةٍ تَرْمِينَا بِذَانِفِهَا غَرَارَةً زِيلَتْ مِنْهَا التَّهَاقِيلُ

وكذلك تُكنى: أمّ شَمْلَة، قال أبو عمرو بن العلاء: إنما سُمِّيت الدنيا والخر بذلك - كما سلفنا - لأنهما يشتملان على عقل الإنسان فيغيباه... أقول: ومن يُنكر أن أبناء الدنيا، من شدة تعلّقهم بها وتكالبهم عليها، وضراوتهم بشهواتها، واقتنائهم بزینتها وخوضهم غمراتها، بحيث يُعدّون كأنهم مُنزفون مُستلبون العقول حتى إذا رماهم هاذم الذات بسهامه تحووا وأفاقوا... وصدق سيدنا رسول الله إذ يقول صلوات الله عليه: الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا... أما الدهر - وهو اسم لزمان متصل، والزمان اسم لدهر منفصل - فقد سمّوه أبا العجب قال:

❖ وما الدهر في فعله إلا أبو العجب ❖

والنسبة إلى الدنيا: دُنياوى، ويقال: دُنيوى ودُنيى - وجمها دُنَى، وإنما

سميت دنيا: لِذُنُوبِهَا، لِأَنَّهَا دَنَتْ وَقُرُبَتْ، وتأخرت الآخرة، أما الدهر فالنسبة إليه دَهْرِيٌّ بضم الدال تقول: رجل دَهْرِيٌّ: أى قديم مُسِنَّةً، أما رجل دَهْرِيٌّ بفتح الدال فعناه: ملحد لا يؤمن بالآخرة يقول ببقاء الدهر، وقوله صلى الله عليه وسلم: لَا تُسَبِّرُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ، فعناه: أن العرب كان من شأنها أن تَدُمَّ الدهرَ وتُسَبِّهه عند الحوادث والنوازل تنزل بهم من موت أو هرم فيقولون: أصابتهم توارع الدهر وحوادثه وأبادهم الدهر، فيجدلون الدهر الذى يفعل ذلك فيذمونه، وقد أخبر الله بذلك فى كتابه العزيز ثم كذبهم فقال: وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، ثم قال الله: وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون، وجمع الدهر أدهر ودهور، أما الدهارير فهى تصاريف الدهر، وقيل جمع للدهر على غير قياس، قال الشاعر القديم (١):

فَاسْتَقْدِرِ اللَّهَ خَيْرًا وَأَرْضِينَ بِهِ فَبَيْنَمَا الْعُسْرُ إِذْ دَارَتْ مَيَاسِيرُ
وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ فِي الْأَحْيَاءِ مُغْتَبِطٌ إِذَا هُوَ الرَّمْسُ تَعْفُوهُ الْأَعَاصِيرُ
يَبْكِي عَلَيْهِ غَرِيبٌ لَيْسَ يَعْرِفُهُ وَذُو قَرَابَتِهِ فِي الْحَيِّ مُشْرَرُ
حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَذَكُّرُهُ وَالدهرُ أَيَّتَمَّا حِينَ دَهَارِيرُ

« قوله: فاستقدر الله خيراً: أى اطلب منه أن يقدر لك خيراً، وقوله:

فبينما العسر؛ فالعسر مبتدأ خبره محذوف تقديره فبينما العسر كائن أو حاضر، إذ دارت مياسير: أى حدثت وحلت، والياسير جمع ميسور، ومغتبط أى فى غبطة: أى مسرة وحسن حال، والرمس: القبر، وتعفوه: تدرسه وتمحو أثره،

(١) قال أبو عمرو بن العلاء: لرجل من أهل نجد. وقال ابن برقي: لعثير بن ليبد العذري، قال: وقيل لحريث بن جبلة العذري

والأعاصير جمع إعصار وهي : الريح تهب بشدة ، وقوله ؛ كأن لم يكن إلا تذكره فيمكن تاءة وإلا تذكره فاعل بها واسم كأن مضممر تقديره كأنه لم يكن إلا تذكره والهاء في تذكره عائدة على الهاء المقدرة ، والدر مبدأ ودهارير خبره وأيتما حال ظرف زمان والعامل فيه مافى دهارير من معنى الشدة ، والدهارير قال الزمخشري : تصاريف الدر ونوائبه ، مشتق من لفظ الدر ليس له واحد من لفظه كعبايد

قلة لبث الإنسان في الدنيا

قال المصطفى صلوات الله عليه : رِيمَ أَنَا مِنَ الدُّنْيَا ؟ وَمَالِي وَلَهَا ! وَإِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُهَا كِرَاكِبٍ سَارٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ ، فَرُفِعَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فَقَالَ تَحْتَهَا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا . قَالَ : مِنَ الْقِيلُولَةِ وَهِيَ الْإِسْتِرَاحَةُ نِصْفُ النَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهَا نَوْمٌ ، يُقَالُ : قَالَ يَقِيلُ قِيلُولَةً فَهُوَ قَائِلٌ ،

وقال علي بن أبي طالب : الدُّنْيَا دَارٌ مَرَّةٍ لَا دَارٌ مَقَرٍّ وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا « أَوْبَقَهَا : أَهْلَكَهَا بِسَبَبِ تَهَاوُنِهِ عَلَى الدُّنْيَا وَإِعْرَاضِهِ عَنِ الْآخِرَةِ ، وَابْتَاعَ : اشْتَرَى ، وَأَعْتَقَهَا أَيَّ مِنَ النَّارِ ، بِتَجَنُّبِهِ الْمَعَاصِيَ وَشَهَوَاتِ الدُّنْيَا » وَقِيلَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ الَّذِي عَاشَ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا - : كَيْفَ وَجَدْتَ الدُّنْيَا ؟ قَالَ : كَدَّارٌ لَهَا بَابَانِ دَخَلْتُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَخَرَجْتُ مِنَ الْآخَرِ

قلة متاع الدنيا

قال الله تعالى : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى » « قَلِيلٌ : سَرِيعُ الْفُتْى » وقال سبحانه : إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنْ

السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَانَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادُونَ عَلَيْهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ،

« قوله سبحانه: إنما مثل الحياة الدنيا، أى فى سرعة تَقْضِيهَا وَذَهَابِ نَعِيمِهَا بعد إقبالها واغترار الناس بها، وزخرفها: حسنها وبهجتها، وقادرون عليها: أى متمكنون من حصيداها، وأنها أمرنا، أى نزل بزرعها ما يحتاجه فجعلها الله كأنها حُصِدَتْ من أصلها فصار زرعها كأنه لم يكن، وقال أبو جعفر المنصور حين حَضَرَتْهُ الوفاة: يَعْتَا الْآخِرَةُ بِنَوْمَةٍ ... وقال شاعر:

أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تُحِبُّ فَإِنَّهَا سَحَابَةٌ صَيِفٌ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ
وقال أعرابي: ما كانت الدنيا على بنى فُلانٍ إِلَّا طَيْفًا لَمَّا انْتَبَهَوْا وَلَىٰ
عَنْهُمْ، وقال آخر:

مَرَرْتُ بِدُورِ بَنِي مُضْعَبٍ بِدُورِ السَّرُورِ وَدُورِ الْفَرَحِ
فَشَبَّهْتُ سُرْعَةَ أَيَّامِهِمْ بِسُرْعَةِ قَوْسٍ يُسَمَّى فُزَحَ
تَلَوْنَ مُعْتَرِضًا فِي السَّمَاءِ فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا نَزَحَ

الماضى والحاضر والمستقبل

قال الحسنُ البَصْرِيُّ: أَمْسُ أَجَلٍ، وَالْيَوْمُ عَمَلٌ، وَغَدَا أَمَلٌ...، وقال حكيم: بَيْنِي وَبَيْنَ الْمُلُوكِ يَوْمٌ وَاحِدٌ: أَمَا أَمْسُ فَلَا يَجِدُونَ لَذَّتَهُ وَلَا أَجْدُ شِدَّتَهُ وَأَمَا غَدَا فإني وإياهم مِثْنٌ عَلَى خَطَرٍ، وَمَاهُو إِلَّا الْيَوْمُ، فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ!

تحذيرهم من تضييع الأيام

قال حكيم: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا

وقال الحسن البصري: ما وَعَظَنِي شَيْءٌ مِثْلُ ما وَعَظَنِي كَلَامُ الْحِجَاجِ فِي حُطْبَتِهِ: إِنَّ امْرَأَةً عَلَيْهِ سَاعَةٌ مِنْ عُمْرِهِ لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا رَبَّهُ أَوْ يَسْتَغْفِرَ مِنْ ذَنْبِهِ أَوْ يُفَكِّرَ فِي مَعَادِهِ، لَجْدِيرٌ أَنْ تَطُولَ حَسْرَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وكان الحجاج بليغاً ومن مصافح الخطباء، ومن كلماته التي تشبه كلمات الحسن البصري، وهي ما قاله على ذؤابة المنبر: أيها الناس؛ ائذعوا هذه الأنفُسَ، فإنها أَسْأَلُ شَيْءٍ إِذَا أُعْطِيَتْ، وَأَمْنَعُ شَيْءٍ إِذَا سُئِلَتْ، فَارْحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً جَعَلَ لِنَفْسِهِ خَطَايَا وَزِمَامًا، فَقَادَهَا بِخَطَايَاهَا فِي اللَّهِ، وَعَظَفَهَا بِزِمَامِهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنْ مُحَارِمِ اللَّهِ أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِهِ... « ائذعوا: أى ائمنوا، والخطام: حبل من ليف أو شعر أو كنان يُشْنَى طَرَفُهُ عَلَى حِطْمِ البعير ليقاد به، والزمام: حبلٌ دقيقٌ يُجْعَلُ فِي أَنْفِهِ »

الأيام تهدم الحياة

قال حكيم: مَنْ كَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَطِيئَةً، سَارَا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ، أَخَذَهُ الشَّاعِرُ فَقَالَ:

رَأَيْتُ أَخَا الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ خَائِضًا أَخَا سَفَرٍ يُسْرَى بِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي
« خَائِضًا: يريد مقبلاً في خفض ودعة »

وقالوا: أَنفَاسُ الْمَرْءِ خُطَاؤُهُ إِلَى أَجَلِهِ، وَأَمَلُهُ خَادِعُهُ عَنْ عَمَلِهِ؛
وقال الشاعر:

مَا رَتَدَ طَرْفُ امْرِئٍ بِلَحْظَتِهِ إِلَّا وَشَيْءٌ يَمُوتُ مِنْ جَسَدِهِ
وقال أبو العتاهية:

تَقْطُلُ تَفَرُّحُ الْآيَامِ تَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْآجِلِ

وقال عمرو بن قيس - شاعر قديم في الجاهلية - :
 كأنى وقد جاوزتُ تسعينَ حِجَّةً خَلَعْتُ بها عَنى عِذارَ لُجائى
 على الراحتينِ مرَّةً وتَلَى العِصَا أنوءُ ثلاثاً بعدَهُنَّ قِيامى
 رَمَتْنى بناتُ الدَّهْرِ من حيثُ لا أَرى فكيف بمن يُرعى وليس برام
 فلو أنها نَبَلٌ لَدُنْ لا تَقِيَّتُها والكنى أُرَمى بغيرِ سِهام
 « قوله : خلعتُ بها عنى عذار لُجائى : فالعرب تقول : خلع فلان العذار
 يريد : خلع الحياء ، مثلُ للشاب المنمك في غيِّه كما يَخْلَعُ الفرسُ العذارَ
 فيجمع ويطمح لأن اللجام يمسكه ، والعذار : الذى يُضْمُّ حبلُ الخُطام إلى
 رأس البعير والناقة وعلى ذلك يكون معنى قوله : أنه أسام سرح اللهُو حيث
 أسام الغواية في هذا العمر المديد ، ولعله يريد بذلك عَدَمَ التماسك كما بينه
 في البيت الثانى ، وقوله : « أنوءُ ثلاثاً يعنى : أنه ينهض ثلاثَ مرات بانحناء ثم
 يستقيم ، وبنات الدهر : نُوبُهُ »

البقاء في الدنيا سبب الفناء

قال سيدنا رسول الله : لو لم يَكْسِبِ ابنُ آدمَ إلا الصِّحَّةَ والسَّلامَةَ لَكَفَى
 بهما داءٌ « لأن السَّلامَةَ تُسَلِّمُهُ إلى الهَرَمِ وما يستتبعه من الهَمِّ والسَّقَمِ ،
 وقيل لأعرابي : كيف حالك ؟ فقال : ما حالُ من يَفْنَى ببقائه ، وَيَسْقُمُ
 بِسلامته ، وَيُؤْتَى من مَأْمَنِهِ ! وقال حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ الهلالي - وهو شاعر
 إسلامي ترجم له أبو الفرج في الجزء الرابع من أغانيه - :

أَرى بَصَرى قد رابى بَعْدَ صِحَّةٍ وَحُسْبِكَ داءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسَلِّمًا
 ولا يَلْبَثُ العِصرانُ : يَوْمٌ وَليلةٌ إذا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَ ما تَمَعَمَا

وقال أبو حَيَّةَ الشَّيْرِيُّ - من شعراء الدولتين - :

أَلَا حَتَّى مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا لَبَسْنَ الْبِلَى يَمَّا لَبَسْنَ اللَّيَالِيَا
إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا
وقال بعض شعراء الجاهلية - وقيل : القائل عبد الرحمن بن سُويْدِ العُرِّي -
كَانَتْ قَنَاتِي لَا تَلِينُ لِغَازِمٍ فَلَا نَهَا الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ
وَدَعَوْتُ رَبِّي فِي السَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصَحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ

« كانت قناتي لا تلين لِغَازِمٍ : من الغمز ، وهو العُصْرُ باليد وهو مَثَلٌ يريد : أنه كان صُلْبَ الْعُودِ شديد القوة على من يشتد ويجتري عليه » وقال النَّمِرُ بْنُ تَوَلَّبٍ - شاعر جاهلي إسلامي ، وقد على سيدنا رسول الله وحسن إسلامه ، ومن قوله : صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ ، وصَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يُذْهِبُنْ كَثِيرًا مِنْ وَحَرِ الصَّدْرِ - قال :

تَدَارَكَ مَا قَبْلَ الشَّبَابِ وَبَعْدَهُ حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَمَرُّ وَأَغْفُلُ
يَسُرُّ الْفَتَى طُولُ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا فَكَيْفَ يَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ
يَرُدُّ الْفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالٍ وَصَحَّةٍ يَنْوُءُ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُحْمَلُ
« والبقاء مقصودٌ لضرورة الشعر وتروى : والغنى »... وقال الصَّلْتَانُ

العَبْدِيُّ - شاعر إسلامي كان في زمن جرير والفرزدق - :

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ قَتَى
وهذا البيت من أبيات جميلة للصَّلْتَانِ اختارها أبو تمام في حماسه يقول فيها :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِ يَرَكُرُ الْغَدَاةَ وَمُرَّ الْقَشَى
إِذَا لَيْلَةٌ ... الْبَيْتِ

نُزُوحٌ وَتَغْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةٌ مِّنْ عَاشٍ لَا تَنْقُضِي
تَمُوتُ مَعَ الْمَرَّةِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

فرح الدنيا مشوب بالترح مُعَقَّبٌ بِالْهُمُومِ

نَظَرَ كِسْرَى أَنُو شُرَّانَ إِلَى مُلْكِهِ يَوْمًا فَأَعْجَبَهُ فَقَالَ : هَذَا مُلْكٌ إِلَّا أَنَّهُ
هُلْكَ ، وَنَعِيمٌ إِلَّا أَنَّهُ عَدِيمٌ ، وَغَنَاءٌ لَوْلَا أَنَّهُ عَنَاءٌ ، وَسُرُورٌ لَوْلَا أَنَّهُ سُرُورٌ ،
وَيَوْمٌ لَوْ كَانَ يُوثِقُ لَهُ بَعْدُ... وَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ حَبْنَاءَ - هُوَ وَأَخْرَاهُ صَخْرٌ وَيَزِيدٌ
كَانُوا شَعْرَاءَ ، وَكَانَ الْمُغِيرَةُ مِنْ رِجَالِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ تُوْفِيَ سَنَةَ ٩١ هـ :
وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ مَا تَمُّهُ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُرْسِهِ

الدنيا هموم وغموم

سَمِعَ حَكِيمٌ رَجُلًا يَقُولُ لِأَخْرَ : لَا أَرَاكَ اللَّهُ مَكْرُوهًا ، فَقَالَ : دَعَوْتُ
عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ ، مَن عَاشَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَكْرُوهٍ ، وَقِيلَ لِلنَّظَامِ - إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ
الْمَعْتَزَلِي - وَفِي يَدِهِ قَدْحُ دَوَاءٍ - : كَيْفَ حَالُكَ ؟ فَقَالَ :

أَصْبَحْتُ فِي دَارِ بَلِيَّاتٍ أَذْفَعُ آفَاتٍ بَآفَاتٍ

وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّهْمِيُّ الْمَتْوَفَى سَنَةَ ٤١٦ هـ : يَصِفُ الدُّنْيَا - :
طَبِيعَتُ عَلٍ كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفَوًا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلَّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جُذُودَ نَارٍ
وَإِذَا رَجَوْتَ الْمُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا تَبْنِي الرِّجَاءَ عَلَى شَفِيرِ هَارٍ

« الجذوة : الجرة ، والشفير : ناحية الوادى من أعلاه ، وهار : يقال : هار
الجرف والبناء : انهار وانهدم »

وقال شاعر :

أَمَرَ الزَّمَانُ لَنَا طَعْمَهُ فَمَا إِنْ تَرَى سَاعَةً عَذْبَهُ

وقال آخر :

أُفٍّ مِنَ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا فَإِنَّمَا لِلْحُزَنِ مَخْلُوقَةٌ
هُمُومُهَا مَا تَنْقُضِي سَاعَةً عَنْ مَلِكٍ فِيهَا وَلَا سُوقَةً

وقال آخر :

تَأْتِي الْمَكَارِهِ حِينَ تَأْتِي جُمْلَةً وَتَرَى الشُّرُورَ يَجِيءُ فِي الْفَلَتَاتِ
وقال ابن نباتة السعدي :

وَمَا خَيْرُ عَذِيشٍ نَصْفُهُ سِنَّةُ الْكَرَى وَنِصْفُ بِهِ نَعْتِلٌ أَوْ تَنْوَجِعُ
مَعَ الْوَقْتِ يَمِضِي بُؤْسُهُ وَنَعِيمُهُ كَأَنْ لَمْ يَكُنِ وَالْوَقْتُ عُمْرُكَ أَجْمَعُ
وقال الشريف الرضي :

يَا أَمِنَ الْأَقْدَارِ بَادِرُ صَرْفَهَا وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّالِبِينَ حِثَّاتُ
تُحْذِرُ مِنْ ثَرَايِكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا شَرَكَاؤُكَ الْإَيَّامُ وَالْوُرَاثُ
لَمْ يَقْضِ حَقَّ الْمَالِ إِلَّا مَعْشَرُ وَجَدُوا الزَّمَانَ يَعْثُ فِيهِ فَعَاثُوا
تَحْشُو عَلَى عَيْبِ الْغِنَى يَدُ الْغِنَى وَالْفَقْرُ عَنْ عَيْبِ الْفَقْرِ بَحَاثُ
الْمَالُ مَالُ الْمَرْءِ مَا بَلَغَتْ بِهِ الشَّدَّ هَوَاتُ أَوْ دَفَعَتْ بِهِ الْأَحْدَاثُ
مَا كَانَ مِنْهُ فَاضِلًا عَنْ قُوَّتِهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مِيرَاثُ
مَالِي إِلَى الدُّنْيَا الْغُرُورِ حَاجَةٌ فَلْيَخْزِ سَاحِرُ كَيْدِهَا النَّفَاثُ
سَكَنَاتُهَا مَحْذُورَةٌ وَعُهُودُهَا مَنْقُوضَةٌ وَجِبَالُهَا أَنْكَاثُ

أُمُّ الْمَصَائِبِ لَا يَزَالُ يَرُوعُنَا مِنْهَا ذُكُورُ نَوَائِبٍ وَإِنَّاكَ
 إِنِّي لَا عَجَبُ مِنْ رَجَالٍ أَمْسَكُوا بِجَبَائِلِ الدُّنْيَا وَهُمْ رِثَاثُ
 كَنْزُوا السُّكُونِ وَأَغْفَلُوا شَهْوَاهِهِمْ فَالْأَرْضُ تَشْبَعُ وَالْبُطُونُ غَرَاثُ
 «صَرَفَهَا: حَدَّثَانَهَا وَنَوَائِبَهَا، وَحِثَاثُ: سِرَاعٌ، وَحَثَا التُّرَابُ: صَبَّهُ، يَقُولُ
 فِي هَذَا الْبَيْتِ: إِنَّ الْغِنَى يَغْطِي عَيُوبَ الْأَغْنِيَاءِ أَمَا الْفَقْرُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى أَنْ
 يَفْتَقِشُوا عَنْ عَيُوبِ الْفُقَرَاءِ وَيُلْصِقُوا بِهِمُ الْعَيُوبَ الْإِصَافًا. وَنَكَثَ الْحَبْلُ:
 نَقَضَهُ، وَرِثَاثُ جَمْعُ رِثَ: بَالٍ، وَغَرَاثُ: جَائِعَاتُ...»

النقصان بعد التمام

قَالُوا: مَنْ بَلَغَ غَايَةَ مَا يُحِبُّ فَلْيَتَوَقَّعْ غَايَةَ مَا يَكْرَهُ... وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ:
 وَجَدْتُ لِبَعْضِ الْعَرَبِ بَيَّتَيْنِ كَانَهُمَا أَخِذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَتَّى إِذَا فَرِحُوا
 بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً، وَهِيَ:

أَخَذْتُ ظَنَكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتُ وَلَمْ تَتَخَفْ غِيبَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
 وَسَالَمْتُكَ اللَّيَالِي فَانْتَرَزْتُ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ
 وَمِنْ دُعَاءِ بَعْضِهِمْ: صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ آفَاتِ التَّمَامِ...

وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَأَ نَقْضُهُ تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: عَرَضَ الدُّنْيَا عَارِيَّةً، وَمَنْ فِيهَا ضَيْفٌ،
 وَالْعَارِيَّةُ مُؤَدَّاةٌ، وَالضَّيْفُ مُرْتَحِّلٌ «الْعَارِيَّةُ: مَا تَسْتَعِيرُهُ مِنْ قَرِيْبِكَ أَوْ صَدِيقِكَ
 أَوْ جَارِكَ لِتَنْتَفِعَ بِهِ حِينَئِذٍ تَرْدُهُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَعَرَضَ الدُّنْيَا: مَا نَزَلَ مِنْهَا
 مِنْ مَتَاعِهَا وَحُطَّائِمِهَا،

وقال حكيم : الدنيا تُطعمُ أولادها ، وتأكلُ أولادها . وقال الشاعر :
وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ولا بُدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ
وقال المتنبي :

أبدأ تَسْتَرِدُّ مَاتَهُبُ الدنْيا فَيَا لَيْتَ جُودَها كانَ بِخُلا
فَكَفَّتْ كَوْنُ فَرَحٍ تُورِثُ الغَمَّ وَخِلَ يُغَادِرُ الوَجْدَ خِلا
• يقول المتنبي : شيمة الدنيا أن تستردَّ مَاتَهُبُ وتعطى ، فليتها بخلت وما
جاءت إذ لو بخلت . ولم تعط لسكفنا الفرح بوجود شيء يُعْقِبُ لِنَقْدِهِ الغمَّ ،
والفرح بوجود خليل يُؤْنِسُ بقرِّبه ثم نخترمه المنية فيغادرُ الهَمَّ خليلاً للحازن
عليه ، وفي هذه القصيدة يقول المتنبي :

ولذيذِ الحِياةِ أنْفُسُ في النَّفْسِ سَ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُمَلَّ وَأُحْلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قالَ أَفٍ فَا مَلَّ حِياةٍ وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلَا
آلَهُ العَيْشِ سَحَّاةٌ وَشَبَابُ فَإِذَا وَلَّيَا عَنِ المَرءِ وَلَى

الدنيا لا يدوم فيها فرح ولا ترح

قال شاعر :

هل الدهر إلا ساعةٌ ثم تَنْقَضِي بما كانَ فيها مِنْ بلاءٍ وَمِنْ خَفَضِ
فَهوْ نَكَ لا تَحْفِلُ إِساءَةً عَارِضِ ولا فَرَحَةً تَأْتِي فِكَلْتاهُما تَمْضِي
• الخفض : الدَّعة وَلينُ العيشِ وَسَعَتُهُ ، والهُونُ مُصْدَرُ الهَيْئِ في معنى
السكينة والتثبُّت والوقار والرفق قال :

فَهوْ نَكْما لا يَرُدُّ الدَّهْرُ ما فاتا لا تَهْلِكُكَ أَسْفا في إِثْرِ مَنْ ما تا

وقال آخر :

وما اُكْتُبَتْ نَفْسٌ قَدَامَ اِكْتِنَابِهَا وَلَا ابْتِهَاجَتْ نَفْسٌ قَدَامَ ابْتِهَاجِهَا
ودخل أعرابيٌّ مَحْرَمَةً مائةٍ وعشرين سنةً على معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فقال لهُ :
صِفْ لَنَا الدُّنْيَا ، فقال : سُدِّيَّاتُ بَلَاءٍ وَسُنِّيَّاتُ رَخَاءٍ ، يُولَدُ مَوْلُودٌ وَيَهْلِكُ هَالِكٌ
ولولا المولود بَادَ الخَلْقُ ، ولولا الهالك ضاقت الأرض .

الدنيا غُرَّارَةٌ

قال بعضهم : هذه الدُّنْيَا قَحْبَةٌ يَوْمًا عند عطار ، ويومًا عند بيطار ...
وقال المتنبي :

فَدَى الدَّارُ أَخُونُ مِنْ مُومِسٍ وَأَخَذُعُ مِنْ كَفَّةِ الحَايِلِ
تَفَانَى الرِّجَالُ عَلَى حُبِّهَا وَمَا يَحْصُلُونَ عَلَى طَائِلِ

« الحَايِلُ : الصَّائِدُ ذُو الْحَبَالَةِ ، وَهِيَ الشَّرَكُ ، وَالطَّائِلُ : مَا كَانَ لَهُ قَدْرٌ .
يقول المتنبي : إن هذه الدنيا فاجرة خَوَانَةٌ لِبُذِيهَا كَالْمُومِسِ يُخْلِفُ مَنْ وُثِقَ بِهَا ،
وهي كذلك أَخَذُعُ مِنْ حَبَالَةِ الصَّائِدِ تَصْرَعُ مِنْ اطْمَآنِ إِلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ فِي الْبَيْتِ
الثَّانِي : تَفَانَى النَّاسُ عَلَى حُبِّهَا وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحْصُلُوا مِنْ أَمْرِهَا عَلَى طَائِلٍ لِأَنَّهَا
تَسْتَرِدُّ مَا تَعْطِيهِ وَتَهْدِمُ مَا تَبْنِيهِ ، وَتَمُرُّ بَعْدَ حَلَاوَتِهَا وَتَعُوجُ بَعْدَ اسْتِقَامَتِهَا .
وَقَالُوا : مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ أَيْنُ مَشَاهُوفٍ فِي جَوْفِهَا السُّمُّ النَّاظِعُ ، يَهْوِي إِلَيْهَا
الصَّبِيُّ الْجَاهِلُ ، وَيَحْذَرُهَا الْحَازِمُ الْعَاقِلُ . » يَهْوِي إِلَيْهَا : يُسْرِعُ وَذَلِكَ كَمَا تَقُولُ
رَأَيْتُ فَلَانًا يَهْوِي نَحْوَكَ ، مَعْنَاهُ : يَرِيدُكَ ، قَالَ تَعَالَى : فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ
تَهْوِي إِلَيْهِمْ : أَيُ تَرِيدُهُمْ وَتُسْرِعُ » وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ : كُنْتُ أُدَوِّرُ فِي
ضَيْعَتِي فِي شِدَّةِ الْحَرِّ فَمَسَعَتْهَا تَفَاقِي قَوْلُ :

وَلَا نَ أَمْرًا دُنْيَاءُ أَكْبَرُ مِنْهُ لَمَسْتَمِسِكُ مِنْهَا بِجَنْبِلٍ غُرُورِ

فَنَقَشْتُ ذَلِكَ عَلَى خَاتَمِي . وقال الشاعر :
وَمَنْ عَرَفَ الْإِيَّامَ لَمْ يَرْخَفْضَهَا نَعِيمًا وَلَمْ يُعَدِّدْ تَصَرُّفَهَا بَلْوَى

حب الدنيا على الرغم من عيوبها

قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه - وقد ذُكِرَ له قَوْمٌ يُحِبُّونَ الدُّنْيَا - :
هُمْ أَبْنَاؤُهَا ، أَفِيلَامُ الرَّجُلِ عَلَى حُبِّ وَالدَّيَةِ ! وقال الشعبي : مَا أَعْلَمُ لَنَا وَلِلدُّنْيَا
كَقَوْلِ كَثِيرٍ عَزَّة :

أَسِيْبِي بَنَا أَوْ أَحْسَنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِبَةٌ إِنْ تَقَلَّتْ
« وقد تقدم » وقال شاعر :

يَذْمُونَ دُنْيَا لَا يُرِيحُونَ دَرَّهَا وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا يُدَمُّ وَيُحْلَبُّ
« لا يريحون دَرَّهَا قَالِدَرٌ : اللبَنُ يَقُولُ : لِنَهُمْ مَعَ ذَمِّهِمْ لِإِيَّاهَا يُلْحُونَ فِي
الْإِفْهَالِ عَلَيْهَا وَيَكْلِبُونَ وَيَشْرَهُونَ حَتَّى مَا يَتْرَكُونَ دَرَّهَا يَسْتَرِيحُ ، وَهَذَا عَلَى
الْمَثَلِ . . » ...

وقال أبو العتاهية :

كُنَّا يُكْثِرُ الْمَذَمَّةَ لِلدُّنْيَا وَكُلُّ بِحْبُهَا مَفْتُونُ

الدنيا تضر محبيها

قالوا في ذلك : الدُّنْيَا تُضَرُّ مُحِبِّيَهَا ، وَمَا كُرِّمَتْ عَلَى أَحَدٍ نَفْسُهُ إِلَّا هَانَتْ
عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، وَقَالُوا : أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الدُّنْيَا : أَنْ آخِذِي مَنْ إِيْجْفَالِكِ وَاسْتَخْذِي
مَنْ يَهْوَاكِ « وَهَذَا تَمْثِيلٌ جَمِيلٌ وَحَقٌّ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : الدُّنْيَا
لَا تُضَرُّ إِلَّا مَنْ أَمْنَهَا وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا مَنْ حَذَرَهَا . وَقَالَ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ : مَا كَانَتْ الدُّنْيَا بِهَمِّ امْرِئٍ إِلَّا لَزِمَ قَلْبُهُ خِصَالُ أَرْبَعٍ : فَقَرُّ لَا يَذْرُكُ

غناه، وَهُمْ لَا يَنْقِضِي مَدَاهُ، وَشُغْلٌ لَا يَنْفَدُ أَوْلَاهُ، وَأَمَلٌ لَا يُدْرِكُ مُنْتَاهُ .
وقال الشاعر :

أَرَى الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ عَذَابًا كُلُّهَا كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهِنُ الْمُكْرِمِينَ لَهَا بُصْغٌ وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
« الصَّغَرُ : الصَّغَارُ ، أَيْ الذِّلُّ وَالضَّمِيمُ ،

وقال المتنبي :

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا ؟ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوِصَالِ

« مَنْ : استفهامية ، يقول المتنبي : مَنْ ذَا الَّذِي لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا مِنْ قَدِيمِ
الدَّهْرِ ؟ كُلُّ أَحَدٍ يَهْوَى الدُّنْيَا وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى دَوَامِ وَصَالِهَا ، أَيْ أَنْ
كَثِيرًا مِنْ عُشَّاقِهَا وَاصِلَهَا وَوَاصِلَتِهِ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى دَوَامِ الْوِصَالِ فَإِنَّ
وِصَالَهَا يَعْقِبُهُ الْهَجْرُ وَسُرُورُهَا يَعْقِبُهُ الْحُزْنُ وَأَيَادُهَا تَنْتَهِي بِالْمَوْتِ »

بنو الدنيا أغراض لضروب المحن

قيل لأحسن البصري : كيف أصبحت ؟ فقال : كيف يُصْبِحُ مَنْ دُو
غَرَضٍ لثَلَاثَةِ أَشْهُمَ : سَهْمُ رِزْيَةٍ ، وَسَهْمُ بَلِيَّةٍ ، وَسَهْمُ مَنِيَّةٍ . وقالوا : مَنْ
أَخْطَأَهُ سَهْمُ الْمَنِيَّةِ لَمْ يُخْطِئْهُ سَهْمُ الرِّزْيَةِ ، وقال ابن المعتز :

الدَّهْرُ يَطْرِفُ بِالْعَنَا وَالنَّاسُ بَيْنَ جُفُونِهِ

« يَقَالُ : طَرَفَ بَصَرَهُ يَطْرِفُهُ طَرْفًا : إِذَا أَطْبَقَ أَحَدٌ جَفْنَيْهِ عَلَى الْآخَرِ ؛

وَالْعَنَا هُوَ الْعَنَاءُ أَيْ النَّصَبُ » وقال أبو العتاهية :

أَفِ لِدُنْيَا تَلَاعَبَتْ بِي تَلَاعَبَ الْمَوْجِ بِالْغَرِيقِ

الأيام تمضى فى تراذلها

سَمِعَ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ امْرَأَةً تَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْزِلْ عَنَّا زِيَادًا ، فَقَالَ : زَيْدِي
فِي دَعَائِكَ : وَأَبْدِلْنَا خَيْرًا مِنْهُ ، فَإِنَّ الْآخِرَ أَبَدًا شَرٌّ ... وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ^(١) :
مَعْرُوفُ زَمَانِنَا مُنْكَرُ زَمَانٍ قَدْ فَاتَ ، وَمُنْكَرُهُ مَعْرُوفُ زَمَانٍ لَمْ يَأْتِ ،

حمدهم ماضى الزمان وذمهم حاضره

كَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تُنْشِدُ قَوْلَ لَبِيدٍ :
ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَيَبْقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجَلْدِ الْأَجْرَبِ
وَتَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ لَبِيدًا ، كَيْفَ لَوْعَاشٌ إِلَى زَمَانِنَا ! وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
الزَّيْبَرِ يُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ وَيَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ عَائِشَةَ ، كَيْفَ لَوْعَاشَتْ إِلَى
زَمَانِنَا ! وَمِنْ كَلَامِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : كَانَ النَّاسُ وَرَقًا بَلَا شَوْكٍ فَصَارُوا شَوْكًا
بَلَا وَرَقٍ ... وَقَالُوا :

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ فِيهِ فَلَمَّا صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيْتُ عَلَيْهِ
وَهُنَاكَ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ مَاضِيَ الزَّمَانِ كَحَاضِرِهِ ، لَا يُفْضَلُ قَدِيمُ الزَّمَانِ
حَدِيثُهُ ، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ كُلُّهَا ، أَوِ النَّاسُ جَمِيعًا ، قُدَّامَهُمْ وَمُحَدَّثُوهُمْ وَأَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ
سَوَاسِيَّةٌ فِي أَنَّهُمْ خَلْفٌ كَجَلْدِ الْأَجْرَبِ ، وَمَنْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ تِلْكَ
الْكَلِمَةُ الَّتِي كَتَبَهَا بَدِيعُ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِيُّ فِي رِسَالَةٍ لَهُ إِلَى أَسَاطِدِهِ أَبِي الْحَسَنِ
ابْنِ فَارَسٍ صَاحِبِ الْمَجْمَلِ فِي اللُّغَةِ ، جَوَابًا عَلَى رِسَالَةِ كَتَبَهَا ابْنُ فَارَسٍ إِلَى الْبَدِيعِ

(١) هُوَ عُوَيْمَرُ بْنُ قَيْسٍ بْنِ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ ، الصَّحَابِيُّ الْمَشْهُورُ ، شَهِدَ مَعَ سَيِّدِنَا
رَسُولِ اللَّهِ وَقَعَةَ أَحَدٍ وَمَا بَعْدَهَا وَتَوَفَّى فِي آخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ

في ذم الزمان ^(١)، قال البديع: نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام، إنه الخمائم المسنون ^(٢)، وإن طنت الطنون، والناس لآدم، وإن كان العهد قد تقدم، وارتبكت الاضداد، واختلط الميلاد؛ والشيخ يقول: فسد الزمان، أفلا يقول: متى كان صالحا؟ أفي الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمينا أولها؛ أم المدية المروانية وفي أخبارها « لا تكسع الشول بأخبارها » ^(٣)... أم السنين الحربية ^(٤):

والسيف يُعمل في الطلي والرمح يُركز في الكلى ^(٥)

- (١) قيل: ذكر الهمذاني في مجلس ابن فارس فقال مامعناه: إن البديع قد نسي حق تعليمنا إياه، وعقنا وشمخ بأنفه عنا، فالحد لله على فساد الزمان، وتغير نوع الإنسان، فبلغ ذلك البديع، فكتب إلى ابن فارس هذه الرسالة.
- (٢) الحمأ: الطين الأسود. والمسنون: المتغير المنتين.
- (٣) هذا من قول الحارث بن حلزة:

لا تكسع الشول بأخبارها إنك لا تدري من النتائج
واحلب لاضيا فك ألبانها فإن شر اللبب الواج

والكسع: ترك بقية من اللبن في خلف الناقة يراد بذلك تغزيرها، وهو أشد لها والشول من النوق: مامضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فقل لبنها وخف ضرعها والاعبار: جمع الغبر وهو بقية اللبن في الضرع، والواج: الذي يلبج في ظهورها من اللبن المكسوع يقول الحارث: لا تغزير إيلك تطلب بذلك قوة نسلها واحلبها لاضيا فك فاعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك. ولعل البديع يشير بهذا إلى بخل بني مروان وقلة الخير في أيامهم

- (٤) الحربية: نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس، يريد بذلك خلافة معاوية ويزيد بنه
- (٥) الطلي: الاعتاق واحده طلية بضم الطاء، وركز الرمح: دفعه وأثبتته والكلى: جمع كلية وكلوة، والكليتان أو الكلوئتان معروفتان

وَمَبِيتُ حُجْرٍ فِي الْفَلَا وَالْحَرَّتَانِ وَكَزْبَلَا ^(١)

أُمُّ الْبَيْعَةِ الْهَاشِمِيَّةُ وَعَلَى يَقُولُ : لَيْتَ الْعَشْرَةَ مِنْكُمْ بَرَّاسُ ، مِنْ بَنِي فِرَاسٍ ؛
أُمُّ الْأَيَّامِ الْأُمَوِيَّةُ ^(٢) وَالنَّفِيرُ إِلَى الْحِجَازِ ، وَالْعِيُونُ إِلَى الْأَعْجَازِ ؛ أُمُّ الْإِمَارَةِ
الْعَدَوِيَّةُ ^(٣) وَصَاحِبُهَا يَقُولُ : وَهَلْ بَعْدَ الْبُزُولِ إِلَّا النُّزُولُ ؛ ^(٤) أُمُّ الْخِلَافَةِ التَّيْمِيَّةُ ^(٥)
وَهُوَ يَقُولُ : طُوبَى لِمَنْ مَاتَ فِي نَائِنَةِ الْإِسْلَامِ ^(٦) أُمُّ عَلَى عَهْدِ الرِّسَالَةِ
وَيَوْمَ الْفَتْحِ قِيلَ : اسْكُنِي يَا فُلَانَةَ ، فَقَدْ ذَهَبَتِ الْأَمَانَةُ ؛ أُمُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
وَلَيْدٌ يَقُولُ :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كِلْدِ الْأَجْرِبِ

(١) حجر : هو حجر بن عدى الكندى من أهل العراق وقد قتله معاوية بن أبي
سفيان سنة إحدى وخمسين لإظهاره التشيع إلى علي ولعنه معاوية وأصحابه والبراءة
منهم ، وكان يجتمع عليه كل من وافقه في هذا الرأي من أهل المصريين حتى ولى زياد
على العراق فكتب إلى معاوية في أمر حجر وأكثر فأمر معاوية زياداً أن يبعث به
إليه مشدوداً بالحديد ، ففعل ، فلما قدم عليه أمر به معاوية فضربت عنقه ، وكان
حجر من أشرف العراق وخياره ، انظر تاريخ الطبرى في حوادث سنة إحدى
 وخمسين ، ويشير بقوله والحزتان إلى وقعة الحرة التى كانت بين جنود يزيد بن معاوية
وأهل المدينة سنة ثلاث وستين وكانت هذه الوقعة في حرة واقم وهى شرقى المدينة
وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير ، وكر بلاء موضع في طرف البرية عند الكوفة
وهو الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنه في خلافة يزيد بن معاوية

(٢) يريد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه لأن أمية رهطه

(٣) يريد خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والعُدوية نسبة إلى عدى بن كعب
ابن لؤى ، وهم رهط عمر

(٤) البزول : تشقق ناب البعير ، وذلك في السنة التاسعة ، يريد بهذا : وهل بعد
الوصول إلى الغاية إلا الأخذ في النقصان ؟ (٥) يريد خلافة أبي بكر رضى الله عنه.

والتيمية : نسبة إلى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى ، وهم رهط أبي بكر

(٦) النائنة : أول الإسلام قال الزمخشري : ومعناها : الضعف قبل أن يقوى ويعز

أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَأَخُو عَادٍ يَقُولُ :
 بِلَادُهَا كُنَّا وَكُنَّا نَحِبُّهَا إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانٌ
 أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَيُرْوَى لَادَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
 تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهُ الْأَرْضِ مُغْبِرٌ قَبِيحٌ
 أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَالْمَلَائِكَةُ تَقُولُ لِبَارِيهَا : أَنْتَجِعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
 الدَّمَاءَ ؛ ^(١) مَا فَتَسِدُ النَّاسُ ، وَلَكِنْ أَطْرَدَ الْقِيَاسُ ؛ وَلَا أَظَلَمَتِ الْآيَامُ ،
 وَإِنَّمَا امْتَدَّ الْإِظْلَامُ ؛ وَهَلْ يُفْسِدُ الشَّيْءُ إِلَّا عَنْ صَلَاحٍ ، وَيُمْسِي الْمَرْءُ إِلَّا
 عَنْ صَبَاحٍ !

إنكار ذم الدهر

رَوَّاهُ النَّاعَنُ سَيِّدُ نَارِ رَسُولِ اللَّهِ ، لَا تُسَبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ :
 فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ ، يَقُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ مَا أَصَابَكَ مِنَ الدَّهْرِ فَأَلِّهِ
 فاعمله ليس الدهر ، فإذا شتمت الدهر فكأنك أردت به الله : وكان من شأن
 العرب أن تَذُمَّ الدهرَ وتُسَبِّهَ عِنْدَ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ تَنْزِلَ بِهِمْ مِنْ مَوْتٍ
 أَوْ هَرَمٍ وَيَقُولُونَ : أَبَادَهُمُ الدَّهْرُ وَأَصَابَتْهُمْ قَوَارِعُ الدَّهْرِ وَحَوَادِثُهُ ، فَيَجْعَلُونَ
 الدَّهْرَ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ فَيَذُمُّونَهُ ، وَقَدْ ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ وَأَخْبَرَ اللَّهُ
 تَعَالَى عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ثُمَّ كَذَّبَهُمْ فَقَالَ : وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
 الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَمَا لَهُمْ

(١) قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ الدِّينِ الصَّفْدِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى لَامِيَةِ الْعَجَمِ لِلطُّغْرَانِيِّ : اسْتَدَلَّ
 بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ خَلَقَ آخِرَ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّهُمْ
 أَفْسَدُوا فِيهَا وَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ : أَنْتَجِعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا !

بذلك من عِلْمٍ إِنَّ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ، والدهرُ : الزمانُ الطويلُ ومُدَّةُ الحياةِ الدنيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لَا تَسْبُوا الدهرَ ، على تأويل : لَا تَسْبُوا الذى يفعل بكم هذه الأشياء فإنكم إذا سَبَبْتُمْ فاعِلَهَا فَإِنَّمَا يَقَعُ السَّبُّ عَلَى الله تعالى لأنه الفاعلُ لها لا الدهر... « وقد تقدم ذلك »

وقال أبو بكر الخوارزمي قريبا من هذا المعنى الذى نعالجه :

وَكَمْ نَكْنِي وَكَمْ نَهْجُرُ أَلْيَالِي وَلَيْسَ بِخَصْمِنَا إِلَّا الْقَضَاءُ ^(١)

وقال رجلٌ للأصمعي : فَسَدَ الزَّمانُ ، فقال :

إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ ^(٢)
والبيت المشهور فى هذا هو قول بعضهم :

نَعِيبُ زَمَانِنَا وَالْعَيْبُ فِينَا وَلَوْ نَطَقَ الزَّمانُ بَنَّا هَجَانَا

وقال المتنبي :

أَلَا لَا أَرَى الْأَحْدَاثَ حَمْدًا وَلَا ذَمًّا فَمَا بَطِشُهَا جَهْلًا وَلَا كَفُّهَا حِلْمًا ^(٣)

وقال بعض الصالحين لأبى العتاهية : أَيْ خَلَقَ اللهُ أَصْغَرَ عِنْدَهُ ؟ قَالَ :

الدنيا ، لَا تُساوَى عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، قَالَ : أَصْغَرَ مِنْهَا مُجِبُّهَا ...

المسرة من حيث تُخَشَى المضرة

قال أبو عمرو بن العلاء : طَلَبَ الْحِجَاؤُ بْنُ يُوْسُفَ التَّقْفَى أَيْ ، نَفَرَ

(١) يقال . كنى عن الامر بغيره يكنى كناية وهو : أن تتكلم بشئ وتريد غيره

(٢) الجديدان : الليل والنهار وذلك لأنهما لا يلبيان أبدا

(٣) يقول المتنبي ، لأحد الحوادث السارة ولا أذم الضارة فإنها إذا بطشت بنا

أو أذتنا لم يكن ذلك جهلا منها وإذا كفت عن البطش والضرر لم يكن ذلك حِلْمًا ،

يعنى : أن الفعل فى جميع ذلك ليس لها

منه هاربا إلى اليمن ، فإننا لَمَسِيرُ بصحراءِ اليمنِ إِذْ لَحِقْنَا لِاحِقٍ يُبْشِدُ :
 رُبَّمَا تَكَرَّرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الْأُمْرِ لَهُ فَرَجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ
 فقال أبي : ما الخبر ؟ قال : مات الحجاج ، قال أبو عمرو . فانا بقوله :
 له فَرَجَةٌ أَشَدُّ سُورًا مِنِّي بِمَوْتِ الحجاج ، قال : فقال أبي : أَصْرِفْ رِكَابَنَا
 إلى البصرة ، قال : وكنت يومئذ قد خَنَقْتُ بِضْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ... رُبَّمَا
 تكره النفوس ... ألبيت هو لَأَمِيَّةُ بنِ أَبِي الصلت وقبلة :

لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأَدُورِ فَقَدْ تُكْشَفُ عَمَّاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالٍ
 ومن بديع هذه اللغة العربية الكريمة أنها تَفَرِّقُ بين فَرَجَةٍ « بفتح الفاء »
 وبينها بالضم ، فالأولى : التَّفَقُّصُ من الهمِّ ، والآخرى ، أَى الفَرَجَةُ بالضم : كلٌّ
 منفرج بين جَبَلَيْنِ ونحوهما . والغناء : الكَرْبُ ، وقالوا : خَفِ المضَارُّ من
 خَلَلِ الْمَسَارِ ^(١) ، وَارْجُ النَّفْعَ من مَوْضِعِ الْمَنْعِ ، فَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي الْأَنْ مِنْ
 محلِّ الْفَرْعِ ؛ وقالوا : أَعْنَاقُ الْأُمُورِ تَتَشَابَهُ ، فَرُبَّ مَحْبُوبٍ فِي مَكْرُوهٍ وَمَكْرُوهٍ
 فِي مَحْبُوبٍ وَمَغْبُوطٌ بِنِعْمَةٍ هِيَ دَاوَةٌ وَمَرْحُومٌ مِنْ دَاءٍ فِيهِ شِفَاؤُهُ ... وقالوا :
 رُبَّ سَلَامَةٍ تَكُونُ لِلتَّلَافِ سَبِيحًا ، وَمَكْرُوهٍ يَكُونُ لِلنَّجَاةِ يَفْتَاحًا :

وقد يَأْسَفُ الْمَرْءُ مِنْ قُوْتٍ مَا لَعَلَّ السَّلَامَةَ فِي قُوْتِهِ
 وقال حكيم : اللَّهُ مَصَالِحٌ فِي مَكَارِهِ عِبَادِهِ ، وقالوا : الْعَاقِلُ لَا يَجْزَعُ
 لِأَوَّلِ نَكْبَةٍ وَلَا يَفْرَحُ بِأَوَّلِ نِعْمَةٍ فَرُبَّمَا أَقْلَعَ الْمَحْبُوبُ عَمَّا يُضَرُّ وَأَسْفَرَ
 الْمَكْرُوهَ عَمَّا يُسَرُّ ... وقال سيدنا رسولُ اللَّهِ « اشْتَدَّى أَرْزَمُهُ تَنْفَرِجِي »
 « الْأَرْزَمَةُ : الشَّدَّةُ وَالْفَحْطُ » ويقال في ذلك : إِنَّ الشَّدَّةَ إِذَا تَابَعْتَ انْفَرَجَتْ
 وَإِذَا تَوَالَتْ تَوَاتَتْ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ « فَتَسَى
 أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »

(١) من خلل المسار : أى من خلاها .

الفرج بعد الشدة

أَتَى يَزِيدُ بِخَارِجِي، فَهَمَّ بِقَتْلِهِ فَقَالَ الْخَارِجِيُّ:
 عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرٌ
 فقال يزيد : والله ، لَا ضَرِيبَ عُنُقِكَ ، أَقَاتِلُوهُ ، فدخل الهيثمُ بن الأسود
 النَّخَعِيُّ ، فقال : أَمْسِكُوهُ قَلِيلًا ، فَدَنَا مِنْهُ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَبْ
 مُجْرِمَ قَوْمٍ لَوْ أَفْدَيْهِمْ ، فقال : هُوَ لَكَ ، فخرج الخارِجِيُّ وهو يقول : تَأْتِي عَلَى
 اللَّهِ فَأَتِي إِلَّا أَنْ يُكْذِبَهُ وَغَالِبَهُ فَأَتِي إِلَّا أَنْ يَغْلِبَهُ ... وَأُحْضِرَ رَجُلٌ
 أَمَامَ بَعْضِ الْمُلُوكِ ، فدعا بطعام فَأَخَذَ يَأْكُلُ وَيَضْحَكُ ، فَقِيلَ لَهُ : تَضْحَكُ
 وَأَنْتَ مَقْتُولٌ ؟ فقال : مِنْ السَّاعَةِ إِلَى السَّاعَةِ فَرَجٌ ، فَسَمِعَتْ صَيْحَةً قَتِيلٌ :
 مَاتَ الْمَلِكُ ، فغَلَّوْا الرَّجُلَ ... وَشَدَّ بَعْضُ الْعُمَّالِ - الْوَلَاةِ - رُجُلًا إِلَى أَسْطُوَانَةٍ
 - عُمُودٍ - يُرِيدُ ضَرْبَهُ ، فَقَالَ حُلَّتِي مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ ، فَحَلَّهُ ، إِلَّا وَقَدْ
 عَزَلَ وَشَدَّ إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ بَعِينَهَا ...

من زال كربُه فَنَسِيَ صُنْعَ اللَّهِ

قالوا : مَا صَاحِبُ الْبَلَاءِ الَّذِي طَالَ بَلَاؤُهُ بِأَحَقَّ بِالِدُعَاءِ مِنَ الْمُعَاتَى . وَقِيلَ :
 مَنْ سَبَّحَ فِي النَّهْرِ الَّذِي فِيهِ التَّمَسَّاحُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَكَةِ . وَشَكََا يَوْسُفَ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ طُولَ الْحَبْسِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : أَنْتَ حَبَسْتَ نَفْسَكَ
 حَيْثُ قُلْتَ : السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ . وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَتَقَدَّسَ « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ
 الضُّرُّ دَعَا لِحَبْنِهِ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُهَا
 إِلَى ضُرِّ مَسِّهِ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ... وَقَالَ سُبْحَانَهُ :
 قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا

من هذه لتكوننَّ من الشاكرين ، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلَّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ .

لَا تُعْرِفُ النِّعْمَةَ إِلَّا عِنْدَ فَقْدِهَا

قالوا : كم من نعمة عُرِفَتْ بِبَلَاءَةٍ نَزَلَتْ ، وَنِقْمَةٍ جُهِلَتْ بِسَلَامَةٍ لَبِثَتْ .
وقالوا : شيْثَانٌ لَا يَعْرِفُ فَضْلَهُمَا إِلَّا مَنْ فَقَدَهُمَا : الْغِنَى وَالْعَافِيَةُ ... وقال
الشاعر - :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الشُّبَّاحِ مُبَيِّضٌ وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوَّدٌ
ضِدَّانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضُّدِّ
وقال المتنبي :

« وَبِضْدِهَا تَذَبُّنُ الْأَشْيَاءُ »

وقال أبو تمام :

وَلَيْسَ يَعْرِفُ طِيبَ الْوَصْلِ صَاحِبُهُ حَتَّى يُصَابَ بِنَأْيٍ أَوْ بِهِجْرَانٍ
وقال المتنبي :

وَلَوْلَا أَيَادِي الدَّهْرِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَنَا غَفَلْنَا فَلَمْ تَشْعُرْ لَهُ بِذُنُوبٍ
« يَقُولُ الْمَتْنَبِيُّ : إِنَّ الدَّهْرَ تَارَةً يُحْسِنُ وَتَارَةً يَسِيءُ فَلَوْلَمْ يُحْسِنْ إِلَيْنَا
بِالْجَمْعِ بَيْنَنَا لِمَا شَعَرْنَا بِذُنُوبِهِ فِي تَفْرِيقِنَا ، فَبِإِحْسَانِهِ عَرَفْنَا إِسَاءَتَهُ »

فَضْلُ الْعَافِيَةِ وَسَلَامَةِ الدِّينِ

قال سيدنا رسول الله « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ
يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حَبِزَتْ لَهُ الدُّنْيَا »

« قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ : قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ : السَّرْبُ : النَّفْسُ قَالَ : وَأَنْكَرَ

ابنُ دَرَسْتَوَيْه قولَ من قال في نفسه قال : وإنما المعنى : آمِنُ في أهله وماله وولده ، ولو آمن على نفسه وحدها دون أهله وماله وولده لم يُقَلَّ هو آئِنٌ في سِرِّه ، وإنما السَّرْبُ هُهنا : ما للرجل من أهل ومالٍ ، ولذلك سمي قطع البقر والظباء والقطا والنساء سِرِّبا ، وكان الأصلُ في ذلك أن يكون الراعي آمناً في سِرِّه والفحلُ آمناً في سِرِّه ، ثم استُعْمِلَ في غير الرعاة استعارةً فيما شَبَّه به . وحيزت : جُمِعَتْ وَضُمَّتْ ، وبِحِذا فيرها : بأَسْرِها »
وقال ابن الرومي :

إذا ما كساكَ اللهُ سِرِّبالَ صِحَّةٍ ولم تَحُلْ من قُوْتٍ يَحِلُّ وَيَعْدُبُ
فلا تَغِيظَنَّ الْمُتَرَفِّينَ فَإِنَّهُمْ على حَسْبِ ما يُعْطِيهِمُ الدَّهْرُ يَسْلُبُ
«السربال : القميص ، وحلٌ : من الحلال مقابل الحرام ، والغبطة : أن تتمنى مثل حال المغبوط - الحسن الحال - من غير أن تريد زوالها ، وعلى حسب : على قدر وعدد ، وقالوا : مَنْ أَوْقَى العافية فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أَوْقَى أَكْثَرَ مِنْهُ فَقَدْ قَلَّلَ كَثِيرًا وَكَثَّرَ قَلِيلًا » كثر قليلا ، لأن ما عدا العافية فهو قليل بالإضافة إليها ، ...

عقريات شتى في الدنيا

قال أبو حازم : وما الدنيا ! أما ما ضى فَحُلْمٌ وأما ما بَقِيَ فَأَمَانِي . وقال بكر بن عبد الله : المُسْتَغْنَى عن الدنيا بالدنيا كالْمُطْفَعِ النَّارَ بِالتَّبَنِ . وقال ابن مسعود : الدنيا كُلُّها غُومٌ ، فما كان فيها من سرور فهو رَيْجٌ . وقال بعض الحكماء : مَثَلُ الدنيا والآخرة مَثَلُ رَجُلٍ لَهُ ضَرَّتَانِ إِنْ أَرْضَى إِحْدَاهُمَا أَسَخَطَ الْآخَرَى ... وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : تَرَكَ الْمُلُوكُ لَكُمْ الْحِكْمَةَ فَاتْرُكُوا لَهُمُ الدُّنْيَا . وقال يحيى بن خالد البرمكي : دَخَلْنَا فِي الدُّنْيَا دُخُولًا

أَخْرَجْنَا مِنْهَا . وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ كُلَّمَا جَرَى ذِكْرُ الدُّنْيَا - :

الْيَوْمَ عِنْدَكَ دَلُّهَا وَحَدِيثُهَا وَغَدًا لِنَعِيرِكَ كَفُّهَا وَالْمِعْصَمُ وَهَذَا الْبَيْتُ كَذَلِكَ يُقَالُ فِي غَدْرِ الْمَرْأَةِ وَنَلَّةِ وَفَاتِهَا . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَمَ الْعِجْلِيُّ يَقُولُ :

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا فَلَا دِينَئِيَّةَ بَيْنِي وَلَا مَا نُرَقِّعُ
وَقَالَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ : أَنَا الَّذِي كَفَأْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِهَا ، فَلَيْسَتْ لِي زَوْجَةٌ
تَمُوتُ وَلَا بَيْتٌ يَخْرُبُ . وَقِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ : لِمَا نَكَ لِرَضَى بِالْدُّنْيَا فَقَالَ :
إِنَّمَا رَضِيَ بِالْدُّنْيَا مَنْ رَضِيَ بِالدُّنْيَا ... وَقَالَتْ امْرَأَةٌ لِرِجَالِهَا وَرَأَتْهُ مُهْمُومًا :
مِمَّ هُمُوكَ ؟ أِبَالِ الدُّنْيَا فَتَنَدَ قَرَعَ اللَّهُ مِنْهَا أُمَّ بِالْآخِرَةِ فَرَادَكَ اللَّهُ هَمًّا ؟ وَقَالَ السَّيِّدُ
الْمَسِيحُ : حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ وَالْمَسَالُ فِيهَا دَاءٌ كَثِيرٌ ، قِيلَ : مَا دَاؤُهُ ؟
قَالَ : لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهُ مِنَ الْفَخْرِ وَالْكِبَرِ ، قِيلَ : وَإِنْ سَلِمَ ؟ قَالَ : يَشْفَلُهُ
إِصْلَاحُهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ . وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ : مَنْ أَصْبَحَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ
وَسَدَمَهُ ^(١) نَزَعَ اللَّهُ الْغَنَى مِنْ قَلْبِهِ ، وَصَصِيرَ الْفَقْرِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا
إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ؛ وَمَنْ أَصْبَحَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ وَسَدَمَهُ نَزَعَ اللَّهُ الْفَقْرَ مِنْ قَلْبِهِ
وَصَصِيرَ الْغَنَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ... وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ
لِلضَّحَّاكِ بْنِ سُفْيَانَ : مَا طَعَامُكَ ؟ قَالَ : اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ قَالَ : ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى
مَاذَا ؟ قَالَ : ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَا قَدْ عَلِمْتُ ، قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنْ
ابْنِ آدَمَ مِثْلًا لِلدُّنْيَا ... وَكَانَ بَشْرُ بْنُ كَعْبٍ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ إِذَا قَرَعَ مِنْ
حَدِيثِهِ : انْطَلِقُوا حَتَّى أُرِيَكُمْ الدُّنْيَا ، فَيَجِيءُ فَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى الشُّوقِ ، وَهِيَ
يَوْمَئِذٍ مَزْبَلَةٌ ، فَيَقُولُ : انْظُرُوا إِلَى عَسَلِهِمْ وَسُنَنِهِمْ وَإِلَى دَجَاجِهِمْ وَبَطْنِهِمْ

(١) السدم : الولوج بالشيء ..

صارَ إلى ما تَرَوْنَ ...

وقال بمحمد بن وهيب: ^(١)

نُزاعٌ لِيَذْكُرِ الموتِ ساعَةَ ذِكْرِهِ وَتَعْتَرِضُ الدُّنْيَا فَنَلْهُوَ وَنَلْعَبُ
وَنَحْنُ بَنُو الدُّنْيَا حُلِقْنَا لِغَيْرِهَا وَمَا كُنْتَ مِنْهُ فَهُوَ شَيْءٌ مُحِبَّبٌ ^(٢)
يَقِينُ كَأَنَّ الشَّكَّ غَالِبُ أَمْرِهِ عَلَيْهِ وَعِرْفَانٌ إِلَى الْجَهْلِ يُنْسَبُ
أقول: لعله ينظر إلى قول جرير:

تُرَوِّعُنَا الْجَنَائِزُ مُقْبِلَاتٍ فَنَلْهُوَ حِينَ تَذْهَبُ مُدْبِرَاتٍ
كَرْوَاعَةٍ ثَلَاثَةٍ لُمُغَارٍ ذَنْبٍ فَلَمَّا غَابَ عَادَتْ رَاتِعَاتٍ ^(٣)
قال أبو عمرو بن العلاء: جلستُ إلى جرير وهو يُعْمَلِي:

❖ وَدَعِ أَمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ ❖

ثم طلعت جنازة فأمسك وقال: شَيَّبَتْنِي هَذِهِ الْجَنَائِزُ، قلتُ: فَلِمَ تُسَابُّ
النَّاسَ؟ قال: يبدأونني ثم لا أنفُو وأعتدى ولا أبتدى، ثم قال هــذين
البيتين... وقول محمد بن وهيب: يقين كأن الشك أغلب أمره... ألبت
فأخوذ من قول الحسن البصري: ما رأيتُ يقيناً لا شك فيه أشبه بشك
لا يقين فيه، إلا الموت...

(١) شاعر بصرى من أهل بغداد مدح المأمون والمعتصم ويعتد وسطاً في طبقة
دعبل وأبي سعيد الخزومي، وكان يتشيع ويستمتع الناس بشعره، انظر ترجمته في
معاهد التنصيص

(٢) يقول: إننا أبناء الدنيا وما دمنا كذلك كانت الدنيا محبوبة لنا.

(٣) الثلاثة: بفتح الـاء. جماعة الغنم، أما الثلاثة بضم الـاء فالجماعة من الناس، وهذا
من غرائب هذه اللغة الكريمة.

وقال أحد الظرفاء : إن الدنيا قد استودقت وأنعظ الناس : « استودقت يقال : ودقت الفرس تدق ودقاً واستودقت : إذا طلبت الفحل » وقال حكيم : من أراد الدنيا فليتهيأ للذل . ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام ... ومن كلامه رضى الله عنه - وقد قال له رجل وهو فى خطبة : يا أمير المؤمنين ، صف لنا الدنيا فقال : ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، فى خلالها حساب وفى حزامها عقاب ، من صح فيها ما آمن ، ومن مريض ندم ومن استغنى فتن ، ومن افقر فيها حزن . وقال أيضاً : إنما المرء فى الدنيا غرض تلتضل فيه المنايا ، ونهب للصاب ، ومع كل جرعة شرق ، وفى كل أكلة غصص ، ولا ينال العبد فيها نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، فنحن أعوان الخوف ، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء ، فمن أين نرجو البقاء . وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرقاً إلا أسرع السكرة فى هدم ما بليا ، وتفريق ما جمعا ، فاطلبوا الخير وأهله ، واعلموا أن خيراً من الخير معطيه ، وشرّاً من الشر فاعله ... « الغرض : الهدف ، والنهب : المال المنهوب غنيمةً والجمع نهب وقد تقدم شرح الجرعة والشرق والغصص ، وقوله : فنحن أعوان الخوف فالخف : الموت ، ومعنى أننا أعوان الموت : أنا نأكل ونشرب ونجامع ونركب الخيل والسفن والطائرات ونحوها وتتصرف فى أسبابنا وحاجتنا وآربنا ، والموت إنما يكون بأحد هذه الأمور إما من أخلط تحدثها المآكل والمشارب ، أو من سقطت يسقط الإنسان من دابة هو راكبها أو من ضعف يلحقه من الجماع المفرط أو مصادمات واصطكاكات تصيبه عند تصرفه فى مآربه وحركته وسعيه ونحو ذلك ،

فكأننا نحن أعنا الموت على أنفسنا»

وقال على بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : مَالِكَ مِنْ عَيْشِكَ إِلَّا لَذَّةٌ تُزْدِلُفُ بِكَ إِلَى حِمَامِكَ وَتُقَرَّبُكَ مِنْ يَوْمِكَ ، فَأَيُّ أَكْثَلَةٍ لَيْسَ مَعَهَا غَصَصٌ أَوْ شَرِبَةٌ لَيْسَ مَعَهَا شَرَقٌ ! فَتَأْمَلُ أَمْرَكَ فَكَأَنَّكَ قَدْ صِرْتَ الْحَبِيبَ الْمَفْقُودَ وَالْخَيَالَ الْمُحْتَرَمَ ، أَهْلُ الدُّنْيَا أَهْلُ سَفَرٍ لَا يَحْلُونُ عَقْدَ رَحْلِهِمْ إِلَّا فِي غَيْرِهَا «قوله : تُزْدِلُفُ بِكَ إِلَى حِمَامِكَ : أى تُقَرَّبُكَ إِلَى مَوْتِكَ ، وَالْمُحْتَرَمَ الْمُسْتَأْصِلَ وَالْمُقْتَطَعَ» .

وقال حكيم : مَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِي عَلَى مَوْجِ الْبَحْرِ دَارًا ! تَلَكُمُ الدُّنْيَا ، فَلَا تَتَّخِذُوهَا قَرَارًا ... وَقِيلَ لِبَعْضِ الرُّهْبَانِ : كَيْفَ تَرَى الدَّهْرَ ؟ قَالَ : يُخْلِقُ الْإِبْدَانَ ، وَيُجَدِّدُ الْأَمَالَ ، وَيُقَرِّبُ الْمَنِيَّةَ ، وَيُبَاعِدُ الْأَمَنِيَّةَ ، قِيلَ : فَمَا حَالُ أَهْلِهِ ؟ قَالَ : مَنْ ظَفِرَ بِهِ تَعَبٌ ، وَمَنْ فَاتَهُ الْكِتَابُ ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الشَّاعِرُ :
وَمَنْ يَحْمَدُ الدُّنْيَا لِقَيْشِ يُسْرُهُ فسوف لَعَمْرَى عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُهَا
إِذَا أَذْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً وَإِنْ أَقْبَلَتْ كَانَتْ كَثِيرًا هُمُومَهَا
قال حكيم : مَنْ عَيِبَ الدُّنْيَا أَنَّهُ لَا تَعْطَى أَحَدًا مَا يَسْتَحِقُّ ، إِمَّا أَنْ تَزِيدَ لَهُ وَإِمَّا أَنْ تَنْقُصَ ... وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمُ بْنُ عَمْرٍو أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ
هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى الزَّوَالِ
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا وَشَلُّ قِيٍّ أَظْلَكَ ثُمَّ آذَنَ بَانَتْقَالَ
ولنجتزئ بهذا المقدار فَعَبَقْرِيَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا لَا يَكَادُ يَبْلُغُهَا الْإِحْصَاءُ .

عبقرياتهم في الموت

أسماء الموت ووصفه

الموت : ضد الحياة ، ويقال : مات يَمُوتُ وَيَمَاتُ — لغة طائية — وقالوا : مَيِّتَ تَمُوتُ ؛ قال ابن سيده ؛ ولا نظير لها مِنْ المعتلِّ ، وَرَجُلٌ مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ ، وقيل : المَيِّتُ : الذى مات ، والمَيِّت والمائت : الذى لم يَمُتْ بعدُ ، يقال : هو مَيِّتٌ غدا ومائت ولا يقال : مَيِّتٌ ، قالوا : وهذا خطأ ، وإنما مَيِّتٌ يصلح لما قد مات ولما سيموت ، وقد جمع بين اللغتين عدي بن الرِّعْلَاء الغساني - والرِّعْلَاء أمه - فقال :

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميتُ مَيِّتُ الأحياءِ

إنما الميتُ من يعيش كثيراً كاسفاً بأله قليل الرجاء

فأناسٌ يُمَصِّصُونَ نِمَاداً^(١) وأناسٌ حُلُوفُهُمْ فى الماءِ

فجعل الميتَ كالميت ... ويقال للموت : الهَمَمِيعُ ، وقيل : الهَمَمِيعُ : الموتُ المُعْجَلُ : أقول : ولعله سُمي كذلك لأن الروح تَهَمَعُ : أى تسيل ، من هَمَعِ الدَّمْعُ والماء : سال . ومن أسماء الموت أيضاً : النَيْطُ ، روى عن على رضى الله عنه أنه قال : لَوَدَّ مُعَاوِيَةُ أَنَّهُ مَابِقٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ نَافِخُ ضَرَّةٍ إِلَّا طُعِنَ فِي نَيْطِهِ^(٢) ، معناه : إلا مات ، قال ابن الأثير : والقياس : النَوُطُ ، لأنه من نَاطَ ينوُطُ : إذا عُلِقَ ، وقيل : النيط : نياط القلب ، وهو : العِرْقُ الذى يتماق به القلب ... ومن أسماء الموت : الرَّمْدُ قال أبو وجرة السعدي :

صَبَبْتُ عَلَيْكُمْ حَاصِبِي فَتَرَكْتُكُمْ كَأَصْرَامٍ عَادٍ حِينَ جَلَّلَهَا الرَّمْدُ

« الحاصب . العذاب يكون بالريح الشديدة تحمل الحصباء ، والأصرام : الجماعات

(١) النِّمَاد : الماء القليل الذى لا مادة له (٢) الضربة بتحريك الميم : الجرة أو النار نفسها ، ويقال ما بالدار نافع ضربة : أى ما بها أحد .

من الناس ، والرّمادة : الهلاك ؛ ومنه قيل : عام الرّمادة ؛ لأنّ الناس والأموال هلكت فيه كثيرا ^(١) ومن أسمائه : أمّ قشعم ، قال أبو عبيد : أمّ قشعم : المنيّة ، ويقال للشيخ الكبير والمسنّ من النّسور والرتخ : قشعم ، إطول عمره . وأمّ قشعم في قول زهير في معلقته :

قَشَدَّ وَلَمْ يُفْرِغْ يُيُوتَا كَثِيرَةً لَدَى حَيْثُ أَلَقْتُ رَحْلَهَا أُمّ قَشَعْمِ
قيل : الحرب ، وقيل : المنيّة ، وقيل : الضّبع ، وقيل : العنكبوت ، وقيل : الذّيلة ... ومن أسمائه : أمّ اللّهم . قال الخليل بن أحمد : أمّ اللّهم : المنيّة ، لأنها تلتهم كل شيء . ومن أسمائه : شَعُوبُ ، قال ابن السكيت : شَعُوبُ : اسم المنيّة ، مؤنثة مَعْرُفَةٌ لاتنصرف وأنشد :

❖ وَمَنْ تَدْعُ يَوْمًا شَعُوبُ يُجِيبُهَا ❖

قال : وإنما سميت المنيّة شعوبَ لأنها أشعُبُ — أى تُفَرِّقُ — يقال : شَعَبَ وأشعَبَ وأنشعبَ : هَلَكَ . . ومن أسمائه : القَوْدُ ، فاد يَفُودُ فَوْدًا : مات ، قال لبيد بن ربيعة يَذكر الحارث بن أبي شمر الغسانيّ ، وكان كلّ ملك منهم كلما مضت عليه سنة زَادَ في تاجِهِ خَرَزَةٌ ، يُرَادُ بذلك أن يُعْلَمَ عَدَدُ السنين التي ملكها ، فأراد أنه عُمِرَ حتى صارَ في تاجِهِ خَرَزَاتُ كَثِيرَةٍ :

رَعَى خَرَزَاتِ الْمُلْكِ سِتِّينَ حِجَّةً وَعِشْرِينَ حَتَّى فَادَ وَالشَّيْبُ شَامِلُ
ومن أسمائه : الحِلَامُ . يقال نَزَلَ بِهِ حَمَامُهُ : أى مَوْتُهُ وَقَدَرُهُ ، مِنْ حُمَّ كَذَا أى قَدَّرَ أنشد ابنُ بَرَى لِحَبَابِ بْنِ عُزَيٍّ :

(١) عام الرّمادة كان سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة من الهجرة أيام أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وَأَرْجَى بِنَفْسِي فِي فُرُوجٍ كَثِيرَةٍ وَلَيْسَ لِأَمْرِ سَحْمَةِ اللَّهِ صَارِفٍ
وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمُنُونُ ، قِيلَ : الْمُنُونُ تَكُونُ وَاحِدًا وَجَمْعًا ، قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ
الْهَذَلِيُّ ...

❖ أَمِنْ الْمُنُونِ وَرَزِيهِ تَتَوَجَّعُ ❖

وَمِنْ جَمْعِهِ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ الْعَبَادِيِّ :
مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونَ خَلَدْنَ أُمَّ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : الْمُنُونُ وَاحِدٌ لِاجْتِمَاعِهِ لَهُ ، فَأَمَّا قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ فَعَلِيَ
مَعْنَى الْعُمُومِ وَالْكَثَرَةِ فِي الْمَوْتِ ، إِذْ كَانَ أَدْهَى الدَّوَاهِي ، وَقَالَ ابْنُ جَنِّي : مَنْ
أَنْتَ الْمُنُونُ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَى الْمُنِيَةِ وَمَنْ ذَكَرَ أَرَادَ الدَّهْرَ ، وَسُمِّيَ الدَّهْرُ مُنُونًا
لَأَنَّهُ يَذْهَبُ بِمَنْقَةِ الْإِنْسَانِ : أَيُ قُوَّتِهِ ... وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمُوتَانُ وَالْمَوْتَانُ ، قَالَ
صَاحِبُ اللِّسَانِ : الْمُوتَانُ وَالْمَوْتَانُ وَالْمَوَاتُ كُلُّهُ : الْمَوْتُ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ :
يَكُونُ فِي النَّاسِ مُوتَانٌ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ، فَالْمَوْتَانُ : الْمَوْتُ الْكَثِيرُ الْوَقُوعُ .

❖ ❖ ❖

وَمِنْ صِفَاتِ الْمَوْتِ : مَوْتُ زَوَامٍ : أَيُ كَرِيهِ ، وَقِيلَ : عَاجِلٌ ، وَقِيلَ :
سَرِيعٌ مُجْهِزٌ ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْأَصَحُّ ؛ وَمِنْ أَوْصَافِهِ أَيْضًا : مَوْتُ زُعَافٍ
وَزُعَافٍ وَزَوَافٍ وَجُحَافٍ وَجُحَافٌ : شَدِيدٌ يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ يَقَالُ : سِيلَ
جُحَافٍ وَجُرَافٍ : يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَزُعَافٍ وَزَوَافٍ وَزُعَافٍ : سَرِيعٌ
وَحَيٌّ ، وَقِيلَ : شَدِيدٌ ، وَمِنْهَا : مَاتَ قَعَصًا : أَيُ مَوْتًا وَحِيًّا ، وَيُقَالُ لِمَنْ مَاتَ
فُجَاءَةً : فَفَسَ يَفْقَسُ فُقُوسًا ، وَفَطَسَ يَفْطَسُ فَطُوسًا ، وَيُقَالُ لِعَيْقٍ إِصْبَعُهُ
وَطَنٌّ وَتَلْبَلٌ : أَيُ مَاتَ ، وَيُقَالُ أَطْلَى الرَّجُلُ : أَيُ مَالَتْ عُنُقُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ ،
وَيُقَالُ : جَرَضَ بَرِيقَهُ ، وَأَصْلُ الْجَرَضِ : الْغَضَّةُ ، وَالْمُرَادُ : عَانَى غَضَصَ الْمَوْتِ

ومن ذا المثلُ : حالَ الجريضِ دونَ القريضِ ، قاله عبيد بن الأبرص للمنذر حين أراد قتله وقال له : أنشدني من قولك ، فقال عند ذلك : حال الجريض دون القريض ، «الجريض : الغصصُ واختلاف الفكّين عند الموت ، والقريض : الجرة»^(١) - لأنه إذا غصّ لم يقدر على قرصِ جرّته ، والقريض أيضاً : الشَّعر ، ويقال استأثر الله به ، وانحلَّ تركيبه ، ونصّي لما خُلِقَ له ، وأناه ما كان يحذر ، وأكل الدهرُ عليهم وشرب ، وهذا مقلوب ، وإنما هو : أكلوا على الدهر وشربوا ؛ وصفر وطابه ، ومعناه : أن جسّمه خلا من روحه ؛ وأجود وصف للبوت قول سيدنا رسول الله : أكثرُوا من ذكرها ذمّ اللذات^(٢) ... ولنجتزئ بهذا المقدار^(٣)

تعظيم أمر الموت

قال الحسن البصري : إنَّ الموتَ قد فصَحَ الدنيا ...
وكان كثيراً ما يقول : عند الموت يأتيك الخبر ... وقال له رجلٌ يوماً
إنَّ عشتَ تر مالم تره ، فقال : إنَّ مِتَّ تر مالم تره ... وفي الأثر : ما رأيتُ
منظراً فظيماً إلا والموتُ أعظم منه ...

(١) الجرة : ما يخرج البعير وكل ذي كرش ليضعه ثم يياهه
(٢) تقرأ هادم بالذال المهملة وبالذال المعجمة ومعناها مزيل الشيء من أصله والرواية بالمعجمة .
(٣) إذا أردت التوسع في أوصاف الموت وأسمائه فإلى الجزء السادس من

الخصص لابن سيده

حشهم على تصور الموت

كان الحسنُ البصريُّ إذا خَوَّف من الموت يقول للشَّيْرُخ : الزرعُ إذا بلغ ما يُصنَّع به ؟ قالوا : يُحصَد ، ويقول : للأشْبَان : يامعشرَ الشَّبَّان كم من زرع لم يبلُغ أدركته الآفة !

وقال بعضُ الخُلفاء لابن السَّماك^(١) : عِظني وأوجِزْ ، فقال : اعلمْ أنك أوَّل خليفة تموت ؛ وهذا كما سأل أَرْدَشِيرُ بعضَ الحكماء عن دار بناها وقال : هل ترى فيها عيبا ؟ قال الحكميم : نعم ، عيبا لا يمكنك إصلاحه ، فقال وما هو ؟ قال : لك منها خُرْجة لا عود بعدها أَرْدَخَلَةٌ لا خروج بعدها ... وقالوا : من ضاق به أمرٌ فليذكر الموت فإنه يتسَّعُ عليه ... ونحوه : مَنْ أَحْسَنَ بآئِهِ يموتُ فليس يَبْنِي أن يَغْتَمَّ لَأمرٍ صَعَبٍ ينزل به .

وشكا رجلٌ إلى سيدنا رسول الله قساسة قلبه فقال صلوات الله عليه : أَكثَرُ مَنْ ذَكَرَ هَازِمَ اللَّذَاتِ ، فَإِنَّهُ مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ فِي ضَيْقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ وَلَا فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ ... وقال بعض الصالحين : نَعَمْ فَصَبِّحْهُ الْقَلْبَ ذِكْرُ الْمَوْتِ ، بِطَرْدِ نُضُولِ الْأَمَلِ ، وَيُكَفِّفُ غَرْبَ الْمُنَى وَيَهْوِي الْمَصَائِبَ ، وَيَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الطُّغْيَانِ ... وقال الحسنُ البصريُّ - وقد قعد عند رأس مَيِّتٍ : إن أمرا هذا آخره لأهلٌ أن يُزَهَّدَ فيما قَبْلَهُ ، وإن أمرا هذا أوله لَأَهْلٌ أن يُحَذَّرَ ما بعده ، ونظر الحسن إلى صبيَّة بين جنازة أبيها تقول : يَا أَبَتِ مِثْلَ يَوْمِكَ لَمْ أَرَهُ ، فَضَمَّهَا الْحَسَنُ وَقَالَ : أَيُّ بُلِيَّةٍ ، وَأَبُوكِ مِثْلَ هَذَا الْيَوْمِ لَمْ يَرَهُ ؛ فبكى الناس ... ومر علي بن أبي طالب رضى الله عنه بمقابر

(١) هو أبو العباس محمد بن صالح العابد المحدث المتوفى سنة ١٨٣

الكوفة فقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة ، والمحال المفقرة ، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع ، أما الأزواج فقد نكحت ، وأما الديار فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ؛ هذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم النفث إلى أصحابه فقال : أما إنهم لو تكلموا لقالوا : إنا وجدنا خير الزاد التقوى .

استدلال الإنسان

على موته بمن مات من أهله

قال أبو نواس من آيات قد أوردناها عليك في باب التقوى :
ألا يا ابنَ الذين كفوا وماتوا أما والله ما ماتوا لتبقى
وقال بعض الصالحين : إن أمراً ما بينه وبين آدم أب إلا ميت لمعرق في
الموت ... وقال لييد :

فإن أنت لم تصدك نفسك فانتسب لملك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان باقيا ودون معية فلتزعك العواذل
وهذان البيتان من قصيدة يرثي بها النعمان بن المنذر ملك الحيرة وأولها :
ألا تسألان المرء ماذا يجاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
وفيها يقول :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهمته تصفر منها الأنامل
وقوله : فإن أنت لم تصدك ... أبيت يقول : إن لم تصدك نفسك عن
هذه الأخبار ، بل كذبتك ، فانتسب : أي قل : أين فلان بن فلان ، فإنك
لا ترى أحداً بقي ، وملك تهديك القرون وتريدك ، وقوله : فإن لم تجد ... أبيت

فزعك : تكفك ، والعواذل هنا : حوادث الدهر وزواجره ، وقال بعض الشراح : العواذل : النساء ، يقول : لم يبق لك أبٌ حتى إلى عدنان فكف عن الطمع في الحياة ، ومعنى البيتين : إن غاية كلٍّ حتى الموت ، فينبغي للإنسان أن يتعظ : بأن يَلْسَبَ نفسه إلى عدنان ، فإن لم يجد من بينه وبينه من الآباء باقياً فليعلم أنه يصير إلى مصيرهم ، فينبغي له أن ينزع عما هو عليه « ومثله قول امرئ القيس :

فَبَعْضَ اللَّوْمِ عَاذَلْتِي فَأَيُّ سَيِّكَمِي التَّجَارِبُ وَاتِّسَابِي
إِلَى عِرْقِ الثَّرَى وَشَجَّتْ عُروقي وهذا الموت يَسْلُبُنِي سَبَابِي
« وشجَّتْ : اشتبكت » وقال أبو تمام في قصيدة له يمدح مالك بن طويق ويعزيه عن أخيه القاسم :

تَأْمَلْ رُويْدًا هَلْ تَعُدَّنْ سَالِمًا إِلَى آدِمٍ أَمْ هَلْ تَعُدُّ ابْنَ سَالِمٍ
مَتَى تُرْغِ هَذَا الْمَوْتَ عَيْنًا بِصِيرَةٍ تَجِدُ عَادِلًا مِنْهُ شَيْمًا بِظَالِمٍ
« قوله : متى تُرْغِ ألبيت يقول : متى أنعمت النظر وأفكرت في أمر الموت وجدت منه عادلاً أشبه بظالم ، وذلك أنه قد يخترم من يكون اختراؤه أصلاً له لدى العزيز الحكيم الذي يعلم مصلح خلقه وقد يخفى عليك وجه الحكمة فتظن العدل جوراً ،

وقال البحتري

وَمَا أَهْلُ الْمَنَازِلِ غَيْرُ رَكِبٍ مَنَابَاهُمْ رَوَاحُ وَابْتِكَارُ
لَنَا فِي الدَّهْرِ آمَالٌ طَوَالُ تُرَجِّبُهَا وَأَعْمَارُ قِصَارُ
والبيت الثاني مثله قول ابن هانئ الأندلسي من أبيات يرثي بها والده يحيى وجعفر ابني علي صاحب الميعة بالمغرب ، وهذه هي الأبيات :

صَدَقَ الْفَنَاءُ وَكَذَّبَ الْعُمُرُ وَجَلَّ الْعِظَاتِ وَبَالَغَ النَّذْرُ
 إِنَّا ، وَفِي آمَالِ أَنْفُسِنَا طُولُ وَفِي أَعْمَارِنَا قِصْرُ
 لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مَصَارِعَنَا لَوْ كَانَتِ الْأَلْبَابُ تَعْتَبِرُ
 مِمَّا دَهَانَا أَنْ حَاضِرَنَا أَجْفَانُنَا ، وَالْغَائِبُ الْفَسْكَرُ
 وَإِذَا تَدَبَّرْنَا جَوَارِحَنَا فَأَكْثَرُ الْعَيْنِ وَالنَّظَرُ
 لَوْ كَانِ لِلْأَلْبَابِ مُنْتَحَنُ مَا عُدَّ مِنْهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ ^(١)
 أَى الْحَيَاةِ الَّتِي عِشَّتْهَا مِنْ بَعْدِ عَلَيَّ أَنْتَى بَشَرُ
 خَرِسَتْ لَعَمْرُ اللَّهِ أَلْسُنَا لَمَّا تَكَلَّمَ فَوْقَنَا الْقَدَرُ

الاعتبار بمن مات من الكبار

قال عدي بن زيد العبادي :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعِيرُ بِالْذَّهْرِ رَأَيْتُ الْمُسِيرَ الْمَوْفُورُ ^(٢)
 أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الْآيَا بِمِ بَلْ أَنْتَ جَاعِلٌ مَقْرُورُ
 مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونِ خَلْدُنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ ^(٣)
 ابْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشَرُ وَإِنْ أَمْ أَنْ قَبْلَهُ سَابُورُ ^(٤)
 وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكِرَامُ مُلُوكُ الرُّو بِمِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ

(١) أى ما عُدَّ من المتحنات : السمع والبصر ، لأن السمع يسمع المواعظ فلا يتعظ والبصر يبصر العبر فلا ينزجر

(٢) الموفور : يريد الذى لم تصبه نوائب الدهر

(٣) المنون : المنية أو الدهر كما تقدم

(٤) هناك سابور الجنود وهو ابن أردشير ، وسابور ذو الاكتاف وهو سابور ابن هرمز وكلاهما من ملوك العجم قبل كسرى أنوشروان

وأخو الحضِر إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّ لَهُ مُجْبَى إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ ^(١)
 شَادَهُ مَرَمَرًا وَجَلَّاهُ كَأَسَا فَلَطِيرٍ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ ^(٢)
 لَمْ يَهْبُهُ رَبُّ الْمَذُونِ فَبَادَا مَلِكُ عَنْهُ فَبَابُهُ مَهْجُورُ
 وَتَذَكَّرَ رَبَّ الْخَوْرَتِ إِذْ أَصْبَحَ بَوْمًا وَلِلْهَدَى تَفْكِيرُ ^(٣)
 سَرَّهُ حَالَهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْنَعُ لَكَ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّدِيرُ ^(٤)
 فَارْعَوَى قَلْبُهُ فَقَالَ : وَمَا غَبَّ طُهُ حَيَّ إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
 ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالنَّعْمَةِ وَارْتَهَمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ
 ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقَى بَجَفَّ فَأَلَوْتُ بِهِ الصَّبَا وَالْدَّبُورُ ^(٥)

وما كان يصح أن يذكر في هذا الباب مرثية الوزير الشاعر الأندلسي عبد المجيد ابن عبدون التي برئ بها بني الأفطس - من ملوك الطوائف بالأندلس - وذكر فيها عدة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فإوجدواجنة تقيهم من وثباته، ودبت عليهم الأيام بصروفها، وسفقتهم

(١) الحضِر : قصر كان بجمال تكريت بين دجلة والفرات ، وأخو الحضِر كان صاحب تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة : وله حديث طريف انظره في الأغاني ج ٢ في ترجمة عدى بن زيد طبع دار الكتب ، والخابور . اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة

(٢) الكلس : الصاروج أي النورة وأخلاطها نطلى بها المنازل وغيرها، وذراه : أعاليه ، والوكور : جمع وكر : العش

(٣) صاحب الخورنق - وهو القصر الذي بناه سنار - هو النعمان بن امرئ القيس عامل يزدجرد بن سابور على أرض العرب وله قصة انظرها في الأغاني وهو الذي ساح على وجهه فلم يعرف له خبر

(٤) معرض بمعنى متسع ومنه أعرض الثوب أي اتسع وعرض ، والسدير : نهر

(٥) ألوت به : ذهبت به

الْمَنِيَّةُ بِكَأْسٍ حُتِفَهَا ، وَمَطْلَعُهَا :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالْأُصُورِ
يَدُ أَنَا لَطَوَلُهَا رَأَيْنَا أَنْ نَضْرِبَ عَنْ إِرَادِهَا هُنَا صَفْحًا ، وَتَرَاهَا فِي الْمَجْلَدِ
الخَامِسِ مِنْ نِهَآةِ الْأَرْبِ لِلزُّوْبَرِيِّ الَّذِي قَامَتْ بِطَبْعِهِ دَارُ السُّكُتِ الْمَصْرِيَّةِ ...
وَقَدْ شَرَحَهَا ابْنُ بَدْرُونَ ، وَمِنْ أَيْبَاتِهَا :

فَلَا تَغُرَّنَاكَ مِنْ دُنْيَاكَ نَوْمُهَا فَمَا صِنَاعَةُ عَيْنِهَا سِوَى السَّهْرِ
مَالِيَّالِي - أَقَالَ اللَّهُ عَشْرَتَنَا مِنْ اللَّيَالِي وَخَاتَمَتَهَا يَدُ الْغَيْرِ
فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مَنَاجِرَاحٍ وَإِنْ زَاغَتْ عَنِ الْبَصَرِ
تَسُرُّ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَغُرَّ بِهِ كَالْأَيْمِ^(١) نَارًا إِلَى الْجَانِي مِنَ الشَّمْرِ
وَقَالَ الْمُنَبِّي :

أَبْنَى أَيْنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ أَبَدًا غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِنُ
نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ جَمَعْتَهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
أَيْنَ الْأَكْسِرَةِ الْجَبَابِرَةُ الْأُثْلَى كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِيْنَ وَلَا بَقُوا
مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّى تَوَيَّ فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ
خُرُسٌ إِذَا تُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ السَّكَّامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقُ
وَالْمَوْتُ آتٍ وَالنَّفُوسُ تَفَاسُ وَالْمُسْتَغْرِ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحْمَقُ
وَالْمَرْءُ يَأْمُلُ ، وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةُ وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ ، وَالشَّيْبَةُ أَرْزَقُ

« أَبْنَى أَيْنَا : يَا إِخْوَتَنَا ، يَا بَنِي آدَمَ ، وَأَرَادَ بِغُرَابِ الْبَيْنِ : دَاعِيَ الْمَوْتِ
يَقُولُ : نَحْنُ نَازِلُونَ فِي مَنَازِلٍ يَتَفَرَّقُ عَنْهَا أَهْلُهَا بِالْمَوْتِ ، فَقَوْلُهُ : نَبْكِي عَلَى

(١) الْاَيْمُ : الْاَيْمُ .

الدنيا... ألبيت مثله قول جرير يرثى امرأته :

لَا يَلْبَثُ الْقَرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمْ وَنَهَارُ

وثوى - بالمثلثة : أقام في القبر؛ وبالمثناة : هلك، وهذا البيت من قول أشجع :

وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقٌ وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا أَضِيقُ الصَّاحِصِ

« الصَّاحِصِ جَمْعُ صَحْصَحَ : وَأَصْلُهُ مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ وَكَانَ أَجْرَدَ »

والمستغفر : المغرور، يقول في هذا البيت : النفوس يأتى عليها الموت وإن

كانت عزيزة نفيسة لا يمنعه ذلك من أخذها، واللاحق هو المغرور بالدنيا

وبما يجمعه فيها، أما العاقل فإنه لا يغتر بما جمعه لعله أنه لا يبقى هو ولا ما جمعه،

وقوله : والمرء يأمل... ألبيت يقول : المرء يرجو الحياة لطيبها لديه،

والشيب أكثر له وقاراً من الشباب، يعنى : أن المرء يكره الشيب ويحب

الشباب والشيب خير له، لأنه يُكسبه الحلم والآنسة والوقار، والشباب شر

له، لأنه يحمله على الطيش والنزق والحمق، وقال الشاعر :

رُبَّ قَوْمٍ عَبَرُوا مِنْ عَيْشِهِمْ فِي نَعِيمٍ وَسُرُورٍ وَغَدَقَ

سَكَتُ الدَّهْرِ زَمَانًا عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَظَقَ

« الغدق المراد به الخصب والسعة » وقال مالك بن دينار :

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهُنَّ أَيْنَ الْمَعْظَمِ وَالْمُحْتَقَرِ

وَأَيْنَ الْمُدِلِّ بِسُلْطَانِهِ وَأَيْنَ الْمُرَكِّي إِذَا مَا أَفْنَحَرِ

قال : فتوديت من بينها ولا أرى أحدا :

تَفَانُوا جَمِيعًا فَسَا تُخْبِرُ وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الْخَبِرُ

تَرُوحُ وَتَغْدُو بَنَاتُ السَّيْرِ وَتَمَحُّوْ حَايِنَ تِلْكَ الصُّوْرِ

فِي سَائِلِي عَنْ أَنْاسٍ مَضَوْا أَمَا لَكَ فِيهَا تَرَى مُعْتَبَرًا

« بنات الثرى : الدود » ...

ونزل النعمانُ بنُ المنذرِ ومعه عدىُّ بنُ زيدِ العبادىُّ فى ظلِّ شجرة عظيمةٍ
ليتلُّوها ، فقال له عدى : أتدرى ما نقولُ هذه الشجرة ؟ قال : لا ،
قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَمْزُجُونَ الْحَرَّ بِالمَاءِ الزُّلَالِ
نُمُّ أَضْحَوْا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَاكَ الدَّهْرُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ
وَنَظَرَتْ امْرَأَةٌ إِلَى جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى الْبَرْمَكِيِّ وَزَيْرِ الرَّشِيدِ ، وَهُوَ مَصْلُوبٌ
فَقَالَتْ : لئن كنتَ فى الحَيَاةِ غَايَةً فَلَقَدْ صِرْتَ فى المَمَاتِ آيَةً ... وَلَمَامَاتِ
الإِسْكَندَرِ المَقْدُونِىِّ وَقَفَّ عَلَيْهِ أَرِسْطُو الفِيلَسُوفِ فَقَالَ : طَالَمَا كَانَ هَذَا
الشَّخْصُ وَاِعْظَا بَلِيغًا ، وَمَا وَعَظَ بِمَوْعِظَةٍ فى حَيَاتِهِ أَبْلَغَ مِنْ عِظَتِهِ فى مَمَاتِهِ ،
أَخَذَ هَذَا المَعْنَى أَبُو العَتَاهِيَةِ فَقَالَ :
وَكَانَتْ فى حَيَاتِكَ لى عِظَاتٌ وَأَنْتَ اليَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

من مات فَقَدْ تَنَاهَى فى البَعْدِ

قال النابغة الذبياني :

حَسَبُ الخَلِيلَيْنِ نَأَى الأَرْضِ بَيْنَهُمَا هَذَا عَلَيْهَا وَهَذَا تَحْتَهَا بِأَلِى
وقال أبو حية النميرى :
فَلا غَائِبٌ مَنْ كَانَ يُرَجَى إِيَابُهُ وَلَكِنَّهُ مَن ضَمَّنَ اللَّحْدَ غَائِبٌ

غفلة الناس عن الموت

قال أبو العتاهية :

النَّاسُ فِي غَفْلَتِهِمْ وَرَحَى الْمُنِيَّةِ تَطْحَنُ
وقال الحسن البصري : مارأيتُ يَقِينًا لَاشَكَّ فِيهِ أَشْبَهَ بِشَكِّ لَا يَقِينُ فِيهِ
مِثْلَ الْمَوْتِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي خُطْبَةٍ لَهُ : مَا هَذَا
التَّغَاوُلُ عَمَّا أُمِرْتُمْ بِهِ ، وَالتَّسْرُّعُ إِلَى مَا نُهَيْتُمْ عَنْهُ ، إِنْ كُنْتُمْ عَلَى يَقِينٍ فَأَنْتُمْ
حَقِّقٌ ، وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى شَكٍّ فَأَنْتُمْ هَلَكِي ...

وقال شاعر :

وَنَامُلُ مِنْ وَعْدِ الْمُنَى غَيْرَ صَادِقٍ وَنَأْمَنُ مِنْ وَعْدِ الْمَنَى غَيْرَ كَاذِبٍ
نُرَاعُ إِذَا مَا شَيْكَ لِمَخْصُ بَعْضِنَا وَأَقْدَامُنَا مَا بَيْنَ شَوْكِ الْعَقَارِبِ
« الْمُنَى : جَمْعُ الْمُنِيَّةِ وَهُوَ مَا يَتِمَّنَاهُ الْمَرءُ ، وَالْمَنَى : الْمَوْتُ ، وَأَصْلُهُ الْقَدَرُ
تَقُولُ : مَنَى اللَّهُ لَكَ مَا يَسُرُّكَ : أَيْ قَدَرَ اللَّهُ لَكَ مَا يَسُرُّكَ وَيَسْمَى الْمَوْتُ بِالْمُنَى
لِأَنَّهُ قُدِّرَ عَلَيْنَا ، وَقِيلَ : مَنْ لَمْ يَرْتَدِّعْ بِالْمَوْتِ وَبِالْقُرْآنِ ثُمَّ تَنَاوَحَتْ الْجِبَالُ
بَيْنَ يَدَيْهِ لَمْ يَرْتَدِّعْ .

لا ينجو من الموت أحد

قيل : مَنْ لَمْ يَمُتْ عَاجِلًا مَاتَ آجِلًا ؛ وَقَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ :
مَنْ لَمْ يَمُتْ عِبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا لِلدَّوْتِ كَأْسُ وَالْمَرءُ ذَائِقُهَا
مَالِدَةُ النَّفْسِ فِي الْحَيَاةِ وَإِنْ عَاشَتْ قَلِيلًا فَالْمَوْتُ لَاحِقُهَا
يَقُودُهَا قَائِدٌ إِلَيْهِ وَيَحْدُوها حَاشِيَةٌ إِلَيْهِ سَائِقُهَا

« يقال : مات فلان عبطةً : أى شاباً ، وقيل : شاباً صحيحاً ، وأصل العبط من اللحم : ما كان سليماً من الآفات ويقال : عبط الشاة والناقة وكل دابةً : تحرها أو ذبحها من غير داء وهي فتية ،

وقيل لابن المقفع : قد كنت نعت لنا فقال : ما بعد كائن ولا قرب بان ... وقال ابن المعتز :

ألا إنما جسمي لروحي مطيةٌ ولا بد يوماً أن يعرّى من الرحل
« الرحل : المنزل ، والسرج يوضع على ظهر الدابة ، وعرى منه نزع عنه وهذا على المثل ، وقال محمود الوراق :

وما صاحب السبعين والعشر بعدها بأقرب ممن حنكته القوايلُ
ولكن آمالاً يؤملها الفتى وفيهن الراجين حق وباطلُ
« التوابل جمع قابلة : المرأة تتلقى الولد لدى الولادة « المولدة » وحنكته فالتحريك : أن تمضغ التمر ثم تدلكه بحنك الصبي داخل فيه ، ...
وقال المتنبي :

وأوفى حياة الغارين لصاحب حياة امرئ خاتته بعد مشيب
« يريد المتنبي : أن الحياة وإن طالت فهي إلى انقضاء ، يقول : أوفى عمر أن يبق حتى المشيب ثم يخونه عمره بعد ذلك ، وتصارُهُ الموت ، أو تقول : إذا عاش المرء إلى بلوغ المشيب ثم خاتته حياته يومئذ فقد تناهت في الوفاء
ومرّ شيخ من العرب بغلام فقال له الغلام : أحصدت يا عمّاه ، فقال : يا بني ،
وأنحضرُون « أحصدت : آن لك أن تحصد ، وتختضرون : تموتون خضراً في شبابكم ،

الموت لا يتحرز منه بشيء

ولو كان الطَّبَّ

قال المتنبي :

يموتُ راعي الضأنِ في جَهْلِهِ مَوْتَهُ جالينوسُ في طَبِّهِ
ورُبَّمَا زَادَ على عُمْرِهِ وزادَ في الأَمْنِ على سِرِّهِ ^(١)
وقبل هذين البيتين :

لا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ ضَجْمَةٍ لا تَقْلِبُ الْمُضْجَعُ عَنْ جَنْبِهِ ^(٢)
يَلْسَى بِهَا مَا كَانَ مِنْ عُنْجِهِ وما أذاقَ المَوْتَ مِنْ كَرْبِهِ ^(٣)
نَحْنُ بنو المَوْتِ فما بَالُنَا نَعَاُ ما لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ ^(٤)
تَبَخَّلْ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا على زَمَانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ ^(٥)
فهذه الأَرْوَاحُ مِنْ جَوْهٍ وهذه الأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ ^(٦)

(١) السرب : النفس (٢) لا بد للإنسان من اضطجاع في القبر يبقى بتلك الضجعة لا يقلبه ذلك الاضطجاع إلى يوم البعث .

(٣) إذ انزل القبر نسي الإعجاب وما ذاق من شدة الموت ، وهكذا الميت .
(٤) نحن بنو الأموات والموت كأس مدارة علينا ولا بد لنا من شربها فما بالنا نكرها ؟
فكما مات أبائنا فنحن على آثارهم . كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أصحابه يعزیه
في أبيه : أما بعد ، فإيا أمانس من أهل الآخرة سكنا في الدنيا ، أموات ، آباء أموات ،
أبناء أموات ، فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزیه عن ميت ...

(٥) تبخل أيدينا بأرواحنا ونمسك بها بخلاها على الزمان والأرواح بما أکسبه
الزمان اقال حکيم : إذا كان تناشرو الأرواح من كرور الايام فما لنا نعا فرجوعها
إلى أما کنها ؟

(٦) الإنسان مركب : من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، فالأرواح من الجوهر
والهواء ، والأجسام من التراب ، وكل عنصر عائد إلى عنصره

لَوْ فَكَّرَ العَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ ^(١)
لَمْ يُرْ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي شَرْقِهِ فَشَكَّتِ الأَنْفُسُ فِي غَرْبِهِ ^(٢)
إِلَى أَنْ قَالَ بَعْدَ الْبَيْتَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ آتِفًا:

وِغَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي سِلْمِهِ كِغَايَةُ الْمُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ ^(٣)
فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فَوَادِهِ يَخْفِقُ مِنْ رُغْبِهِ ^(٤)

وقيل للربيع بن حُثَيْمٍ فِي مَرَضِهِ: أَلَا نَدْعُو لَكَ طَبِيبًا؟ قَالَ: أَنْظِرُونِي،
ثُمَّ فَكَّرَ فَقَالَ: وَعَادًا وَنُمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا، لَقَدْ
كَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ، فَمَا أَرَى الْمُدَاوِيَّ يَبْقَى وَلَا الْمُدَاوِيَّ صَلُحَ
وَدَخَلَ الْفَرَزْدَقُ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ فَسَمِعَهُ يَطْلُبُ طَبِيبًا فَقَالَ:

يَا طَالِبَ الطَّبِّ مِنْ دَاءٍ نَخَوْنَهُ إِنَّ الطَّيِّبَ الذِي أَهْلَكَ بِالدَّاءِ
هُوَ الطَّيِّبُ الذِي يُرْجَى لِعَاقِبَتِهِ لَا مَنْ يَدُوفُ لَكَ التَّرْيَاقَ بِالدَّاءِ

« الذِي أَبْلَى الْمَرِيضَ بِالدَّاءِ وَالذِي يَرْجَى لِعَاقِبَتِهِ: هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .
وَيَدُوفُ: يَخْلُطُ . وَنَخَوْنَهُ: غَيَّرَ حَالَهُ إِلَى أَسْوَأِهَا، وَيُرْوَى: تَخَوْنَهُ وَالتَّرْيَاقُ:
الدَّوَاءُ هُنَا، وَأَهْلَاهُ: صَنَعَ بِهِ مَا يَمْتَحِنُ بِهِ وَيُخْتَبَرُ

(١) العاشق للشئ المستهام به لو أفكر في منتهى حسن المعشوق وأنه يصير إلى
زوال لم يعشقه ولم يملك عشقه إياه عليه أمره . وهذا يطرد في كل شئ .
(٢) لا بد من الفناء فالشمس من رآها طالعة علم أنها غاربة لاحالة، كذلك كل شئ .
معيده إلى الزوال .

(٣) إن الذي أفرط وجاوز الحد في السلم كالذي أفرط وجاوز الحد في الحرب،
الكل إلى فناء وإذن لا عذر لمن يجزع قال حكيم: آخر إفراط التوق أول موارد
الحتوف (٤) من خاف الموت لا أدرك حاجته، بدعو المتني على الجبان - لأنه
إذا كان الهلاك متيقناً فلم يخاف الإنسان من الموت ويجزع فزعاً منه !

وقال ابن الرومي :

غَلَطَ الطَّبِيبُ عَلَى غَلْطَةٍ مُورِدٍ عَجَزَتْ مَوَارِدُهُ عَنِ الْإِصْدَارِ
وَالنَّاسُ يَلْحَوْنَ الطَّبِيبَ وَإِنَّمَا غَلَطَ الطَّبِيبُ لِإِصَابَةِ الْمِقْدَارِ ^(١)
وقال أبو ذؤيب الهذلي :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألقيت كلّ تيممةٍ لا تنفعُ
وقال علي بن الجهم :

كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى فَتَجَا وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالْعُودُ
وقد أخذ هذا من قول عدى بن زيد :

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ثُمَّ عَادُوا مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَمُودُ
بَيْنَمَا هُمْ عَلَى الْإِسْرَةِ وَالْأَنْزِ مَا طِافُتْ إِلَى الشُّرَابِ الْخُدُودُ
ثُمَّ لَمْ يَنْقُضِ الْحَدِيثُ وَلَكِنْ بَعْدَ ذَا الْوَعْدِ كُلُّهُ وَالْوَعِيدُ
وَأَطْبَاءُ بَعْدَهُمْ لِحَقْوِهِمْ ضَلَّ عَنْهُمْ سَعُوطُهُمْ وَاللَّدُودُ
وَصَحِيحٌ أَضْحَى يَعُودُ مَرِيضًا وَهُوَ أَذْنَى لِلْمَوْتِ مِنْ يَعُودُ

« السَّعُوطُ : الدواء الذي يُؤخذ من الأنف ، واللَّدُودُ : ما يؤخذ من

الدواء بالمسقط ويصّب في أحد شقّي الفم » ، وَيُرْوَى : أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ
هَرَبَ مِنَ الطَّاعُونَ ، فَركبَ لَيْلاً وَأَخْرَجَ غَلاماً معه ؛ وكان ينامُ على دابَّتِهِ ،
فَقَالَ لِلْغَلامِ : حَدِّثْنِي ، فَأَقْلَ وَمَنْ أَنَا حَتَّى أَحْدِثَ لَكَ ؟ فَقَالَ : عَلَى كُلِّ حَالٍ حَدِّثْ
حَدِيثاً سَمِعْتَهُ ، فَقَالَ : بَلْغَنِي : أَنَّ ثَمَلِيّاً يَخْدُمُ أَسَدًا لِيَحْمِيَهُ وَيَمْنَعَهُ مِنْ يُرِيدُهُ
فَكَانَ يَحْمِيهِ ، فَرَأَى الثَّعْلَبَ عُقَاباً ، فَجَأَ إِلَى الْأَسَدِ ، فَأَقْعَدَهُ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَانْقَضَ
الْعُقَابُ وَاخْتَلَسَهُ ، فَصَاحَ الثَّعْلَبُ : يَا أَبَا الْحَارِثِ ، أَغْنَيْ وَأَذْكَرْ عَهْدَكَ لِي

(١) يلحون : يلومون ، والمقدار : القدر

فقال الأسد: إنما أقدر على منعك من أهل الأرض، وأما أهل السماء فلا سبيل لي إليهم، فقال عبد الملك: وَعَظَّمْتَنِي وَأَحْسَنْتَ، انصرف ورَضِيَ بالقضاء....

ولمناسبة الحرب من الطاعون نورد هنا ما أوردنا نظيره في قولنا على التوكل، وهو أن عُمر بن الخطاب رضوان الله عليه لما بلغه أن الطاعون وقع بالشام فانصرف بالناس: قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عبيدة! نعم تَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قدر الله؛ أَرَأَيْتَ لو أَنَّ لَكَ إبلاً هَبَطَتْ بِهَا وادياً له جِهَتَانِ إحداها خصيبة والأخرى جديبة، أَلَيْسَ لو رَعَيْتَ في الخصيبة رَعِيَّتَهَا بقَدَرِ الله، ولو رَعَيْتَ الجديبة رَعِيَّتَهَا بقَدَرِ الله؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فأقبل، فقال: عندى في هذا عِلْمٌ سَمِعْتُهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إذا سمعتم به - بالطاعون - في أرض فلا تَقْدَمُوا عليها، وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تَخْرُجُوا فِرَاراً منه، فحَمِدَ الله عُمرُ ثم انصرف بالناس....

وقال المتنبي:

نُعِدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلَا قِتَالِ
وَنَرْتَبُطُ السَّوَابِقَ مُقَرَّبَاتٍ وَمَا يُنْجِيَنَّ مِنْ حَبَابِ اللَّيَالِي
وَمَنْ لَمْ يَعْشِقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَصَالِ

والمشرفية: السيوف - والعوالى: الرماح، والمنون: الموت، والسوابق جمع سابق وسابقة، والمقربات من الخيل هي الكرام التي ترتبط لكرامتها على أصحابها أو لفرط الحاجة إليها والخب: عدو ولا يستفرغ الجهد؛ يقول المتنبي: نحن نُعِدُّ السُّيُوفَ وَالرِّمَاحَ لِمُنَازَلَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُدَافَعَةِ الْأَقْرَانِ: وَالْمَوْتُ يَخْتَرِمُ نَفُوسَنَا

دُونِ قِتَالٍ أَوْ نِزَالٍ ، لَا يُمَكِّنُنَا حِذَارُهُ وَلَا يَتِيأُ لَنَا دِفَاعُهُ ، ثُمَّ قَالَ فِي الْبَيْتِ
الثَّانِي : وَنَرْتَبِطُ الْخِيُولَ الْكَرِيمَةَ وَمَعَ هَذَا لَا تُنْجِينَا مِنْ طَلَبِ الدَّهْرِ لِإِيَانَا
وَحَبَبِ لِيَالِيهِ فِي آثَارِنَا :

كَأَنَّا فِي حُرُوبٍ مِنْ حَوَادِثِهِ فَتَنَحُّنُ مِنْ بَيْنِ مَجْرُوحٍ وَمَطْعُونٍ
وَقَدْ تَقْدُمُ مَعْنَى الْبَيْتِ الثَّلَاثِ .

موت الفجاءة والصحيح يموت

قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَاتَ فُلَانٌ أَصَحَّ مَا كَانَ ! فَقَالَ : أَوْ صَحِيحٌ مَنِ الْمَوْتُ
فِي عُقْفِهِ ! وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : اللَّهُمَّ أَجِرْنِي مِنْ أَنْ أَكُونَ
مُخْتَلِسًا « أَيْ يُخْتَلِسُهُ الْمَوْتُ عَلَى غَفْلَةٍ » ، وَفِي الْحَدِيثِ : بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ مَرَضًا
حَاسِبًا أَوْ مَوْتًا خَالِسًا ، وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : كَيْفَ مَاتَ أَبُوكَ ؟ قَالَ : مَاتَ سِرًّا
« أَيْ بَجَافَةٍ » ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

رُبَّمَا عُوقِصَ ذُو غِرَّةٍ أَصَحَّ مَا كَانَ وَلَمْ يَسْلَمْ
« يَقَالُ : غَافِصَ الرَّجُلُ مُغَافَصَةً وَغِفَافًا . أَخَذَهُ عَلَى غِرَّةٍ فَرَكِبَهُ بِمَسَاءَةٍ » ،
وَقِيلَ لِرَجُلٍ : مَا كَانَ سَبَبُ مَوْتِ فُلَانٍ ؟ قَالَ : كَوْنُهُ « أَيْ وَجُودُهُ » ، وَالْبَيْتُ
الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بغيرِهِ تَنَوَّعَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

كل إنسان معرض لموته أو موت أحبته

قَالَ حَكِيمٌ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ رَأَى الْمَصَائِبَ فِي إِخْوَانِهِ وَجِيرَانِهِ ، وَمَنْ قَصُرَ
عُمُرُهُ كَانَتْ مَصِيبَتُهُ فِي نَفْسِهِ ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

فُمُوجِّلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي أَهْلِهِ وَمُعْجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي نَفْسِهِ
وقال يزيد بن الحكم الثَّقَفِيُّ :

كُلُّ امْرِئٍ سَتَنِيْمٌ مِنْهُ الْعِرْسُ أَوْ مِنْهَا يَنْيَمُ
« العرس : الزوجة ، وآمت المرأة من زوجها تَنْيَمُ وتَأَيَّمَتْ مات عنها
زوجها أو قُتِلَ وأقامت لا تتزوج ، وكذلك الرجل ، »

جهل الإنسان بوقت موته

قال الله جل شأنه : وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وما تَدْرِي
نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ... وقيل لجعفر بن محمد بن علي رضي الله عنهم :
كيف يأتي الموت من وجوه شتى ، على أحوال شتى ؟ فقال : إن الله أراد أن
لا يُؤْمَنَ في حال ... وقالوا : أمرٌ لا تَدْرِي متى يغشاك ألا تَسْتَعِدُّ له قبل
أن يَفْجَأَكَ ! وقال ديك الجن ^(١)

والنَّاسُ قَدْ عَمِلُوا أَنْ لَا بَقَاءَ لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا مِقْدَارَ مَا عَمِلُوا

الموت يسوي بين الأفاضل والأراذل

قال المتنبي في رثائه أبا شجاع فاتكا :

(١) هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن من شعراء الدولة
العباسية ولد سنة ١٦١ هـ وتوفي سنة ٢٣٦ هـ ومن قوله في الخمر وقد أعجب به
أبو نواس :

ظَلَّلْنَا بِأَيْدِينَا نَتَمَتِّعُ رُوحَهَا فَتَأْخُذُ مِنْ أَقْدَامِنَا الرَّاحُ نَارَهَا
مُورَّدةً مِنْ كَفِّ ظَنِّي كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ خَدِّهِ فَأَدَارَهَا

وَصَلْتُ إِلَيْكَ يَدُ سَوَاءٍ عِنْدَهَا أَلْبَازُ الْأَشْهَبُ وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ

«الباز الأشهب : الذي غَلَبَ عليه البياض ، والأبقع : الذي في صدره بياض يقول المتنبي : وصلت إليك يدٌ - يريد المنيّة - الشريف والوضيع لديها سواء ، فعلمها مع الباز الأشهب مع كرمه كفضلها بالغراب الأبقع مع قبحه ودمايته ، وهذا على المثل » ... وَيُرْوَى أَنَّ الْإِسْكَندَرَ الْمَقْدُونِيَّ مَرَّ بِمَدِينَةٍ قَدْ مَلَكَهَا غَيْرُهُ مِنَ الْمُلُوكِ ؛ فَقَالَ : انْظُرُوا هَلْ بَقِيَ بِهَا أَحَدٌ مِنْ نَسْلِ مُلُوكِهَا ؟ فَقَالُوا : رَجُلٌ يَسْكُنُ الْمَقَابِرَ ، فَأَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنْ إِقَامَتِهِ هَذِهِ ؛ فَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ أُمَيِّزَ عِظَامَ الْمُلُوكِ مِنْ عِظَامِ عِبِيدِهِمْ فَوَجَدْتُهَا سَوَاءً ، فَقَالَ : هَلْ تَتَّبِعُنِي فَأُحْيِيَ لَكَ شَرَفَكَ إِنْ كَانَ لَكَ هِمَّةٌ ؟ فَقَالَ : هِمَّتِي عَظِيمَةٌ إِنْ أَنَا تَنَبَّيْتُهَا ، فَقَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَ : حَيَاةٌ لَا مَوْتَ مَعَهَا ، وَشَبَابٌ لَا هَرَمَ مَعَهُ ، وَغِنَىٌ لَا فَقْرَ مَعَهُ ، وَسُرُورٌ لَا مَكْرُوهَ فِيهِ ، فَقَالَ : لَيْسَ عِنْدِي هَذَا ، فَقَالَ : دَعْنِي أَتَمَتِّسَهُ بِمَنْ هُوَ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ حَكِيمًا ؛ ... وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ : قَدِمَ عَلَيْنَا بِشْرُ بْنُ مُرْوَانَ أَخُو الْخَافِظَةِ - عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُرْوَانَ - فَطُعِنَ - أَصَابَهُ الطَّاعُونَ - فَمَاتَ فَأُخْرِجَنَاهُ إِلَى الْقَبْرِ ، فَلَمَّا صِرْنَا إِلَى الْجَبَانِ - الْجَبَانَةِ - إِذَا نَحْنُ بِسُودَانٍ يَحْمِلُونَ صَاحِبًا لَهُمْ إِلَى الْقَبْرِ ، فَدَفَنَاهُ وَدَفَنُوا صَاحِبَهُمْ ، فَعُدْتُ قَبْلَ الْأَسْبُوعِ فَلَمْ أَعْرِفْ قَبْرَ الْأَسْوَدِ مِنْ قَبْرِهِ ؛ وَفِي هَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ :

ولقد مررتُ على القبور فما ميزتُ بين العَبْدِ وَالْمَوْلَى

وقال صالح بن عبد القدوس :

فيامنزلًا سوى البلى بين أهله فلم يستبين فيه الملوك من السوق

انقضاء ناس بعد ناس

ورجوعهم إلى الموت

قال عليّ كرم الله وجهه : إنّ لله في كلّ يوم ثلاث عساكر : عسكر ينزل من الأضلاب إلى الأرحام ، وعسكر ينزل من الأرحام إلى الأرض ، وعسكر يقتلون من الدنيا إلى الآخرة ؛ ^(١) وقال الشاعر :

وما نحن إلا رفقة غير أننا أقمنا قليلا بعدهم ونروح

وقال آخر :

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنبها فقتل صديقا والبلاد كما هيّا

وقال : * أرى الأرض تبقى والإخلاء تذهب *

وقيل للبهلول ^(٢) - وقد أقبل من الجبّان - : من أين ؟ فقال :

من عسكر الموتى ، فقبل ما قلت وما قالوا ؟ فقال : سألتهم : متى يرحلون ؟

فقالوا : ننتظر قدر مكم ثم نرحل ... وررّوا : أن راهبين دخلا البصرة

من ناحية الشام فنظروا إلى الحسن البصري ، فقال أحدهما : ملّينا إلى

هذا الذي كان سمته سمّ المسيح ، فعذلا إليه ، فألفياه مفترشا بدقته ظاهر

كفه وهو يقول : يا عجبا ^(٣) لقوم قد أمرؤا بالزاد وأذنوا بالرحيل ، وأقام

(١) العسكر : الجماعة من كل شيء يقال : عسكر من رجال ومن خيل

(٢) كان البهلول هذا مجنونا يمرورا وكان ظريفا وكان يتشيع ، قال له قائل : اشم

فاطمة وأعطيك درهما فقال . بل أشم عائشة وأعطني نصف درهم اومز به بعضهم

وهو يأكل خبيصا ، فقال له : أطمعني ، فقال : ليس هو لي ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة

بعته إلى لآكله لها ...

(٣) يا عجبا : لك أن تقرأه بالتووين وبدونه أما بدونه فإنه يريد : يا عجبي قلب يا المتكلم

أولهم على آخرهم ، فليْتَ شعري ماذا ينتظرون ! وفي رواية أخرى هذه الزيادة بعد قوله : وأقام أولهم على آخرهم : وآخرهم قُعود يلعبون « قوله : أمروا بالزاد يعنى زاد الآخرة ، وهو العمل الصالح ، وقوله : وأذنوا بالرحيل : أذنوا : أعللوا ، والرحيل يريد به الموت ، وقوله : وأقام أولهم على آخرهم : أعلله يريد : أن أولهم يرضى فعل آخرهم فلم يُنكر عليه ، ولعله يريد أن موت أولهم كان يجب أن يكون عبرة لآخرهم ، ومن المشهور في هذا آيات قُس بن ساعدة الايادى :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائرُ
لما رأيتُ مَوارِدًا للموتِ ليس لها مَصَادِرُ
ورأيتُ قومي نحوها يَمُضِي الأصاغرُ والأكابرُ
لا يَرْجِعُ الماضي إلى ولا من الباقيين غابرُ
أيقنتُ أنى لاحما لة حيث صار القومُ صائرُ

« في الذاهبين : متعلق ببصائر في آخر البيت ، وبصائر : عبر ، والقرون جمع قرن والقرن من الناس : أهل كل زمان ، قال :

إذا ذهبَ القرنُ الذى أنتَ فيهِمُ وخُلِفْتَ فى قرنٍ فأنتَ غريبُ
ولعله مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان فى أعمارهم وأحوالهم ، ومن هنا اختلفوا فى تحديد القرن من الزمان فقيل : أربعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل مائة سنة ، والموارد جمع مورد وهو :

ألفاوأما بالتوين فلك أن تجعل عجبا منادى منكرا ، ولك أن تجعل دبا ، حرف تنبيه وعجبا مصدر منصوب بفعل محذوف أى تعجبوا عجباً وأن نجعل دبا ، حرف نداء والمنادى محذوف أى يا قوم ، وعجبا كذلك ...

محلُّ الورد ، أى الاتيان ، والمصادر جمع مصدر ، وهو : موضع الصدور ،
أى الانصراف والرجوع ، وغابر اسم فاعل من غَبَرَ بمعنى : مكثَ وبقي ،
وبمعنى : مضى أيضا ، فهو من الأضداد ،

من يخاف الموت ولا يستعد له

وحشهم على تعاظم ما بهون أمر الموت

جاء رجلٌ إلى سيدنا رسول الله فقال : يا ربِّ الله ، ما لى لأحِبَّ الموت ؟
فقال له : هل لك مالٌ ؟ قال : نعم ؛ قال : قدَّمه بين يديك ؛ قال : لا أُطيقُ
ذلك ، فقال سيدنا رسول الله : إنَّ المرءَ مع ماله إنَّ قدَّمه أحبَّ أن يَلْحَقَ به
وإنَّ أخرَه أحبَّ أن يتخلَّفَ معه ... وقال الحسن البصرىُّ شَيْخٌ فى جنازة :^(١)
أُتْرِى هذا الميتَ لورجع إلى الدنيا أكان يعملَ صالحا ؟ قال : نعم ، قال :
إن لم يكن ذاك فكن أنت ذاك ... وقال القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز
المرجاني :

إذا قلت لم يبلغْ بى السَّنْ مَبْلَغًا وَعِظْتُ بِطِفْلِ صَارَ قَبْلِي إِلَى التُّرْبِ
وقال على رضى الله عنه لرجل : كيف أنتم ؟ قال : نرجو ونخاف ، قال :
من رَجَا شَيْئًا طَلَبَهُ وَمَنْ خَافَ شَيْئًا هَرَبَ مِنْهُ ... وقال أبو الدرداء : العجبُ

(١) قال علماء اللغة : الجنازة بكسر الجيم : السرير محمولا عليه الميت : أما بفتح
الجيم فالميت قال أبو على الفارسى : لا يسمى جنازة - بالكسر - حتى يكون عليه ميت وإلا
فهو نعش أو سرير قال الليث : وقد جرى فى أفواه الناس جنازة بالفتح والتخارير
ينكرونها ، وقال بعضهم إن اللفظ نبطى وقال آخرون : إنه مشتق من جنز الشيء
يجنزه جنازة ستره وذكروا أن النوار امرأة الفرزدق لما احتضرت أوصت أن
يصلى عليها الحسن البصرى فقليل له فى ذلك فقال : إذا جنزتموها فأذنونى

لَمَنْ يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِإِسَاءَتِهِ وَلَا يَكْرَهُ الْإِسَاءَةَ فِي حَيَاتِهِ ... وَقَالَ رَجُلٌ
لِأَبِي الدَّرْدَاءِ : مَا بَايْنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ : لِأَنَّكُمْ أَخَّرْتُمْ آخِرَ تَكْرَمٍ وَعَمَّرْتُمْ
دُنْيَاكُمْ فَكِرِهْتُمْ أَنْ تُنْقَلُوا مِنَ الْعُمُرَانِ إِلَى الْخَرَابِ ... وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : كُلُّ
عَمَلٍ تَكْرَهُ الْمَوْتَ لِأَجْلِهِ فَدَعُهُ كَيْلًا يَخَافُ مِنْهُ مَتَى أَتَاكَ ...

من أمر ذويه بالبكاء عليه

رَوَى عَنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ : إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ... قَالَ
الْعُلَمَاءُ : أَرَادَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا وَصَّى الْمَيِّتُ بِذَلِكَ وَأَمَرَ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ
يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ، كَقَوْلِ طَرْقَةِ بْنِ الْعَبْدِ :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْتَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَى الْجَيْبِ يَا ابْنَةَ مَعْبُدٍ^(١)

وقول الفرزدق :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْتَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ فَكُلُّ جَمِيلٍ قُلْتُ فِي مَصَدَّقٍ

وقول ابن المعتز :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْتَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَلَا تَذْخِرِي دَمْعًا إِذَا قَامَ نَائِحٌ
وَقُولِي : تَوَى طُودُ الْمَكَارِمِ وَالْعَلَى وَعُطِّلَ مِيزَانٌ مِنَ الْحِلْمِ رَاجِحٌ
« تَوَى : هَلَكَ ، وَتَقَرَأ : تَوَى وَالطُّودُ : الْجَبَلُ الْعَظِيمُ ، وَالْحِلْمُ : الْأَنَاءَةُ وَالْعَقْلُ ،
وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْأَوَّلَى : أَنْ يُقَالَ فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ : سَمَاعُ صَوْتِ الْبُكَاءِ
هُوَ نَفْسُ الْعَذَابِ ، كَمَا أَنَّا نَعَذِّبُ بِبُكَاءِ الْأَطْفَالِ ، فَالْحَدِيثُ عَلَى ظَاهِرِهِ »

(١) من معلة طرفة ، ومعبد أخوه بوصى ابنة أخيه بأن تشيع خبر هلاكه إذا هو
مات - بالنساء الذي يستحقه وشق جيها عليه وبعد البيت :

وَلَا تَجْعَلِينِي كَأَمْرِئٍ لَيْسَ هُمُهُ كَهَمِّي وَلَا يُغْنِي عَنَّا نِي وَمَشْهَدِي
الهم : الهمة والطموح إلى العلا ، والغناء : الكفاية . والمشهد : الشهود أى ملازمة

لَمَّا اخْتَضِرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ جَعَلَ يَدُهُ فِي وَضْعِ الْغُلِّ الْقَتِيدِ، مِنْ عُنُقِهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا فَقَرَّطْنَا، وَنَهَيْتَنَا فَرَكَبْنَا، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَسْعُنَا إِلَّا رَحْمَتُكَ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ هَجِيرَاهُ حَتَّى قُبِضَ ... وَقِيلَ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ حِينَ اخْتَضَرَ: مَا حَالُكَ؟ فَقَالَ: مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلا زَادٍ، وَيَنْزِلُ حُفْرَةً مِنَ الْأَرْضِ مُوَحَّشَةً بِلا مُؤْنِسٍ، وَيَقْدَمُ عَلَى مَلِكٍ جَبَّارٍ قَدْ قَدَّمَ إِلَيْهِ الْعُذْرَ بِلا حُجَّةٍ! وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ: وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ غَسَّالًا أَكُلُ كُلَّ يَوْمٍ كَسْبَ يَوْمِي لَا يَفْضُلُ عَنِّي ... فَقِيلَ ذَلِكَ لِأَبِي حَازِمٍ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا بِحَيْثُ يَتَمَنَّى الْمُلُوكُ حَالَنَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا تَتَمَنَّى حَالَهُمْ ... وَلَمَّا أَذْنَفَ^(١) الْمَأْمُونُ بْنُ الرَّشِيدِ أَمَرَ أَنْ يُفَرَّشَ لَهُ جِلٌّ — بِسَاطٌ — فَيُجْعَلَ يَتَمَرَّغُ فِيهِ وَيَقُولُ:

كل عيش وإن أطاولَ دَهرا صائرٌ مرّةً إلى أن يزولاً
 ليتنى كنتُ قبلَ ما قدّ بَدَّ إلي في رؤيُن الجبال أرعى الوُءولاً^(٢)
 وأُعْمى عليه ثم أفاق وهو يقول :

اللهم لا تبرئني فاعتذر ولا قوي فأتصر

ثم أغشى عليه فلما أفاق قال :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدِكَ لَا أَمَّا^(٣)

الحروب والوقائع (١) أدنف المريض : ثقل مرضه ودنا من الموت.

(٢) الشعر لامية بن أبي الصلت . والوعول : جمع وعل : تيس الجبل

(٣) لامية بن أبي الصلت كذلك وألم الرجل من اللعم وهو مادون الكبار من

الذنوب قال سبحانه : الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم وقيل : اللمم : أن يلم المرء بالمعصية ولم يصر عليها

وقال أبو جعفر المنصور عند موته : اللهم إن كنت تعلم أني قد ارتكبتُ
الأمورَ العِظامَ جُرْأَةً مَنَى عَلَيْكَ ؛ فإنك تعلم أني قد أظفقتك في أحبِّ الأشياءِ
إليك : شهادة إن لا إله إلا أنت ، مِنَّا مِنكَ لَامَنَّا عَلَيْكَ ... وكان سببُ إحرامِهِ
من الحضراء أنه كان يوماً نائماً فأتاه آت في منامه فقال :

كَأَنِّي بِهَذَا الْقَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ وَعُرِّيَ مِنْهُ أَهْلُهُ وَمَنَازِلُهُ
وَصَارَ عَمِيدُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِ نِعْمَةٍ إِلَى جَدَثٍ تُثْنِي عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا رَشْمُهُ وَحَدِيثُهُ تُبْكِي عَلَيْهِ مَعُولَاتِ حِلَالَتِهِ^(١)
فاستيقظ مرعوباً ثم نام فأتاه الآتي فقال :

أَبَا جَعْفَرٍ حَانَتْ وَفَاتَكَ وَانْقَضَتْ سِنُوكَ وَأَمْرُ اللَّهِ لَا بَدَّ وَاقِعُ
فَهَلْ كَاهَنُ أَعَدَدْتَهُ أَوْ مُنْجِمٌ أَبَا جَعْفَرٍ عَنْكَ الْمَنِيَّةُ دَافِعُ
فقال : ياربِّعْ اتَّقِنِي بِطُهورِي ، فَقَامَ وَانْتَغَسَلَ وَصَلَّى وَلَبَّى وَتَجَهَّزَ لِلْحَجِّ ،
فلما صَارَ فِي الثُّلُثِ الْأَوَّلِ اشْتَدَّتْ عَاتِيهِ ، فجعل يقول : ياربِّعْ أَفْقِنِي فِي حَرَمِ
اللَّهِ ، فمَاتَ بِبَيْتِ مِيمُونَ^(٢) ... وقالوا : أَقْنِ مَيِّتَكَ - أَيْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - فَإِذَا
فَالَهَا فَدَعْنَاهُ يَتَكَلَّمُ بِغَيْرِهَا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَلَا تُضْجِرْهُ .

من امتنع من التوبة عند موته

اغْتَلَّ أَعْرَابِيٌّ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ تُبَّتَ ، فَقَالَ : لَسْتُ مِنْ يُعْطَى عَلَى الذَّلِّ ،

(١) تبكى - بالتشديد - مثل تبكى بالتخفيف ، وحلالتها : زوجاته ، ومعولات : رافعات
أصواتهن بالكاء .

(٢) بئر ميمون : بمكة منسوب إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمي .

إن عافاني الله تُبْتُ وإلا مِتْ هكذا ... وقيل للحجاج : ألا تتوب ؟ فقال :
 « إن كنتُ مسيئاً فليستْ هذه ساعة التَّوبَةِ ، وإن كنتُ مُحسناً فليستْ ساعة الفَرْعِ
 » الفرع : الاستغاثة والاستصراخ ، ولعله يريد : أن وقت الموت ليس وقت
 الحساب والمجازاة وإنما ذلك يوم الفرع الأكبر - يوم البعث - ولعل المعنى :
 مادمت محسناً فليس تمت دواعي للخوف ،

من يحبون الموت

قال عبد الله بن مسعود : ما من نفسٍ حيَّةٍ إلَّا والموتُ خيرٌ لها ، إن كان
 برا فإن الله تعالى يقول : وما عند الله خيرٌ للأبرار ، وإن كان فاجرا فإن الله
 تعالى يقول : وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا يُنْمِلُ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِي
 لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، ولهم عذابٌ مُّهِينٌ ^(١) وحضر أحد الصالحين الموت ، ففرَّح
 فقيل له : تستبشرُ بالموت ؟ فقال : أنجعلون قدومي على خالق أرجوه كقاضي
 على مخلوق أخافه ! وسُئِلَ حكيم عن الموت ، فقال : هو فَرْعُ الأغنياء وشهوةُ
 الفقراء ... وقال بعضهم : لا يكون الحكيم حكيماً حتى يعلم أن الحياة تُسْرِقُهُ
 والموت يُعَيِّقُهُ .. وقال المتنبي :

تَغْرُ حَلَاوَاتُ النُّفُوسِ قُلُوبَنَا فَمَخْتَارُ بَعْضِ الْعَيْشِ وَهُوَ حِمَامُ
 « يقول المتنبي : حُبُّ الحياة يغرُّ القلب حتى يختار عيشاً فيه ذل :

(١) قرئ : ولا تحسبن على أنه خطاب للرسول عليه السلام وقرئ ولا يحسبن
 فالذين فاعل وما في إنما نمل لهم مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت
 متصلة في الإمام - المصحف العثماني - فاتبع ، والإملاء : الإمهال وإطالة العمر ؛ وقيل .
 تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء ، واللام
 في قوله سبحانه ليزدادوا إنما لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة

وَشَرَّ الْحَامِينَ الزَّوَامِينَ عَيْشَةً يَذِلُّ الذِّي يَخْتَارَهَا وَيَضَامُ ،
وقال أيضا :

وما الدهرُ أهلٌ أنْ تُؤمَلَ عندهُ حياةٌ وأنْ يُشتاقَ فيه إلى النَّسْلِ
« وقد تقدم » وفي هذه القصيدة يقول المتنبّي :

نُبْكَى مَوْتَانَا عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ تَفُوتُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا مَوْهَبٍ جَزَلٍ
إِذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزَّمَانَ وَصَرَفَهُ تَبَيَّنَتْ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرْبٌ مِنَ الْقَتْلِ

« يقول : نحن نبكى على موتانا ونحزن لهم ونأسف لفراقهم ونحن على يقين من أنهم لا يفوتهم من الدنيا ما يُرغَبُ في مثله ولا يتمتعون منها بما يصح أن يتنافس في نيله ؛ ثم قال في البيت التالى : وأنت إذا ماتا تأملت وأنعمت النظر في تصاريف الدهر وخطوبه تبين أن الموت المحتوم على المرء كالذى يتوقعه من القتل وإذن لا داعى للجبن والذعر ولا موجب لحُب الحياة والتهافت عليها قال عنترة :

فَأَجَبْتُهَا : إِنَّ الْمَيِّتَةَ مَمْنَهُلٌ لَا بُدَّ أَنْ أَسْقَى بِذَلِكَ التَّمْنَهُلِ

فَأَقْبَى حَيَاةَكَ لَا أَبَالِكَ وَأَعْلَى أُنَى أَمْرٍ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أَقْتُلِ

« فَأَقْبَى خبائك : فالزيمه واحفظيه واتخذيه قنیه ، وقال الإمام الجنيّد : مَنْ كَانَ حَيَاتُهُ بِنَفْسِهِ يَكُونُ تَمَاتُهُ بِذَهَابِ رُوحِهِ ، فَتَضَعُبُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ حَيَاتُهُ بِرَبِّهِ فَإِنَّهُ بِلَتَقَلُّ مِنْ حَيَاةِ الطَّيْعِ إِلَى حَيَاةِ الْأَصْلِ ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ .

تمنى الموت

قال أعرابي : خيرٌ من الحياة ما إذا فَقَدْتَهُ أَبْعَضْتَ لِفَقْدِهِ الحَيَاةَ ، وَشَرُّ

من الموتِ ما إذا نزلَ بكَ أَحَبَبْتَ لنزولِهِ الموتَ ... وقال المتنبي :
 كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
 تَمَنِّيَتَاهُمَا تَمَنِّيْتُ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَا أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا
 وقال المَهَلَّبِيُّ الوزير ^(١) :

أَلَا مَوْتُ يُسَاعُ فَأَشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعِيشَ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
 أَلَا مَوْتُ لَذِيذُ الطَّعْمِ يَأْتِي يُخَلِّصُنِي مِنَ الْعِيشِ الْكَرِيهِ
 إِذَا أَبْصَرْتُ قَبْرًا مِنْ بَعِيدٍ وَدَدْتُ لَوْ أَنَّي مِمَّا يَلِيهِ
 أَلَا رَحِمَ الْمُهَيِّمِينَ نَفْسَ حُرٍّ تَصَدَّقَ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ
 وَاعْتَلَّ الشُّبْلِيُّ ثُمَّ بَرَأَ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ كَيْفَ أَنْتَ : فَقَالَ :
 كُلَّمَا قُلْتُ : قَدْ دَنَا حُلَّ قَيْدِي قَدَّمُونِي وَأَوْثَقُوا الْمِسَارَا

الحياة لاتمل

قال حكيم : الحياةُ وإنْ طالتْ لَا تُمَلُّ ، وإنَّمَا يَمَلُّ المرءُ تكاليفَ الحياةِ ،

(١) كان وزير معز الدولة البويهى ، وكان أديباً فاضلاً محباً لأهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة فى ضيق شديد وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره مشقة عظيمة واشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال هذه الايات ارتجالاً ، وكان معه رفيق يسمى عبدالله الصوفى فلما سمع الايات اشترى له بدرهم لحماً وطبخه وأطعمه وضرب الدهر من ضرباته وافترقا حتى تولى المهلبى الوزارة وضاعت الاحوال برفيقه هذا فقصده وكتب إليه :

أَلَا قُلْ لِلْوَزِيرِ فَدَتَهُ نَفْسِي مَقَالَةٌ مُذَكِّرٌ مَاقِدَ نَسِيهِ
 أَنْ تَذْكُرَ إِذْ تَقُولُ لِنُصْنُكَ عِيشَ أَلَا مَوْتُ يُسَاعُ فَأَشْتَرِيهِ

فلما وقف على ذلك هزته أريجىة الكرم وأمر له فى الحال بسبعمئة درهم ووقع فى رقعته : مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملاً يرتفق به

ولهذا فُضِّلَ قولُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ :

سَيِّمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالِكَ يَسَامُ

على قول لبيد :

ولقد سَيِّمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا وَسُؤَالَ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبِيدُ

« تَكَالِيفُ الْحَيَاةِ : مَشَاقُّهَا وَشِدَائِدُهَا ، أَمَا لَبِيدُ فَإِنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ مَعْذُورًا إِذَا هُوَ مَلَّ الْحَيَاةَ نَفْسَهَا وَلَمْ لَا وَقَدْ عُمِّرَ حَتَّى بَلَغَ ثَلَاثِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ ؟ » وَقَالَ الْمُنَبِّي :

وَلَذِيذُ الْحَيَاةِ أَنْفُسُ فِي النَّفْسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُبْمَلَ وَأَحْلَى

وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفِي فَا مَ لٌ حَيَاةً وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلَأَ

آلَةَ الْعَيْشِ صَحَّةً وَشَبَابُ فَإِذَا وَلَّيَا عَنِ الْمَرِءِ وَلَّى

« وَقَدْ تَقَدَّمَتْ » وَدَخَلَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَسْجِدَ دِمَشْقَ ، فَرَأَى

شَيْخًا ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، أَبُشِّرْكَ أَنْ تَمُوتَ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، قَالَ : وَلَمْ وَقَدْ

بَلَغْتَ مِنَ السَّنِّ مَا أَرَى أَقَالَ : مَضَى الشَّبَابُ وَشُرُّهُ ، وَبَقِيَ الشَّيْبُ وَخَيْرُهُ ،

فَأَنَا إِذَا قَعَدْتُ ذَكَرْتُ اللَّهَ ، وَإِذَا قُمْتُ حَمِدْتُ اللَّهَ ، فَأُحِبُّ أَنْ تَدُومَ لِي

هَاتَانِ الْحَالَتَانِ ...

تسلي الناس عمن مات

قالوا : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظَرَ النَّاسَ مِنْ بَعْدِكَ فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ مَنْ مَاتَ

قَبْلَكَ ... وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

سَيُعْرِضُ عَنْ ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلْخَلِيلِ خَلِيلُ

وَقَالَ مَنْصُورُ الْفَقِيهِ : ^(١)

(١) هُوَ أَبُو الْحَسَنِ مَنْصُورُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَمْرِو التَّمِيمِيِّ الْفَقِيهِ الْمَصْرِيُّ الشَّافِعِيُّ

كلُّ مذكورٍ من النَّاسِ إِذَا مَا فَقَدُوهُ
صَارَ فِي حُكْمِ حَدِيثٍ حَفِظُوهُ فَلَسُّوهُ

وقال آخر :

هَالُوا عَلَيْهِ الثَّرْبُ ثُمَّ انْتَبَهَوْا عَنْهُ وَخَلَّوْهُ وَأَعْمَالَهُ
لَمْ يَنْقُضِ النَّوْحُ مِنْ دَارِهِ عَلَيْهِ حَتَّى انْقَسَمُوا مَالَهُ
سهم المنايا بالذخائر مولع

قال أبو تمام ^(١)

عليك سلامُ اللهِ وَقَفًّا فَإِنِّي رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمُرٌ
وقال من أبيات يرثي بني حميد أيضا :

إِنْ يَنْتَحِلْ حَدَثَانُ الْمَوْتِ أَنْفَسَكُمْ وَيَسْلُمُ النَّاسُ بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْعَطَنِ
فَالْمَاءُ لَيْسَ عَجِيْبًا أَنْ أَعَذَّبَهُ يَفْنَى وَيَمْتَدُّ عُمرُ الْآجِنِ الْآسِنِ
وقال ابن النبية المصري من أبيات مختارة نوردها عليك :

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَحِيلِ الطَّرَادِ فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الْجَوَادُ

الضرير، كان قسيها شافعيًا وكان أديبا شاعرا متقنا توفي بمصر سنة ٤٣٠ هـ ومن شعره السائر:

لِي حِيلَةٌ فِيمَنْ يَنْمُ وَلَيْسَ فِي الْكَذَّابِ حِيلَةٌ
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَكُونُ وَلِخَيْلِي فِيهِ قَلِيلُهُ
ومنه : إِذَا تَخَلَّفْتَ عَنْ صَدِيقٍ وَلَمْ يُعَايَنْكَ فِي التَّخَلُّفِ
فَلَا تُعَذِّبْ بَعْدَهَا إِلَيْهِ فَإِنَّمَا وَدَّهِ تَكْلُفُ

(١) من مرثيته التي يرثي بها محمد بن حميد الطوسي وأولها :

كَذَا فَلْيَجْلِ الْخَطْبُ وَلْيَفْتَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَا وَهَّاهَا عُذْرُ

والله لا يدْعُو إلى داره إلا من استصاح من ذى العباد
والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد
والمرء كائظ، ولا بد أن يزول ذاك الظل بعد امتداد
لا تصلح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجساد هذا الفساد
أرغمت يا موت أنوف القنا ودُست أعناق السيوف الحداد
وقال شاعر:

فلا تجزعن من موته وهو نائث ولا ينكرن هذا من جرب الدهر
فكل طويل المجد يقصر عمره كذلك سباع الطير أقصرها عمرا

إنكارهم السماتة في الموت

قال عدى بن زيد العبادي :

أيها الشامت المعير بالدهر إر أنت المبرأ الموفور
أم لذيالك العهد الوثيق من الأيا م بل أنت جاهل مغرور
« وقد تقدمت هذه الآيات ... » وقال شاعر :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
ولما مات الحسن بن علي بن طالب رضى الله عنهما دخل عبد الله
ابن عباس على معاوية ، فقال له معاوية : يا ابن عباس ، مات الحسن بن علي ؟
قال : نعم ، وقد بلغتني مجودك ، أما والله : ما سدَّ جثمانه حفرتك ، ولا زاد

= وقول أبي تمام : إن ينتحل البتين . فينتحل : يأخذ النفوس نحلة أى عطية ، ولك
أن تقرأها ينتحل ، والعطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والآجن : الماء المتغير الطعم
واللون ومثله الآسن

انقضاء أجله في عمره ، قال : أحسبه ترك صنيعة صغاراً ولم يترك عليهم كثير معاش ؟ فقال : إن الذي وكلهم إليه غيرك ، ... وقال الفرزدق :

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفْقُوا سَيَلَقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

وحكى المبرد عن بعضهم : أنه شهد رجلاً على قبرٍ ودو يُكثرُ البكاء ، فقلت : أعلَى قريبٍ أو على صديق ؟ فقال : أخض منهم ، قد كان لي عدواً ، فخرج إلى الصيد ، فرأى ظبياً فتبعه ، فعدَّ بالسهم ، فخرَّ هو والظبي ميتين ، فدُفِنَ ، فانتبهتُ إلى قبره شامتاً به ، فإذا عليه مكتوبٌ :

وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُهُمْ غَيْرَ أَنَّا أَقْمَنَا قَلِيلاً بِعَدَمِهِمْ وَتَرَحَّلُوا

فها أنا ذا واقفٌ أبكى على نفسي ... ولما مات الفرزدق بكى عليه جريروثائه ، فقيل له : أبعد تلك العداوة ! فقال : لم أر اثنين بلغا الغاية ومات أحدهما إلا ولحقه الآخر عن كسب ، فكان كذلك ... وقال سيدنا رسول الله : لا تُظهر الشماتة لآخيك فيما فيه الله وبيتليك - أقول : يبدو أن الشماتة - وهي أن تفرح بالبتية تنزل بمن يُعاديك - من الغرائز الإنسانية اللئيمة ، ومن ثم لم ينه سيدنا رسول الله عن كونها - وجودها - وإنما نهى عن إظهارها ، لأن ذلك هو الذي في استطاعة المرء ، مثلها مثل الحسد والظن والطيرة ، ولذلك ورد في الأثر أيضاً : إذا ظننتم فلا تحققوا ، وإذا حسدتم فلا تبغوا ، وإذا تطيرتم فاضوا ، وعلى الله فتوكلوا .. يقول صلوات الله عليه : إذا حسدتم : أى تنيتم زوال نعمه الله على من أنعم عليه فلا تتعدوا وتفعلوا ما يقتضيه هذا الخلق الذميم ، وإذا ظننتم سوء بمن ليس محلاً لسوء الظن به فلا تتحققوا ذلك باتباع وارده والعمل على مقتضاه . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، والظن أكذب الحديث : ومن أساء الظن في غير موضعه دلَّ على عدم

استقامته في نفسه كما قال المتنبي :

إذا ساءَ فِعْلُ المرءِ ساءَتْ ظَنُونُهُ وصدق ما يعتاده من تَوَهُّمٍ
أما من كان مَظَنَّةً للظن ، بأن كان رجلا شريرا فالحزم سوء الظن
والاحتراس والحذر ، ثم قال صلوات الله عليه : وإذا تشاءمتم بشيء فامضوا
طَبَائِعَكُمْ ولا يلتفت خاطركم لذلك وسيمر عليك كل هؤلاء في كتاب
طبائع المذمومة ، ... وما يتصل بما نحن فيه من الشبهة بالميت ما يروى :
انه لما أتى عبد الله بن الزبير خبر قتل مُصْعَبِ أخيه احتجب أياما ، فُخِبَ
بمجيء قومٍ للتعزية ، فقال : أكرهُ وجوها تُعزى ألسنتها وتُشمت قلوبها .

لا عار بالموت

قالت ليلي الأخيلية :

لعمرك ما بالموت عارٌ على امرئٍ إذا لم تُصبه في الحياة المعابر
« المعابر : المعايير والمساب يقال : عازه : إذا عابه ، وتعابر القوم : عَبرَ بعضهم بعضا »

الموت نهاية كل حي

قال أبو بكر العنبري : كنتُ قاعدا في الجامع فمر بي معنوه فأقبل
عليّ وقال :

فَهَبْكَ مَلَكَتْ هَذَا النَّاسُ طُرَا ودانَ لَكَ العبادُ فسكان ماذا
أَلَسْتَ تَصِيرُ فِي الحَدِّ وَيَحْوِي تُرَائِكَ عَنْكَ هَذَا نَمَّ هَذَا
وقال الشاعر :

هَبْكَ قَدْ نَلْتَ كُلَّ مَا تَحْمِلُ الْأَرْضُ ضُفْ قَهْلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا الْمَنِيَّةُ

وقال القائل :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابٍ ^(١)

وصية الميت

قالوا : كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ وَلَا تَجْعَلِ الرِّجَالَ أَوْصِيَاءَكَ ، وَأَعْلَمْ صَدَقَ

(١) جاء في الخزانة للإمام البغدادى ما خلاصته : هذا المصراع - لدوا للموت وابنوا للخراب - هو من أبيات في الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب وهى :

عَجِبْتُ لِمَ جَازِعَ بِكَ مُصَابٍ بِأَهْلٍ أَوْ حَبِيبٍ ذِي اكْتِشَابٍ

شَقِيقِ الْجَيْبِ دَاعَى الْوَيْلِ جَهْلًا كَأَنَّ الْمَوْتَ كَالشَّيْءِ الْعُجَابِ

وَسَوَى اللَّهِ فِيهِ الْخَلْقَ حَتَّى نَبَى اللَّهِ عَنْهُ لَمْ يُحَابِ

لَهُ مَلِكٌ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ

و نبي الله : مفعول مقدم ليحباب بمعنى يخص ، قال : ورأيت في جمهرة أشعار العرب أنه قد روى أن بعض الملائكة قال - وأورد البيت الذى أوردناه ، ثم قال : ولسابق البربرى في هذا المعنى :

فَلِلْمَوْتِ تَعَفُّوْا وَالْوَالِدَاتِ سَخَاهَا كَمَا لِلْخَرَابِ الدَّارُ تُبْنَى الْمَسَاكِينُ

هذا : وأما اللام في قولهم للموت فقد سماها الكوفيون لام العاقبة ، مثلها مثل قوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، وأنكر البصريون لام العاقبة قال الزمخشري : والتحقيق أنها لام العلة وأن التعليل فيها وارد على طريق المجاز وذلك أنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدواً وحزناً بل المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعى الذى يفعل الفعل لاجله واللام مستعارة لما يشبه التعليل كما استعير الأسد لمن يشبه الأسد . انتهى ... وسابق البربرى : هو أبو سعيد سابق بن عبد الله من موالى بنى أمية ، سكن الرقة ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وله أشعار حسنة في الزهد وليس منسوبة إلى البربرى وإنما البربرى لقب له ، والسبخال في بيته المذکور : جمع سبخلة وهى ولد الشاة من الضأن والمعز ، وقد أقام الظاهر مقام الضمير في المصراع الثانى إلا أنه باللفظ المرادف إذ الأصل : كما تبني المساكن لخرابها .

الذى يقول :

ولا يغررك من توصى إليه فقصر وصية المرء الضياع
« قصره وقصاره أن يفعل كذا : أى آخر أمره وغاية جهده هو أن يفعل
كذا » ... وقال مالك بن ضيغم : لما احتضر أبى قلنا له : ألا توصى ؟ قال :
بلى ، أوصيكم بما أوصى به إبراهيمُ بنه ويعقوب : « يا بنيَّ إن الله اصطفى
لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون » ، وأوصيكم بصلةِ الرحم وحسن
الجوار وفيل ما استطعتم من المعروف ، وأذفوني مع المساكين ...
وقيل لهرم بن حبان : أوص ، فقال : قد صدقتنى نفسى فى الحياة ، ما لى
شىء أوصى فيه ، ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل ^(١) ...

إنكارهم وصية الميت بما ليس له

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : جاء النبى صلى الله عليه
وسلم يعوذنى وأنا بمكة ، وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها ،
قال : يرحم الله ابن عَفْرَاء ^(٢) ، قلت : يا رسول الله : أوصى بمالى كله ؟ قال :
لا ، قلت : فالفطر ؟ قال : لا ، قلت : الثلث ؟ قال : فالثلث ، والثلث
كثير ، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكففون فى
أيديهم ، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة ، حتى اللقمة ترفعها إلى فى
أمرأتك ، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناسٌ ويضرَّ بك آخرون ،

(١) راجع سورة النحل ، ومن آياتها الكريمة ، الآية الأخيرة : إن الله مع الذين اتقوا
والذين هم محسنون .

(٢) هو سعد بن خولة وعفراء أمه ، وبلاحظ أن قول سعد : وهو يكره الخ
التفات من التكلم إلى الغيبة كما سيمر عليك

ولم يكن له يومئذ إلا ابنةٌ . . . رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم
 « وإليك شرح هذا الحديث الشريف : لما كان سيدنا رسول الله بمكة في
 حجة الوداع ذهب إلى سعد بن أبي وقاص - وهو الصحابي الجليل الذي
 هاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وقد شهد
 بدرا والمشاهد كلها ، وبشره الرسول بالجنة ، وهو أحد رجال الثموري الستة
 الذين رشحهم الفاروق للخلافة : وهو قائد جيوش عمر في فتح العراق ،
 ثم مات بقصره في العقيق على مقربة من المدينة سنة ٥٥ هـ بعد أن كفَّ بصره
 رضى الله عنه - أقول : لما كان الرسول بمكة ذهب إلى سعد يعود له لمرض
 اشتدَّ به حتى أشقى على الموت ، وكان سعد يكره أن يموت بالأرض التي
 هاجر منها - مكة - كما مات سعد بن خولة ^(١) فلما سمع الرسول اسم سعد
 ابن خولة من ابن أبي وقاص ترَّحم عليه ، وكان لسعد بن أبي وقاص إذ ذاك
 ابنةٌ واحدة ^(٢) ثم قال سعد لسيدنا رسول الله - كما جاء في بعض الروايات -
 إنه قد بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ، ولِي ابنةٌ واحدةٌ ، أفأوصي
 بمالِكُله ؟ قال الرسول : لا ، قل : أفأوصي بالنصف ؟ قال : لا ، قال :
 أفأوصي بالثلث ؟ قال : فالثلثُ توصي به ، والثلث كثير ، ثم قال الرسول :
 - مُبينا عن الحكمة في ترك الوصية بالكثير إلى الوصية بالقليل : إنَّ تركَ
 ورثَتِكَ أغنياءَ خيرٌ من تركهم فقراءَ يمدُّون أكَفَّهم إلى الناس مُستَجِدِّين . .

(١) من المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرا وقد توفى بمكة في حجة الوداع
 وأمه عفراء كما تقدم

(٢) أما بعد أن برئ من هذا المرض بفضل دعوة الرسول فقد عاش كثيرا كما
 قلنا ورزقه الله من الذرية بضعة عشر ابنا واثنًا عشرة بنتا

ثم بين الرسول أن كل ما يُنفقه على زوجه أو ولده أو أقاربه أو خَدَمه صدقة ولو كان قليلا، حتى اللقمة يرفعها إلى فم امرأته، يريد صلوات الله عليه: أن المرء إن استقل أمر الوصية بالثلث أو مادونه فليستكثره بالإِنفاق، والأقربون أول بالمعروف، فإن امتدت به الحياة فليُسلِّك هذا الطريق، ثم رجا له الرسول أن يبرأ وتطول حياته ويرتفع شأنه حتى ينتفع به أناس. ويستضر به آخرون، وقد تحقق هذا كله حتى عزَّ به الإسلام. هذا الوصية بالثلث فأقل قد استقر عليه الإجماع إذا كان هناك ورثة واختلفوا فيمن ليس له وارث «راجع كتب الفقه»... وعن أبي هريرة: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدق وأنت صحيحٌ حريصٌ تأملُ الغنى وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا... وفي الأثر أيضاً: مثل الذي يُعتق ويتصدق عند موته، مثل الذي يهدي إذا شبع... وقال بعض الصالحين عن بعض المترفين: يعصون الله في أموالهم مرتين، يبتخلون بها وهي في أيديهم - يعني في الحياة - وبسرفون فيها إذا خرجت من أيديهم - يعني بعد الموت.

من أوصى بِشَرٍّ وكان قاسيا

لما حضرت الحظيئة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مليكة: أوص؛ فقال: وَيْلٌ لِلشَّعْرِ مِنْ رَاوِيَةِ الشَّوْءِ؛ قالوا: أوص رحمك الله يا حطِيءُ قال: مَنْ الذي يقول:

إِذَا أَنْبَضَ^(١) الرامون عنها تَرَنَّمَتْ تَرَنَّمَ تَكَلَّى أَوْجَعَتْهَا الْجَنَازُ؟

(١) أنبض القوس وأنضها: جذب وترها لتضوت

قالوا : الشَّيْخُ ؛ قال : أبلغوا غَطَفَانُ أنه أشعرُ العرب ؛ قالوا : وَيَحْكُ !
أهذه وصية أُرِصَ بما ينفعك ! قال : أبلغوا أهلَ ضَابِي^(١) أنه شاعرٌ
حيث يقول :

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيدٍ
قالوا : أُرِصَ ويحك بما ينفعك ! قال : أبلغوا أهلَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ أنه
أشعرُ العرب حيث يقول :

فِيَاللَّكَ مِنْ لَيْلٍ كَانَ نَجْوَمُهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلُ سُدَّتْ بِيذْبُلٍ^(٢)
قالوا : إِنِّي اللَّهُ وَدَعْتُ عَنْكَ هَذَا ؛ قال : أبلغوا الْأَنْصَارَ أَنَّ صَاحِبَهُمْ^(٣)
أشعرُ العرب حيث يقول :

يُفْشَوْنَ حَتَّى مَاتَهُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
قالوا : هذا لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ، فَقُلْ غَيْرَ مَا أَنْتَ فِيهِ ؛ فقال :

الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سَلَبُهُ إِذَا آرَتْ فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ
زَلْتُ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ بَرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ^(٤)

قالوا : هذا مِثْلُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ ؛ فقال :

قَدْ كُنْتُ أَحْيَاناً شَدِيدَ الْمُعْتَمَدِ وَكُنْتُ ذَا غَرْبٍ^(٥) عَلَى النَّحْصِ أَلَدَ

(١) هو ضَابِي بن الحارثي البرجي الشاعر من بني تميم

(٢) من معلقة ، ومغار الفتل : محكمه ، وهو اسم مفعول من أغار الحبل

إغارة : شد قتله ، ويذبل : جبل

(٣) هو حسان بن ثابت الأنصاري شاعر سيدنا رسول الله وقد تقدم شرح هذا البيت

(٤) الفاء هنا للاستئناف ، والمعنى : فإذا هو يعجمه ولا يصح نصبه عطفاً على

قوله « يعربه »

(٥) الغرب : الحد ومنه غرب السيف : حده

لأَحَدِ الْأُمِّ مِنْ حُطْيَةٍ هَاجَا يَدَيْهِ وَهَاجَا الْمَرْيَةَ
 * مِنْ لُؤْمِهِ مَاتَ عَلَى فُرْيَةٍ *

« المريه : تصغير مَرَّة - امرأة - يريد : زوجته ، والفريه يريد الفراء
 أى الحمار ،

نهيهم عن الإفراط في البكاء وإظهار الجزع

دخلت أعرابية الحضَرَ فسمعت بُكَاءً مِنْ دَارِ فَمَالَتْ : مَا هَذَا ! أَرَاهِمُ مِنْ
 رَبِّهِمْ يَسْتَغِيثُونَ ، وَمِنْ اسْتِرْجَاعِهِ يَتَضَجُّرُونَ ، وَمِنْ جَزِيلِ ثَوَابِهِ يَتَبَرَّهُونَ ...
 وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْبَلْخِي . مَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَأَكْثَرَ الْغَمَّ جَعَلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ
 غَمًّا مِثْلَهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بَغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا ... الْآيَةُ ...
 وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ : لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْحُدُودَ ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ...
 « ودعا بدعوى الجاهلية : أى من نحو قولهم : وَالْأَبْتَاهُ ، وَالْأُمَّاهُ ، وَالْوَلْدَاهُ ،
 وَامْصِيتَاهُ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ ضُرُوبِ النِّيَاحَةِ وَالنَّدْبَةِ ... ، أَمَّا الْبُكَاءُ وَالْجَزَعُ
 دُونَ إِفْرَاطٍ فَرُخِّصَ فِيهِ ، حَدَّثَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ : دَخَلْنَا عَلَى أَبِي سَيِّفٍ
 الْقَيْنِ ^(١) - وَكَانَ ظَنُرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٢) ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمَ
 يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، فَجَمَلَتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ تَذْرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ

(١) هو البراء بن أوس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مرضع لإبراهيم بن سيدنا
 رسول الله . والتقين : الحداد

(٢) الظنر : المرضع وأطلق عليه ذلك لأنه كان زوج المرضعة

✽ فَوَرَدَتْ نَفْسِي وَمَا كَادَتْ تَرِدُ ^(١) ✽

قالوا : يَا أَبَا مُلَيْكَةَ ، أَلَيْكَ حَاجَةٌ ؟ قال : لا والله ، ولكن أجزع على المديح الجيّد يُمدّح به من ليس له أهلاً . قالوا : فَمِنْ أَشْعَرِ النَّاسِ ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ وَقَالَ : هَذَا الْجَحِيرُ إِذَا طَمِعَ فِي خَيْرٍ (بَعْنَى قَهْ) وَأَسْتَعْبَرَ بِمَا كَيَا ؛ فَقَالُوا لَهُ : قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ فَقَالَ :

قَالَتْ وَفِيهَا حَيِّدَةٌ وَذُعُرٌ عَوِذُ رَبِّي مِنْكُمْ وَحَجَرٌ ^(٢)

فَقَالُوا لَهُ : مَا تَقُولُ فِي عَيْدِكَ وَإِمَائِكَ ؟ فَقَالَ : هُمْ عَيْدٌ قَنْ مَاعَاقِبَ اللَّيْلِ النَّهَارَ ؛ قالوا : فَأَوْصِ لِلْفُقَرَاءِ بِشَيْءٍ ، قَالَ : أَوْصِيهِمْ بِالْإِلْحَاحِ فِي الْمَسْئَلَةِ فَإِنَّهَا تَجَارَةٌ لَا تَبُورُ ، وَأَنْتَ الْمَسْئُولُ أَضِيقُ ^(٣) . قالوا : فما تقول في مالك ؟ قال : للأُنثَى من ولدي مثل حظ الذكر . قالوا ليس هكذا قضى الله جلّ وعزّ لهنّ ، قال : لكنّي هكذا قَضَيْتُ . قالوا فما تَوْصِي لِإِيْتَامِي ؟ قال : كُلُوا أَمْوَالَهُمْ وَانْكَحُوا أُمَّهَاتِهِمْ ؛ قالوا : فهل شيء تَعْهَدُ فِيهِ غَيْرُ هَذَا ؟ قال : نعم ، تَحْمِلُونِي عَلَى أَتَانٍ وَتَتْرَكُونَنِي رَاكِبَهَا حَتَّى أَمُوتَ ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَمُوتُ عَلَى فَرَاشِهِ ، وَالْأَتَانُ مَرَكَبٌ لَمْ يَمُتْ عَلَيْهِ كَرِيمٌ قَطُّ ؛ فَعَمِلُوهُ عَلَى أَتَانٍ وَجَعَلُوا يَذْهَبُونَ بِهِ وَيَجِئُونَ عَلَيْهَا حَتَّى مَاتَ وَهُوَ يَقُولُ :

(١) وردت : أشرفت ، يقال : ورد فلان بلد كذا إذا أشراف عليه وإن لم يدخله

ولعله يريد من الورود : الإشراف على الموت

(٢) حيدة : من حاد عن الشيء إذا صد عنه أو تغير خوفاً منه ، وحجر : أي دفع

ومنع ، والعرب تقول عند الأمر تنكره : حجراً له ، (بالضم) : أي دفعا

(٣) هذا كناية عن العجز ، يقال للرجل يستضعف : استك أضيّق من أن تفعل

كذا ، ويقال للجماعة أتم أضيّق أستاذها من أن تفعلوا كذا .

رضى الله عنه : وأنت يا رسول الله ! فقال : يا ابن عوف ، إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى - أى أتبع الدفعة الأولى بأخرى - وقال صلوات الله عليه : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى الله ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون ... « قوله صلوات الله عليه : ولا نقول إلا ما يرضى الله وفي رواية : ولا نقول ما يخطئ الرب : أى من النياحة والصراخ وما إلى ذلك مما يوجب سُخْطَ الله عز وجل ، وقيل لأعرابي : اصبر فالصبر أجر ، فقال : أعلَى الله أنجلد أو الله : للجزع أحب إليه ، لأن الجزع استكانة والصبر قساسة ... وقيل لفيلسوف : أخرج الحزن من قلبك فقال : لم يدخله يا ذنى فأخرجه يا ذنى ... وأقرطت امرأة في الجزع على آبنها ، فعوتبت في ذلك ، فقالت : إذا وقع حكم الضروريات لم يقع عليها حكم المكتسبات ، فأما جزعى فليس في الطاقة صرفه ، ولا في القدرة منعه ، ولي عذرك للضرورة ، فإن الله تعالى يقول : فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ...

في البكاء تخفيف من الحزن

قال ابن عباس رضي الله عنه : كنت إذا أصابني مصيبة وأنا شاب لا أبكى ، وكان يؤذيني ذلك ، حتى سمعت أعرابيا يندب :
لعلَّ انداد الدنع يُعقِب راحةً من الوجد أو يشفي شجى البلابل
فسأله لمن الشعر ؟ فقال : لذي الرمة ، فكنت إذا أصبت بكيت ،
فاسترحت

ضعف بذية الإنسان

سئل جالينوس عن الانسان فقال : سراج ضعيف ، وكيف يدوم ضوءه

بين أربع رياح ا » يعنى بالسراج : رُوحه ، وبالرياح الأربع : طبائعه^(١) ، وقال الشاعر لبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئه يحورُ رَمَاداً بعد إذ هو ساطعُ
كل شيء تغير من حال إلى حال فقد حارَ يحور حورا ، وقال أفلاطون :
إذا كانت الطينة فاسدةً والبنية ضعيفةً ، والطبائع مُتَنَافِيةً ، والعمرُ يسيراً ،
والمَينَةُ صادقةً ، فالثِقَةُ باطلة
استنكافهم من أن يموت المرء حتف أنفه

قال خالد بن الوليد : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدى
، موضعُ شبرٍ إلا وفيه طائنةٌ أو ضربةٌ أو رميةٌ ثم ها أنا ذا أموتُ على فراشى
حَتَفَ أنى ، فلا نامت أعينُ الجبناء . وقال الشنفرى :

(١) قال وهب بن منبه : قرأت في التوراة : أن الله عز وجل حين خلق آدم
ركب جسده من أربعة أشياء ، ثم جعلها وراثته في ولده ، تنمى في أجسادهم وينمون
عليها إلى يوم القيامة : رطب ، ويابس ، وسخن ، وبارد ، قال : وذلك أن الله سبحانه
وتعالى خلقه من تراب وماء ، وجعل فيه نفساً وروحاً ، فيبوسة كل جسد من قبل
التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح
ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع أخرى هي ملاك الجسد لا يقوم الجسد إلا بهن ،
ولا تقوم واحدة منهن إلا بالآخرى : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب
الحار ، والبلغم البارد ، ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض ، فجعل مسكن اليبوسة
في المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة في الدم ، ومسكن البرودة في البلغم ، ومسكن
الحرارة في المرة الصفراء ، فأبما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع وكانت كل
واحدة فيه وفقاً لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت بنيته . فإن زادت واحدة
منهن غلبت من قهرتهن ومالت بهن ، دخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر ما زادت
وإن كانت ناقصة عنهن . ملن بها وعلونها ودخلن عليها السقم من نواحيهن : لفلتها
عنهن حتى تضعف عن طاقتهن وتعجز عن مقاومتهم .

وَلَا تَقْبِرُونِي إِنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أُبَشِّرُ أُمَّ عَامِرٍ^(١)
وَقَالَ السَّمَوَالُ أَوْ غَيْرُهُ :

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ خَتَفَ أَنْفَهُ وَلَا طُلَّ مِنَّا - حَيْثُ كَانَ - قَتِيلٌ
تَسِيلُ عَلَى حَدِّ السِّیُوفِ نَفُوسُنَا وَلَيْسَ عَلَى غَيْرِ السِّیُوفِ تَسِيلُ
« طُلَّ : أَهْدَرْدُمُهُ ، وَقِيلَ : أَنْ لَا يُثَارَّ بِهِ وَتَقْبَلُ ، بِدَيْتِهِ وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ :
لَوْلَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا لَمَاتَ - إِذْ لَمْ يَمُتْ - مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ
وَقَالَ آخَرُ :

إِنَّ مَوْتَ الْفِرَاشِ ذُلٌّ وَعَارٌ وَهُوَ تَحْتَ السِّیُوفِ فَضْلٌ شَرِيفٌ
وَقَالَ : * وَأَتَعَبُ مَيِّتٍ مِنْ يَمُوتُ بِدَاءِ *

وَسَيَمِرُ عَلَيْكَ كَثِيرٌ مِنْ عَبَقْرِيَّاتِهِمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، فِي « بَابِ الشَّجَاعَةِ »

تم الجزء الأول

من الذخائر والعبقریات

(٢) أُمُّ عَامِرٍ وَأُمُّ عَمْرٍو : كُنْيَةُ الضَّبْعِ ، قَالَ الرَّاجِزُ :

يَا أُمَّ عَمْرٍو أُبَشِّرُ بِالْبُشْرَى مَوْتُ ذَرِيعٍ وَجَرَادٍ عَظْلَى
وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الضَّبْعَ مِنْ أَحْمَقِ الدَّرَابِ : لِأَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا صَيْدَهَا يَجْعَلُ الرَّجُلُ
إِلَى وَجَارِهَا فَيَسْدُ فَمَهُ بَعْدَ مَا نَدَخَلَهُ لثَلَا تَرَى الضَّوْءَ فَتَحْمِلُ الضَّبْعُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ لَهَا :
أُبَشِّرُ يَا أُمَّ عَامِرٍ بِجَرَادٍ عَظْلَى وَكَمْ رَجَالٌ قَتَلِي . فَتَذَلُّ لَهُ حَتَّى يَلْقَاهَا ثُمَّ يَجْرُهَا
وَيُخْرِجُهَا ، جَرَادٌ عَظْلَى : رَكِبَ بَعْضُهَا بَعْضًا كَثْرَةً ؛ وَأَصْلُ الْعِظَالِ : الْمَلَاظِمَةُ فِي
السَّفَادِ مِنَ الْكَلَابِ وَالسَّبَاعِ وَالْجَرَادِ ، وَقَوْلُهُمْ وَكَمْ رَجَالٌ قَتَلِي ، فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ
الضَّبْعَ إِذَا وَجَدَتْ قَتِيلًا فَدَانَتْ فَنَحْوَ غَرْمُولِهِ أَلْقَتْهُ عَلَى قَفَاهُ مِمَّ رَكَبَتْهُ قَالَ عَبَّاسُ بْنُ مَرْدَاسٍ :
وَلَوْ مَاتَ مِنْهُمْ مَنْ جَرَحْنَا لَصَبَحَتْ ضَبَاعٌ بِأَعْلَى الرَّمْتَيْنِ عَرَائِيسًا

فهرس

الجزء الأول من الذخائر والعقريات

المقدمة

الكتاب الأول

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا

الباب الأول في البر والتقوى

البر وألوانه

معنى البر - عبقریاتهم في البر مطلقا - من صفحة ٢ - ١٤

بر الوالدين وصلة الرحم وعبقریاتهم في الآباء والأبناء

والأقارب - من بابات شتى

- بر الوالدين ١٤ - ١٨ - من أخبا البررة ١٨ - العقوق وأحوال
العققة ١٨ - من أقوالهم في الأولاد المتخلفين ٢٥ - حق الولد على الوالد ٢٥ -
احتجاج بعض العققة لعقوقهم ٢٦ - ذم الولد وقلة جدواه ٢٩ - الإشفاق
على الأولاد ٣٠ - صلة الرحم ٣٦ - معاملة الخلفاء الراشدين لذوى قرباهم
في التولية ٣٧ - حث الأقارب على التعاون ٣٨ - العطف على القريب
والحيطة ٤٢ - الشكوى من الأقارب ٤٣ - مظاهرة الاجنبى على القريب ٤٦ -
علاج العداء الذى بين الأقارب ٤٧ - كلامهم في الإخوة ٤٧ و ٤٨ - قطيعة
الإخوة ٤٩ - الناس تجاه البنات ٤٩ - ٥٢ - الحال والختولة ٥٢ -
مدعو القرابة البعيدة ٥٤ - تفاخرهم بالحسب وكرم المحتد ٥٥ - من يشبه أباه
في علاه ابتناه ٥٦ - لا اعتداد بمن شرف أصله إذالم يشرف بنفسه ٥٧ - اعتذار
المتخلفين الانذال عن تخلفهم عن آبائهم الاشراف ٥٨ - ذم من قصر عن
آبائه ٥٨ - من لا يعتد بأبيه ٥٩ - الابن يجارى أباه ٥٩ - الاسلام يعد
الشرف والحسب بالتقى ٦٠ - الدعوة - أى ادعاء الولد الدعوى غير أبيه ٦٠ -
الولد ينسل من الأقارب فيخرج ضاويا ضعيفا ٦٢ - الرضاة ٦٣

الإحسان

وعبقرياتهم في الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف

وذم البخل والسؤال

تحفى الاسلام بالإحسان ٦٤ - الناس مجبولون على البخل ٦٥ - مدح الجود
وذم البخل ٦٨ - طرفة لجندى مع معن بن زائدة ٧٦ - حثهم على الجود حتى
في حالة العسر ٧٨ - واجبات ذوى الجاه ٨١ - عبقرية أحمد بن أبي دواد في
اصطناع المعروف ٨٥ - رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود ٩٥ - كلمة علوية
لسيدنا رسول الله في الحث على الإحسان ١٠٦ - هيات أن أبيت مبطاناً: لسيدنا
على ١٠٩ - كان الخلفاء الراشدون مثلاً علياً في الرغبة عن شهوات الحياة
الدنيا ١١٠ - عظمة الفاروق في زهده وتقواه ١١٢ - عبقرياتهم في الجود من
بابات شتى ١١٣ - قرى الأضياف ١١٨ - وصية بخيل لابنه ١٢٤ - بخيل
يبيع القرى ١٢٨ - عبقرياتهم في قرى الأضياف ١٢٩ - محادثة الضيف
والحديث على الطعام ١٣٢

السؤال وعبقرياتهم فيه من جميع نواحيه

ذم السؤال ١٣٥ - عبقرياتهم في آداب السؤال واستدجاج الحوائج ١٣٩ - المسئول
تجاه السائل ١٤٥ - طلب الكثير والرضا بالقليل ١٤٨ - من يسأل حاجة
يزعمها صغيرة ١٤٨ - الحث على الصبر والناة في طلب الحاجات ١٤٨ -
العطية لا تجدى في غير وقتها ١٤٩ - التأسف على الحرمان ١٥٠ - تعريضهم بمن
خييم ١٥٠ - الهدايا والرشى مدرجة للنجاح ١٥٠ - قطع العادة ١٥١ -
شكرى العافين من تفضيل بعضهم على بعض ١٥٢ - بلاغة المكدين ١٥٢ -

حسن الخلق

حسن الخلق ١٥٤ - نهيهم عن سوء الخلق ١٥٧ - صعوبة تغيير الطباع ١٥٨ -
مدارة الناس ١٥٩

التقوى

- التقوى ١٦١ - معنى التقوى ١٦٢ - الحكمة ١٦٥ - عبقرياتهم
 في التقوى ١٧٠ - كليمه في التوكل ١٧١ - التقوى مع الجهل ١٧٧ -
 التماوت والإفراط في الخشوع ١٧٧ - قلة اليقين في الناس ١٧٨ - إصلاح
 الضمير ١٨٠ - احتمال المكاره في العاجل رجاء المسار في الآجل ١٨١ -
 مراعاة الدين والدنيا معاً ١٨٢ - الجمع بين الرجاء والخوف ١٨٣ - العبادة
 لاطلباً للثواب ولا خوفاً من العقاب ١٨٤ - الرياء ١٨٦ - التوبة ١٨٨ -
 الاستغفار ١٩٢ - عبقریات شتی فی الخوف والتقوى ١٩٣

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

- معنى الشكر ١٩٨ - حثهم على الشكر ٢٠١ - العجز عن الشكر ٢٠٤ -
 من لا تخفى أياديه ٢٠٦ - الشكر بقدر الاستحقاق ٢٠٦ - من لم يردعه خوفه
 عن الشكر ٢٠٧ - شكر من هم بإحسان ولم يفعل ٢٠٨ - نقل الشكر
 والحمد ٢٠٨ - تفضيلهم الثناء على العطاء ٢٠٨ - تسهيل القول على الشاكرين
 بتوافر ما يشكر عليه ٢١٠ - حب المنعم أن يرى أثر إنعامه ٢١١ - لا يمدحون
 إلا إذا أعطوا ٢١٣ - حثهم على الشكر ولو لمن ليس على دينهم ٢١٥ -
 استحياؤهم من المدح ٢١٥ - من يمدح نفسه ٢١٦ - نهيم عن المدح قبل
 الاختبار ٢١٧ - عبقریات شتی فی الشكر ٢١٧

الباب الثالث

في الصبر وعبقرياتهم فيه وفي الدنيا وفي المرض وفي هاذم اللذات

- ماذا يراد بالصبر في هذا الباب ٢٢١ - عبقرياتهم في الصبر ٢٢٢ - عود
 إلى أسباب الحزن ٢٢٩ - حثهم على الاستعداد للصائب كي نخف وطأنا ٢٣٠ -
 الغم يورث السقم والحرم ٢٣١ - الحزن يبلى بتقادم العهد ٢٣٢ - التأسي بمن

مصابه كصاحب المصائب وعكس ذلك ٢٣٤ - عروة بن الزبير مثل أعلى للصبر ٢٣٥
 مطرح المصوم ٢٣٨ - عبقریاتهم في الدنيا وأنها دار محن ٢٤٥ - أسماء
 الدنيا ٢٤٦ - قلة لبث الإنسان في الدنيا ٢٤٨ - قلة متاع الدنيا ٢٤٨ - الماضي
 والحاضر والمستقبل ٢٤٩ - تحذيرهم من تضييع الأيام ٢٤٩ - الأيام تهدم
 الحياة ٢٥٠ - البقاء في الدنيا سبب الفناء ٢٥١ - فرح الدنيا مشوب بالترح ٢٥٣
 الدنيا هموم وغموم ٢٥٣ - نقصان بعد التمام ٢٥٥ - الدنيا لا يدوم فيها فرح
 ولا ترح ٢٥٦ - الدنيا غزارة ٢٥٧ - حب الدنيا على الرغم من عيوبها ٢٥٨ -
 الدنيا تضر محبيها ٢٥٨ - بنو الدنيا أغراض لضروب المحن ٢٥٩ - الأيام تضي
 في تراذلها ٢٦٥ - حدهم ماضى الزمان وذمتهم حاضره ٢٦٥ - إنكار ذم
 الدهر ٢٦٣ - المسرة من حيث تخشى المضرة ٢٦٤ - الفرج بعد الشدة ٢٦٦
 - من زال كربه فبنى صنع الله ٢٦٦ - لا تعرف النعمة إلا عند
 فقدما ٢٦٧ - فضل العافية وسلامة الدين ٢٦٧ - عبقریات شتى في
 الدنيا ٢٦٨ - عبقریاتهم في الموت ٢٧٣ - أسماء الموت ووصفه ٢٧٣ - تعظيم أمر
 الموت ٢٧٦ - حثهم على تصور الموت ٢٧٧ - استدلال الإنسان على موته
 بمن مات قبله ٢٧٨ - الاعتبار بمن مات من الكبار ٢٨٠ - من مات فقد تنهى
 في البعد ٢٨٤ - غفلة الناس عن الموت ٢٨٥ - لا ينجو من الموت أحد ٢٨٥ -
 الموت لا يتحرز منه بشئ ٢٨٧ - موت الفجأة والصحيح يموت ٢٩١ - كل
 إنسان معرض لموته أو موت أحبته ٢٩١ - جهل الإنسان بوقت موته ٢٩٢
 الموت يسوق بين الأفاضل والأراذل ٢٩٢ - انقضاء ناس بعد ناس ورجوعهم
 إلى الموت ٢٩٤ - من يخاف الموت ولا يستعد له ٢٩٦ - من أمر ذويه بالبكاء
 عليه ٢٩٧ - من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه ٢٩٨ - من امتنع من
 التوبة عند موته ٢٩٩ - من يحبون الموت ٣٠٠ - تمنى الموت ٣٠١ - الحياة
 لا تمل ٣٠٢ - تسلى الناس عن مات ٣٠٣ - سهم المنايا بالذخائر مولع ٣٠٤
 إنكارهم النشأة في الموت ٣٠٥ - لا عار بالموت ٣٠٧ - الموت نهاية كل
 حى ٣٠٧ - وصية الميت ٣٠٩ - إنكارهم وصية الميت بما ليس له ٣٠٩ -
 من أوصى بشروكان قاسياً حين احتضاره ٣١٢ - نهيمهم عن الإفراط في البكاء
 وإظهار الجزع على الاموات ٣١٤ - ضعف بنية الإنسان ٣١٥ - استكفانهم
 من أن يموت المرء حتف أنفه ٣١٥

تصحیحات واستدراكات

نرجو القارئ الكريم أن يبادر إلى تصحيح هذه الأخطاء

المطبعية التي نلبه إليها هنا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢٠	٤	فأما	فأها
٢٣	٣	إلا قول خالد لأبي ذؤيب « أنظر الأغاني فقد جاء فيها	
		«ج ٦ ص ٢٧٥» أن البيت لأبي ذؤيب وهناك بقية	
		الآيات وهي قصيدة جميلة	
١	٣٣	مع الوضم	على الوضم
٥	٤٢	فرّعت	فرّعت
٤٩٣	٤٣	وقوله ولم تك منهم الخ	وقوله لست منهم يروى
		« إذا كنت في قوم عدى ولم تك منهم »	
٥	٤٣	فأما قوم عدى	فأما قوم عدى بمعنى أعداء
٦	٦٠	في الغبار	من الغبار
١١	٧٠	وقال آخر	وقال بشار بن برد
١٢	٧٠	وتهلل	وتفرق
٢	٧١	يَنسُ	يَنسِ
١٢	٧٤	مع غير	مع غير
١٤	٧٨	بعض الشعراء	عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
١٥	٧٨	وأنفق إذا أنفقت	وأنفق إذا أيسرت غير مُقْتَر

سطر	صفحة	خطاً	صواب
	٧٨	» سقط في هذه الصفحة شرح لقول الشاعر سطر ١٦ :	
		على ما خيلت ، وهذا هو الشرح : على ما خيلت : أى	
		شبهت ولونت ، يريد : على أى حال ،	
٦	٨٤	والجود	والجود
١٥	١١٩	تهدده	تُهدد
		» أى تصوت كما يهدد البعير ويهدر ،	
٢١	١٤٧	عذرتها	عذرت
٧	١٥٩	صقيل	صَيْقِلُ
٥	١٩٥	بِخْوَيْصَةٍ	بِخْوَيْصَةٍ » ويوضع بعد كلمة تصغير
		خاصة في الشرح هذه الزيادة :	
		قال الزمخشري : الخويصة	
		تصغير خاعة بسكون الياء	
		لأن ياء التصغير لا تكون إلا	
		ساكنة وجوز التقاء الساكنين	
		فيها أن الأول حرف لين	
		والثاني مدغم ،	
١٥	١٩٦	وكل شيء	وكل شيء
١٩	٢٠٢	ما أوليتها	ما أوليتها
٢٠	٢٠٠	قول البحترى قول إبراهيم بن العباس الثمولى	
١٩	٢٠٤	مُنْكَشِفًا	مُنْكَشِفًا

سطر	صفحة	خطاً	صواب
٢	٢٢١	وفي هادم اللذات	وفي هادم اللذات وفي المرض
٢٠	٢٢٢	ونضوا	ونضوا ونضوا
١٣	٢٢٩	مُسْتَهْدَف	مُسْتَهْدَف
١٨	٢٥٥	والضيف مُرْتَحِل	والضيف مُرْتَحِل
١٩	٢٥٥	ثم ترُدّه	ثم ترُدّه
٦	٢٧٠	أقول لعله	أقول لعله قوله نراع... أبيت لعله
٢	٢٨٣	لَا يَلْبَثُ الْقُرْنَاءُ	لَا يَلْبَثُ الْقُرْنَاءُ
١٣	٢٨٨	ويروى تخوّنه	ويروى: تخوّفه
١٥	٣٠١	خباءك	خباءك